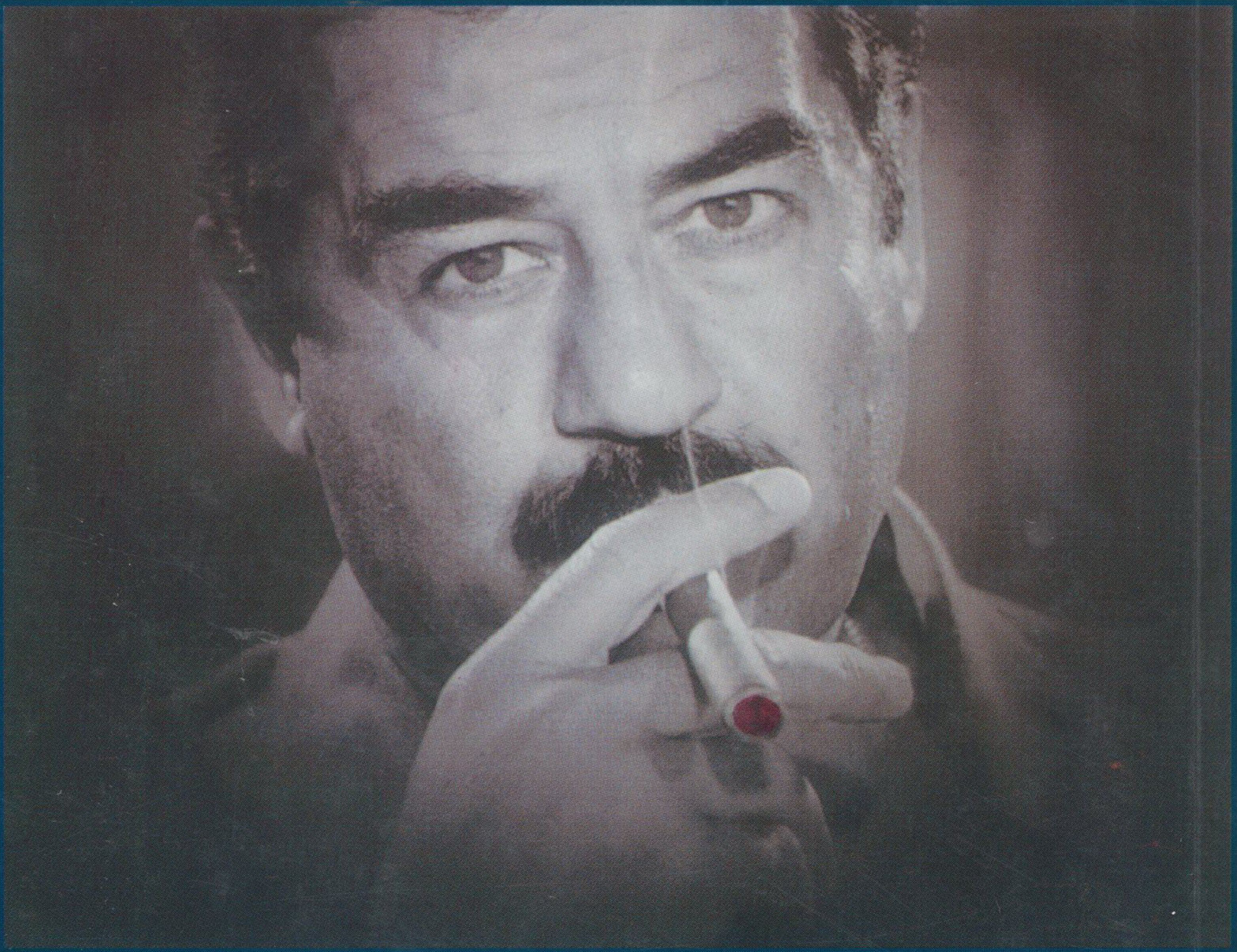
الطبعة الثالثة

مهدي حيدر

عالَم صدّام حسين

رواية



تستحق وبجدارة أن تنضم إلى الأعمال الروائية الكبرى في تاريخ الإنسانية. (محمود الورداني، أخبار الأدب)

منشورات الجمل

مهدي حيدر

عالم صدام حسين

رواية

منشورات الجمل

مهدي حيدر: عالم صدام حسين

مهدي حيدر: عالَم صدّام حسين، رواية

كولونيا ـ ألمانيا، الطبعة الأولى، الطبعة الثانية، الطبعة الثالثة ٢٠٠٣

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

توزيع: **المركز الثقافي العربي**
ص.ب: ٥١٥٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

هذه الرواية ليست نصاً تاريخياً، بل هي عمل من نسج الخيال، يستغل الواقع لبناء عالم خيالي موازٍ للعالم الواقعي، يتطابق معه أحياناً ويختلف في أحيان أخرى، فتعطى شخصيات معروفة مصائر مختلفة عن الواقع التاريخي بحسب ما تقتضيه الحاجة الفنية. كما يحوي هذا الكتاب اقتباسات عربية وأجنبية من أعمال أدباء ومؤرخين وصحافيين وسياسيين وشعراء.

م.ح.

بدأ الهجوم عند الثانية فجراً بتوقيت بغداد يوم الخميس ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٩١. كان صدام حسين نائماً ببذلة كاكية مثقلة بالنياشين، وبحذاءٍ عسكري، مع مسدس في حزامٍ جلدٍ يزنر وسطه، وراء مكتبٍ ضخم من خشب السنديان، في مقرٍ محصن تحت مدرجات ملعب كرة قدم يبعد خمسة كيلومترات عن المجمع الرئاسي حيث أقام ١٢ سنة محاطاً بحرسه الجمهوري منذ أعلن الرئيس أحمد حسن البكر في ١٦ تموز (يوليو) ١٩٧٩ على التلفزيون، وأمام الأمة جمعاء، اعتزاله وتنحيه عن كل مناصبه لأسبابٍ صحية.

الانفجارات الأولى أيقظت سكان بغداد. وأطلقت صرخات في الأحياء السكنية وهتافات تكبير مذعورة، مع أبواق سيارات متقطعة ثم متصلة، في ذلك الليل الفظيع. لكنها لم توقظ الرئيس النائم في ملجأ نووي تحت الأرض. وابل صواريخ تزن أطناناً تساقط على قصور صدام الرئاسية في أنحاء البلاد. صواريخ كروز «توماهوك» الموجهة من بُعد قذفتها الفرقاطة الأميركية «ميدوري» الراسية في مياه الخليج، فسقطت على الجانب الشرقي من القصر الجمهوري القديم وأحالته ركاماً. الموجة الأولى من الغارات الجوية دمرت مولدات الكهرباء، وهدمت مجمعاً كاملاً تابعاً لوزارة الدفاع: الصحافيون الذين هرعوا قافزين السلالم إلى سطح فندق الرشيد مع آلات تصوير ومصابيح

وأجهزة اتصال معطلة بسبب موجات التشويش، شاهدوا بناء في الجهة البعيدة يسقط مائلاً مثل برج ويستقر في سرير دجلة. في الظلام امتزجت أصوات الانفجارات بهدير الطائرات وبلعلعة ثاقبة مصدرها المضادات الأرضية. خلال لحظات تحول الفضاء إلى جهنم حمراء ـ صفراء بأضواء بارقة وأسهم نارية. الموجة الثانية من الغارات زرعت في أنحاء المدينة عدداً لا يحصى من الحرائق. كل شيء بدا خيالياً. أحسّ الواقفون على سطح فندق الرشيد أنهم يعيشون معاً مناماً واحداً غريباً. من مكانٍ قريب تصاعدت رائحة شواء: مخزن طيور الدجاج، عند الزاوية، كان يشتعل. شعلة اللهب بلغت السماء.

الرئيس صدام حسين رئيس الوزراء، رئيس مجلس قيادة الثورة، أمين عام القيادة القطرية لحزب البعث والقائد الأعلى للقوات المسلحة منذ ١٩٧٩، أحسّ بارتجاج المكتب تحت ذراعه ورأسه. أراد أن يفتح عينيه (سمع أيضاً قرعاً على الباب) لكنه كان يعيش مرة أخرى (ومن دون أن ينجح في الخروج من ذلك الفخ) زمناً قديماً: ذلك الزمن البعيد الذي سبق خروجه الثاني من بيت أمه في قرية شويش إلى بيت خاله خير اللّه في تكريت.

في ذلك الزمن البعيد، حين أعادوه من تكريت إلى بيت أمه صبحة في قرية شويش، بعد أن زجّ الإنكليز خاله في السجن، لم يكن صدام بلغ الخامسة بعد. طوال شهور اعتاد أن يسأل أمه عن خاله خير اللّه: «أين هو؟» طوال شهور ظل جوابها واحداً: «في السجن».

أبناء القرية كانوا يطاردون صدام في الأزقة ويرمونه بالحجارة. كان بلا أب. خلال غيابه في تكريت اقترنت أمه الأرملة بعمه حسن إبراهيم. برجوعه إلى القرية وجد صدام نفسه هدفاً لضربات هذا العم الغريب. اكتشف أن الناس ينادون عمه «حسن الكذاب». حين سأله عن السبب، ذاق طعم عصا ملبسة بالزفت الصلب للمرة الأولى في حياته.

عمه حسن إبراهيم، الفلاح الفقير الذي لا يملك أرضاً، كان يجرع خمرة التمر ويتسلى بضربه. بعد سنوات طويلة، أثناء دراسة الحقوق في جامعة القاهرة، تذكر صدام حسين تلك السرقات الصغيرة التي أمره عمه بتنفيذها. أن يسرق تمراً أو تبغاً من أجل «حسن الكذاب» وأن يفرّ راكضاً بين الغنم إلى أطلال الحجر عند طرف القرية، تلك الأطلال التي تُذكره بالقلعة الباقية على الهضبة المطلّة على تكريت. كان يرى القلعة من نافذة بيت خاله خير اللّه طلفاح المجاور للمسالخ. من النافذة ذاتها كان يتفرج على صُناع الأطواف المنفوخة يخيطون جلود الحيوانات المسلوخة بأبر ساخنة ويبردون أصابعهم في حوض الماء. في شويش، عاش من ١٩٤١ وحتى خروجه الثاني إلى تكريت، خمس سنوات وشمت روحه ببصمة لا تزول.

يفرّ من عصا عمه الملبسة بالزفت إلى الأزقة فيصطدم بالأولاد هناك. عثر وراء مخزن مهجور على قضيب حديد فخبأه في ثوبه. ثم خاف أن يعثر عمه على القضيب فرماه في بورة وراء حظيرة مثقوبة السقف، أمامها بئر جافة اعتاد أن يرى قربها جلود ثعابين شققتها الشمس. كل شيء في هذه القرية بدا قديماً ومهجوراً. في حقول الشوك كان يجلس وحده ويلاعب العقارب بعود خيزران طويل. راقب العقارب تتقاتل. رأى صفوف نمل تنقل عقرباً ميتاً إلى ثقب في التراب، ثم تقطعه قطعاً صغيرة، وتحمله إلى أعماق الأرض. كان يفصل بين العقارب بطرف العود ويتأمل رجوعها إلى العراك. طرطقة عظام صغيرة. صوت كأنه صوت السم في قلب العظام. تحت شمس الصيف الحارقة رأى جثة بقرة منتفخة والجوارح تمزقها بمناقير معقوفة. كان يمشي في حقول الشوك ساعات. رأى ثعباناً يلتهم طيراً أحمر الريش. هبّ هواء ساخن ورأى بيت أمه يلوح من بعيد، قرب الأشجار اليابسة السوداء. بينما يبتعد عن حقول الشوك اليابسة كان ينتابه الإحساس أنه ترك قطعاً من جسمه وراء ظهره. يكره هذا الكوخ المبني

من قش ووحل وخشب، يظل يمشي إليه، لا يجد مكاناً آخر يمشي إليه، كلما تعب من شروده في الحقول اليابسة، كلما اقترب الظلام وتعالى عواء الحيوانات. هذا الكوخ... كوخ بلا نوافذ، رائحته تبن ووحل، في الليل يتحول قبراً.

مراسلة الـ ABC دَيان سوير سألت صدام حسين في ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٩٠ أن يصف لها قرية طفولته في العراق القديم، العراق قبل منتصف القرن العشرين. أخبرها أن الحياة كانت صعبة آنذاك. في تكريت البعيدة ١٥٠ كيلومتراً إلى شمال بغداد، كما في جميع الأماكن الأخرى، كانت قلة من الناس تملك أحذية ونعالاً. وفي معظم الأحيان ينتعلونها في المناسبات المهمة فقط. لم يكن غريباً أن يقطع فلاحٌ أودية وجبالاً من قرية إلى أخرى حافياً وحاملاً صباطه في يده، وحين يبلغ القرية التي يقصدها ينتعل الحذاء في مدخلها لكي يبدو مهماً.

طوال سنة ظل يتلقى جَلْداً مبرحاً من فتى يكبره بأعوام. كان الفتى المعتم الوجه ينتظره في الظلام قرب بيت أمه. يكون صدام عائداً من شروده النهاري في الحقول والبرية، والليل يهبط، حين يظهر له ذلك الشبح من وراء شجرة أو جدار متداعٍ. يقفز الشبح صارخاً، فوق رأسه سلك حديد يقص الفضاء. يركض صدام هارباً والسلك يسقط كنارٍ صلبة على ساقيه وخصره وعنقه. لم يخبر أحداً. حين قسا جسمه قليلاً، انتظر ليلة كاملة الظلمة كثيفة الغيوم، وأخرج قضيب الحديد القديم من البورة قرب الحظيرة المهدمة. رجع إلى الكوخ من الجهة الأخرى. تسلل من وراء أشجار مكسورة وحيطان قصيرة. رأى ذلك الشبح الذي يكبره بحفنة أعوام، طويلاً عريضاً كمارد، يلتصق بشجرة تين. ارتجفت ذراعه. القضيب كان ثقيلاً في يده. الشبح كان يدندن ونظراته معلقة بالتلال وحقول الشوك. اقترب صدام بلا صوت. رفع القضيب وأهوى بها. الضربة الأولى أصابت الظهر والكتف. سقط

الفتى أرضاً. استمر يضربه بالقضيب الحديد حتى احترقت يده واكتوى جلد أصابعه. صراخ الفتى امتزج بعواء الذئاب والضباع في البريّة. بعد ذلك توقف الأولاد عن مطاردة صدام.

في ذلك الزمن البعيد كانت الحياة صعبة. ثلاثة أطفال من كل عشرة كانوا يقضون في السنة الأولى من حياتهم. أمراض لا تحصى. ملاريا وسلّ وتراخوما وسوء تغذية وجدري وتيفوئيد وطاعون. ولا يبقى إلاّ الأقوى. قبل أن يهندس «اتفاقية الجزائر» في ١٩٧٥، ويتخلى عن نصف «شط العرب» لشاه إيران، كان الأكراد في الشمال يؤرقون سلطة صدام حسين الخفية بثورات مسلحة. كان يعلم أن مصطفى البارزاني لن يقبل بأقل من دولة مستقلة للأكراد في شمال العراق عاصمتها كركوك الغنية بحقول النفط. بالسلاح الإيراني والسوفياتي، وبالخطوط التي يحاول مدّها مع الأميركيين، بدا البارزاني عدواً عنيداً. في تلك الأيام، بينما أمطار غزيرة تهطل على البلاد، ومستوى الماء يرتفع في دجلة والفرات، غادر صدام حسين العاصمة في رحلة برية إلى الشمال.

كان يميل عن ركوب الطوافات في رحلاته الداخلية، لأن الطوافات في هذا الوطن الذي يعجّ بأصحاب الطموح الساعين إلى السلطة، تميل إلى التحطم على صخور كردستان، وإلى الضياع في عواصف الصحراء الرملية. في السيارة العسكرية، بينما حقول الشوك تعبر عن جانبي الطريق مسرعة في الاتجاه الآخر، لم يتذكر تلك البقعة البيضاء العتيقة، تلك البلاطة الصخرية المربعة وسط حقول الشوك في شويش. كانت السحالي تخرج من بين النبات، تتجمد على نتوءات الصخر، وتتشمس. تُسلم جلدها للشعاع الحارق، وحين لا تحسّ بوجوده، هو الجامد هناك أيضاً، كحيوان بريّ، تغمض عيونها وتتحول إلى عيدان محروقة. طبيعة الشوك تسربت إلى خلاياه: إلى لحمه وعظامه ودمه. لئلا تؤلمه عضّات الذئاب، عدوانية البشر، كان عليه أن

يربي جلد تمساح فوق جلده. يعلم أن مهمات أخرى صعبة تنتظره في أيام آتية: عليه الاستعداد. العالم يعجّ بالضواري.

خرج خاله خير اللّه طلفاح من السجن في ١٩٤٦ مطروداً من السلك العسكري. كان هذا عقاب كل من اختار الوقوف مع رئيس الوزراء ـ الألماني الهوى ـ رشيد علي الكيلاني، في نيسان (أبريل) ١٩٤١ : الكيلاني الذي شكّل حكومة قبل أسابيع بعد انقلاب عسكري، حاول بلا جدوى أن يتصدى للجيش الإنكليزي قرب مطارٍ خارج بغداد. بعد هزيمة الكيلاني أُودع كبار ضباطه السجن. وجد صدام حسين نفسه في شويش.

خرج خير اللّه طلفاح من السجن فجاء من تكريت إلى شويش مع ابنه عدنان لزيارة أخته صبحة. كان عدنان في السابعة، أصغر من ابن عمته النحيل المفلّع الجلد الداكن اللون، بثلاث سنوات، لكنه يعرِف أشياء لا يعرفها صدام حسين. كان عدنان يقرأ ويكتب. صدام الأُمّي الذي لا يعرف أن يفكّ حروف اسمه، نظر إلى ابن خاله يخطّ بالعود حروفاً على التراب وراء الكوخ، وعرف أنه طوال السنوات الماضية كان مرمياً في بئر مظلمة بلا قرار. تذكر البئر الجافة قرب الحظيرة المهدمة بالشوك النابت في حجارة فوهتها، وأحسّ بحروق في حنجرته وفي تجويفي عينيه. حين ابتعد عدنان إلى ظلّ شجرة التين، حاول صدام أن يقلّد رسم الحروف الباقية على التراب.

ذات يوم دخل على أمه ظُهراً والمياه تنقط من شعره وذراعيه. كانت رائحة الترعة تفوح من جلده. قال ناظراً إلى نقطة ثابتة فوق رأسها:

ـ أنا ذاهب إلى تكريت.

الأم لم تقل شيئاً. تابعت تقشير فصوص الثوم وإلقاء نظرات خاطفة على ابنها المنشغل في الزاوية بإعداد صرّة السفر. حين وقف

في الباب بصرّة من بطانية صوف ألقاها على ظهره، رأت نور الظهيرة الأبيض يرفع سراباً متموجاً من التراب. قالت:

ـ إذا ذهبت من دون إخباره يقتلك.

قال لها:

ـ مَنْ؟

قالت:

ـ عمك.

بصق صدام حسين الكلمات من فمه وذراعه ترتجف غيظاً:

ـ حسن الكذّاب!

تراجع جذع المرأة إلى خلف. ذُعرت من قوة الكراهية في الصوت الحاد الذي غدا فجأة صوتاً لا تعرفه. كان في الصوت برودة، خشونة غير بشرية تشبه سهاماً مسمومة تنغرز في مسامعها.

على الطريق المغبر في ذلك الصيف البعيد، أدرك أنه وحده في العالم. خاله قد يساعده، لكن عليه أن يتذكر ما فهمه جيداً جالساً في المربع الصخري وسط حقول الشوك: إنه وحده. ولن يكون الأمر مختلفاً أبداً.

في تكريت، حيث بنى التتري تيمورلنك هرم جماجم في عام ١٣٩٤، دخل صدام حسين ابن العاشرة، المدرسة الابتدائية.

تعلم الألف باء وحفظ الفاتحة. حين بلغوا منتصف «سورة البقرة»، اجتاحت المدينة تظاهرة تندد بقيام دولة إسرائيل. أجلسه خاله خير اللّه تحت النافذة المطلة على أطلال القلعة وأخبره عن صلاح الدين بطل حطين الذي خرج من هذه الديار وقهر الفرنجة في القدس سنة ١١٣٨. الشيخ يعلمه القرآن في الصف. وخاله الذي صار مدير المدرسة بعد أن طُرِد من الجيش، يعلمه التاريخ في البيت: بعد هزيمة

الأتراك في الحرب العالمية الأولى اتّفقت الدول الأوروبية على تقسيم البلاد العربية إلى دول وأقطار. السير بيرسي كوكس جاء بتنورة سكوتلندية من لندن إلى البصرة في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٠ ورسم الحدود بين العراق والكويت. الإنكليز زحفوا في ١٩١٦ شمالاً من البصرة بموازاة دجلة حتى بلغوا بغداد. خلال أسابيع بلغت جيوشهم كركوك. قبل أن تنتهي الحرب الكبرى احتلوا الموصل. نصبوا الملك فيصل الأول، ابن الشريف حسين الحجازي، ملكاً على العراق في ١٩٢١. الهاربون من سطوة ابن سعود الزاحف من نجد على الحجاز باتوا بدبابات الإنكليز ملوكاً على الأردن والعراق.

كان صدام يجلس مع ابن خاله عدنان، يستمع إلى دروس العسكري الذي صار أستاذاً، ويتأمل الخرائط التي يرسمها بالطبشور على اللوح الخشب. أمام عينيه، للمرة الأولى في حياته، رأى شكل البلاد التي يعيش فيها مرسوماً على الخشب. رأى دجلة ورأى الفرات يتدفقان جنوباً. الأول آتياً من تركيا، والثاني من سورية. يزحفان ويتقاربان والأرض تخضر بينهما، إلى أن يلتقيا في الجنوب. اسم البصرة رنّ في أذنه. خاله رسم حدود العراق، وكتب اسمي تركيا وسورية في الشمال، واسم السعودية في الغرب والجنوب، واسم إيران في الشرق. عدنان سأله أين الكويت؟ الخال ابتسم وسألهما لماذا لم يسألا عن الأردن أيضاً؟ كان ضوء الغروب يملأ الغرفة، وأصوات الباعة ترتفع من السوق. بينما تعالى أذان العشاء، رسم خير اللّه طلفاح بطبشورة عصبية خطاً حاداً في أقصى الجنوب، جنوب البصرة وشمال مياه الخليج، ثم رسم علامة الضرب × وقال: «هذه الكويت!».

طارت ذراعه في حركة مباغتة شمالاً نحو سورية، رسم خطاً آخر مكسوراً في زوايا قائمة بين سورية والعراق والسعودية، وقال:

ـ وهذا الأردن!

ثم رمى الطبشورة أرضاً وترك البيت. كان هذا درس صدام حسين الأول في الجغرافيا والتاريخ معاً. وسوف يتذكره كلما رأى خريطة عسكرية مطروحة على مكتبٍ في غرفة عمليات. وسوف يرى عدداً لا يُحصى من هذه الخرائط. ودائماً يتذكر ذلك اليوم البعيد في تكريت، وخاله يغادر البيت بخطى عسكرية منتظمة غاضبة، ومن الخارج يتناهى صدى الأذان ممتزجاً بهتافات تندّد بقيام دولة إسرائيل.

لكن تلك الأيام التي أعقبت نكبة ١٩٤٨ ارتبطت في ذاكرته أيضاً باكتشاف أحاسيس مربكة لم يعهدها فيه: أصابته الحصبة فاحمرت بشرته وغطّت وجهه حبوبٌ دقيقة. عزلوه عن عدنان وعن بقية الأولاد ومُنع من ارتياد المدرسة. كانت زوجة خاله ترسل إليه الطعام مع ابنتها ساجدة التي مرضت بالحصبة قبل أربع سنوات، أيام كان الأب خير اللّه يقضي نهاراته في السجن، يأكل خبز الشعير الأسود مغمساً في مرق عظمٍ وملحٍ، يقرأ كتاب سامي شوكت «هذه هي أهدافنا»، ويحفظ عن ظهرِ قلبٍ مقالة «فن الموت» المسطرة في ١٩٣٢: نموت تحت حوافر الجياد وتحت نعال الجنود الأجانب...

امرأة خاله تتذكر أن ساجدة وُلِدت قبيل انقلاب الجنرال الكردي بكر صدقي في ١٩٣٦: أول انقلاب عسكري في تاريخ العراق الحديث. وصل الجنرال إلى السلطة لكنه لم يخلع عن العرش الملك الشاب غازي ابن الملك فيصل الأول المتوفى في ١٩٣٣. كان الجنرال يحكم، والملك يتمدّد في القصر يقرأ روايات جاين أوستن وشارلز ديكنز، يأكل البودنغ ويشرب البراندي.

وُلدت ساجدة في ١٩٣٥ أو ١٩٣٦، لكنها كانت تبدو له أكبر من عمرها. لا يصدق صدام أنها تكبره بعامين فقط. بدينة وطويلة في آنٍ، على الأقل بالنسبة إليه، وتشبه نساء الحارة حين تفك شعرها وتميل عليه لتطعمه الشوربة بيدها. كان ضعيفاً، درجة حرارته تقارب

الأربعين، وفي الليل لا ينام. ينادي بصوت نحيل، يلفظ اسم الحسين. حين سمعته ساجدة مرة، قالت: «كيف تفعل مثل الشيعة وأنت سنيّ، تدعو للحسين أن يشفيك؟» أجابها إنه لا يفعل ذلك أبداً.

قالت:

ـ في الليل تفعل، تهذي وتدعو للحسين.

لم يخطر في بالها ولا في باله أنه يطلب رجلاً آخر. بعد سنوات طويلة، خلال فترة حالكة من الحرب العراقية ـ الإيرانية، بينما الجيش العراقي يندحر عن الحدود الجنوبية للبلاد أمام مدٍ إيراني كاسح مباغت، رأى في المنام شبحاً يقترب منه على بغلة بيضاء كغيوم الصيف.

كان الرجل يحمل مصباحاً مطفأ في يده. حين نزل عن البغلة مدّ يده ولمس جبهة صدام حسين. في المنام رأى الرئيس نفسه ولداً مصاباً بالحصبة، حافي القدمين، وحقول الشوك تحاصره. حين فتح عينيه كان المنام قد تبدد. لم يتذكر الرجل ولا الحصبة. لم يعرف عندئذٍ سرّ ليالي الحمى البعيدة تلك، في تكريت، بعد أيام من نكبة ١٩٤٨: كان في مرضه ينادي أباه حسين المجيد التكريتي الذي لم يعرفه قط.

دام مرضه أسابيع. كانت ساجدة ترعاه خلال النهار. وحين يعود عدنان من المدرسة يتحدثان جالسين عن جانبي الباب الموصد. بعد خمسة أيام من المرض فاحت رائحة فظيعة من جسمه. ساجدة رجعت إليه بعد أن أنهى طاسة الشوربة حاملة سطلاً وليفة وصابوناً. مانع لكنها عرّته من ثيابه وغسلته طويلاً. بين يديها أحسّ جسمه يذوب، بحرارة الحمى وحرارة الشمس على شبك النافذة وحرارة الليفة وحرارة الماء وحرارة الصابون وحرارة رؤوس أصابعها.

حين شفي أعدت امرأة خاله حلوى من الرز والسكر وحليب البقر وماء الزهر. جالساً مع ابن عمته عدنان عند النافذة، يتفرج على أسواق

جديدة تبنى عند سفح الهضبة، في ظلال قلعة تكريت، فكر صدام أنه خارجٌ من فم الموت، أنه عاد إلى الحياة من القبر لتوه.

جلس يأكل الحلوى مع ابن خاله. كان عدنان يحكي عن تظاهرات اجتاحت المدرسة، وعن جريمة وقعت في حيّ اليهود. ضحكا، والشمس تلمع على أحواض الماء في الأسفل، حيث الجلود تُغمس في السائل المعتكر وتغسل، بينما الذبائح تتدلى في الخلف، الدم ينقط من اللحم والعظم، ويتعرج سائلاً بين بلاطات الرصيف.

بعد أن أمر بقصف قرية حَلَبجة الكردية في شمال شرقي البلاد بالسلاح الكيماوي في آذار (مارس) ١٩٨٨، جلس الرئيس صدام حسين في مكتبه في القصر الرئاسي في بغداد، وتفرج على صورٍ فوتوغرافية نشرتها صحف العالم، منقولة عن التلفزيون الإيراني. كان يشرب القهوة الساخنة المرّة، التي اعتاد أن يشربها منذ رُمي في السجن للمرة الأولى في حياته عام ١٩٥٨، ويقلب الصحف بين يديه. نور الربيع العراقي الرملي الأصفر تدفق من النوافذ العالية المطلّة على نهر دجلة، وغمر صورة رجل ممدد على بطنه. كان رأسه ملقى على عتبة بيت قديم، بكوفية بيضاء لم تمنع غاز الخردل من التسرب إلى جهازه العصبي وتدميره. ذراعه اليسرى اختفت تحت جسمه. الذراع الأخرى احتضنت طفلاً ملفوفاً بقماط أبيض، وجهه مكشوف مصوب إلى أعلى، نحو سماء صفراء رمادية لا تُرى، بعكس وجه الرجل الناظر إلى أسفل، إلى الأرض تحت العتبة، وربما إلى وجه الطفل قبل أن يهمد ويلفظ الروح. كان الرجل يسعى إلى البيت، إلى الباب المشرع على باحة. الحائط تظهر فيه عروق بيضاء. على ثياب الرجل الكالحة قشور بيضاء. قلّب القائد الأعلى للقوات المسلحة الرئيس صدام حسين الصحف بين يديه ثم أبعدها إلى طرف المكتب. رفع رأسه. كان ضوء الشمس ينعكس على بلورات الثريا المتدلية من السقف ويرتمي متراقصاً في دوائر دقيقة على جدران الخشب الماهاغوني. باب البيت القديم

يشبه أبواب كل القرى في العالم، يشبه باب ذلك البيت الذي خرج منه قبل سنوات بعيدة، مبلل الشعر والثياب، في رحلته إلى تكريت. ترك المكتب ووقف إلى النافذة في ثيابه العسكرية الخضراء. يده على المسدس الثابت في بيت الجلد في الحزام. الحارس الواقف في الزاوية، قرب الباب الموصد، جامداً كالتمثال لا يتنفس، رأى الرئيس من الخلف، يخفض رأسه قليلاً كأنه يتأمل مركباً أو جذع شجرة يعبر النهر. ظلَّ واقفاً هكذا، بلا أي حركة، حتى قرع نائبه الأول طه ياسين رمضان الباب بعد ثلاث ساعات.

ظلّ صدام حسين في تكريت حتى عام ١٩٥٥. كان يذهب مع عدنان إلى الحي اليهودي. يراقب الناس يحزمون أغراضهم، ويتسلقون العربات مع الصناديق. بين ١٩٥١ و١٩٥٢ غادر معظم يهود العراق البلاد. من ١٣٠ ألف يهودي لم يبقَ أكثر من عشرة آلاف. رئيس الوزراء نوري السعيد شرَّع هجرتهم إلى إسرائيل بشرطين: الأول أن يتخلوا عن جنسيتهم العراقية. الثاني ألا يحمل الواحد منهم في خروجه من العراق أكثر من عشرين دولاراً أميركياً. خير اللّه طلفاح نظر إلى قافلة العربات المغادرة وتذكر حوادث ١٩٤١. قال لصدام وعدنان:

ـ كان علينا أن نقتلهم جميعاً آنذاك. لن أفهم أبداً لماذا خلق اللّه اليهود!

في ذلك العام اعترفت «القيادة القومية» لحزب البعث من مركزها في دمشق، بالقيادة القطرية للبعث العراقي. خير اللّه طلفاح بدأ يشرح عقائد الحزب في البيت: الحزب تأسس مطلع الأربعينات، قبل عشر سنوات، في دمشق، على يد أستاذين سوريين: ميشال عفلق الأرثوذكسي اليوناني، وصلاح الدين البيطار السنّي. الدين غير مهم، كلّنا عرب، وأمين عام قيادتنا القطرية الرفيق فؤاد الركابي شيعي. أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. عقائد الحزب بسيطة: وحدة، حرية،

اشتراكية. القيادة القومية تضمّ أعضاء من جميع الأقطار العربية. في سورية قيادة قطرية للبعث السوري. في العراق قيادة قطرية للبعث العراقي. وكل هذه القيادات القطرية تتلقى الأوامر والتوجيهات من القيادة الأم، القيادة القومية. المهم حفظ الشعار: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. وأن نعمل لتحقيق هذا الشعار. أن نبعث تاريخ الأمة المجيد.

في ١٩٥٥، بعد أن أنهى الابتدائية في تكريت، لحق صدام حسين ابن الـ ١٨عاماً خاله خير اللّه إلى صوب الكرخ في بغداد. بيت خير اللّه طلفاح الواقع عند طرف سوق الخضر كان آنذاك مركز تجمع للبعثيين. عدد أعضاء البعث العراقي لم يكن يتجاوز حينئذٍ ٣٠٠ منتسب. لكن دزينة من هؤلاء كانت كافية كي تحول البيت الصغير في ذلك الشتاء البارد البعيد، إلى فرنٍ من الحماس. في هذا البيت المحصور بين جامعٍ ومخزن تمور، توثقت علاقة الشاب صدام حسين بصديق خاله البعثي وقريبه العقيد التكريتي أحمد حسن البكر.

العقيد البكر كان يخرج في بعض الليالي إلى ضفة دجلة بعد نقاش يطول في ذلك البيت المكتظ دوماً بالرفاق المدنيين والعسكريين. إلى جانبه يمشي الشاب الذي يصغره بـ ٢٥سنة، صدام حسين، الآتي من تكريت أيضاً. كان العقيد البكر يتجنب الكلام الطويل في بيت خير اللّه طلفاح. ناظراً إلى دجلة يجري في ظلام الشتاء رفع ياقة معطفه حتى ذقنه، وقال خابطاً غليونه على فخذه:

ـ انتبهْ من العسكر دوماً.

صدام الصامت، تكلم عندئذٍ:

ـ أنا أيضاً أريد أن أكون عسكرياً.

أجابه العقيد البكر:

ـ هذا لا يمنع الحذر.

قال صدام:

ـ أعرف. لهذا تبقى ساكتاً حين يتكلمون.

حاول صدام الدخول إلى الكلية الحربية فلم ينجح. خاله خير اللّه طلفاح قال له:

ـ لو أن مولود مكلس ما زال حياً!

كان مولود ملكس مات قبل وقت قصير. هذا الرجل التكريتي فتح أبواب الأكاديمية العسكرية الملكية أمام أبناء منطقته طوال سنين. صدام سمع قصة حياته كاملة من العقيد البكر. حارب مكلس في «الثورة العربية» ضد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى، وعيّنه الملك فيصل الأول مستشاراً خاصاً بعد استقلال العراق ونائباً لرئاسة مجلس الشيوخ. قال العقيد البكر إن مكلس كان رجلاً تحتاج إليه الأمة الآن.

قاطعه صدام حسين:

ـ ألا تستطيع التدخل؟

أجابه العقيد البكر:

ـ عليك بإنهاء دراستك الثانوية أولاً. عندئذٍ...

لم يسمع صدام تتمة الجملة. ثانوية الكرخ لا تهمّه. ليست الدرب المفضي إلى القوة. لماذا ينتظر؟ ما يفعله الآن تافه، وشبيه بمرحلته الحيوانية في شويش. كان يسرق ويعمل أجيراً في الحقول، يأخذ الماشية إلى الترعة ويشرب الأمراض والجراثيم معها، بينما عدنان يدرس في تكريت. الآن ها هو يدرس في ثانوية الكرخ بينما رجال العراق غداً يتلقون تدريبهم في الكلية الحربية.

مرة أخرى حاول الدخول إلى الكلية. هذه المرة بمساعدة ضباط آخرين من معارف خاله القدامى. مرة أخرى أصيب بالفشل.

ماشياً في شوارع بغداد، في شتاء ١٩٥٥ المكفهر، سلّط نظرة

حديدية على جندي واقف عند تقاطع طرق قريب من وزارة الدفاع. اقترب الجندي منه بخطى واسعة ورفع بندقية ملقمة في وجهه:

ـ رأسك في الأرض يا كلب!

خفض صدام حسين رأسه. استدار بجسم مشدود مكهرب ومشى نحو الدكاكين في الجانب الآخر. الجندي أمره بالوقوف. لم يقف. ظل ماشياً. لم يكن يريد أن تنتهي حياته في تلك اللحظة. هناك أمور كثيرة تنتظره في أيام آتية. مرة أخرى هتف الجندي شاتماً يأمره بالوقوف مكانه. لم يتردد صدام لحظة. تابع السير. لم يكن خائفاً من الجندي. إذا توقف واستدار لن يموت. في الأغلب سوف يخنق الجندي بيديه. لم يحسّ يوماً أنه صاحب قوة جسمانية خارقة. لكن الغضب الذي فار في جسمه عندئذٍ بدا غير محدود. يخاف أن يقتل الجندي فيفتح عليه حراس الوزارة النار وتكون النهاية. للمرة الثالثة يصرخ الجندي به أن يقف. هذه المرة بلا شتائم. هذه المرة بصوت تخترقه بحّة. لن يصرخ مرة أخرى. خسر الجندي المعركة.

ضاع صدام حسين في زحمة السوق. أن يُمنع من دخول الأكاديمية العسكرية، بينما أبناء الكلبة يدخلون إليها بيسرٍ! والعقيد البكر هل مدّ يد المساعدة إليه حقاً؟ وخاله خير اللّه، لِماذا يبدو مشغولاً دائماً بابنه عدنان؟ ولماذا لم يحاول إقناع...

كان عمود الكهرباء في وجهه. لطمه بقبضة قاسية فنفرت قطرات الدم من مفاصل أصابعه. في مربع الصخر كان يغرز الأشواك في ذراعيه ويراقب الدماء تسيل. هكذا لن يضعف، لن تفر الدموع من عينيه حين تسقط العصا الملبسة بحبيبات الزفت على ظهره وكليتيه. هبط الظلام وهو يسير شارداً في الأسواق. امرأة شبه عارية في مدخل زقاقٍ مظلم تنير أبوابه مصابيح حمراء، نادت عليه. أعطاها ظهره ومشى في الاتجاه المعاكس. كان يسير، من دون أن ينتبه، في دوائر،

طوال النهار. حين أدرك ذلك انطلق في خط مستقيم، بخطى سريعة، نحو سوق السمك. اخترق المساحة الفارغة بين طاولات الخشب المغسولة الفارغة، عَبر بين أوساخ تطنّ عليها جبالٌ من الذباب، وانحدر حتى بلغ النهر. جلس على صخرة وسط الوحول ينظر إلى أعشاب تطفو على وجه دجلة. كانت حنجرته مشققة بالغيظ والمرارة. في نصف الليل رفع رأسه إلى نجوم السماء وشتم نفسه. قام واقفاً، ومضى إلى بيوت البغاء في «الكلجية». في داخله ارتفع صوت مسموم يشتمه:

- يا ابن الكلبة! تريد أن تبكي يا ابن الكلبة؟ من أجل الأكاديمية الكلبة!

بعد تلك الليلة من شتاء ١٩٥٥ لن يجرب صدام حسين دخول «الأكاديمية العسكرية» مرة أخرى. في ١٩٧٦، بعد أن صار حاكم العراق الخفي، «رجل بغداد القوي»، خلع عليه رئيس البلاد أحمد حسن البكر رتبة جنرال، هو الذي ما كان يوماً جندياً.

عام ١٩٥٥، بينما أبواب «الأكاديمية العسكرية الملكية» تقفل في وجه الشاب القادم من تكريت، أقدم نوري السعيد على خطوة، وجمال عبد الناصر على أخرى، فرأى صدام حسين أبواب القوّة تُفتح أمامه من جديد.

مهندس السياسة العراقية في الأربعينات والخمسينات رئيس الوزراء نوري السعيد، الرجل الحاضر قبل الملك الهاشمي في كل قرار، أقدم في ذلك العام على الدخول في حلفٍ دفاعي ضمَّ إنكلترا وإيران وتركيا وباكستان. «حلف بغداد» الهادف إلى صد المدّ الشيوعي والخطر السوفياتي، حرّك الأحزاب العراقية، اليسارية والقومية معاً، في معارضة شعبية شاملة. الموجة التي تحركت في بغداد تضاعف زخمها حين عقد الرئيس المصري جمال عبد الناصر في أيلول (سبتمبر)

١٩٥٥ «الصفقة التشيكية»: للمرة الأولى في تاريخ الشرق الأوسط تدفقت الأسلحة السوفياتية إلى مصر.

ماشياً مع المتظاهرين في بغداد باتجاه «الميدان» رأى صدام حسين كيف تملك المجموعات الحزبية المنظمة أن تُسيّر الحشود في الاتجاه الذي تشاء. كان التنافس على أوجه. الشيوعيون في جانب، والأحزاب القومية في جانب آخر: حزب «الاستقلال» اليساري المسلح وحزب «الأحرار» الليبرالي وحزب «الشعب» والبعثيون. انتبه أن البعثيين هم الأقل عدداً. كان يعرف معظمهم من تلك النقاشات الليلية في بيت خاله في الكرخ.

موجة التظاهرات انحسرت بهطول أمطار غزيرة. سالت الشوارع وغمرت المياه الأسواق. طوفان النهر حمل الوحول عبر عتبات البيوت وغطى الأثاث في الحارات الفقيرة. حين صَفَت السماء، وبانت الشمس وسط زرقة نقية، وجد صدام حسين نفسه يقضي نهاية الشتاء بعيداً من الكرخ ومن بيت خاله. اكتشف أنه يكره الضاحية. لكن صفاء الجو لم يدم إلاً يومين. حلَّ الربيع العراقي المثقل بالعواصف الرملية الآتية من الصحراء. الغبار والحر لم يدفعاه للرجوع إلى حماية الحيطان في جانب الكرخ المزدحم. دبَّر غرفة في قلب بغداد أسفل بناءٍ كبيرٍ مقابل سينما «روكسي» يعجّ بالوكلاء التجاريين. كانت غرفة تحت الأرض تقريباً، بنافذة مدوّرة غائر نصفها في الأرض. كان يرى الأقدام في الشارع ممدداً طوال النهارات على حصير. لا يخرج إلاً ليلاً. يمشي شارع الرشيد في نور المصابيح المشتعلة على الأرصفة. يقف أمام بائع اللحمة المشوية عند زاوية فندق «السندباد». يتفرج على الأسياخ والدهن يقطر على الفحم فيتوهج ويلتهب، والروائح تفوح. روائح الشواء والعرق والبيرة والزيت المقلي. رائحة الطعمية والبطاطا المقلية والباذنجان والفول. كان يجني مالاً من بيع السجائر. يتنقل بين تقاطعات الطرق في وسط المدينة حاملاً صندوقاً. أحياناً يعمل في

الصباح أيضاً. لكنه يغادر الأسواق إلى غرفته الأرضية حين تهب رياح الرمل قبيل الظهيرة. في طريقه إلى غرفته يشتري شاياً وسكراً وبيضاً وبعض الخضر. النهار للتفكير والتخطيط وتحضير الجمل والردود القوية. العصر وأول الليل لبيع السجائر وجني لقمة العيش مؤقتاً. بعد نصف الليل وحتى سويعات الفجر الأولى يتنقل بين أوكار البعثيين وحزبي «الاستقلال» و«الشعب». يتمرن على النقاش. يراقب الناشطين. يتعلم الصمت وإطلاق عبارته في اللحظة المناسبة. من راديو مقهى «البلدية» يستمع إلى خطب الرئيس عبد الناصر النارية. لا يملك هذا الأسلوب. لكنه يكتشف رويداً رويداً أن الصلابة الكامنة في الكلمات هي التي تحسم المواقف. الصلابة، الصلابة. والقدرة على اكتشاف نقطة الضعف في الخصوم. والأهم، الأهم من كل شيء، الأهم على الإطلاق: القوّة، ألا تضعف أبداً، أن تكون دائماً أشرس من الآخرين.

استمع بجسم مرتجفٍ في زحمة مقهى «الزهاوي» إلى خطاب عبد الناصر معلناً تأميم قناة السويس. في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٦ شنَّت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل العدوان الثلاثي على مصر. عند إطفاء الأنوار في صالات سينما «أطلس» و«سميراميس» و«بابل» و«الفردوس» و«الأعظمية» كانت تتعالى هتافات تُحيي «مصر ناصر». طوال ذلك الخريف تحولت بغداد عاصفة تظاهرات. في الحشد المضطرب، وسط الصراخ المندّد بالحلف وبنوري سعيد، التقى صدام حسين ابن خاله عدنان محاطاً برفاقه البعثيين.

قال عدنان:

- أنت مع من؟ مع حزب «الشعب»؟

أجابه صدام حسين:

- أنا مع الجميع، الاستقلال والشعب والبعث، والأحرار أيضاً.

قال عدنان:

ـ عليك أن تختار.

كان تيار الحشد يدفعهم إلى الأمام، بمحاذات «حديقة الأمة»، نحو الساحة، حيث نُصِبت مدافع رشاشة. تعالت نداءات تهتف بسقوط الحكومة الخائنة حليفة الغرب وإسرائيل. في عين الإعصار، ناظراً إلى موج الحشود، إلى ابن خاله عدنان محاطاً برفاقه، إلى الجنود وراء المدافع الرشاشة، إلى غيوم رمادية تعبر سماء خريف ١٩٥٦، أيقن صدام حسين أنه يحتاج فرقة واحدة إلى جانبه، فريقاً صغيراً يكون هو في المركز منه، ثم يبث الحركة فيه، يجعله يتمدد رويداً رويداً، ينمو ويكبر مثل حيوانٍ أسطوري، إلى أن يمدّ أطرافه في جهات العراق الأربع.

كان عدنان يكرر بصوتٍ يرتجف من الهتاف:

ـ لا بدًّ أن تختار.

أجاب صدام حسين بنبرة باردة كحد سكين:

ـ البعث.

خاله خير اللّه طلفاح احتفل به ليلة أقسم يمين الولاء الحزبي. كان الشتاء ينتهي، وربيع ١٩٥٦ على الباب. ابنة خاله ساجدة نظفت الغرفة التي رجع إليها. مرة أخرى وقف أمام النافذة ونظر إلى مدخل سوق العجيمي وإلى رجلين يلعبان طاولة النرد أمام مخزن التمور. لم يتذكر النافذة الأخرى في تكريت البعيدة ١٥٠ كيلومتراً إلى الشمال. قرر خلال إقامته في تلك الغرفة الأرضية في قلب بغداد أن عليه نسيان كل ما قد يصرفه عن اللحظة الحاضرة وعن التفكير في أيام قادمة. يحتاج أن يكون صافي الذهن رائق المزاج بارد الأحاسيس. الذكريات تُضعف الواحد. ليتذكرْ ما يعينه على سلوك درب القوّة وحسب.

قالت له ساجدة بينما يخرج ثيابه من صرّة فتحها وسط الفراش:

ـ هكذا تنسانا!

خلال تلك الفترة تطوع صدام حسين لتشكيل خلية بعثية قادرة على العراك وحماية الحزب من المخربين. بدت الفكرة مناسبة في الكرخ حيث تشتد المنافسة مع الشيوعيين. وجد ما يبحث عنه في باحة مهملة، قريبة من جامع عطا، حوَّلها فتية الحيّ ملعباً. كانت الباحة تعجّ بالأولاد طوال الوقت، لكنها كانت أيضاً ممراً مهماً من ممرات الحارة وطريق الجامع المفضية إلى سوق الفاكهة. في ذلك الممر المزدحم بالأولاد نصب صدام حسين مع ثلاثة بعثيين آخرين من سنه، كميناً لضابط شيوعي يُدعى سلمان حسن التكرلي أقدم على شتم «البعث» وميشال عفلق في حفل ختانٍ في «الست نفيسة». لم يعرف الضابط ماذا أصابه. كان يعبر بين أولاد يتقاذفون طابة حين أصابته خبطة قوية على قذاله، ثم ضربة أخرى على كليته اليسرى. وجد نفسه على الأرض، وحين حاول أن يرفع رأسه تلقى ضربة فظيعة في وجهه. بعد ذلك انهالت الركلات، وضربات بعصي وهراوات. سالت الدماء من أنفه وفمه وأذنيه. التم على نفسه. طوال الوقت كان يسمع صرخات الأولاد المذعورة، ثم غاب عن الوعي.

في مركز الشرطة قال سلمان حسن التركلي إنه سمع أحد مهاجميه ينادي على رفيقه:

ـ صدام!

لم تجرب الشرطة البحث عن المدعو صدام. ولو بحثت عنه لما وجدته. كان غادر بغداد بعد الكمين مباشرة إلى تكريت. ما كان هارباً. بل ذاهباً إلى المدينة التي يعرفها جيداً في مهمة حزبية أخرى. غاب شهراً كاملاً. حين رجع إلى بغداد وجد مهمة ثالثة في انتظاره: تهذيب إمام جامع الحسين الذي وصف الحزبيين البعثيين في خطبة الجمعة بقُطاع الطرق.

أعد صدام حسين خطّة. كل يوم عصراً يغادر إمام جامع الحسين باحة المسجد من البوابة الشرقية بعد دقائق من الصلاة، إلى بيت زوجته الجديدة عند مدخل سوق حمادة. الطريق من البوابة الشرقية إلى سوق حمادة تشكّل زقاقاً ضيقاً لا يتسع لمرور حمار. عن جانبي الزقاق سطوح عالية تمتد متلاصقة حتى تبلغ حقول النخيل. الهجوم هذه المرة لن يكون برياً بل جوّياً. ذهب صدام حسين مع رفاقه في ١٢ تموز (يوليو) ١٩٥٨ إلى المكان، حاملين حجارة وقوارير فخار معبأة رملاً. وزعوا الذخيرة على السطوح وانتقوا الأماكن المناسبة.

قال صدام:

ـ لا نبغي قتله. لكن إذا حدث ذلك لن تكون كارثة.

بعد تنفيذ الضربة يستطيعون الهرب قافزين فوق السطوح المتقاربة، إلى أن يبلغوا حافة البساتين عند محطة الحديد.

أبلغهم أن عليهم الاستعداد لتنفيذ العملية عصر ١٥ تموز (يوليو)، بعد ثلاثة أيام بالضبط.

قال صدام:

ـ ولا تتناولوا الطعام ظهراً. تعالوا بلا طعام.

في ١٣ تموز، قبل يومين من الموعد المنتظر، ذهب منفرداً إلى الجامع، وراقب الإمام جالساً في زاوية يقرأ في مصحفٍ مرفوع على أريكة. كان رجلاً ستينياً صاحب ملامح حادة، عباءته ملطخة ببقع العرق عند الإبطين. نَعِس صدام وهو جالس هكذا، حافياً في الزاوية، تحت القبب العالية، ونسيم رطب غير مألوف يلعب في أرجاء المسجد. حين قام الإمام واقفاً واختفى عابراً المنبر إلى باب جانبي، نهض صدام وغادر الجامع. بينما يعبر النقطة قرب المنبر حيث عبر خصمه الستيني قبل لحظة أحسّ أنه يشمّ رائحة العجوز. نظر إلى أسفل فرأى أثر قدم رطبة على السجادة. أحسّ بقرف غريب. كأنه وضع على

جسمه برهة خاطفة تلك العباءة المبللة بعرق الشيخ وبإفرازات جسمه الهرم الجالس ساعات على هذه السجاجيد. في تلك اللحظة أيقن صدام أن ضرباته بعد يومين ستكون كلّها مسددة إلى قبة الرأس العابرة تحته، في الزقاق، بالعمامة السمراء النحيلة. أيقن ـ مستغرباً الكراهية المباغتة التي دبّت فيه ـ أن ذراعه تريد أن تصيب من الرأس المعممة مقتلاً.

لم يحدث ذلك. في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨، قبل يوم واحد من موعد العملية، أنقذ العقيد عبد الكريم قاسم، بمساعدة العقيد عبد السلام عارف، حياة إمام جامع الحسين في الكرخ، إذ نفذا انقلاباً عسكرياً أطاح بحكم الأسرة الهاشمية وأنهى عصر الملكية في العراق.

بعد الانقلاب بدت كل ضربة، كل عملية أمنية صغيرة ضد إمام جامع أو ضابط شيوعي، بمثابة نزهة سخيفة لا يقدم عليها إلاّ الصبية. بلّغ صدام حسين رفاقه أمر إلغاء العملية. كلّف أحدهم استعادة الذخيرة الموزعة على السطوح، ثم تنبّه لتفاهة الأمر، وطلب منهم نسيان المهمة كلّها. كل شيء تغير الآن، كان يقول لنفسه.

جالساً في مقهى «الوطن» المزدحم، يستمع مع الآخرين إلى الأخبار الصادرة من الراديو الخشب البنيّ الكبير ذي العين الخضراء الوامضة، قارن بين خطته الصبيانيّة لترهيب إمام جامع عطا، وبين خطة الانقلاب الصاعق على الملكية وعلى نوري السعيد.

في الأيام التي أعقبت الانقلاب، بينما الدبابات تنتشر في الشوارع والساحات، والجنود يجولون الأسواق، اتضح رويداً رويداً مسار الحوادث المفضية إلى الانقلاب. في ١٢ تموز، بينما صدام يوجه الأمر لرفاقه بالحضور إلى السطوح بعد ثلاثة أيام بالضبط بلا طعام للإطباق على إمام الجامع كان العقيد عبد السلام عارف يتلقى من رئيس الوزراء نوري السعيد أمراً بالزحف إلى الأردن لمساندة عرش الملك

الهاشمي حسين المهدد بالسقوط. تلقى العقيد عبد السلام عارف الأمر باسماً. أجرى اتصالاً واحداً بحليفه السرّي عبد الكريم قاسم ثم أمر عساكره بالتأهب للسفر. في طريقه إلى عمان انعطف مع جنوده نحو بغداد، فدخلها قبيل الفجر وسيطر على مبنى الإذاعة. بعد لحظات، جرع كوب ماء وأعلن على الهواء البلاغ رقم واحد، بيان الثورة ونهاية زمن الملكية. الوحدات العسكرية التي أرسلها إلى القصر الملكي وجدت الوصي على العرش عبد الإله في انتظارها مع الحرس الملكي. عدد الحرس الملكي كان متفوقاً. لكن الوصي على العرش بدا خائفاً. بينما ضوء الصباح يطلع على قصر «رحاب»، استيقظ الملك الفتي فيصل الثاني على الجلبة. دخل الوصي غرفة النوم الملكية وأخبره أن عليهما الهرب فوراً. قال للملك:

ـ إذا أطلقنا النار قد نُقتل، أنت وأنا.

رمى الملك على كتفيه عباءة من الأطلس الرومي. عباءة حمراء بلون الدم. الوصي على العرش كان في منامته الناصعة البياض. هربا عبر بوابة المطبخ. على الدرج المفضي إلى أزقة الأمان تجمد الوصي على العرش مذعوراً. سأله الملك فيصل الثاني:

ـ شبيك؟

كانت تلك آخر كلمة يلفظها في هذه الحياة. في بؤبؤ الوصي على العرش، البؤبؤ المتسع خوفاً، رأى الملك انعكاس الأخيلة التي ظهرت من وراء الزاوية. في اللحظة التالية لعلعت المدافع الرشاشة. نوافير الدم انبثقت من الوصي عبد الإله ولطخت بياض منامته ولطخت رخام الدرج. الملك سقط بلا صوت، لم يرَه الجنود الغارقون في غيمة البارود يصاب برصاصة واحدة. لكنه سقط رغم ذلك. انهار بقوة على ركبتيه، واندفع جذعه نزولاً على الدرج، وارتطم رأسه بالأرض. لم يرَ الجنود آثار الرصاصات التي مزقت جسمه لأن الدم تدفق منه وملأ ثقوب العباءة الأطلس الحمراء بلون قانٍ كأنه لون صباغها.

رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد استيقظ على صوت الرصاص. بالمداس والمنامة، مع بطانية على كتفيه، فرّ عبر دهليزٍ إلى مركبٍ حمله في دجلة. كانت رائحة الطمي الثقيلة أخف من رائحة العرق الكثيف الناضح من طيّات جسمه. حمله دجلة إلى مخبأ ـ في الجانب الآخر من بغداد ـ مخبأ قريبٍ من أطلال يُقال إنها كانت قصراً من قصور هارون الرشيد.

الكولونيل عبد الكريم قاسم قائد اللواء التاسع عشر وصل بغداد قبل أن تبلغ الشمس كبد السماء. وسيطر على وزارة الدفاع. الملك الأردني حسين أراد أن يتدخل، أن يرسل قوات لنجدة الأسرة الهاشمية، أسرته. أُبلغ أن ذلك مستحيل. الجيش العراقي كله في قبضتي عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف. خطّطا للأمر جيداً مع «الضباط الأحرار» في الجيش العراقي: تنظيم يضم نحو ٢٠٠ ضابط بينهم العقيد أحمد حسن البكر.

في اليوم التالي اعترض الجنود درب امرأتين تغادران بغداد. المرأة الأولى حاولت الهروب فتلقت خبطة من عقب بندقية. سقطت على جنبها، سال خيط دم من أذنها ولطخ ثوبها. المرأة الأخرى لم تحاول الهرب. حين تكلمتْ ويدها على شعرها الأشقر الغريب المنفوش كشعر كلبٍ أفرنجي، سمع الجنود الباسمين بهزءٍ، صوتاً طالما سمعوه في الاحتفالات الرسمية. قال الصوت:

ـ لا تطلقوا النار. أنا رئيس حكومتكم نوري السعيد آمركم أن تلقوا السلاح فوراً.

وضع في الكلمة الأخيرة ثقل كل السلطة التي أعطته أن يحكم العراق طوال السنين الماضية.

الجنود أحسّوا بتلك السلطة الطاغية، تلك السلطة المربِكة والمرتبكة، في الكلمة الأخيرة.

ـ فوراً!

ارتعشت الأصابع. كل إصبع ساخن يلمس زناداً بارداً ارتعش. لكن ارتباك الجنود ذهب في الاتجاه المعاكس لرغبة رئيس الوزراء المتنكر بزي امرأة شقراء بدينة تحاول الخروج من بغداد.

ضغط إصبعٌ على زنادٍ وسرعان ما اقتدت به أصابع أخرى. عاصفة نار خرجت من فوهات البنادق. كانت بنادق لامعة، نظفها أصحابها بالزيت جيداً طوال اليومين الماضيين، استعداداً لهذه اللحظة.

المرأة الأخرى، الملقاة أرضاً، جذبت رصاصاً إليها أيضاً. حين حملوا الجثتين الثقيلتين كالصخر بدتا على حافة التفسخ من الرصاص الكثير الذي أُفرغ في لحمهما. تلك الليلة دفن الجيش نوري السعيد، بينما عربات مدنية تجرّ جثّة الوصي على العرش عبد الإله في شارع الرشيد. بعد السحل عُلق من رأسه، بالمنامة البيضاء الممزقة والمخضبة بالدم، على أبواب وزارة الدفاع. قبل أن ينتهي الليل، بعد رحيل الجيش عن قبر نوري السعيد الساخن، نبشت عصابة الجثة، قطعتها، وبعثرت أعضاء رئيس الحكومة السابق في أنحاء بغداد.

صدام حسين، متسكعاً في الشوارع، يتفرج ويفكر في ما يراه، رأى كلاباً في ساحة التحرير تتعارك على يدٍ آدمية بأصبع مقطوعة. بعد ثلاثة أيام أخبره عدنان أن الجنود قتلوا رجلاً كان يحاول سرقة خاتم نوري السعيد الألماسي المفقود، من متجر مجوهرات في قلب البلد. والشرطة ألقت القبض على صاحب المتجر.

طوال أيام عمّت السرقات بغداد. المقربون من رئيس الحكومة السابقة أقفلوا أبواب بيوتهم واختفوا عن الأنظار. الكولونيل عبد الكريم قاسم عيَّن نفسه رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع وقائداً أعلى للقوات المسلحة. العقيد عبد السلام عارف بات نائباً لرئيس مجلس الوزراء ووزيراً للداخلية ونائباً للقائد الأعلى للقوات المسلحة. قبل أن ينتهي الأسبوع ظهر خلافٌ بين الرجلين.

قال صدام حسين لابن خاله عدنان:

ـ الأمر لم ينتهِ بعد.

عام ١٩٨٢، حين نجحت حفنة من المراهقين الإيرانيين سلّحها «الحرس الثوري» في اختراق خط الدفاع العراقي، وبلوغ قرية صغيرة إلى الجنوب من البصرة، استعاد الرئيس العراقي صدام حسين للحظة خاطفة، تلك الأيام البعيدة التي سبقت انقلاب ١٩٥٨. الفتيان الإيرانيون الذين حصدتهم ـ بضربة واحدة ـ غارة جوية عراقية، كانوا يرتدون قمصاناً طُبِعت عليها صورة الإمام الخميني. حُمِلت الجثث في شاحنة شمالاً، وعُرضت في ثكنات بغداد. لم تُعرض في الساحات. كانت خطة صدام حسين أن يحارب على الحدود، وأن تعيش بغداد زمنها الاقتصادي المزدهر في اللحظة نفسها. حين رأى الجثث، تلك الوجوه الفتية بيضاء كالشمع، تذكر رفاقه على السطوح يستعدون بذخيرة من حجارة وقوارير رمل، للحظة الصفر. أحسّ بالتفاهة. أن يكون هو، الرئيس، القائد الأعلى للقوات المسلحة، سيد هذه البلاد وحاكمها المطلق، قد لعب يوماً تلك الألعاب السخيفة!

في الليلة الثالثة عشرة على انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ اجتمع في مركز «البعث» في الرصافة ٤٣ عضواً بحضور ثلاثة أعضاء من «القيادة القطرية». العقيد أحمد حسن البكر كان غائباً. أحد أعضاء القيادة تكلم شارحاً الوضع ومحللاً سياسة الحزب في هذه المرحلة. قال إن الحزب يدعم عبد السلام عارف، ومعه معظم الأحزاب القومية الأخرى، وقسم من الجيش. لكن المشكلة هي بعض «الضباط الأحرار»، والشيوعيون مشكلة أيضاً، وعبد الكريم قاسم هو المشكلة الكبرى.

قال عضو «القيادة القطرية» إن العقيد عبد السلام عارف قال للرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة، حين التقاه في دمشق، إن العراق يريد أن يكون منذ اليوم جزءاً من الجمهورية

المتحدة مع مصر وسورية. لكن المشكلة هي الكولونيل قاسم.

عبد السلام عارف قال لعبد الناصر إن عبد الكريم قاسم هو «محمد نجيب الثورة العراقية». عضو «القيادة القطرية» أنهى كلامه وعاد إلى الجلوس. صدام حسين في المقاعد الخلفية وجد الكلام المنقول عن عارف مزعجاً. قال في سرّه إن الحريص هو من لا يثرثر قبل أن يمسك بخيوط السلطة. وحدّثه قلبه أن عبد الكريم قاسم ربح الحرب من قبل أن يخوضها.

في ذلك الصيف الملتهب أصيبت امرأة خاله خير اللّه طلفاح بفالجٍ نصفي. استعمل خاله إحدى سيارات الحزب ونقلها مع أغراضها ومع ساجدة إلى البيت في تكريت. عند رجوعه بعد خمسة أيام كان يحمل في السيارة راديو جديداً على المقعد الملاصق لمقعده، وزوجة جديدة في التاسعة عشرة على بطانية في الصندوق المغطى بخيمة عسكرية.

في آب (أغسطس) ١٩٥٨ أُعلن تشكيل محاكم ثورية برئاسة ابن عم الرئيس قاسم، فاضل عباس المهدوي، لمواجهة العملاء والثورة المضادة والخونة. في أيلول (سبتمبر) عُزل العقيد عبد السلام عارف من جميع مناصبه. بعد إذاعة قرار العزل دخل العقيد عارف مكتب الرئيس قاسم بمسدسٍ في حزام يزنر خصره. المواجهة بين الضابطين دامت نهاراً كاملاً في المكتب الرئاسي الموصد. في لحظة ما سحب العقيد عارف مسدسه. قال في ما بعد إنه سحب المسدس بقصد الانتحار. قاسم زعم أن عارف أراد اغتياله. تلك الليلة غادر العقيد عارف بغداد إلى ألمانيا الغربية سفيراً للعراق في برلين.

في الليلة ذاتها كان صدام حسين يترجل من سيارة قديمة مكسورة الزجاج أمام المسلخ في تكريت. ألقى نظرة على البيت القديم فوجد النور مطفأً في النافذة المطلّة على القلعة الأيوبية. استدار ومشى متوجهاً إلى الأسواق الجديدة. مثل جميع المدن العراقية، لم تتبدل تكريت

كثيراً في السنوات الأخيرة. الناس يتكاثرون، لكن الأبنية لا ترتفع، والأوساخ ذاتها تتكون في جوانب الطرق. صدام حسين وجد الهواء هنا جافاً وأطيب من هواء بغداد. خيَّم الصمت على أشباح البيوت، وعلى زوايا الشوارع الخالية من الخوذ العسكرية. قرع باب البيت الثالث بعد الجامع ذي المئذنة الخشب. سأله صوت من وراء الباب الموصد:

ـ من؟

أجاب:

ـ أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة.

فُتح الباب. نور أصفر واهن بان لحظة على أرض الزقاق ثم اختفى، ومعه شبح صدام حسين.

لم يكن أحد من المتآمرين الخمسة في ذلك البيت العابق برائحة تمور متخمرة وكاز، يعلم أن العقيد عارف بات من الليلة مبعداً إلى برلين. في نهاية المطاف لم يكن لتفصيل كهذا أن يشكل أي فرق. الأمر الحزبي كان واضحاً: تصفية فؤاد حيدر التكريتي، موظف حكومي بارز مقرب من قاسم ومرشح لدخول المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي.

قبل طلوع الفجر نُفذت العملية. مات الرجل ممزقاً بثلاثة سواطير في سريره الأبيض الكبير. لم يقتلوا زوجته. لم يقتلوا أولاده. الزوجة ضُربت على رأسها، وفقدت الوعي قبل أن تفتح عينيها من نوم منتصف الليل العميق. عصبوا عينيها، وكمّموا فمها، وقيدوا معصميها إلى كاحليها كما تُربط الذبيحة. لم يكن ذلك صدفة. أحد الخمسة كان جزاراً. تولى تزويد الفريق بالسواطير والحبال والعقد المتينة معاً. الأولاد حُجزوا، مكممين أيضاً، في غرفة صغيرة تُستخدم لحفظ المؤن. جرى كل شيء على ما يرام. لم يستيقظ بيت واحد في

الجوار. صدام كان واقفاً عند الزاوية يراقب الزقاق. ظهر القمر (نصف قمر) لحظة من بين الغيوم فأضاء قطعة من السماء، عالياً فوق الزقاق المحاصر بالسطوح وبالشناشيل البارزة كأورام من الحيطان. تحركت ظلال في نهاية الشارع. سمع حفيف أوراق الشجر. سعف نخلة قريبة كنست حائطاً رملياً. المسدس في جيبه تبلل بعرق أصابعه. الترقب إحساس مُرهق، قال لنفسه.

بعد يومين فقط أُلقي القبض عليه. كان نهض من النوم في غرفته القديمة، وألقى نظرة من النافذة على القلعة التي كادت تختفي وراء عمارات الأسواق، ثم غسل وجهه وتحت إبطيه وبلّل ذقنه وبدأ يحلقها بالموس. من المطبخ شمّ رائحة بيض يقلى بالسمن، وشمّ رائحة خبز حارة وفول. ليلاً لم ينم جيداً بسبب عنين امرأة خاله المفلوجة وراء الجدار. بينما ينظف الموس بالماء سمع ساجدة تناديه من المطبخ، تسأله كيف يحبّ الشاي؟ قبل أن يجيب انهالت الطرقات على باب البيت.

لم يسمحوا له بارتداء ثيابه. جرّوه إلى المخفر بملابس النوم، حافياً. ساجدة أرسلت أحد صبيان المسلخ خلفه، حاملاً ثيابه وصباطه.

عجزوا عن إثبات التهمة عليه. حُكم ستة شهور فقط. أثناء التحقيق، حين تلقى اللطمة الأولى على فمه، كاد يبتسم. أغمض عينيه فاجتاحت رطوبة ساخنة دماغه.

بعد التحقيق، بينما يرتدي ثيابه في زاوية معتمة تفوح برائحة براز وعفن، قال مدمدماً كأنه يكلم الحيطان أو ثيابه:

- أبناء الكلبة! لو انتظروا ساعة أخرى!

كان جائعاً.

طوال الشهور الستة في السجن كان يتلقى زيارة كل أسبوع. هذه

الزيارات تحولت إلى روزنامة حبسه. كانت ساجدة تأتيه بتمورٍ وخبزٍ طيبٍ وسكرٍ وشاي. أخبرها أنه توقف عن شرب الشاي. منذ الزيارة السابعة باتت تجلب له حبوب بن محمصة. لم يأتِ من رفاقه أحد. كان ذلك خطراً. في الزيارة العاشرة لم تأتِ ساجدة وحدها. أمامها مشى خاله خير اللّه. لاحظ منذ النظرة الأولى بياضاً تكاثر في فوديه. سأله خاله عن أحوال السجن.

قال صدام حسين:

ـ كأنك محبوس في غرفة.

هزّ الخال رأسه، قال:

ـ ولكن أصعب.

قال صدام:

ـ تماماً.

في الزيارة التالية جاءت ساجدة مع عدنان. جلست على مسافة. عدنان أخبر ابن عمته أن الدنيا مقلوبة، وأن رشيد علي الكيلاني عاد من منفاه في القاهرة، وهو الآن في بغداد.

قبل أن يقف قال:

ـ خالك تعبان هذه الأيام. الكردية هربت.

كانت «الكردية» زوجته التي حملها من تكريت إلى بغداد مع راديو جديد، عقب إصابة أم عدنان بالفالج.

وقف عدنان ونفض ثيابه، بدا طويلاً، متورد الوجه ينضح عافية.

سأله صدام:

ـ والحزب؟

جلس عدنان بسرعة رافعاً يده محذراً:

ـ لا ترفع صوتك هكذا.

قال صدام:

ـ تكلمْ.

قال عدنان:

ـ العقيد عارف عاد من برلين. أُلقي القبض عليه وحُكم إعداماً. لكن قاسم خفّف العقوبة إلى مؤبد. لست وحدك في السجن. نصف الحزب صار في الحبس.

ذات ظهيرة، بينما يتمشى خلال ساعة النزهة في باحة السجن المسقوفة بالحديد المشبك، سمع صدام سجيناً يقول إن رشيد علي الكيلاني رجع من المنفى وأنه يقيم في بغداد.

في اليوم التالي، وكان الهواء بارداً، والغيوم تملأ السماء، سمع أن رشيد علي الكيلاني ـ وضباطاً من جماعته ـ اتُّهم بالتآمر والتخطيط لانقلاب وحكم عليه بالإعدام.

كانت الأخبار تصل السجن متأخرة أسبوعاً أو شهراً أو شهرين. بينما رفاقه في الزنزانة يتساءلون ماذا يفعل العقيد عارف في برلين هذه الأيام، يكون العقيد عارف مثلاً يعاني حكاك الجرب في قبوٍ تحت وزارة الدفاع في بغداد. وخلال ساعة النزهة تلك، بينما يستمع إلى سجين يخبر آخر أن الكيلاني عاد من المنفى للتو، آتياً من القاهرة وفي جعبته تعليمات محددة من الرئيس عبد الناصر، كان سكان بغداد يستمعون من الإذاعة إلى قرار المحكمة بوضع الكيلاني قيد الإقامة الجبرية مع وقف تنفيذ حكم الإعدام الصادر بحقه أخيراً بجرم التآمر على النظام.

قدوم الشتاء أزعج حياته المنظمة. اعتاد بمرور الأيام أن يجعل ساعة النزهة عند الثالثة والنصف بعد الظهر مركز نهاره، لكن مع قدوم موسم الأمطار أُلغيت ساعة النزهة. بات سجين عتمة الأقبية المتصلة ليلاً نهاراً. التمارين الرياضية وحدها استمرت تحمي جسمه والمفاصل

من خطر التعفن والصدأ.

في الزيارة العشرين أعلمته ساجدة أن الحرب دائرة في الموصل، وأن الجيش انقسم على نفسه. قسم مع القوميين والوحدة، وقسم ما زال في قبضة الكولونيل قاسم.

كان يهزّ رأسه، من دون أن يعلق على كلامها. سألته بعد لحظة صمت:

ـ شبيك؟ مريض؟

كان وجهه أبيض من الجلوس طويلاً في ظلمة ما تحت الأرض. ولجلده رائحة الفطر والطحالب. رأت بقعاً زرقاً على أصابعه ومعصميه.

سألته:

ـ يضربونك؟

قال:

ـ ألاكم الحيطان. رياضة.

حين حلّ فصل الربيع انشرح صدره. رغم عواصف الرمل بات الخروج في ساعة نزهة كل يوم متاحاً. المهم أن يرى السماء ونور الفضاء. تضاءل عدد الحراس في السجن. سمع مجموعة محابيس تخطط للهرب. عَلِم أن الموصل تحولت ساحة حرب ومجازر. الرئيس قاسم استعان بحلفائه الشيوعيين. مجموعاتهم المسلحة أقدمت على ذبح مئات القوميين العرب في الموصل وجوارها. القوات الجوية كادت تشن غارة على مقر الرئيس قاسم في بغداد. لكنه سبق المؤامرة بساعة واحدة، وقصف حامية الموصل بالمدفعية الثقيلة. العقيد عبد الوهاب الشواف أصيب خلال المواجهات. في المستشفى، بينما يضمدون جراحه، دخل طبيب شاب خريج موسكو وأطلق في رأس العقيد خمس رصاصات.

غيوم آذار (مارس) ١٩٥٩ المصفرة كالزعفران عبرت السماء المقطعة إلى مربعات حديد صغيرة. صدام الماشي بخطى ثابتة ذهاباً إياباً بين جدارين، في الجو المثقل بالغبار، ربط خيطان حوادث الشهور الماضية بعضها إلى بعض، فبلغ عقدةً في الوسط من كتلة الخيطان، وخلع على العقدة اسماً واحداً لا يقبل الشك:

ـ قاسم.

حين خرج من السجن، بعد ستة شهور كاملة، وجد الصيف القاحل بانتظاره. في بغداد التقى العقيد البكر في بيت رفيقٍ بعثي شارك في حرب ١٩٤٨.

اللقاء مع العقيد البكر، بعد الفراق الطويل، بدا له إشارة. أحسّ أن الأقدار تتآمر معه. يحتاج الآن إلى رجل في القيادة يفهم ما يفكر فيه. يشاركه التفكير. كانا جالسين قرب نافذة مشرفة على دجلة. قمر الصيف ارتفع فوق نتف غيوم بيضاء وسط سماء مزدحمة بالنجوم. كان الطقس رائقاً على غير عادة. وسمع مذياعاً في الجوار: صوت أم كلثوم يتعالى مرتفعاً فوق السطوح. أغنية جديدة.

قال العقيد وهو يشعل غليونه:

ـ المؤسف في السجن أنك لا ترى سماء الليل.

استغرب صدام حسين جملة العقيد. لكنه لم يقل شيئاً. كان فكره مشغولاً بأمور أخرى.

سأله العقيد البكر هل يلعب الشطرنج، فأجابه صدام حسين إنه يتقن قواعدها، لكنه لا يجيدها كما يجيد الداما.

سأله العقيد:

ـ كم صار عمرك؟

أجاب صدام:

ـ ٢٢، ٢٣.

سأله العقيد:

ـ وكم تحسّ عمرك؟

قال صدام:

ـ ٥٠، ٥١.

ابتسم العقيد. بدا حزيناً. كأنه يفكر في أشياء أخرى لا يستطيع الإفصاح عنها.

يوم الاثنين ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٩ تلقى صدام حسين أخيراً الأمر الذي كان ينتظره. في اجتماع سري ذلك المساء، أعطاه آمر المجموعة المكونة من خمسة أشخاص، مسدساً وثلاثة أمشاط ذخيرة. كانت مهمته تغطية رفاقه. هو طلب أن يشارك في عملية الاغتيال.

قال له آمر المجموعة:

ـ لم تتلقَّ تمريناً كافياً على التسديد. هكذا الخطة أفضل. تغطيتنا جزء جوهري من العملية كلّها. نفذْ مهمتك.

تلك الليلة دار في أزقة الرصافة يفكر في الأربعاء المقبل. يومان فقط. عليه أن ينتظر يومين فقط ثم... كان خبأ المسدس تحت الفراش في البيت في الكرخ. قبل أن يخرج أعطاه خاله بعض النقود مطوية في علبة سجائر «بغداد» فارغة.

قال له:

ـ هذه من الحزب.

بدا الخال متعباً. صدام فكر أن الكردية دمّرته بفرارها المباغت إلى جبال كردستان.

وقف أمام بائع اللحمة المشوية، على الرصيف المقابل لوزارة

الداخلية. أشار إلى أربعة أسياخ تبرق شحماً سائلاً وطلب من البائع أن يلفها في رغيفٍ واحد مع بندورة مشوية وبصل. أكل السندويش واقفاً على الرصيف، في نور مصابيح النفط في باب «مخزن الخردة والحديد لصاحبها الحاج موسى خليل الطبلاوي»؛ تأمل السيارات العابرة، وأنوار الكهرباء في الجانب الآخر، والمجموعات الصغيرة المسرعة في سيرها نحو الأسواق القريبة. أمام وزارة الداخلية رأى الجنود جالسين حول نيران صغيرة أشعلوها في صناديق خشب محطمة، يستدفئون ويشربون الشاي الأسود الحلو، بنادقهم تستريح بين أفخاذهم. حين انتهى من السندويش، شرب كوباً من اللبن، وأشعل سيجارة. عند هذا التقاطع، قرب صناديق نفايات أزالوها لا يدري متى وخلَّفت في مكانها بقعاً سوداء قاتمة على الإسفلت وحافة الرصيف، كان يبيع السجائر عند الأصائل قبل سنين. كم سنة؟ طرد الفكرة من ذهنه. مشى إلى سوق البغاء. أصابعه تعبث بالنقود في جيبه.

وجد السوق مختلفة. امتدت فالتحمت بمحلة «كوك نزر» المجاورة، وتضاعف عدد البيوت. خرجت من مساحتها سيئة السمعة، واجتاحت أطراف شوارع راقية. صعد درجات مبريّة متسخة بعد أن أزاح ستارة بالية جانباً. في صحن الدرج وجد المرأة البدينة الخمسينية نفسها. كأنها لم تغادر هذا المكان لحظة واحدة طوال حياتها.

في نور المصباح المغطى بأغبرة سوداء وخيطان عناكيب رأى أن التجاعيد زادت في وجهها، وفاضت كما فاض السوق العمومي، وغطّت بطيّات منكمشة الذراعين السمينتين، واليدين أيضاً.

بعد أن وضع النقود على الطاولة، دلَّته بإصبع كسولة إلى بابٍ في نهاية الممر.

قرع الباب فسمع صوت الفتاة من الداخل:

ـ من؟

ارتبك. ساوره الإرتباك لحظة خاطفة ثم وضع حداً لشريط الذكريات الذي تحرك في رأسه بأن دفع الباب بعنف ودخل الغرفة البيضاء الموصدة الستائر.

في السابعة صباحاً ترك صدام بيت خاله متجهاً إلى شارع «أبو نواس». عبد الكريم الشيخلي كان في انتظاره أمام «بار الفارابي». سارا معاً إلى معامل الإسمنت حيث وجدا الرفاق الثلاثة الآخرين جالسين حول نار صغيرة. كانت أمطار غزيرة هطلت قبيل الفجر، وجعلت الفضاء يتلألأ بهواء جليدي نظيف. آمر المجموعة أبلغهم أن العملية لن تنفذ في طريق عودة الرئيس قاسم من مكتبه إلى بيته، بل لحظة خروجه من جديد عند المساء. الرفيق النحيل، صاحب الندبة على العنق، سأل:

ـ ولماذا يخرج من بيته مرة أخرى؟ كيف نتأكد؟

أجابه آمر المجموعة:

ـ المعلومات سرية.

المعلومات لم تكن سرية. الإذاعة أعلنت قبل أيام أن الرئيس قاسم سيحضر مساء الأربعاء حفل استقبال في سفارة ألمانيا الشرقية.

أطفأوا النار وتحركوا. ظهيرة ذلك الثلاثاء كانت غائمة. حجارة الباطون المرتفعة كالأهرام في باحة المعامل كانت مبلّلة، رمادية اللون، ثقيلة. آمر المجموعة ألقى التحية على عمال منشغلين بإصلاح منشارٍ آلي. تبيّن لصدام حسين أن آمر المجموعة يعرف هؤلاء العمال جميعاً. في وقت لاحق أخبره عبد الكريم الشيخلي أن هذه المعامل كلها مُلك عائلة رفيقهم. بينما يمرّون بين أكوام رمل وبحص، عبرت أسراب طيورٍ فوقهم فأفزعتهم بظلالها المتموجة على الرمل الرطب.

تفقدوا موقع العملية في شارع الرشيد. آمر المجموعة حدّد مركز كل منهم، وشرح مرة أخرى خطة الكمين. الأسلحة الرشاشة كانت

مخبأة في شقة مجاورة استأجرها الحزب من أجل هذه اللحظة. المسدسات في حوزتهم. بقية الأسلحة يأخذونها غداً، قبل العملية بساعتين. حين ابتعدوا عن البقعة، قبل أن يفترقوا، استدار الآمر وقال لهم:

ـ بعد ٢٤ ساعة يتغيّر تاريخ العراق.

تلك الليلة دخل عدنان الغرفة المظلمة فوجد ابن عمته صدام جالساً متربعاً في الفراش يحدق مفتوح العينين إلى الظلام الكثيف. حين أضاء عدنان المصباح لم يرف للمتربع في الفراش جفنٌ. فكّر عدنان أن هذه عادة أخرى استولت على ابن عمته أثناء إقامته في السجن. بعد أقل من ٢٤ ساعة، حين عَلِم بأمر العملية وسمع في الراديو خبر إطلاق النار على الرئيس قاسم، تذكر عدنان خير اللّه طلفاح مرة أخرى تلك النظرة الباردة في عينيّ صدام حسين القاعد وحيداً في ظلام غرفة موصدة في بيتٍ وسط الكرخ.

عند الساعة السادسة والثلاثين دقيقة مساء الأربعاء ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٩، بينما سيارة الرئيس عبد الكريم قاسم، رئيس الوزراء، القائد الأعلى للقوات المسلحة، تمرّ في شارع الرشيد متوجهة إلى حفل استقبال في سفارة ألمانيا الشرقية، أُمطرت بوابلٍ من الرصاص.

خطة الكمين كانت تقضي بخروج الرفاق الأربعة من مكامنهم في لحظة واحدة. اثنان يمشطان بالأسلحة الرشاشة المقعد الخلفي. واثنان يمشطان بأسلحة مماثلة المقعد الأمامي. لم يحدث ذلك. المكلف بتغطية المهاجمين، الرفيق صدام حسين التكريتي، أخرج من تحت معطفه الطويل رشاشاً (تبين لاحقاً أنه رشاش خاله خير اللّه طلفاح العسكري المتقاعد والرفيق البعثي المعروف) وبهذا الرشاش الفرنسي القديم المصنوع خلال الأيام الأخيرة للحرب العالمية الثانية، فتح النار

على سيارة العقيد قاسم ما إن أطلّت عليه.

عام ١٩٨٠ صدر كتابٌ باللغتين الفرنسية والعربية عنوانه: «صدام حسين: الرجل والقضية والمستقبل». المؤلف عقد جلسات حوار طويلة مع الرئيس العراقي، ولم ينشر الكتاب إلاً بعد أن قرأه الرئيس كاملاً وأبدى إعجاباً بدقته. يكتب في وصف العملية: «. . . لم يكن مطلوباً منه إطلاق النار وإنما تأمين حماية رفاقه الأربعة والانسحاب بعد أن يكون هؤلاء انسحبوا. لكنه لشدة حماسه وجد صدام حسين نفسه يسحب رشاشاً صغيراً من تحت سترة طويلة أخذها من خاله. . . ويطلق النار على سيارة عبد الكريم قاسم. . ».

مزقت رصاصة قلب آمر المجموعة. تلقى صدام حسين رصاصة في فخذ ساقه اليسرى. الراديو أعلن مقتل سائق الرئيس، وإصابة مرافقه بجراح خطيرة. الرئيس لم يُقتل. اخترقت رصاصة واحدة كتفه. في المستشفى، بينما يضمدون جرحه، أمرّ بمداهمة جميع أوكار البعث، وإلقاء عناصر الحزب في السجون بانتظار المحاكمة. سيارته الممزقة بالرصاص رُفعت على منصة أمام وزارة الدفاع لتشهد على محاولة الاغتيال المشؤومة. قميصه المبللة بالدم نُشرت في الشمس حتى جفّت، ثم عُرِضت بالبقع السوداء التي تخلّلت النسيج، في خزانة زجاج خارج المكتب الرئاسي. أعلن الراديو يوم ٧ أكتوبر عطلة وطنية سنوية. عُين حاجب خاص لتنظيف خزانة الزجاج، حيث القميص المعروض، كل صباح. وحاجب آخر لإبعاد الطيور عن السيارة الكئيبة المرفوعة بعجلات مثقوبة على منصة غرانيت أمام المدخل الرئيسي لوزارة الدفاع. الجيش اقتحم أوكار «البعث» في بغداد والموصل وكركوك. شُنت الغارات على البيوت. خلال ساعات امتلأت السجون بالبعثيين. الهاربون عبر الصحراء إلى سورية قتل بعضهم على الطريق برصاص دوريات الجمارك. صدام حسين لم يمت.

مصاباً برصاصة في فخذه، حمله عبد الكريم الشيخلي على ظهره

إلى بيت امرأة من أقاربه. المرأة السبعينية كانت قريبة أخوال عبد الكريم الشيخلي. شبه عمياء، وطرشاء تماماً في أذنها اليسرى، لم تتعرف إلى الشاب الذي طالما أطعمته تمراً بيدها، إلاَّ بعد أن تلمست وجهه بأصابعٍ مجعدة. أخبرها عبد الكريم أن رفيقه مصاب. اختفت لحظة وعادتْ تحمل سكيناً حادة ويوداً ومزق قماش ومقصاً مكسور القبضة. المرأة شبه العمياء ألقت ما في يدها في حضن عبد الكريم، وقالت إنها ستقف في الباب للمراقبة. فكّر الشاب البالغ من العمر ٢٥ عاماً أن دماغها أيضاً بات في حالة بائسة.

قصّ اللحم بالسكين. صدام قبض على الأرض الطين. أظافره انغرزت في الأرض. حين أولج عبد الكريم المقص في الجرح، محاولاً تبين مكان الرصاصة في مركز البقعة الغارقة في الدم واليود، فقد صدام الوعي. حين استعاد وعيه بعد عشرين دقيقة وجد الجرح مربوطاً بمِزق القماش.

جلبت لهما العجوز ماء وخبزاً وتمراً. شرب صدام الماء لكنه امتنع عن الطعام. كان قمر منتصف الليل يلقي خيوطاً بيضاء عبر خصاص السقف على الأرض المعتمة. الكهرباء مقطوعة في الحيّ. من مكان بعيد سمعوا موسيقى عسكرية صادرة عن «إذاعة بغداد».

قال عبد الكريم الشيخلي إنه سيذهب ويعود بسيارة لينقله من هنا. الحيّ لن يكون آمناً في الصباح، والعجوز مصابة بالخرف، وقد تخبر الجيران عن ضيوف. لم يقل صدام شيئاً. كان لسانه كسحلاة ميتة بين فكيه. الفكّان أيضاً لا يحسّ بهما. كأن عظامه لم تعد عظامه. في مكان الجرح تحرقه أبرٌ محماة على الجمر. لولا هذا الألم لفكر أنه قد مات.

ذهب عبد الكريم ولم يرجع. انتظره صدام حتى الفجر. كان النور يطلع من الشرق وهاجمه الوسواس: ماذا لو سلَّمه عبد الكريم إلى السلطات؟ يسلمه وينجو بنفسه؟

في تلك اللحظة فُتح الباب وظهر عبد الكريم. نقله بالسيارة إلى الكرخ معتمداً طرقاً فرعية تمر بين البساتين. في بيت خاله خير اللّه طلفاح حقنوه بأبرٍ مضادة للإلتهاب. الخال جلب الدواء من طبيب يعرفه. قال للطبيب إن ابنه عدنان مصاب بإلتهاب اللوزتين.

بعد يومين استطاع الوقوف على ساقه. كان يعرج بعض الشيء. لكنه مشى إلى الحمام. فكّ خاله رباط الجرح ونظّفه باليود. قال:

ـ هذا خدش!

تلك الليلة، متحلقين حول الراديو يستمعون لأخبار الغارات المتواصلة على «البعث»، قال عدنان إنه لاحظ رجلاً يراقب البيت هذا الصباح. المنطقة غير آمنة. رجال الأمن في كل مكان.

في الساعة الرابعة فجراً غادر صدام حسين منزل خاله خير اللّه طلفاح في الكرخ لابساً دشداشة، وعلى رأسه كوفية وعقال. كان ينتعل حذاء قديماً، وفي جيوبه سكين وثلاثة وعشرون ديناراً. في الرابعة والنصف فجراً، داهم رجال الأمن بيت خاله، وبعد أن قلبوا أثاث البيت وكسروا المرآة في الحمام، غادروا مصطحبين عدنان مصفداً بأغلال الحديد.

في ضواحي بغداد الشمالية أدرك صدام حسين أنه لن يستطيع السير طويلاً بساقه الجريحة. ابتاع فرساً بـ ١٧ ديناراً من صاحب مزرعة هناك. تزود بتمرٍ وخبز وماء، ثم باشر رحلته على طريق النهر إلى تكريت. تلك الليلة نزل ضيفاً على الأعراب. البدو الرحل قدموا قهوة خضراء للضيف الغريب. هو، في المقابل، اقترح أن يشاركوه ما يحمل من طعام قليل. بينما يسقي فرسه تلك الليلة من بئر الأعراب، رأى مُذنّباً يعبر السماء ويسقط وراء الأفق. بعد ليلتين، في خيمة شَعْرٍ أخرى، تناول خروفاً مشوياً مع أعرابٍ يحتفلون بختان أحد الأولاد.

ذات عصر اشترى بطيخاً من إحدى المزارع. كان العطش ينهكه وقد ابتعدت به الدرب عن دجلة. ألقى القشور للفرس.

حين بان النهر أدرك أن عليه العبور إلى الجانب الآخر. ربت على عنق الفرس. كانت تلهث لهاثاً ساخناً في الجو الخريفي البارد. تركها وألقى نفسه في الفرات.

حين بلغ الجانب الآخر سمع أسنانه تصطك من شدة البرد. وسمع نباح كلاب. ثم رأى ناراً بعيدة في عتمة أول الليل. أنقذته النار، والرجل الذي أعطاه إناء من حليب الإبل. مرة أخرى انتابه ذلك الإحساس الغريب: أن الأقدار تتآمر معه.

في الأيام التالية عَبَر بلدة عوينات، ثم منطقة العوجة. من العوجة حملته سيارة أقارب عمه حسن إبراهيم إلى الصحراء المفضية إلى الحدود السورية. أحد الأقارب أخبره أنه زار بيت أمه في شويش وأنه يعرف شقيقه سبعاوي وشقيقه برزان أيضاً. هزّ صدام رأسه ولم يقل شيئاً. حركة السيارة المضطربة على طرق الصحراء الوعرة كانت تؤلم جرحه. فكّر أنه نسيّ أمر أمه وعمه وأخوته. ثم فكّر أنهم ليسوا فعلاً إخوته.

حين انتهت الطريق ترجلوا من السيارة. امتدت الصحراء بلا نهاية. على حمارٍ تابَعَ صدام حسين رحلته مع دليلٍ لا يتوقف عن الحكي لحظة. كان الدليل يشير إلى قطعان ماعز على تلال صخرية بعيدة، إلى نباتات شوكية تنمو بين صخور البرية، إلى غيوم في الأفق، إلى آبار مهجورة، إلى سرابٍ، ويذكر أسماء، ويروي حكايات غير متصلة، بأسماء كثيرة يعرفها هو جيداً لكن السامع لا يعرف عنها شيئاً، ولا يعنيه أن يعرف عنها. حين نفدت مياه الجعب، شربوا مياه الأمطار المتجمعة في حفرٍ مؤطرة ببعر الأغنام. كانوا يسرون الليل ويختفون نهاراً في الكهوف. طائرات سلاح الجو تهدر في السماء كل ظهيرة، صوتها في الصحراء نذير زلازل. حين رمق صدام حسين دليله بنظرة غضب، كفّ عن الكلام نهائياً.

أحسّ صدام حسين أنه يسلك طريقاً دائرياً، بلا بداية ولا نهاية. ذات ليلة، في نور النجوم، وقد انتابه شعور بائس أنه لن يبلغ الحدود العراقية ـ السورية أبداً، رأى أضواء تلوح في البعيد. الدليل كان مشغولاً بتلمس جروح جديدة في قوائم حماره البليد.

أشار صدام إلى الأضواء البعيدة، وسأل الدليل ما هذه الأضواء، أهي الحدود؟

ضحك الدليل وأخبره أنهما قطعا الحدود في الليلة الماضية. قال:

ـ هذه التي تراها هناك مدينة البوكمال... سورية.

من البوكمال إلى دير الزور إلى دمشق نام صدام حسين في بيوت رفاقٍ بعثيين تنافسوا على الاحتفاء به. القيادة البعثية في دمشق كانت جزءاً من السلطة التي تحكم «الجمهورية العربية المتحدة». في بيوت الرفاق رأى صدام حسين صور جمال عبد الناصر وميشال عفلق معلقة جنباً إلى جنب. خلال يومه السابع في الشام أُبلغ أن الرفيق ميشال عفلق، الأب المؤسس للحزب، يريد أن يراه.

ذاهباً إلى الموعد في «الصالحية»، تحت رذاذٍ خفيف يهطل على دمشق ويغلف جبل قاسيون بغلالة نورٍ معتمة، انتبه صدام إلى إحساسٍ غريب يتدفق في جوفه. هو الذي لم يترك الحزن يوماً يتسرب إلى وعيه، أحسّ تلك اللحظة بما يشبه الحزن: أحسّ حنيناً إلى بغداد. كان خارج العراق للمرة الأولى في حياته.

محاطاً بالرفاق في بهوٍ واسع، قبل الدخول على الأستاذ ميشال عفلق في مكتبه، عَلِم صدام حسين أن السلطات العراقية عمّمت صورته على مراكز الأمن في كافة أنحاء العراق، وأن مكافأة نقدية عُينت لمن يقبض عليه، أو يدلي بمعلومات تفيد في القبض عليه. كان أحرق قبل شهور كل صوره الفوتوغرافية تحسباً لظروف مشابهة. لكن رجال الأمن

عثروا على صورة لصدام حسين في ملفه في ثانوية الكرخ واستخدموها.

في المكتب الكبير المبلط بالفسيفساء الأموي عانقه ميشال عفلق (الرجل الأقصر قامةً بين الحاضرين) مُرحِباً:

ـ أهلاً، أهلاً.

أعضاء القيادة أبدوا ترحيباً مماثلاً عندئذٍ. الرفيق العراقي الشاب الهارب من بغداد بعد أن أطلق النار على العقيد عبد الكريم قاسم، جلس على الكنبة الخشب المنقوشة إلى يمين الأب المؤسس لحزب البعث، بذقنٍ حليقة وبذلة سوداء مُعارة من الحزب، وأحسّ بحكاك خفيف فوق شفته العليا. أثناء رحلة الهروب الطويلة نبت له شاربٌ أسود كثيف، واستعادت بشرته ذلك اللون القاتم الذي كان لون جلده في أيام حقول الشوك المشمسة في شويش.

بعد القهوة أصغى إلى نقاش عن وضع الوحدة الحالي بين سورية ومصر وما يهدد هذه الوحدة من أخطار. استغرب عدد المجلدات المتشابهة في الخزائن العالية ذات الزجاج. كانت يده اليسرى على القماش الثمين بين ساقه وساق الرفيق المؤسس، تحمي جرحه من أي احتكاك غير مرغوب.

انتبه الأستاذ عفلق إلى اليد، فسأله كيف صار الجرح. كان هذا السؤال الأول في اللقاء الأول بين الرجلين. أجابه صدام حسين:

ـ هذا خدش. الشاش لمنع الالتهاب من...

قَطَع العبارة في نصفها. الفكرة وصلت. لا حاجة لإكمال العبارة. الأستاذ عفلق لم يستمع إلى الكلمات أصلاً. استمع إلى النبرة. إلى جفافٍ عميقٍ وباردٍ وإلى سلطة غامضة لا يُسبر غورها. بعد سنوات قليلة، في ١٩٦٤، بناءً على اقتراح من ميشال عفلق، انتُخب صدام حسين عضواً في القيادة القطرية للبعث العراقي.

في شباط (فبراير) ١٩٦٠ غادر صدام حسين دمشق إلى القاهرة. عبد الكريم الشيخلي استقبله على رأس مجموعة من البعثيين. كانوا استأجروا فيلا في العاصمة المصرية بعد أن فرّوا من بغداد عن طريق الأردن. في ظلال أشجار الكافور العالية، عند مدخل الفيلا، سأل صدام حسين رفيقه الشيخلي مَنْ غيرهما نجا؟ كان يعني عناصر المجموعة التي نفذت عملية الاغتيال الفاشلة.

نظر الشيخلي إلى الأرض. قال:

ـ أنا وأنت فقط.

ظلّ صدام حسين صامتاً. سأله الشيخلي:

ـ كيف كانت إقامتك في الشام؟

رفع صدام حسين رأسه عالياً. نظر إلى غيوم الشتاء تعبر سماء القاهرة، ثم أجاب بنبرةٍ حازمةٍ أصابت الشيخلي بذعرٍ غامض غير مفهوم:

ـ الملك خارج مملكته كلب.

أقام صدام حسين في القاهرة ثلاث سنين كاملة. الرجوع إلى العراق بدا في تلك الأيام المصرية البعيدة حلماً خيالياً بالنسبة إلى رفاقه القاطنين الفيلا ذاتها أمام صف أشجار الكافور العالية. صدام كان في المقابل يعلم علم اليقين أنه عائد بعد أسابيع أو شهور. لن يبعثر حياته في هذه الزاوية من الأرض. الحياة هناك، في بغداد، تنتظر عودته كي يقبض عليها.

أثناء وجوده في القاهرة انتُخب عضو قيادة فرقة في البعث ثم عضو قيادة شعبة ثم عضو قيادة فرع مصر. في الفترة ذاتها تابع دراسته الثانوية التي انقطعت بمحاولة اغتيال الرئيس قاسم، فحصل من مدرسة قصر النيل على شهادة إتمام تدريب للمرحلة الثانوية. بَرْوَزَ الشهادة في إطار خشب بنيّ ـ أحمر مجدول ابتاعه من حرفي يجلس مقابل «مقهى الفيشاوي» في القاهرة الفاطمية. الحرفي أخبره أن هذا آخر إطار فخم عنده، وأنه صنع من الخشب ذاته، وبأسلوب النقش ذاته، كل براويز تلك المرايا البيضاوية الضخمة التي يراها هناك، خلفه في «قهوة الفيشاوي». قال الحرفي إن الريس نفسه، الرئيس جمال عبد الناصر، أبدى إعجابه بالبراويز المتقنة الصنع حين جلس هنا قبل أيام وشرب في الفيشاوي فنجان قهوة سادة مع الشعب.

وزارة التربية والتعليم شهادة إتمام تدريب بسم الله الرحمن الرحيم
رئاسة هيئة القاهرة المرحلة الثانوية رقم ١١١٠٩١

تشهد رئاسة هيئة الفتوة

أن الفتى/ صدام حسين الناصري

بمدرسة قصر النيل الخاصة الثانوية بمنطقة الجيزة التعليمية حضر الفترة المقررة للتدريب بالمرحلة الثانوية المنتهية في العام الدراسي ١٩٦٠/ ١٩٦١.

وتقديره مقبول.

وتحررت هذه الشهادة بذلك.

والله أكبر والعزة للجمهورية العربية المتحدة.

صدر في ٢٠/ ٧/ ١٩٦١
رئيس هيئة الفتوة

(حسين جمال نظيم).

الإقليم الجنوبي

رئاسة هيئة القاهرة

في دمشق سأله الأستاذ عفلق ماذا يحتاج البعث العراقي للوصول إلى السلطة.

صدام حسين أجاب بكلمة واحدة:

ـ القوة.

واقفاً في ميدان التحرير في القاهرة ينظر إلى الترولّلي رقم ١٧ عابراً، والناس يتدافعون في داخله ويتمسكون بالماسورة، فكّر صدام

حسين مرة أخرى في حواره مع الأب المؤسس. القوة موجودة في الجيش، الكل يعلم هذا، لكن الجيش ليس بعثياً، وهنا جوهر المشكلة.

يرجع إلى الفيلا في وقتٍ متأخر. يستند إلى شجرة والدخان يتصاعد من سيجارته، فيرسم غيمة زرقاء حول رأسه. الليل يقترب من نهايته، وعما قليل يعبر بائع اللبن أمام العمارات المقابلة، وتنفتح أبواب الشقق لتستلم منه اللبن نساء نصف نائمات. صاحب قدرة الفول يقف الآن في الميدان يضع الأطباق الصغيرة المطلية بالقيشاني الأزرق والأبيض متجاورة على سطح عربته، يملؤها بالفول الساخن ويضيف إليها الزيت الحار وقليلاً من الملح والشطة وسلطة من الطماطم والجرجير والبصل. سوف يأتي عمال الورديات المبكرة بأوفرولات زرقاء، أو صعايدة بجلابيب وعمم بيضاء ويأكلون إفطارهم وهم واقفون، والبخار يتسرب من أنوفهم وأفواههم كأنهم ينفثون دخان سجاير. عمال النظافة الآن يجمعون القمامة من فوق الأرصفة بمكانسهم الطوية ثم يضعونها في مقاطف مصنوعة من ورق النخيل يحملونها بعد ذلك إلى العربة المربوطة إلى حمار. يمر الأوتوبيس نصف فارغ. والتلميذات الصغيرات يسرعن صاخبات نزقات يتفززن بالحيوية إلى مدارسهن. خادمات الطلبة المغتربين يعبرن الميدان. رجال أمن في البذلة السوداء بالربطة الزرقاء حول الزند والخط الأحمر العريض الذي يزين قبة القبعة السوداء، يقفون أمام محل صُفت على طاولة أمامه صدور الكشري والطعمية ورقاقات البطاطس المقلية، والمخللات. في زقاق ترابي مجاور تجري مياه في قناة، وعن الجانبين باعة يتثاءبون، ونساء على الأرض أمامهن أقفاص خيزران تعج بالأرانب والحمام والدجاج، وسلال قصب طافحة بأرغفة العيش الساخنة، وأكياس منتفخة بمكعبات جبن بلدي أو ببيض دجاج.

يمشي كل الوقت. حركة جسمه تسمح له بالتركيز الذهني. في

رأسه يبني خططاً طوال الليل والنهار. ميدان التحرير. شارع سليمان باشا. الجامعة الأميركية. مبنى المحاضرات مكتوب فوق قنطرة مدخله بالأخضر: ١٩٢٧. وقبالته المجمع العلمي المصري تأسس سنة ١٧٩٨. يرى كل ذلك ولا يراه. وجهه ينعكس في زجاج نافذة الترولللي المزدحم. يضربه هواء خماسيني مترب جاف. الصيف حلّ قائظاً منهكاً. دخان المازوت تطلقه عربات الشحن الضخمة. رائحة الزيت المغلي تتراقص على سطحه أقراص الطعمية. عليه أن يتسجل في كلية الحقوق. بخور ينبعث من محل بيع العصير. يتسجل إذاً في جامعة القاهرة. رائحة تفل قصب السكر الذي أخذ يتخمر. رجل أربعيني بدين يعبر بعينين تنظران إلى سماء سوداء كابية. لا ينتبه إلى حيث يسير. صدام تعمّد الاصطدام به. بكتفٍ قوية أزاحه إلى جانب الرصيف. الرجل الأربعيني أفاق من شروده مرتبكاً. اعتذر للشاب الأسمر الداكن الملامح ثم تابع سيره واختفى بين مئات آلاف البشر الذين يزحمون المدينة. صدام راقبه فترة، راقبه حتى اختفى وسط الحشد، وفكّر أن كل هذه الملايين المضطربة حوله تعيش تلك الحياة نفسها. كان يُحدّث نفسه قائلاً إنه ليس واحداً من هؤلاء.

كوبري النيل. القصر العيني. كوبري الجامعة. الشارع المشجر الذي يفصل حديقة الأورمان (ملقى العشاق) عن حديقة الحيوانات. شارع ينطلق كالسهم إلى باب جامعة القاهرة. النصب والقبة. في الليل تأخذ العمارات ملامح عمالقة وأشباح. يمضي مع رفاقه إلى مقهى من المقاهي المطلة على النيل. أحد الرفاق، حسن عبد الإله، يتحدث عن الأشجار والحيوانات طوال الوقت. يجلسون في الكازينو أو على ظهر مركب يرتجف مع النهر ويتهادى. يشربون ويدخنون ويتحدثون. يحسبون كلماتهم أمامه. يعلم ذلك من انقباض الخطوط في جباههم. يخشون حدّته. قبل أيام أنَّبَ رفيقاً في التاسعة والثلاثين، عنده عائلة وحفنة أولاد خلفه في الوطن. الرفيق أبو علاء الذي يكبرهم سناً بدا

حائراً أمام العبارات القاسية. لم يعرف أنه تحت المراقبة. اعتاد الجلوس مع الناطور بسيوني في مدخل العمارة المقابلة كل عصر. الناطور من عمره أو أكبر بسنوات قليلة. يجلسان ويتكلمان عن النساء والأولاد والحياة. بسيوني يحب الأكل ويحكي عن الأكل طوال الوقت. يقول إن الإفطار هو أصل الطعام. كل صباح يتناول الإفطار ذاته. طبق فول غارق بزيت الذرة، ستة أقراص طعمية، ثلاث بيضات، طبقان من سلاطة القوطة مع الشطة، طبق طرشي وثلاثة أرغفة خارجة من الفرن. لكن المشكلة أنه لم يعد يحس بطعم الأكل ولا بالشبع. يقول إن عليه أن يتوقف. لكنه لا يعرف كيف. الرفيق أبو علاء يذهب معه أحياناً إلى الزمالك ويجلسان معاً في مقهى في شارع البرازيل. يشربان الشاي وبسيوني يأخذ من الجرسون بضاعته. يذهبان أيضاً إلى حواري بولاق أبو العلا. شارع رئيسي يمتد باستقامة، وعنه تتفرع الحواري الضيقة. تلتف وتدور، حتى لتفاجأ بأنك دخلت أحد البيوت بينما تظن نفسك أنك ما زلت في الشارع. بسيوني يخبره أنه عمل مع جميع الخواجات: الإنكليز والألمان والأميركان والفرنسيين. «الأميركان دول أولاد بلد صحيح». يسأله أبو علاء هل عمل مع الخواجات الإيطاليين؟ «همه الطلاينه خواجات؟ دول مصريين». في غرفة بسيوني في أسفل العمارة، بينما يشربان الشاي، رآه الرفيق أبو علاء يُخرج من بيت المخدة قطعة سوليفان ويفتحها برؤوس أصابعه. فهم عندئذٍ لماذا سماه الجرسون «الراجل الأفيونجي». أراده بسيوني أن يشاركه الشاي والأفيون معاً. الرفيق أبو علاء تردد ولم يمدّ يده. بسيوني وضع قطعة الأفيون الصغيرة على لسانه، قَلَبها مرّات في فمه، ثم شرب الشاي المغلي برشفات كبيرة. غامت عيناه وبانت ابتسامة عريضة على وجهه. الرفيق أبو علاء أبعد عينيه عن الوجه المبتسم ونظر عبر الزجاج المتسخ إلى الباحة الخلفية المهجورة بالثياب المغسولة والمنشورة على سلك ممدود بين شجرتين مغبرتين. أراد أن يبكي.

أبو علاء تذكّر تلك اللحظة (مشهد الغسيل الملون المنشور في الغبار وراء زجاج النافذة المتسخ) بينما الرفيق صدام حسين ينهال عليه تقريعاً لجلوسه كل يوم مع الناطور الأبله السكران الغبي الحشاش. سأله أين احترامه لذاته، وأين احترامه للحزب؟ السؤال الأخير كان تهديداً بالفصل. الرفاق الآخرون المتحومون حول الرجلين في بهو الفيلا سمعا في النبرة الجليدية تهديداً لا بالفصل فقط وإنما بالإعدام أيضاً. أحد هؤلاء أصبح في عام ١٩٧٥ وزيراً للتعليم في بغداد، لكنه ما لبث أن فرّ من العراق عام ١٩٧٨، وروى في مقابلة مع صحيفة ألمانية عام ١٩٨٣، أنه لا ينسى منظر ذلك الرفيق الأبيض الشعر واقفاً أمام صدام حسين ووجهه يرتجف بالبكاء. بعد أسبوعين انتبهوا أن الرفيق أبو علاء لم يأتِ إلى الفيلا منذ أيام. هكذا اختفى الرفيق أبو علاء.

الرفاق المصريون البعثيون نظموا جولات لصدام حسين ورفاقه العراقيين في قاهرة المعزّ. جالساً في المقعد الأمامي قرب السائق الإسكندراني نظر صدام حسين إلى جبل المقطم يظهر عبر ضباب قاتم متموج. أشار السائق إلى البيوت المتناثرة أعلى الجبل. بعد مساحات خلاء أطلت قناطر رومانية. هذه هي القاهرة القديمة. أهل البلد يسمونها «قاهرة عتيقة». هذا مجرى العيون. فوق هذه القناطر بنى الأسلاف قناة ماء. الإبل كانت ترفع الماء من النيل إلى القناة والقناة تأخذ الماء إلى القلعة. أميال وأميال وأميال. ركنوا السيارة بعد الأحياء المكتظة وترجلوا. هبطوا درجاً في جانب زقاق. فكّر صدام حسين أن الدرج يفضي إلى بيت أو قبو أو سبيل ماء. حين بلغوا أسفل الدرج التفت فرأى أمامه شارعاً يمتد بعرض مترين بين حائطي طوب. رأى شارعاً تتفرع منه شوارع. مدينة كاملة تحت مستوى الأرض. بيوت وكنائس وأزقة وأبواب خشب عتيقة وناس يقيمون في قلب حفريات الآثار.

الرفاق أبدوا الدهشة أمام المناظر. أمام جامع السلطان حسن نظروا طويلاً إلى قلعة صلاح الدين التي تتوج الهضبة. صدام حسين وضع رأسه في الأرض ودخل الجامع غارقاً في أفكاره. تحت قبة يزيد ارتفاعها عن ٤٧ متراً، وسط حيطان من الغرانيت الصلب كالفولاذ، سأل نفسه ماذا يفعل هنا. كان الرفيق الإسكندراني يقول إن حجارة من الأهرام أنزلت في هذه القبب، وأن السلطان حسن كان لا يزال في الواحدة والعشرين حين بنى هذا الجامع، جامع من عجائب العمارة الإسلامية. أعطاه صدام حسين ظهره ومشى في ممرات تتفرع كالمتاهة حتى بلغ صحناً مربعاً بمساحة غرفة صغيرة. رفع رأسه فلم يرَ سقفاً. كانت حيطان الغرانيت ترتفع نحو خمسين متراً، وفي الأعلى: السماء. لا سقف هنا، فقط الغيوم. الحيطان السميكة امتصت كل صوت. الرفيق الإسكندراني اقترب منه، لمس كتفه، وسأله ألا يجد هذا الصحن بالذات مدهشاً؟ صدام حسين أزاح اليد اللينة عن كتفه، وقال إن هذا الصحن بالذات هَنْدَسه أحمق أو مغفل.

ـ ماذا يفعلون في الشتاء؟ يسقفونه بالقصب؟

تلك الليلة كتب رسالة إلى عمه حسن إبراهيم يطلب منه فيها أن يذهب على الفور إلى خاله خير اللّه طلفاح، كي يزوره ويطلب له يد ساجدة. بعد أسابيع وصل الردّ مع تاجر عراقي. كان صيف ١٩٦٠ ينتهي. رابطة الطلبة العراقيين في القاهرة نظمت حفلة في مناسبة عقد صدام حسين قرانه على ابنة خاله ساجدة خير اللّه وهو بعيد عنها. في صورة فوتوغرافية التقطت أثناء الحفل، وحُفظت لاحقاً في أرشيف القصر الرئاسي في بغداد، يظهر صدام حسين ابن الـ ٢٣ عاماً واقفاً ببذلة داكنة اللون يظهر من جيبها العلوي منديل أبيض طوي بأناقة. حوله يحتشد رفاق بعثيون ولاجئون سياسيون يعيشون في العاصمة المصرية. على طاولة، في الزاوية السفلى للصورة، باقة زهور بيضاء في مزهرية زجاج. صدام، بشارب أسود خفيف وقميص أبيض،

لا يضع كرفاقه ربطة عنق، لكنه يبادلهم الضحك.

اعتاد أن يقرأ «الأهرام» كل صباح، وما يصل إلى مصر من صحف عراقية. راقب أسلوب عبد الناصر عن كثب. الكاريزما القادرة على جذب كل هذه الجماهير بحماسة العبارة وجمال الصوت. على الراديو بدا صوت عبد الناصر، بين صوتي أُم كلثوم وعبد الحليم حافظ، بالنسبة إلى صدام حسين، الصوت الأشد تميّزاً بين الثلاثة. في مصر كما في سورية ولبنان واليمن وباقي الأقطار العربية تستجيب أمواج الحشود لكلماته كأنه لمس وتراً سرّياً في أعماق كل واحد منهم. «لأنه ضد الأجانب؟» صدام حسين لم يقتنع بذلك. حين أراد عبد الكريم قاسم أن يضم الكويت إلى العراق في ١٩٦١، وقف جمال عبد الناصر (عدو قاسم اللدود) إلى جانب الإنكليز المساندين لإمارة الكويت. هذا التحالف اضطر الرئيس العراقي قاسم إلى التراجع. صدام حسين من منفاه راقب تلك اللحظة الحرجة وقال إنه الآن تعلّم درساً جديداً.

قرب ميدان التحرير عثر على بسطة كتب قديمة محجوبة عن أشعة الشمس بمبنى فيكتوري الطراز ضخم. واقفاً هناك، وقوس قزح يرتسم مشعاً فوق المتحف المصري، تصفح صدام حسين كتباً كثيرة عن الاتحاد السوفياتي وهتلر والامبراطورية الرومانية وجوزف ستالين ونستون شرشل والحرب العالمية الأولى. كان يُعاني ضيقاً مادياً. حين أعلنت سورية الانسحاب من الوحدة في ١٩٦١ أقدمت مصر (الإقليم الجنوبي في الجمهورية العربية المتحدة) على خفض المخصصات التي كانت تدفعها للاجئين البعثيين العراقيين على أراضيها. في بعض الشهور كانت الحكومة المصرية تتوقف عن دفع المخصصات كلياً. في الوقت نفسه ضاعفت المخابرات المصرية رقابتها على البعثيين.

ذات أصيل، عائداً من الجامعة، وجد صدام حسين البستاني في

مدخل الفيلا يحمل مقص تشذيب الأشجار بيدٍ وورقة باليد الأخرى.

قال له البستاني:

ـ ورقة لحضرتك من البتوع. . .

ولم يكمل.

أمسك صدام حسين الورقة وهو يعرف تماماً ما فيها. قرأها واقفاً:

«السيد صدام حسين.

الرجاء حضورك إلى مبنى وزارة الداخلية في الثامنة لمقابلة الرائد غالب سلامة للأهمية، والشكر مقدماً. . .» ثم التوقيع.

في المطبخ أعد طعام العشاء. كانت الفيلا فارغة. تحولت في الآونة الأخيرة إلى مكان للنوم فقط. حين يأتي باكراً كما اليوم يحظى بوقت هادئ للتفكير والاستراحة، وحيداً مع نفسه. قلى بيضتين بالسمن، وحمل المقلى مع خبزٍ وثلاث حبات خيار إلى الشرفة. كان ضوء النهار يتلاشى.

في الصباح أعلم الرفاق أنه ذاهب إلى الداخلية، وأعطاهم اسم الرائد. عبد الكريم الشيخلي قال إن هذا هو الرائد ذاته الذي حقق معه قبل أيام. لا تحقيق ولا من يحزنون. مضايقات فقط. حسن عبد الإله قال إنه رائد لطيف عموماً.

بعد خمسة شهور دخلت المخابرات إلى الفيلا وعبثت بأوراقهم خلال غيابهم نهاراً. ذات فجر استيقظوا على الطرقات. هذه المرة أخذوهم إلى السجن. سمحوا لهم قبل ذلك أن يرتدوا ثيابهم وينتعلوا أحذيتهم. في الخارج كان الهواء رطباً. من نافذة الشاحنة ذات شبك الحديد، بان النيل مثل حيوان أسطوري مبرقش الظهر بأنوار الكهرباء.

خرج صدام حسين من السجن بعد شهر. حين رأى نور الشمس أحسّ بحريقٍ في عينيه. ذهب إلى الفيلا فرأى بوابتها الحديد موصدة، والورق اليابس يغطي الدرج.

انطلق إلى مركز الحزب فوجده مختوماً بالشمع الأحمر. ذهب إلى فندق شبرد وسأل عن بعض معارفه من التُجار العراقيين. لم يجدَ أحداً. في فندق سميراميس المقابل بأعمدته الرخام وباحته الفسيحة، والذي سيُهدم في أواخر السبعينات ويرتفع في مكانه سميراميس حديثٌ زهري اللون، وجد عراقياً واحداً مسجلاً في قائمة النزلاء. موظف الاستقبالات أعطاه رقم الغرفة بينما يطوي النقود ويدفعها في جيبه العميق. الرجل العراقي كان من كربلاء.

ـ أنت صدام حسين!

صافحه بحرارة وأخبره أنه سمع أخباراً كثيرة عنه. لم يكن الرجل بعثياً، ولكن بدا واضحاً أنه شديد التأثر بالمقابلة. قال إن والده حارب مع العقيد البكر. قال إنه لم يرَ بغداد منذ سنوات. ثم أنهى كلامه بجملة حزينة:

ـ أبي قتله الشيوعيون.

قطعا الكورنيش إلى الرصيف، وجلسا على الكراسي يتفرجان على النيل ويتحدثان. عوامات ومراكب تطفو على سطح الماء، وفي الجانب الآخر أنوار الهيلتون والعمارات العالية القليلة المتباعدة. كان الليل مخترقاً بأبواق سيارات عابرة وبأغانٍ تتعالى من العوامات. استمع إلى الرجل الكربلائي يروي أحزانه، وينشد أبياتاً لزهير بن أبي سلمى ومحمد مهدي الجواهري، بينما المراكب تهتز على النيل بأسمائها الغريبة: الهرم، الريس، سيدي عبد الرحيم، ماجدة، زغلول، نزهة الحسان، أم علي... تحت الدرابزين الحديد، على الشاطئ وفي ظلال أشجار الخروع المتدلية الأغصان العريضة الأوراق، تباعدت مجموعات من البحارة في عباءات صعيدية، حول نيران صغيرة، يستدفئون ويشربون الشاي ويدخنون الأراكيل.

صباح اليوم التالي ذهب إلى وزارة الداخلية، وسجل اسمه ووقّع

وبصّم بإبهامه. الرائد أكد له أن الفيلا مفتوحة طبعاً، وأن المفتاح موجود في المخفر في نهاية الشارع، قرب بسطات الخضر.

ـ تعرف بسطات الخضر؟

لم يقل صدام حسين شيئاً. الرائد ودّعه بابتسامة. حين وصل الفيلا وجد أن أربعة من رفاقه سبقوه إليها. حسن عبد الإله قضى الليلة عند الناطور بسيوني، في العمارة المقابلة. كشف لهم حسن عبد الإله أن الرفيق أبو علاء يعيش في المقابر، وأن بسيوني يراه من حين إلى آخر: الرجل فقد عقله، يعيش بين الأموات بذقنٍ طويلة وثيابٍ رثة. ولم يعد يتكلم.

أثناء انعقاد قمة عدم الانحياز في كوبا أواخر ١٩٧٩، بينما يدخن السيجار الكوبي وإلى جانبه الرئيس فيدل كاسترو يقود الجيب العسكري المكشوف، رأى صدام حسين رجالاً يجلسون حفاة وشبه عراة أمام مخزن قطن كُوِمت فيه البالات. كانوا يضحكون متحومين حول نار تشتعل في برميل حديد مقصوص، يتكلمون ويبصقون قشور دوّار الشمس على الرصيف. نور الغروب أضاء وجه واحد منهم. صدام حسين، القادم إلى هافانا من بغداد بصفته الرئيس الجديد للجمهورية العراقية، أثار ذلك الوجه الداكن استغرابه. أحسّ أنه يعرف هذا الوجه الداكن بشعره الأبيض. ألسنة النار تموجت صاعدة من فوهة البرميل وصنعت سراباً بين الجيب والرصيف. غار الرئيس العراقي في أعماق ذاكرته يُنقِب عن ذلك الوجه بين ألوف الوجوه التي رآها، كمن يبحث عن درهم في صندوق معبأ بالنقود. لم يعثر على ما يبحث عنه. هواء هافانا البارد الرطب عبث بشعره. كادت القبعة العسكرية تطير عن رأس الرئيس الكوبي. في عتمة أول المساء، بينما أنوار الكهرباء تشتعل في تلك الجزيرة البعيدة الراقدة في الأطلسي، تذكر صدام حسين الوجه القديم: وجه رفيق بعثي أقام في غرفة تقابل غرفته في فيلا في القاهرة أيام منفاه المصري. تذكر الوجه لكنه لم يتذكر الاسم. استغرب أن

يكون احتفظ في لاوعيه بوجهٍ لا يعني له شيئاً إطلاقاً. أن يحفظ وجهاً خالياً من أي ملمح قوة! حيَّره ذلك. كان أيقن منذ زمنٍ باكر أن على الواحد تنظيم ذاكرته. اعتبر الذاكرة خزانة تتسع لعددٍ محدد من الجوارير والرفوف، والجوارير والرفوف بدورها تتسع لعددٍ معيَّن من المعارف والمعلومات. عليه تنظيف الخزانة باستمرار. كي تتسع للجديد. الذكريات غير المفيدة، غير العملية، ليست فقط بلا ضرورة، إنما هي أيضاً عقبة في وجه التطور. بعد أن صار «رجل بغداد القوي» اعتاد أن يجمع المشرفين على «وزارة التربية والتعليم» وأن يحاضر فيهم. خلال خريف ١٩٦٧، بعد وصول «البعث» إلى السلطة، أشرف على عمليات تعذيب وانتزاع اعترافات ـ وذكريات ـ في «قصر النهاية». رأى في أيام قليلة عدداً من الوجوه عن مسافة قريبة يفوق ما رآه خلال سنوات. في الخريف التالي كان نسي كل تلك الوجوه. حتى ذلك الوجه المخطوف اللون لرجلٍ رفعه من ياقته فجأة، بلا أي كلام، فور دخوله غرفة التعذيب، حتى ذلك الوجه المغطى بالرعب زال من ذاكرته. شيعيٌ نجا من التعذيب ونال حق اللجوء السياسي في أوروبا، روى أن رجل بغداد القوي دخل مرة غرفة التعذيب، رفع رجلاً رفض الكلام من ياقته، أسقطه في حوض الأسيد، ثم راقبه يذوب.

خلال العام الثاني في المنفى المصري راقب الشاب صدام حسين أسلوب عبد الناصر في الحُكم ووصل إلى خلاصات لن ينساها بعد ذلك. يمكن للحاكم أن يضرب الأحزاب، ويُسمح له حتى أن يرمي حلفاءه في السجون، ولكن بشرطٍ واحد: الاحتفاظ بالقدرة على إقناع النفس بصواب أفعاله. إذا اقتنع هو، لا بدَّ أن تقتنع الجماهير. إذا اقتنع هو، وبالدهاء الكافي، يستطيع إقناع الجماهير.

عبد الكريم الشيخلي قال إن ذلك ينجح مع عبد الناصر لأنه صاحب أسلوب خطابي، ولأن الناس يرغبون في تصديقه. قال لصدام حسين:

ـ ينجح لأنهم يحبونه.

هزّ صدام حسين رأسه. كان يدرك أن هناك درباً آخر. «إذا لم يحبوك علّمهم أن يخافوك»، قال لنفسه. بعد أيام، متابعاً حبل الأفكار ذاته، بلغ استنتاجاً آخر: «وإياك أن تكشف مركزك الحقيقي، مقدار قوتك، قبل أن يدرك الجميع أنك فعلاً مصدر خطر، أنك الأقوى والأشرس». كان هذا يعني بالنسبة إليه البقاء تحت الأرض، إدارة اللعبة من وراء الكواليس، بانتظار اللحظة المناسبة: لحظة سقوط الخصوم جميعاً (العالم كلّه) في الفخاخ التي نصبها بصبرٍ وأناة. في صحيفة عراقية صفراء قرأ حواراً للأستاذ ميشال عفلق أجراه بدر شاكر السياب.

التقى في الجامعة فتاةً من أصولٍ لبنانية تدعى سالي نمر. في حديقة الأورمان، بينما يأكلان ذرة مشوية، أخبرته أن أباها خسر بالتأميم نصف ثروته. كانت تحمل كتاباً عن الثورة البلشفية، وآخر عن الكنيسة في العصور الوسطى. دعته إلى زيارتها في بيت أهلها في المعادي. أخبرته أنها تذهب إلى لبنان كل صيف، وأن جدتها لأمها تعيش في قرية مشهورة بالزيتون وزيت الزيتون تدعى حاصبيا. كان يستمع إلى كلماتها، إلى موسيقى صوتها. ينظر إلى عنقها، إلى بياض العنق، ويفكر أنه لا يفهم هذه المخلوقات. ما هذا الذي تحكي عنه؟ في أي عالم غريب غامض عبثي تحيا؟ فستانها الأصفر، بالدوائر البيض على قماشته، بدا جزءاً من أرض الربيع. تحت سماء زرقاء نقية اقتربت منه مرتفعة على رؤوس أصابعها، في ظل الأشجار، وقبّلت فمه. أمسكها بعنقها ثم لم يعرف ماذا يفعل بها. استدار ومضى مبتعداً. تلك الليلة ذهب إلى عوامة على النيل يرتادها رفاقه أحياناً. لم يجد الأمر مختلفاً عن المرات الأخرى. لكن اللهجة المصرية للمرأة أغاظته. لهجة المرأة، أو ذكرى تلك الفتاة اللبنانية بفستانها الأصفر لا يدري. كان غيظه هذه المرة يأكله، كأن قطيعاً من الضباع يقضم أعضاءه الداخلية.

رفع بنطاله وأصلح قميصه. المرأة كانت مدعوكة على السرير بوجهٍ مظلم. لمّت البطانيات عليها وأبعدت ساقيها إلى الجانب الآخر. في الخارج أحسّ العالم عدائياً أكثر من العادة. أحسّ العالم مسنناً، كتلة من الشفرات، من أسنان مغروزة في الفضاء حوله، تطبق عليه. أوجعه جرح فخذه. مع قنينة من خمرة الروم الكثيفة الحمراء مشى تحت أشجار الخروع المبللة، والنيل يجري قرب قدميه. حشرات الشاطئ خربشت بين الأوراق. العالم العدائي، كل تلك الشفرات، كل تلك العيون، وهؤلاء الذين يخططون سراً، كل لحظة، كل لحظة، كل لحظة، لا أحد يرتاح، لا أحد... جلس على درجٍ، الكورنيش خلفه، النيل تحته، العالم ساكن يضطرب برعب سرّي، وأنوار الكهرباء ترتعش تحت الصفحة القاتمة. قلب القنينة على فمه، يشرب ويدخن سيجارة تلو أخرى، حتى بدأ الألم في زلعومه.

بعد يومين التقى تلك الفتاة اللبنانية في مدخل الجامعة. هي رأته في اللحظة نفسها. وضعت مجموعة من الطلاب العابرين، بينها وبينه، ثم أسرعت في الاتجاه الآخر. راقب خطاها الخائفة السريعة بطرف عينه ثم تابع طريقه. بعد ذلك لم يكلمها أبداً. لكنه خلال زيارة إلى موسكو للقاء القيادة السوفياتية عام ١٩٧٧ رآها في منام. بعد ١٦ سنة على ذلك التلامس المربك في حديقة الأورمان (أصابعه كادت تدق العنق البيضاء الحارة)، بينما ينام في غرفة مشرفةٍ على ساحة الكرملين، أيقظه في نصف الليل منامٌ. نسي المنام قبل أن يفرك النعاس بأصابع قاسية عن رموشه. تناول كوب الماء عن الكومودينة جنب السرير وأضاء المصباح. على الكنبة المقابلة «قلبق فرو» هدية من الرئيس بريجنيف. زجاج النافذة مغطى بالجليد. العالم مظلم وفمه ناشف كالحطب. ملأ الكوب من الإبريق. بينما يشرب تذكر المنام: فتاة لبنانية عرفها فترة قصيرة قبل زمن بعيد، حين كان هارباً في القاهرة. في المنام رآها ما زالت في العمر ذاته، لم تكبر يوماً واحداً، في ذلك

الفستان نفسه، ترفع جسمها على رؤوس أصابعها ثم تُقبل فمه. مدّ ذراعه وأطفأ المصباح.

قال في ظلام الغرفة الكبيرة الساكنة:

ـ يا ابن الكلبة! في الأربعين تُراهق!

في حدائق قصر محمد علي (القصر حيث قضى مؤسس الدولة المصرية الحديثة أيامه الأخيرة سجيناً) تفرج صدام حسين على أصناف صبارٍ لا يوجد مثلها في مكانٍ آخر على وجه الأرض. أحسّ الزهور الدقيقة الصفراء، البرتقالية، والبنفسجية الضاربة إلى الزرقة، كأنها تُنقص من سطوة هذا النبات الصحراوي الشائك. كأنها تموه قسوته. أمام شجرة صبار رمادية اللون، وقف ساعة يحدق إلى الورق الجاف الصلب العريض كأنه ينظر إلى المستقبل. في حديقة الحيوان المجاورة للجامعة اعتاد الجلوس أمام قفصين، يراقب حركة نمرٍ هندي أصفر مخططٍ بالأسود في القفص الأول، وعراك الضباع الوحشي في القفص الآخر المقسم بقضبان حديدٍ رفيعة إلى مساحات مربعة، يتسع كل مربع منها لضبع واحد. كانت الضباع تتعارك عبر القضبان. أحياناً تلتحم بالأسنان، أو تنهش أذيال بعضها بعضاً. حين تُرمى شقف اللحم التي تقطر دماً إلى النمر الهندي يضغطها بمخالبه على التراب ثم يولج فمه فيها. يرفع رأسه، بالفروة الذهب المشعة، والأحمر يقطر من الشارب والأنياب. العينان تتسعان، تنظران إلى رجل جالس على مقعد وراء القضبان الحديد يتفرج عليه.

بينما يغادر الحديقة المتوهجة بألوان نهاية الخريف، ابتاع صدام حسين «الأهرام» من كشكٍ، وابتاع علبة سجائر. تفرج على صورة للرئيس عبد الناصر مع أسرته. قرأ العناوين. في بهو الفيلا وجد الرفاق متحومين حول رفيقٍ مصري من الكرنك خرج أخيراً من «سجن القلعة». آثار التعذيب كانت ظاهرة على عنقه وذراعيه وساقيه. حين

كشف القميص عن ظهره بانت حروق غائرة.

في تموز (يوليو) ١٩٧٨ نُشرت للمرة الأولى صورة «صدام حسين (نائب رئيس الجمهورية) مع أفراد أسرته». الصورة ظهرت في مجلة «المرأة» التي يصدرها الاتحاد العام لنساء العراق. صدام حسين وزوجته السيدة ساجدة خير الله يجلسان على طرفي كنبة كبيرة في صالون منزلهما. بينهما تجلس البنتان رغد ورنا، أما صغرى البنات الثلاث حلا فتقف عن يمين الرئيس، وإصبعها في فمها، بينما الأب الضاحك يحيطها بذراعه. وراء الكنبة يقف الإبنان عدي وقصي. عدي ابن الـ ١٤ سنة يضع ربطة ـ فراشة سوداء، ويبتسم بجاكيت مقسمة إلى مربعات تحت شعر أسود كثيف. قصي إلى يمينه، أقصر منه بنحو ٢٥ سنتمتراً، يده اليمنى على ظهر الكنبة الخشب، ونظرته الضاحكة مسددة إلى أبيه المحاط بالأختين الصغيرتين. زوجة نائب الرئيس، السيدة ساجدة خير اللّه، تبتسم للعدسة في ثوب مقلم طولياً، وقد فتحت بين يديها عدداً سابقاً من مجلة «المرأة».

سأله عبد الكريم الشيخلي، بينما يأكلان حلوى أُم علي المصرية (رقائق الألف ورقة بالزبدة والمكسرات والكريمة) في أحد مقاهي سليمان باشا، عن أخوته من أمه: هل هم جميعاً في العراق؟ وضع صدام حسين الملعقة على حافة الصحن وقال إن القاهرة تخنقه. كان أكل ملعقتين فقط.

ـ ماذا نفعل هنا؟

في شباط (فبراير) ١٩٦٣ انتهى زمن المنفى.

صباح التاسع من شباط (فبراير)، بعد ثلاث سنين كاملة في مصر، فتح صدام حسين صحيفة «الأهرام» كعادته في صباح كل يوم، لكنه هذه المرة قرأ السطور السوداء المتداخلة كقطعان نمل بجسمٍ مرتجفٍ.

كانت الفيلا قفير نحلٍ يطن، وضحكات تفرقع. الراديو يذيع منذ الأمس أخبار المعارك في بغداد. صبيان الجورنالات يعبرون الشوارع صارخين: «انقلاب على قاسم، انقلاب على قاسم.» الأيدي تتخاطف الصحف. العيون زائغة.

عينا الرئيس عبد الكريم قاسم لم تقعا على تلك الصحف. صباح الثامن من شباط (فبراير) ١٩٦٣ أيقظه رنين الهاتف قرب سريره. الضباط في وزارة الدفاع أبلغوه أن ثمة تحركات مشبوهة للوحدات العسكرية في الجوار. فصيل دبابات كان يعبر الجسر القريب، في نور الفجر الطالع على دجلة والمدينة الهاجعة. بينما يتجه بسيارته من بيته في جنوب شرقي بغداد، إلى وزارة الدفاع في قلب العاصمة، توقف الرئيس العراقي رئيس مجلس الوزراء القائد الأعلى للقوات المسلحة منذ ١٩٥٨ عبد الكريم قاسم على الطريق مرة واحدة، وأكد لجمهرة مضطربة من مؤيديه الخارجين إلى الشارع في ثيابٍ أرتُديت على عجل أن الوضع مستتب وأن كل شيء على ما يرام ولا حاجة للقلق.

بعد ساعات قليلة، عند التاسعة صباحاً، هوجمت وزارة الدفاع بالدبابات والمدفعية الثقيلة ومقاتلات سلاح الجو. الدبابات ركّزت قنابل مدافعها على جانب مجمع المباني الذي يضم مكاتب الضباط ومكتب الرئيس من مواقع اتخذتها على جسور دجلة. مجموعة أخرى من الدبابات اصطفت في الجانب الشرقي البعيد، بمحاذاة النهر، وأطلقت مدافعها إلى قلب المجمع. تصاعد الدخان من فوهات الدبابات المهتزة المتراجعة إلى وراء بعد كل انفجار. كان النور الشتائي كابياً على معدنها القاتم. المجنزرات المتحركة على الجسور هدرت في ذلك الصباح البعيد مثل حيوانات خُرافية خرجت للتو من أعماق المياه.

الطاقم الديبلوماسي في السفارة البريطانية، على الجانب الآخر من

النهر، وقف على شرفة طويلة يراقب الهجوم على وزارة الدفاع. خلال ذلك النهار أحصى أحدهم ١٢٦ غارة جوية ضد القوى الموالية لعبد الكريم قاسم. نحو ألف جندي صمدوا في قلب المجمع المسور بالإسمنت والأسلاك الشائكة والحديد المسلح، حتى ساعات الفجر الأولى من صباح اليوم التالي، حين سقطت دفاعاتهم المنهكة أخيراً تحت ضربات المدفعية وهجوم الدبابات الكاسحة التي حطمت السور المرتفع ١٢ قدماً تحت جنازيرها.

عبد الكريم قاسم أُخذ مجروحاً إلى قبو تحت الأرض. من هناك حملوه في شاحنة عسكرية إلى مبنى التلفزيون. محاطاً بالأعداء، والدماء تنزف من ساقه، حاول السيطرة على ملامح وجهه. صنعوا، متحومين حول جسمه الملقى على كرسي، مَحْكَمةً تكرر على نحوٍ عبثي كل تلك المحاكمات الثورية التي أطلقها بنفسه في بغداد. ضربوه قبل أن يسلطوا كاميرا التلفزيون على وجهه، ثم سألوه هل وَقَّع أمر الإعدام ضد الضباط في الموصل. أجاب أنه فعل ذلك. العقيد عبد السَّلام عارف، الواقف بين الضباط ـ القضاة، تذكّر عندئذٍ كل أحداث السنوات الخمس الماضية. عبد الكريم قاسم، الرئيس المخلوع المدمى في مركز الحلقة، نظر إلى حليفه القديم عارف، استجمع ما بقي فيه من أنفاس، وقال بصوتٍ ثابت:

ـ لن تقتلني. في ١٩٥٩ كنت في قبضتي. ثلاث مرّات سددت مسدسي إلى رأسك، وثلاث مرّات لم أضغط الزناد. لن تقتلني.

في تلك اللحظة أطلقوا رصاصة في صدغه.

الثوار أعدموا في الغرفة ذاتها ثلاثة رجال آخرين، بينهم رئيس محاكم الشعب ابن عم قاسم: المهداوي. صفّوا الأجساد الأربعة على كنبة، جالسين كأنهم يتفرجون معاً على التلفزيون، ثم سلطوا الكاميرا عليهم، وبدأ البث على الهواء. أهل بغداد تفرجوا في منازلهم على

الرئيس قاسم يجلس بين ثلاثة من ضباطه على كنبة ملطخة بالبقع، ويستعد للكلام. لكن الرئيس قاسم لم يتكلم. ظلّ جامداً. عيناه بدتا زجاجيتين كالعادة. عبد السَّلام عارف، الواقف بعيداً، خارج كادر الكاميرا، انتبه عندئذٍ أن قاسم، بعينيه الجاحظتين، يبدو على قيد الحياة. همس أمراً لضابط واقف إلى جنبه. أسرع الضابط نحو الكنبة، دخل كادر الكاميرا، ورأى سكان بغداد المتجمدين في سكون كامل أمام الشاشات الصغيرة، يده ذات الأصابع الكبيرة، تقبض على رأس الرئيس قاسم من شعره وتهزه إلى اليمين وإلى اليسار. في تلك اللحظة مال جسم الرئيس وهوى على كتف ابن عمه المهداوي. الآن ظهر واضحاً وجه هذا الآخر أيضاً. كان مشوهاً بأثر الموت المرعب الذي وقع عليه في نهاية طريق حياته.

ذلك البث المباشر كان ابتكار أحد الضباط المقربين من العقيد عارف. كانت الفكرة أن رؤية الناس قاسم مقتولاً على الشاشة الصغيرة سوف تضع حداً فورياً لأي أعمال شغب وتقتل كل ثورة مضادة في مهدها. ما حدث كان العكس. أدرك الشيوعيون فوراً أنهم على قاب قوسين أو أدنى من مواجهة المصير ذاته. بينما يُخرجون السلاح من المخابئ اجتاح البعثيون بيوتهم. اندلعت الحرب الأهلية، كأن وحشاً أوقظ من النوم.

لم تكن تلك المرة الأولى. الصراع البعثي ـ الشيوعي بدأ قبل سنوات. المفارقة كانت في تفاوت القاعدة الشعبية للحزبين. الحزب الشيوعي العراقي أُسس في ١٩٣٢. عام ١٩٥٥ ضمّ نحو ٢٣ ألف عضو ناشط، وما يقارب نصف مليون مساند منظمين. «البعث» العراقي، حتى ١٩٥٦، ما كان يضم أكثر من ٣٠٠ عضو ناشط. سيطرة الحزب الشيوعي العراقي على الحشود ظهرت واضحة في ١ أيار (مايو) ١٩٥٩ حين قادت اللجنة المركزية للحزب تظاهرة جمعت الاتحادات العمالية ورابطات الشباب والنقابات والخلايا الطلابية.

نقطة التحول التاريخية في هذا الصراع ارتبطت بعهد عبد الكريم قاسم. طلب البعثيون الوحدة مع مصر وسورية، فساند الشيوعيون قاسم ضد «البعث» وضد أحاسيسِ تضاعف زخمها على وقع خطب عبد الناصر. في أيلول (سبتمبر) ١٩٥٨ سارت تظاهرات شيوعية في بغداد تحت شعار واحد:

ـ ماكو زعيم إلاّ كريم.

كان هذا ردّ قاسم على زيارة ميشال عفلق إلى بغداد قبل شهرين.

في ربيع ١٩٥٩ وقعت الحرب المنتظرة. لم تكن حرباً بل مجازر. البداية كانت الموصل. وَجَّه الحزب الشيوعي ربع مليون رجل إلى الموصل السنّية، معقل التيار القومي العربي في العراق. المدينة التي لا يزيد عدد سكانها عن ١٨٠ ألف نسمة وجدت نفسها بغتة ساحة للغرباء. بعد نهار واحد من تراجع ذلك المد الشيوعي الذي صعق الموصل كموجة واحدة عارمة، خرج البعثيون من أوكارهم وجالوا شوارع المدينة. كانت الأشجار عن جانبي الطريق مكسرة، وأعقاب السجائر تغطي الأرصفة. هاجم البعثيون مكتبات يملكها شيوعيون في قلب الموصل وأحرقوها. داهموا مركزاً حزبياً يرفع العلم الأحمر: حطموا الطاولات ورموا العناصر عن الشرفة العالية جالسين على كراسيهم ينعسون في حرّ الخامسة بعد الظهر. أنزل قاسم وحدات عسكرية لاستعادة النظام. خلال ذلك رجعت الموجة الشيوعية وانقضت على الموصل من جديد. هذه المرة جرت دماء.

طوال أربعة نهارات وأربع ليالٍ عمّت الفوضى. الكلّ يقاتل الكلّ تحت ستار واحد. انفجرت الدمامل. الكرد واليزيديون ضد العرب. السريان والآراميون المسيحيون ضد العرب المسلمين. قبيلة شمر العربية ضد قبيلة عربية أخرى. قبيلة غرغرية الكردية ضد القبيلة ذاتها. فلاحو الموصل ضد الإقطاعيين. جنود اللواء الخامس ضد ضباطهم.

أطراف الموصل ضد المركز. فقراء حيّ المكاوي ووادي هجر ضد ارستقراطية حيّ الدواش. آل رجب ضد الأغوات. الأبناء ضد الأباء. صراع القوميين مع الشيوعيين كان الذريعة: شرارة أحرقت كوم عشبٍ جافٍ. لم يلبث الأمر أن تكرر صيفاً في كركوك.

بعد أربع سنوات، عقب انقلاب ٨ شباط (فبراير) ١٩٦٣، ارتد البحر على الشيوعيين. في المرة الأولى كانت ذراعهم العسكرية في عزّ قوتها. هذه المرة وجدوا عدواً مسلحاً فتاكاً: أثناء فترة إقامة صدام حسين في القاهرة، استطاع البعث العراقي أن يجهز ذراعه العسكرية: «الحرس القومي»، بانتظار اللحظة المنتظرة.

بينما الضباط البعثيون في الجيش ينقلبون على قاسم، بتحالف عريض مع أعدائه المتكاثرين، شنَّ «الحرس القومي» بقيادة عبد الكريم نصرت الغارات الأولى على بيوت الشيوعيين. سكان بغداد شاهدوا من وراء النوافذ رجالاً في ثياب كاكية بربطات خضر تطوق الزنود، يخرجون من أقبية ومخازن وكاراجات حاملين أسلحة رشاشة تلمع في النور الشتائي.

طوال ثلاثة أيام تحولت الشوارع إلى ميادين قتال. المعارك قفزت من بيت إلى آخر. عائلات كاملة قُتلت في غرف نوم ومطابخ وممرات وردهات. الراديو كان يذيع بيانات تطالب المواطنين بالإدلاء بمعلومات عن مراكز الشيوعيين وبيوتهم ومخابئهم. خمسة آلاف شخص قتلوا في ستين ساعة. «الحرس القومي» تخلص من شيوعيين لجأوا إلى مسرحٍ في شارع «الكفاح»، لكنه لم يلبث أن وقع على مجموعة أخرى منهم، كأنها المجموعة الأولى ذاتها، في قاعة مسرح أخرى، في شارع مجاور. إحدى وحدات «الحراس القومي» بقيادة ناظم كزار، قتلت في أقل من ٣٠ ساعة ٩٧ رجلاً ودفنتهم في منطقة الجزيرة، تحت أساسات إحدى العمارات. الوحدة ذاتها (اسمها الحزبي: مكتب

التحريات الخاصة للحرس القومي) قبضت على ١٣ شيوعياً واقتادتهم خلال الليلة الثانية من المجازر إلى أقبية «قصر النهاية» الملكي. هناك، في قصرٍ طالما أولم فيه رجال الأسرة الهاشمية للسفراء الأجانب، ارتفع صراخٌ.

داخل متجرٍ موصدٍ في طرف شارع الكيلاني، عثر «الحرس القومي» على عشرين كردياً. صفّوهم على جدار المبنى وفتحو نار الرشاشات. كانت هذه أسلحة جديدة حصلوا عليها من مخازن الجيش. ألقوا الجثث في بئرٍ تتوسط حقلاً مهجوراً، ألقوا في البئر أيضاً جثة طبيب شيوعي يُدعى فؤاد كاظم. الطبيب لم يكن ميتاً. جاره البعثي أغمد في بطنه شوكة حراثة بثلاثة رؤوس حديد، ثم انتزعها منه، وتركه وسط الشارع.

فِرق التنظيف البعثية حملت الطبيب المدمى وألقته في بئر الجثث. حين ارتطم بالقعر فتح عينيه. كان المكان مظلماً. أيقن بينما يتلمس الأرض حوله أنه ليس وحده. أمسك بجراحه فأدرك أن ملابسه الداخلية القطن وكنزته الصوف امتصتا الدم النازف من بطنه وضمّدتا ثقوب الشوكة الحديد. حين حاول أن يتحرك تدفق الدم بين أصابعه. أدرك أنه رُمي في زنزانة مظلمة مع آخرين. حين وقعت أصابعه على وجهٍ باردٍ كالجليد أصابه الذعر. صرخ ينادي على الآخرين أن يكلموه. لم يسمع صوتاً واحداً. حين رفع رأسه ورأى نجوم الشتاء العالية تبين أنه في قعر بئر مملوءة جثثاً.

قبل نهاية شباط (فبراير) ١٩٦٣، قبل أن تغيب تلك النجوم الواهنة تحت غيوم عواصف آتية، وقبل أن تغسل الأمطار البقع السود عن الحجارة والإسفلت وساحات بغداد، رجع صدام حسين إلى العراق. لم يجلب معه من المنفى إلاّ تلك الشهادة الثانوية (بلا إطارها الخشب المجدول) وكراساً بقلم ميشال عفلق: «على سبيل بالبعث»،

وحزاماً جلدياً ابتاعه من خان الخليلي حين لاحظ أن بنطلونه لم يعد جامداً على خصره. فقد في المنفى ١٧ كيلوغراماً، بينما يتفقد الصحف كل صباح ومساء منتظراً هذه اللحظة. صدام حسين، في الفيلا البعيدة في القاهرة، قبالة أشجار الكافور العالية، لم تباغته ثورة ٨ شباط. كان يترقبها يوماً بعد يوم. منذ أعلنت الثانويات والجامعات في العراق إضرابها المفتوح خلال الأيام الأخيرة من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٢ أدرك أن الثمرة نضجت، وحان أوان القطاف. أحد التجار العراقيين حمل له رسالة من العقيد البكر، وأخرى من خاله خير اللّه طلفاح. أرسل له الخال مالاً وكتب في نهاية الرسالة أنه إذا سارت الأمور على ما يرام فإنه لن يحتاج أن يصرف قرشاً من هذا المال.

حين بلغوا بغداد قال عبد الكريم الشيخلي:

ـ الآن لم نعذ كلاباً!

صدام حسين، واقفاً حليق الذقن والشاربين جنب باب السيارة المفتوح، استدار ونظر إلى الجنود بخوذ الحديد في الزوايا، وإلى رجال «الحرس القومي» بالقبعات المزدانة بشعار «البعث»، ولم يقل شيئاً. نظر إلى الكتابة على الحيطان: «وحدة، حرية، اشتراكية»، وإلى اللطخات السوداء على عتبات المتاجر، ولم يقل شيئاً. أمام مركز البعث في الجانب الآخر من الساحة، ترجل رفاق مسلحون من سيارة شحن حملت اسم الحزب وشعاره بالطلاء الأسود. رأى نوافذ محطمة، زجاجاً في الزوايا، وثقوب رصاص في الحيطان وأبواب الدكاكين. في شارع مجاور عبرت جنازة. كل هذا الذي حدث حدث في غيابي، قال لنفسه.

بَلَغ الكرخ عند الغروب، مع كيسٍ ملقى على كتفه. في الشارع الطويل مشت أمامه عجوز محنية الظهر وحفيدتها. برد بغداد دغدغ جرحه القديم. جاءت ريح خفيفة وحملت ضجة الكرخ بعيداً عنه. لم

تكن مصابيح الكهرباء أضيئت بعد. سمع البنت تقول للجدة المنهكة من تسلق الشارع المنحدر:

- الخبز حارّ بيبي.

وجاوزهما. وسمع العجوز تقول لاهثة:

- أوقفي عيني سناء. أريد استراح شويّة.

أسرع الخطى متأكداً أنه بات في بلده ودخل سوق الخضر. قبل أن يبلغ مخزن التمور أضيئت المصابيح دفعة واحدة، ورأى في النور الأصفر كيف تبدلت معالم الحارة. دكاكين زالت، بيوت اتسعت، وأزقة سُدَّت بالكاراجات. الشجرة الكبيرة أمام الجامع لم يبقَ منها إلاَّ قرمة الجذع.

قرع الباب ففتحت له ساجدة. كان البيت خلفها مضاء الغرف، وصوت عبد الحليم حافظ يأتي ضعيفاً من الراديو في الصالون. لكنه انتبه، بغريزته الثاقبة، أن لا أحد في البيت غيرها.

دخل وهي تتراجع أمامه بفمٍ مفتوح وعينين متسعتين. سألها:

- شبيك وجهك أصفر؟

أخبرته أن أباها سافر إلى أربيل قبل ثلاثة أيام، وأن عدنان في مهمة حزبية في النجف، وأنها هي - زوجته - تركت أمها مع جارة وقريبة في تكريت، وجاءت إلى بغداد لأنهم أخبروها أنه عائد من القاهرة.

أغلق باب البيت وقال إنه لم يأكل لقمة منذ ترك مصر الملعونة. أنقذتها العبارة. كانت حائرة خائفة لا تدري ماذا تفعل بجسمها المرتبك داخل ثياب الشتاء الكثيرة. دعته إلى الدخول والاغتسال وقالت إنها ستأتيه بمناشف ثم أسرعت إلى المطبخ وأوقدت الطبّاخ الغازي الصغير. توقفت عن الحركة لا تعرف ماذا تفعل بعد ذلك. ثم تذكرت المناشف. خرجت من المطبخ وعبرت الصالون إلى غرفة نوم أخيها

وأخرجت مناشف من الجارور. باب الحمام كان مردوداً وسمعت صوت المياه. وقفت جامدة خارج الباب لحظة ثم تذكرت أنها تركت الغاز مشتعلاً في المطبخ. بينما تتردد في طرق الباب لاحظت أن العرق يتصبب من وجهها، وأن رطوبة غزت ما تحت إبطيها. عندئذٍ فقط انتبهت أن شعرها منفوش، وأن أظافرها غير مقلمة، وأنها لم تكحل عينيها هذا الصباح.

فتح صدام حسين باب الحمام فرأى ابنة خاله ساجدة (زوجته منذ صيف ١٩٦٠، وإن كان لم يرَها أبداً منذ غادر البلاد هارباً، وساقه ملفوفة بالشاش)، واقفة مع ثلاث مناشف بيضاء. كان عاري الجذع والمياه تسيل من رأسه. أخذ منشفة وفرك شعره ثم لفّها على عنقه. ساجدة الواقفة كالتمثال مع منشفتين سمعته يسألها عن صحة أمها، وأجابت بكلمتين، ثم سألته ماذا يحب أن يأكل؟ قال شيئاً لم تفهمه، لكنها أدركت أنه لا يُبالي والمهم أن تضع الطعام على الطاولة وأن تجلب له قميصاً نظيفاً، وألا تقف هكذا كفزاعة الصحراء. ابتعدت من طريقه ورأت كيف سار في خطٍ مستقيم إلى أن بلغ الراديو وأقفله. ساد الصمت المكان، ثم سمعت نفثة الغاز في المطبخ. ذهبت لتجلب له ثياباً، وحين رجعت وجدته قد رفع قدمين مغسولتين على مسند الكنبة في الصالون واسترخى على ظهره. مال برأسه صوبها حين سمعها تقترب وقال إنه سينام لحظة وعليها أن توقظه حين تجهز القهوة والطعام. أخذ القميص منها، ارتداه بحركة عصبية سريعة، ثم انقلب على جنبه، وواجه ظهر الكنبة.

بينما تقلي البيض والسبانخ سمعت شخيره. أخرجت الصحون البيضاء من الخزانة المظلمة، وضعتها على الطاولة، ثم عادت إلى البيض. خفّفت النار وأسرعت إلى الثلاجة. أخرجت قدر الحساء، وطاولة كبيرة امتلأت بكرات اللحم المقلية بالدهن مع الصنوبر ودبس الرمان. أخرجت جبناً ولبناً، وقطّعت بصلاً ومخللات خيار وباذنجان

في صحن. تركت قدر الحساء على النار وأسرعت إلى الحمام. غسلت وجهها وبلّلت شعرها ومشطته. عبرت الصالون على رؤوس أصابعها ثم هرعت إلى الصندوق الصغير الذي حملته معها من تكريت وأخرجت أدوات زينتها. خلال ليالي السأم والتمريض طوال السنين الماضية، علّمت نفسها أن ترفع مرآة مدوّرة صغيرة بقبضة عظم أبيض كالعاج أمام وجهها، وفي نور الكهرباء أو الشموع أو النفط، اكتشفت سحر الكحل والنثار الأبيض والحنّة وأحمر الشفاه.

حين أيقظته من النوم بلمس كتفه فتح عينيه وانقلب على ظهره متحفزاً. تراجعت خطوة أمام حركته العصبية فرآها في بلوزة بيضاء وتنورة كحلية، بشعر يتدلى في خصل كثيفة عن جنبي وجهها، كما كان يراها قبل زمنٍ بعيدٍ بات الآن خارج ذاكرته.

في المطبخ شرب القهوة السوداء المرّة مع الحليب البارد واقفاً جنب المجلى. استغربت ألا يشعر بالبرد في القميص القطن. لم تفكّر لحظة أنه نحيل، على رغم أنه بات نحيلاً حقاً. بدا لها فائراً بالقوة، قاسياً، يشبه أباها مخموراً، لكن من دون أن يفقد السيطرة على ملامح وجهه وعلى حركة أوصاله. استحال عليها أن تربط هذا الرجل الواقف في مطبخها يشرب القهوة بالحليب ونظرته تحدق إلى الفراغ، بذلك الفتى الذي كان يهذي في الليل محموماً يطلب عون الحسين، أو حتى بذلك الشاب الآخر الذي اعتادت زيارته في السجن مرة كل أسبوع، قبل سنوات.

ارتبكت وهي تسكب حساء في طاسته. جولات العراك مع أمها المريضة أثبتت لها ـ وللجارات ـ أن دماء خير الله طلفاح تجري عنيفةً في عروقها. كانت تقدر إذا غضبت أن تخبط سرير أمها فتزيحه بعيداً من مكانه. كيف إذاً ترتبك هكذا الآن مثل بنتٍ لم تُربِ نصف جزاري تكريت وباعة الخضر فيها؟

انحنت وأخرجت من السل تحت الطاولة مزيداً من الخبز. كان يأكل صامتاً. يده تنتقل بين الخبز والصحون وفمه وكوب القهوة الذي ملأته مرةً ثالثة. لم يأكل كثيراً. لكنه أكل بسرعة. عرفت أنه انتهى حين رمى لقمة الخبز الأخيرة من يده في الصحن. دفع الكرسي إلى خلف، وأخرج علبة سجائر من جيب بنطلونه. طوال هذا الوقت لم يلفظ كلمة واحدة. حين اتجه بنظرته صوب إبريق الماء على المجلى أسرعت وجلبته. تلك الليلة، بينما يشعل سيجارة أخرى، قال لها:

ـ قصي شعرك.

في كتابٍ نُشر عند بدايات الحرب العراقية ـ الإيرانية، ووُزع في بغداد والعواصم العربية بسعرٍ رمزي، نرى صورة صدام حسين مع زوجته في شتاء ١٩٦٣: «صورة صدام حسين الأولى مع زوجته بعدما عاد من القاهرة عقب قيام ثورة شباط ١٩٦٣». ملامح الرجل هادئة. عيناه تفصحان عن سلام ولا تكشفان عصبية أو توتراً. بلا الشارب الأسود الشهير الذي بات يميّز وجهه منذ السبعينات، يبدو صدام حسين في الصورة شاباً سعيداً بحياته مع المرأة الواقفة إلى يساره. ساجدة، بشعرها الأسود القصير وعينيها الواسعتين وبالقرطين في أذنيها، تنظر إلى مركز العدسة تماماً. كأنها تبادل الناظر إلى الصورة نظرته. وجهها يشبه رسماً، بخطي الحاجبين المقوسين، وبأناقة فمها المطبق كمن يحبس كلمة في أعماقه. كأنها تستجمع شجاعة غير عادية للوقوف أمام العدسة. في صورة أخرى ألتُقطت بعد سنوات، تظهر واقفة وراء كرسي زوجها الذي يدخن غليوناً. صدام حسين بشاربه الكثيف الأسود ينظر إلى نقطة غير محددة، إلى زاوية الغرفة ربما. هي، بوجهٍ متعب بعد ١٥ سنة زواج، تقف ويمناها على ظهر الكرسي، والأخرى مسبلة إلى جانبها. أصابع الذراع المسبلة مطوية إلى الداخل. الناظر إلى الصورة، إلى تلك الأصابع، ينتابه ألمٌ في مفاصل أصابعه.

عاد صدام حسين إلى العراق بعد ثلاث سنين في القاهرة فوجد أن «البعث» نسي وجوده. هو الذي أطلق النار على عبد الكريم قاسم في ١٩٥٩، وتلقى رصاصة في فخذه آنذاك، بات الآن اسماً غائماً بين أسماء لا تُعد. لم يتذكره أحد. لم يفكر أحد فيه أصلاً. في تلك الأيام السوداء، حين شاع الخطف والقتل والنهب والتعذيب والاختفاء، كان كل واحد يفكر في رأسه وفي الحفاظ على رأسه. وإذا فكر الواحد في غيره كان يفكر في طريقة لقتل هذا الغير والاستيلاء على موقعه. حتى الحزب، الذي وصل إلى السلطة أخيراً بالتحالف مع ضباط ناقمين على قاسم، حتى «البعث» كان يهتز بانقسامات داخلية. العقيد أحمد حسن البكر عُين رئيساً للوزراء. كان يقود الجزء المعتدل في «البعث» وإلى جانبة وزير الدفاع العقيد صالح مهدي عمّاش. لكن المشكلة كانت الجناحين المتطرفين: جناح اليسار بقيادة الأمين العام للبعث العراقي علي صالح السعدي، ويطالب بتحول العراق سريعاً إلى دولة اشتراكية. وجناح اليمين بقيادة رئيس سلاح الجو الرفيق الجنرال حردان التكريتي ويقترح تحولاً بطيئاً للدولة إلى الاشتراكية من دون التخلي عن الضباط الذين ساندوا «البعث» في عملية الانقلاب على قاسم والاستيلاء على السلطة.

العقيد البكر أعلن موقفاً صريحاً في اجتماع القيادة القطرية:

ـ المهم وحدة الحزب، وعلى الجميع إزاحة الخلافات العقائدية جانباً.

عبد السلام عارف، الذي صار رئيساً للدولة بعد إعدام قاسم، بدأ باكراً اللعب على هذه الانقسامات. كان يسهر مع الجنرال حردان التكريتي إلى الصباح. الاثنان كانا يشكوان معاً استمرار «الحرس القومي» ـ الذي يحركه أمين عام «البعث» علي صالح السعدي ـ في القتل والنهب وترويع سكان بغداد.

أراد السعدي تطهير بغداد من الشيوعيين ما دامت السلطة في يد «البعث» الآن. صدام حسين راقب عمليات التطهير. قدَّم أحياناً معلومات وعرض خدمات على «الحرس القومي» في أحيانٍ أخرى. أربكه أن يجد جهوده تضيع وتتبدّد كالماء في الصحراء. سنوات المنفى أبعدته عن الشوارع والأسماء الجديدة والعلاقات المستجدة. بيت العنكبوت لم يعد بيته. كان يمارس عمله الحزبي عضواً في قيادة «مكتب الفلاحين المركزي» عارفاً أنه في الهامش وأن الانتقال إلى المتن في هذه اللحظة ضروري وحاسم. جدَّد المحاولات لكن الفشل أصابه مرة تلو أخرى. حتى الحصول على موعد مع العقيد البكر بدا مستحيلاً. الموقع الجديد في هذه المرحلة المضطربة، كان يشغل رئيس الوزراء البكر عن حكّ جلدة رأسه. كانت الأيام تمضي، وصدام حسين يحسّ الغليان في داخله. يضرب قبضته على جرح فخذه، يتدخل في خلافات تافهة في «مكتب الفلاحين»، ويتساءل كيف يحدث مثل هذا بعد كل ذلك الانتظار.

عائداً إلى بيت خاله خير اللّه طلفاح في الكرخ ذات مساء،. توقف في مدخل «كاراج الأرضروملي» وتحدث مع أحد الرفاق. وعده الرفيق أن يدبر له بيتاً مناسباً في قلب المدينة. لم يعد قادراً على البقاء في بيت خاله وعمه. عليه أن يستقل ببيتٍ.

حين غادر الكاراج رأى مجموعة من «الحرس القومي» تُوقف سيارة عابرة. قائد السيارة ترجل حامياً رأسه بيديه. تلقى الضربة الأولى بعقب بندقية في بطنه فانحنى كالقنفذ نحو الأرض. انهالت أعقاب البنادق على رأسه وعنقه وظهره. بعد ذلك سحبوه إلى صندوق شاحنة. أحد الرفاق قاد السيارة المتروكة مبتعداً، واختفى وراء منعطف.

رجع خير اللّه طلفاح من الشمال بعد أسبوعين من وصول ابن

أخته صدام حسين إلى بغداد. مثل ابنته ساجدة لاحظ خير اللّه طلفاح من النظرة الأولى التبدلات التي طرأت على الشاب في منفاه المصري. بدأ أشد ريبة بكل شيء حوله. أشد ريبة وأعمق عزلة من أي وقتٍ مضى. حين رآه عبر باب الحمام المفتوح يحلق ذقنه محدقاً في المرآة المعلقة فوق المغسلة، انتبه أنه لا ينظر إلى المرآة بل يحدق إلى انعكاس في زاويتها. انتبه أن ابن أخته يراقبه بطرف عينه حتى بينما يحلق ذقنه وحيداً في الحمام.

عدنان خير اللّه عاد إلى الكرخ في نهاية الشتاء. كان لون الجو بدأ يتبدل من الرمادي القاتم إلى أصفر رمليٍ متسخ. مثل أخته ساجدة، ومثل أبيه، أحسّ عدنان تحولاً في شخصية ابن عمته. لكنه وصل بملاحظته إلى وجهة معاكسة: أعتقد أن صدام حسين فقد جزءاً من هيبته، جزءاً من سطوته، بذلك التعفن البطيء الذي تخلّل جسمه خلال إقامته على ضفاف النيل، بلا عمل، بلا نضالٍ، وبلا وطن. انتابه شعورٌ غامض بالشفقة على هذا الكائن العائد من الغربة نحيلاً ككيسٍ من عظام، المتخبط في مكتب الفلاحين المركزي بين أمّيين لا يعرفون لينين من ستالين، والعاجز عن بلوغ أي مركز وسط الصراعات والتحالفات القائمة. كان يحفظ لابن عمته صدام صورة أخرى طوال السنين الماضية: صورته جالساً في الظلام، بعينين واسعتين، وجسمٍ متصلب وسط الفراش، كأنه يحاول تدمير الحيطان نفسها بقوّة نظرته.

قبل أن ينتقل صدام إلى بيتٍ جديد مع زوجته ساجدة، دعاه عدنان إلى سهرة في شارع «أبو نواس» مع مجموعة رفاق يودون الالتقاء به، والتعارف عن قرب. مطلع السهرة الطويلة في مطعم «الوردة البيضاء» راقب عدنان ابن عمته يمرّر إصبعه على حافة كوب الويسكي المملوء بمكعبات الجليد، ويرشف بين آونة وأخرى رشفة قصيرة. الرجل النحيل العائد غريباً من المنفى كان يرمي على المائدة كلمة أو كلمتين ثم يترك الآخرين يتجادلون بينما أصابعهم تُعري أفراخ

السمك المشوي من اللحم الأبيض السمين، وتلقي حسكاً مكسراً في الصحون الزرقاء الواسعة. أحد الرفاق كان يجرع جرعات كبيرة من كوب عرقٍ ويقضم رؤوس السمكات ويقول إن نخاع السمك يزيد قوة الباه. عدنان الضاحك مع الآخرين ملأ رغيفاً بثلاثة أشياش كباب، ثم غمّس رأس الرغيف بالصلصة الحارة في الطاسة الفخار. انتبه بينما يمضغ القضمة الأولى الساخنة أن ابن عمته يحدجه بنظرة نارية. علقت اللقمة في زلعومه وأوشك أن يختنق. ضربه صدام حسين ضربة واحدة على ظهره، ثم أشار بنظرته إلى دورق الماء. رفع عدنان الدورق إلى فمه، وبينما خيط الماء ينزل في حنجرته أدرك أنه كان على خطأ: لم يفقد صدام سطوته في المنفى؛ فقط تعلَّم أن يخفي هذه السطوة تحت درعٍ من صمتٍ ماكرٍ، صمت جوارحٍ وحيوانات مفترسة.

أحد الرفاق، لؤي عبد الحسن، قال إنه يكره الشيوعيين لسببٍ واحد فقط: عددهم. قال إنهم يتكاثرون كالأرانب. عائدَيْن إلى الكرخ في ساعات الفجر، حاول عدنان خير اللّه أن يخترق صمت ابن عمته الثقيل. أخبره مثلاً أن الرفيق عبد الحسن الذي ظلّ يهذي بكراهيته للشيوعيين طوال السهرة كان شيوعياً، وأن أهله شيوعيون، وأن أخاً من إخوته الشيوعيين قُتل برصاص القناصة يوم الانقلاب المبارك على قاسم.

أمام مخزن التمور الذي تحول دكان جزارة، استدار صدام حسين وواجه ابن خالته. تراجع عدنان إلى خلف فوراً. كانت رائحة الكحول تفوح قوية من جوفه. سمع الرجل المظلم الوجه يقول:

ـ البعثي لا يسلك هذا المسلك.

لم يتحرك عدنان خير اللّه من مكانه. بقي جامداً كعمود ملح بينما تابع صدام حسين طريقه نحو مدخل البيت. كان الشارع فارغاً الآن. والمصباح الوحيد القريب يلقي نوراً أحمر متموجاً على الدرب المتربة.

في ظلال جدارٍ قريب زحف جرذٌ بدين. كان يتحرك لصق الحائط، حافظاً نصف جسمه المكتنز في الظلمة. عينا عدنان التصقتا بالحيوان الصغير الزاحف. رأى الحيوان عبر ضبابٍ غطّى عينيه. كان جسمه يثقل كالرصاص، يهوي إلى أسفل. وخيّل إليه أنه هو أيضاً قد يتحول جرذاً من دون أن يدري، في أي لحظة الآن. كان ثقيلاً، ثقيلاً ومضغوطاً في قالبٍ يطبق عليه رويداً رويداً. ثقيلاً بالبيرة والعرق و«السمك المسقوف» والصلصة الحارة والأرغفة الساخنة والكباب والسماق والبصل. ثقيلاً بنقاشات السهرة الطويلة التي أدارها رجلٌ صامت ووجّهها بخبثٍ خفي إلى حيث يشاء. وثقيلاً بالدرب اللانهائية التي قطعها ماشياً مع شبحٍ داكن القسمات من «أبو نواس» إلى الكرخ، يحاول عبثاً أن يحوّل الشيطان جنبه إلى آدمي ولا ينجح، حتى دحّر كل ما بقي فيه من عزمٍ بجملة واحدة:

ـ البعثي لا يسلك هذا المسلك.

ولقد كان محقاً. البعثي لا يسلك هذا المسلك فعلاً. كل هذا السهر الفوضوي، والإفراط في الطعام والشراب في بارات «غاردينيا» و«سرجون» و«البحرين» و«أريدو»، وإطلاق الضحكات عند كل كلمة... بلى، كان صدام محقاً.

خفض عدنان خير اللّه عينيه، ترك الجرذ يختفي في ظلمات زقاقٍ مجاور. مشى بخطى بطيئة نادمة إلى مدخل البيت. في الصباح وجد صدام في الصالون، يشرب كوب قهوته المرّة السوداء بالحليب البارد جالساً إلى الراديو، ويسمع نشرة الأخبار مرتدياً ثيابه ومنتعلاً صباطه. فكّر أنه لم يرَه أبداً في المنامة والمشاية منذ رجع إلى بغداد. أحسّ بالخجل بينما يقف بالبيجامة على بعد مترين منه. تراجع عائداً إلى غرفته كي يرتدي ثيابه.

بعد السهرة الطويلة في مطعم الوردة البيضاء في «أبو نواس» رجع

الرفيق لؤي عبد الحسن إلى مركز الحزب قرب «وزارة الداخلية» وحيداً ومنهكاً. طوال السهرة لاحظ نظرة صدام حسين مركزة على وجهه. لكنه كلّما استدار ضاحكاً كي يواجه الرجل الذي أطلق رصاصة في كتف الرئيس عبد الكريم قاسم في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٩، وجد العينين الواسعتين مسدّدتين إلى المائدة، إلى كوب الويسكي، إلى وعاء الثلج المعدني، إلى جاط الخضر، إلى صينية الكباب، أو إلى سلّ الخبز الساخن. لم ينجح أبداً في التقاط نظرة واضحة مباشرة. وكلّما تابع الكلام ناظراً إلى الآخرين شعر مرة أخرى بذلك المخلوق الغريب يحدق إليه بنظرة نارية تحرق جلده، تسم خدّه بخاتمٍ جهنمي.

رفيقٌ آخر كان حاضراً على الطاولة في «الوردة البيضاء» تلك الليلة ثم ترك شارع «أبو نواس» متوجهاً إلى الرصافة في سيارة أجرة، أحسّ بينما التاكسي تعبر الشوارع الليلية المضاءة بالمصابيح، أنه قابَلَ في هذه السهرة رجلاً غريب الأطوار. كان يتفرج على الأسواق تعبر عن الجانبين. رأى بساتين النخل، والجسر المعلق بين الماء والسماء، وخيّل إليه أنه يرى دجلة يتعرج وراء زجاج النوافذ تماماً. لكنه كان طوال الوقت ضائعاً في غيمة كحولٍ، وذلك الوجه المقنع، ذلك الوجه المنحوت كالصخر، يضايقه مثل حصاة في حذائه.

صدام حسين، في المقابل، لم يفكر بأحدٍ منهم بعد تلك السهرة التافهة. جالساً في صالون بيت خاله (وعمه) خير اللّه طلفاح في ذلك الصباح الربيعي، يشرب القهوة المرّة السوداء مع الحليب البارد كعادته، استمع إلى أخبار «إذاعة بغداد» ودخن ثلاث سجائر. كان على موعدٍ، عند الساعة الثانية عشرة ظهراً، مع رئيس الوزراء العقيد أحمد حسن البكر. وكان يعلم أن هذه هي فرصته. الربيع أوشك على الانتهاء، مضت شهور وهو هنا، وحتى اللحظة لم يصنع شيئاً. في هذه الغابة وحده سريع الحركة ينجو. عليه أن يتصرف.

في مكتب رئاسة الوزراء، قرب طاولة تعلوها رقعة شطرنج، صافحه العقيد البكر وعانقه. صدام حسين انتبه إلى الأبيض الكثير الذي خطّ فودي العقيد خلال السنوات الأربع الماضية. دخل عسكريٌ حاملاً صينية عليها القهوة والماء، ثم خرج. رئيس الوزراء العقيد البكر ترك كرسيه الكبير، دار حول المكتب العريض، وجلس على الكنبة الصغيرة مقابل الكنبة حيث جلس صدام.

تحدثا بسرعة عن السنوات الماضية. لخص صدام حسين سنوات المنفى بحفنة كلمات جافة وسكت. العقيد البكر ابتسم. تحدثا عن حال الحزب. الإنقسام الذي يعانيه. عناد علي صالح السعدي. الشكوى الدائمة من حواجز «الحرس القومي». وتعنت حردان التكريتي إضافة إلى تحالفه المريب مع الرئيس عبد السّلام عارف. كان حديثاً متدفقاً غير خاضع لرقابة ذاتية أو حسيب. أيقن صدام حسين أنه وصل إلى العقيد البكر في اللحظة المناسبة. في صمت المكتب الموصد سمع تكّات ساعة، وتأمل حجارة شطرنج عاجية.

أنهى العقيد فنجان قهوته. شرب ماء ثم استرخى في الكنبة الوثيرة. نظر صدام حسين إلى النجوم على كتفي رئيس الوزراء، وأحصى الأوسمة والنياشين صامتاً. كان يفكر في حديثٍ دار قبل أيام في مركز الحزب محوره «قصر النهاية» ووحدات ناظم كزار. العقيدُ البكر المسترخي في مقعده تململ قليلاً ثم استقام جالساً كمن تذكر شيئاً فجأة. برأسٍ ممدودة إلى أمام، وكتفين مشدودتين، سأل العقيد البكر الشاب العائد من المنفى نحيلاً وحديدي الإرادة أكثر من أي وقتٍ مضى:

ـ لماذا لا تتكلم؟

صدام حسين وضع يده على موضع الجرح القديم في فخذه ونظر إلى أصابع رئيس الوزراء تتشابك، كأنه سيطرق الطاولة والصينية

والأكواب بقبضتين متلاحمتين. استمر الصمت لحظة، ثم تكلّم العقيد البكر بصوتٍ ساكنٍ ثابت:

ـ قلت للجميع، في اجتماع القيادة، موقفي: المهم وحدة الحزب، وعلى الجميع إزاحة المصالح والخلافات العقائدية جانباً. المهم وحدة البعث.

ظلّ صدام حسين ساكتاً. رئيس الوزراء العقيد البكر بدا متعباً. رفع يداً حزينة، ومسح عرقاً عن جبهته. نظر إلى صدام حسين وكرَّر قوله:

ـ المهم أن يبقى البعث مُوَحداً.

أجابه صدام حسين:

ـ المهم أن يبقى البعث في السلطة.

لم يبقَ «البعث» في السلطة. في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣، بعد تسعة أشهر على إعدام عبد الكريم قاسم في مبنى التلفزيون العراقي، أخرج الرئيس عبد السلام عارف حلفاءه السابقين من السلطة. لم يحدث ذلك بغتة. كان «البعث» ينحر نفسه بيده طوال الصيف الفائت بصراعات قاتلة داخلية.

قبل خروج «البعث» من أروقة السلطة في ذلك الخريف الدبق التقى صدام حسين عبد الكريم الشيخلي في مقهى قرب أحد أوكار الحزب في «الحسوة». أخبره عبد الكريم الشيخلي أنه يشارك «الحرس القومي» ميوله إلى إنهاء تحالف الحزب مع الضباط والعسكر. قال الشيخلي:

ـ يتسلقون إلى أعلى على ظهورنا ويرمون لنا البقايا.

صمت صدام حسين محدقاً إلى عينيّ الرفيق القديم الذي شاركه محاولة اغتيال قاسم وسنوات المنفى في القاهرة. لم يرتبك الشيخلي، لكنه تابع كلامه بتدفقٍ سريع كادت الكلمات معه أن تتصل في كلمة

واحدة لانهائية الطول وفارغة من المعنى:

ـ ليس الضباط غير البعثيين فقط. الضباط البعثيون أيضاً لا يمكن الوثوق بهم. حردان التكريتي صار نديم عبد السَّلام عارف. حتى العقيد البكر يميل إليهم على حساب البعثيين المدنيين. السعدي ونصرت وكزار صنعوا هذه الثورة بالدم، والآن يريد العسكر أن يسرق...

قطع الشيخلي كلماته. أوقفته حركة عصبية من يد صدام حسين. أخذ الشيخلي نفساً ثم سأله:

ـ شبيك؟

أجابه صدام حسين:

ـ لا تلفظ كلمة واحدة تعجز عن دعمها بالدليل الملموس. حتى لو كانت صحيحة. ما تفكر فيه أفكر فيه أنا أيضاً. لكن العقيد البكر ليس من هؤلاء.

قال الشيخلي وقد هدأت نبرته:

ـ أليس ضابطاً هو أيضاً؟

أجابه صدام حسين بسؤال:

ـ من تعرف في «الحرس القومي»؟

سأل السؤال، وكان يعرف الجواب سلفاً. عبد الكريم الشيخلي تراجع إلى خلف في كرسيه وأبدى ارتياحاً لبلوغ الحديث هذه النقطة المنتظرة. أجاب:

ـ ناظم كزار.

صدام حسين أخرج سيجارة من علبته الثابتة قرب فنجان القهوة على الطاولة. أشعلها ثم قال:

ـ دبّرْ لي لقاء مع كزار.

المعلومات التي جمعها من رفاقٍ، ومن ناسٍ في الشارع، ومن العقيد البكر، ومن ابن خاله عدنان، كانت كافيةً بالنسبة إلى صدام حسين كي يُكوِّن صورة للأحوال بعد انقلاب ٨ شباط (فبراير)، كأنها خريطة للحوادث منذ بدأ الهجوم على «وزارة الدفاع» في ذلك الشتاء الرطب. ما يقرأه في الصحف، وما يسمعه من «إذاعة بغداد» ومن التلفزيون، يقدم له يوماً بعد يوماً تفاصيل جديدة للخريطة. جالساً في «مكتب الفلاحين المركزي» مع أوراق مغطاة بالأرقام على الطاولة، كان يستطيع أن يحسب ما جرى، في دماغه، وأن يتوقع ما سيجري، كأنه يتفرج على قفص الضباع الكبير ذاك في حديقة الحيوان في القاهرة.

«الحرس القومي» بألفيٍ عضو مسلحين بالرشاشات، في صباح ذلك الانقلاب الماطر، شكّل الضمانة الوحيدة لوصول البعث إلى السلطة. تدفقوا من أوكار في «الأعظمية»، وسيطروا على شوارع بغداد بعمليات اغتيال خاطفة لأهم مساعدي قاسم وللكوادر العليا في الحزب الشيوعي. ناظم كزار أعدَّ مسبقاً لوائح بأسماء وعناوين ومخازن أسلحة. طارد الشيوعيين في بيوتهم، وفي بيوت عشيقات ومحظيات، وفي بيوت عجائز كانوا يحسبون أنهم فوق الشبهة بفضيلة السنّ المتقدم وحسب. لم يرحم أحداً. حوَّل قسماً كاملاً من شارع «الكفاح» ببيوته ومطاعمه وأنديته الرياضية ومسارحه وكاراجاته ومخازنه إلى سجونٍ مؤقتة تابعة لوحدات «الحرس القومي» الخاصة. سخَّر حدادي بغداد لتركيب أقفال فولاذ على الأبواب. وسخَّر النجارين لتدعيم النوافذ بعوارض خشب ومسامير، ولإعداد سلالم خفيفة تخدم عمليات مداهمة سريّة وسريعة من النوافذ والمداخل الخلفية. لاحظ صدام حسين أن الرجل صاحب مخيلة، وتأكد من هذه الخاصية لاحقاً حين رأى أدوات التعذيب في قصر الرحاب، «قصر النهاية». المعلومات التي جمعها عن «الحرس القومي» بدت بالنسبة إليه إشارة أخرى من الأقدار، ولكن في هذه المرة كانت الإشارة ساخرة مريرة. خطة هذه

الوحدات المسلحة وُجدت في رأسه قبل سنوات بعيدة. لكن خروجه من العراق منعه من تنفيذها. في غيابه نفذها آخرون وقطفوا ثمارها. بل هم حتى لم يتقنوا أساليب قطف ثمارها. أرادوا أن يقطفوا الموسم كاملاً دفعة واحدة، الناضج الحلو والفجّ الحامض معاً. حصدوا الخيبة وآلام الأضراس والبطن، وها هم يترنحون، غير عارفين أن ضربة العسكر آتية.

التقى صدام حسين ناظم كزار للمرة الأولى في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٣. كان لقاء قصيراً في فيلا قرب «ساحة الأندلس» صادرها «الحرس القومي». جلسا في بهوٍ متسع ومبلط بالرخام، نوافذه الإنكليزية الفسيحة العالية تطلّ على حديقة مزروعة بأصناف نبات غريبة لا يُرى مثلها في مكان آخر من العراق. كان وقت الغروب. خلال الجلسة التي دامت ٣٩ دقيقة، تلاشى نور النهار وأعتمت الحديقة، ثم سال حبر الظلام وملأ البهو أيضاً. لم يأمر ناظم كزار حراسه بإضاءة المصابيح، ولا صدام حسين اهتم بمسألة النور وغيابه، بينما السماء تظلم، وصخب المدينة يخفت رويداً رويداً وراء أدغال الحديقة والسور الحجر المرتفع المغطى بكروم عنبٍ بريّة غير مثمرة.

في نهاية الحديث قال ناظم كزار:

ـ هذا تفاهم ضروري. ثقتي بالعقيد البكر كاملة. لكن الأمين العام محق في شكوكه. حردان التكريتي خطر، ولاؤه الأول للجيش ولعارف وليس لحزب البعث. والعقيد البكر يتهاون مع حردان دائماً. ربما لأنه ابن منطقته.

سكت لحظة وأردف:

ـ أعلم أنك من تكريت. وأنت تعلم أنني لست سنّياً. هذا في الختام غير مهم. المصالح المشتركة هي أساس كل تحالف.

كانا وقفا الآن. بينما يخطوان نحو الباب الكبير، متجاوزين درجاً

رخامياً يصعد إلى طابق الفيلا العلوي، فتح أحد الحراس باباً جانبياً فتسرب نور الكهرباء الأصفر وملأ قسماً من البهو. وضع ناظم كزار يده اليسرى على كتف صدام حسين الأيمن وقال:

ـ أريد أن أريك شيئاً.

على رفّ مدفأة فيكتورية من حجارة الطوب الأحمر تبعثرت صورٌ فوتوغرافية ممزقة الأطراف. بدا واضحاً أنها انتزعت من إطارات ثمينة، إطارات فضة أو ذهب. التقط ناظم كزار بعضها، ثم مشى خطوتين فبات واقفاً في النور المتدفق من الباب الجانبي. قال ملتفتاً إلى صدام حسين:

ـ انظرْ! هذا صاحب الفيلا.

رأى صدام حسين صورة رجل داكن الملامح أبيض الشعر نحيل، يقف إلى جانب رجل أبيض الوجه بدين بقبعة على رأسه وعصا في يده. بدا الرجل الأبيض مألوفاً. على قفا الصورة قرأ الكلمات المكتوبة بحبرٍ أسود سائل:

From Sir Winston Churchill
To His Dear Friend
Sarkoun Peter
16/9/1942

في صورة أخرى ظهر الرجل الداكن الملامح مرّة أخرى، لكن بشعر أسود، في عمر الشباب، وإلى جانبه رجل آسيوي النظرة أصفر البشرة في لباسٍ عسكري. وعلى قفا الصورة:

From Chiang Kai - Shek
To His Dear Friend
Sarkoun Peter
15/7/1929

وتحت الكلمات الإنكليزية، أخرى بحروف غريبة كالرسوم.

مشى ناظم كزار مع ضيفه إلى الباب في طرف الحديقة. كانت الأرض رطبة. في نور المصابيح التمعت قطرات مطر على أوراق شجرة استوائية عريضة الأوراق. الحراس الواقفون بالسلاح قرب نارٍ مشتعلة في برميل حديد أدّوا التحية البعثية للرجلين الصامتين.

في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣ انعقد مجلس القيادة القطرية للبعث العراقي في دورة طوارئ وأعلن طرد الجناح اليساري المتطرف من الحزب. وُضع الأمين العام علي صالح السعدي مع أربعة من أقرب مساعديه في سيارة «مرسيدس ـ بنز» سوداء حملتهم إلى مطار رشيد العسكري، حيث كانت في انتظارهم طائرة نقلتهم في الليلة ذاتها إلى المنفى الأسباني. «الحرس القومي» ردّ فوراً باجتياح الشوارع وتحطيم واجهات الدكاكين وإحراق سيارات ومداهمة بيوت تخصّ ضباطاً وملازمين ورقباء. سال الدم. في هجوم على مخفر، هرب حرس المخفر، وهم يتثاءبون، إلى بيتٍ قريب بنافذة مشرعة على زقاق. أطلقوا النار على «الحرس القومي» من النافذة حتى فرغت ذخيرتهم. عنصران من «الحرس القومي» تقدما عندئذٍ بخطى بطيئة وثبّتا مدفعاً رشاشاً على حافة النافذة. حراس المخفر داخل الغرفة تراجعوا حتى التصقوا بالجدار. نظراتهم واجهت فوهة المدفع الرشاش. رفعوا أيديهم عالياً فوق رؤوسهم وقد أدركوا أن المعركة انتهت. في تلك اللحظة شعّت النار أمام عيونهم. الرصاص الكثيف غرز جثثهم بالجدار. ظلّوا واقفين دقيقتين، والدماء تتدفق من ثقوب اللحم، ثم تساقطوا واحداً تلو الآخر على أرض الغرفة المستطيلة.

على جناح السرعة وصل إلى بغداد وفد سوري رفيع المستوى مُمثِلاً «القيادة القومية للبعث» وعلى رأسه ميشال عفلق. كانت مهمته واضحة: وقف حال الحرب داخل الحزب والوصول إلى تسوية. غارقاً في رائحة الدم وطنين الذباب أدرك ميشال عفلق أن التسوية باتت مستحيلة. في جلسة طارئة للقيادة القومية أعلن طرد الجناح اليميني

المتطرف من البعث العراقي، وإبعاد رؤوسه فوراً إلى المنفى، إلى بيروت.

عمليتا النفي إلى أسبانيا ولبنان تركتا البعث العراقي بلا قيادة. «القيادة القومية» قررت إدارة فرع قطر العراق مؤقتاً. الرئيس عبد السلام عارف حرَّك تظاهرات في الشارع. «لن يقبل عراقيٌ واحد أن يحكمه حزبيون قادمون من دمشق». اللافتات التي عُلِقت في ساحات بغداد كانت حاسمة. «عفلق... اذهبْ إلى بيتك!». بعد ٣٠ ساعة من هبوط طائرة السعدي في مطار مدريد الدولي، هاجم ناظم كزار على رأس ٢٠٠ عنصر مدججين بالسلاح حيّاً مجاوراً للسفارة المصرية في بغداد، وأعدم عائلات ٧ ضباط بعثيين.

الرئيس العراقي القائد الأعلى للقوات المسلحة العقيد عبد السلام عارف أدرك أنه أُعطي الذريعة التي ظلَّ ينتظرها ليلاً نهاراً طوال الشهور التسعة الماضية. ضباط الجيش البعثيون في قبضته الآن. لا يريدون منه إلاَّ أن يبادر ويضرب. بعد اليوم لن يكونوا إلاَّ أتباعاً لسلطته. أصدر الرئيس عبد السلام عارف أمراً للواء التاسع عشر بشن هجوم شامل على «الحرس القومي». خلال ساعة تحركت ألوية مساندة، زحفت الدبابات على جسور دجلة، وهدرت مقاتلات سلاح الجو في سماء العاصمة الملبدة بالغيوم.

صدام حسين في بيته الجديد في «بناية الصحّاح» في شارع الرشيد أقفل الراديو بضربة من يمناه والتقط مسدسه باليسرى عن الكنبة. زوجته ساجدة خير الله الواقفة في باب المطبخ مع فوطة رطبة في يدٍ، وملعقة خشب طويلة في الأخرى، نظرت إليه بعينين مضطربتين. في تلك اللحظة هزّ انفجار قويٌ البيت، وتعالى عويل نساء قادماً من جهة الفندق المجاور. نظر صدام حسين إلى وجه زوجته المخطوف اللون وأمَرَها:

- حين يهدأ الوضع اذهبي إلى بيت أهلك. الكرخ أفضل من هنا.

في رمشة عين كان يشرع الباب خارجاً. لكنه تردد لحظة واستدار مشيراً بنظرة إلى بطنها المنتفخة:

ـ وانتبهي!

كان صدى كلمته الأخيرة هذه لا يزال يتردد في البيت الفارغ إلاّ منها، حين سمعت ساجدة خير اللّه هدير طائرة تعبر فوق السطح مباشرة، ثم انفجر جدار الصوت وفرقع زجاج النوافذ كلّها دفعة واحدة منثوراً كالسكر في الفضاء.

في بغداد فرغت بيوت البعثيين من الرجال. كان هجوم الجيش سريعاً كاسحاً. غارات الطائرات سوَّت مراكز «الحرس القومي» بالأرض. الضباط البعثيون أعدوا بأمرٍ من الرئيس عارف لوائح بأسماء وعناوين وأوكار وملاجئ سريّة. المداهمات نُفِذَت خلال ٤٨ ساعة خاطفة، وملأت سجون بغداد والموصل برجالٍ كانوا في الأمس القريب يحكمون البلاد، أو على الأقل: شوارع البلاد.

لم يقبضوا على صدام حسين. حين خلعوا باب منزله في «بناية الصحّاح» في شارع الرشيد، عند الثانية فجراً من ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣، أدركوا منذ اللحظة الأولى أن لا أحد يقيم في هذا البيت. كان طحين الزجاج منثوراً على الأثاث والبلاط، والأمطار التي طوَّحت بها الريح عبر النوافذ المكسرة تتجمع وسط الغرفة في بركة ينعكس على صفحتها الرائقة نور ميناء الراديو الخشب الضخم. مصباح المطبخ كان مشتعلاً. على الغاز وجدوا طنجرة محترقة القعر. فتحوا الثلاجة فوجدوا جبناً ولبناً وخبزاً. على رف فوق المجلى مرطبان جبنة ماعز مكبوسة بالزيت والزيتون والصعتر والفلفل الحار. قربه مرطبان مكدوس باذنجان، ومرطبان مخلل خيار. جلسوا وتناولوا طعام العشاء. كانت الساعة تقارب الثانية والنصف فجراً. قرروا أن هذا هو فطورهم الصباحي.

صدام حسين كان يقطع عندئذٍ ـ للمرة الثانية في حياته ـ السهل وراء النهر، في عباءة بدوية بعقالٍ وكوفية يلفّان رأسه. عند الثانية وخمسين دقيقة من فجر ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ذاك، سقط في حفرة موحلة وكاد يكسر كاحله الأيمن. زحف إلى خارج الحفرة. جلس في العراء لاهثاً، وساقه كلّها تؤلمه. كان جائعاً. عضلاته الساخنة النابضة أحرقت طاقته.

تحت سماء مرتفعة لامبالية توغل برد الخريف في عظامه. السهل امتد بلا نهاية في الظلام الكثيف. أرخى صدام حسين شريط حذائه. تخلص من الصباط والجارب وتفحص الكاحل الملتوي بأصابعه. كانت بطنه ممتلئة بالماء لكن هذا الامتلاء ضاعف جوعه. ذاق أوراق نبتة لا يعرف اسمها. كان طعمها مرّاً بعض الشيء لكن معقولاً. مضغ ورقة ثم أخرى. أحسّ مادة كالصمغ تلتصق بلسانه. بصق الأوراق واستلقى على ظهره.

تغرُب صدام حسين خارج بغداد لم يدمْ طويلاً هذه المرة. قبل رأس السنة استطاع العقيد أحمد حسن البكر أن يحصل على تعهدٍ من رئيس البلاد عبد السّلام عارف بعدم ملاحقة التيار المعتدل في البعث العراقي. الرئيس عارف رأى في حماية هذا التيار المعتدل درباً إلى تقليص قوّة «البعث» وإسقاطه من كل حساب نهائياً. خطة الرئيس عارف بدت بسيطة ولكن حاسمة الفاعلية: وجود تيار مدني معتدل في «البعث» يضمن إضعاف الضباط البعثيين من دون أن يشكّل خطراً فعلياً على نظامه. عليه فقط أن يقصّ أجنحة الفريقين كلّما طالت. هكذا لن يحلق نسر البعث في سماء العراق أبداً.

خبر الاتفاق بين البكر وعارف لن يبلغ أذن صدام حسين إلاّ بعد ٢٧ يوماً على بداية العام الميلادي الجديد. في هذه الأثناء تنقل في أنحاء البلاد يصحبه رفيقٌ آخر هاربٌ التقاه ذات عصرٍ ماطرٍ في ضيعة

صغيرة قرب «منخفض الثرثار». سافرا معاً، يعبران دجلة شرقاً ثم غرباً ثم شرقاً. بلغا في أسفارهما «القائم» على ضفة الفرات في أقصى الغرب. كانا عندئذٍ على مسافة قصيرة من الحدود السورية. ذات ليلة ظلماء شاهدا أنوار الكهرباء في منطقة «بوكمال». بعد أسابيع استيقظا في أقصى الشرق، في خانقين على الحدود الإيرانية. صدام حسين، ملتفاً ببطانية عسكرية في جبال الأكراد الباردة، راقب رفيقه السامرائي يشعل ناراً ويصنع قهوة بينما الأنفاس الخارجة من أنفه وفمه تتحول إلى قطع جليد بارقة كالألماس على لحيته السوداء الكثيفة.

في طوزخورماتو أصيب صدام حسين بسعالٍ منهك. كان السعال يوقظه، ويوقظ رفيقه في الليل. يسعل فيجيبه عواء ذئابٍ من البرّية. قال لهم أحد رعاة الماعز إنهم يسمّون هذا المرض «الأنفلونزا الكردية». التقط الرفيق السامرائي العدوى. بات سعالهما في ساعات الفجر يجذب قطعان ذئاب وضباع من جبال كردستان مطلقاً الذعر في زرائب الماشية والخيول والدجاج.

في اليوم الأول من الأسبوع الثالث من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤، أفطرا صباحاً (بيضاً مسلوقاً وخبزاً ساخناً وجبنة خضراء وعسلاً مقطوفاً قبل يومين وقهوة وشاياً وحليب إبل) في بيت وجيهٍ من وجهاء كركوك يمت بقرابة إلى الرفيق السامرائي، ثم تناولا طعام الغذاء في خيمة شَعرٍ في «بابا كركر»، وأنهيا يومهما الطويل بعشاءٍ متأخر قرب «باي حسن» تشكلت أطباقه من أصناف مماثلة لمائدة الغذاء: الرزّ المطبوخ بالسمن مع الجوز، وقطع مشوية من لحم الضأن، وسلاطة من اللبن والثوم والنعناع اليابس.

تلك الليلة، تحت نجوم الشتاء، قال الرفيق السامرائي:

ـ حياة البدو حلوة.

شرقطت نار الحطب. تصاعدت شرارات إلى السماء. همدرت

الإبل. الأعراب كانوا يستعدون للنوم.

عصر ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤ ترجلا من سيارة شحنٍ في نينوى. سائق الشاحنة الشُمري ودّعهما بيد مرفوعة قليلاً ثم ألقى قدمه بكل ما فيها من قوّة على دعسة البنزين. وقفا وسط سحابة كثيفة من الغبار ودخان المازوت، وحين انقشعت السحابة شاهدا خمسة جنود مسلحين على بعد مترٍ واحد منهما.

في المخفر القريب، حول منقلٍ من الجمر الخابي، اكتشفا أن ارتحالهما الطويل كان بلا جدوى، لأن الجيش توقف عن مطاردة البعثيين منذ نهاية العام الفائت.

هذه المرة انطلقا جنوباً. في سامراء ودَّع صدام حسين رفيقه عبد الخالق السامرائي بكلمتين:

- شكراً رفيق.

ثم وضع علب السجائر في جيوبه. عبد الخالق السامرائي، واقفاً في باب بيت أبيه، وقد ارتدى ثياباً نظيفة وألقى عباءة ثمينة على كتفيه، قال لرفيقه الذاهب إلى بغداد:

- نلتقي.

صدام حسين مشى نحو الغروب واختفى مع ظلٍّ طويلٍ يمتد على أرضٍ مغطاة ببرك الأمطار.

حين ظهر في بغداد ذات صباحٍ جليدي كان يفوح برائحة دخان تخلَّلت كل مسام جلده. قفز من شاحنة تنوء تحت أحمال ثقيلة، وتوجه مباشرة من الميدان عبر متاهة الشوارع المزدحمة بالسيارات والجنود والمواطنين والباعة، إلى «بناية الصحّاح» في شارع الرشيد. قرع الباب فلم يفتح له أحد. أخرج مفتاحاً لكنه وجد القفل لا يستجيب. انتبه أن هناك قفلاً جديداً على الباب.

عثر على زوجته في الكرخ، في بيت خاله وعمه خير اللّه طلفاح.

كانت نائمة. استأجر بعد أسبوع بيتاً مجاوراً ولم ينقل من أثاث البيت في «الرشيد» إلى هذا البيت في الكرخ غير الراديو الخشب الكبير وكرسياً هزّازاً من الخيزران اعتاد الاستراحة عليه نصف ساعةٍ عصراً.

بعد سبعة أيام زار صدام حسين العقيد أحمد حسن البكر. تلقاه البكر بالعناق. جالسين أمام نار المدفأة أشعل العقيد غليوناً، ثم قال بنبرةٍ حاسمة:

ـ «البعث» بلا جهاز أمنٍ لن يقف على ساقيه. أريدك إلى يميني يا صدام. علينا استعادة السلطة.

أشرَفَ الرفيق صدام حسين خلال واحدٍ وثلاثين عاماً على تصفية مئات العراقيين المتهمين بالتآمر على الحزب والدولة. أعدم بمسدسه الحربي الخاص ـ الذي لا يخطئ هدفاً قريباً أبداً ـ ستة عشر قيادياً رفيقاً غسلت دولٌ أجنبية عقولهم فتنحوا عن صراط الولاء المستقيم لسلطة الحزب الشاملة. زوجته ساجدة خير اللّه حسين أنجبت له إبنين (عدي وقصي) وثلاث بنات (رغد ورنا وحلا) ربّاهم ـ مع أبناء الوطن جميعاً ـ تربيةً بعثية مخلصة تؤمن أن كل شيء يهون في سبيل الأمة وأن خير الأمة من خير الرفيق القائد. خاض حروباً داخلية وخارجية، ضد الأكراد وضد الشيعة وضد إيران وضد الكويت إلى أن وجد نفسه يحارب العالم. لم يخفْ يوماً من شراسة عدوٍ. اعتقد منذ عمرٍ مبكرٍ أن الشراسة ليست طَبْعَاً يُولد فينا بل هي قرارٌ إرادي يتخذه المرء بكامل وعيه. وأيقن منذ مزقت رصاصةٌ فخذه ذات مساء خريفي بعيدٍ أن الحرص ضروري والصبر فضيلة والتأني طريق النجاة، لكن الأهم من كل ذلك دقّة التنفيذ. أدرك أن رصاصة لا تصيب من عدوك مقتلاً هي رصاصة ترتد إلى صدغك ولو تأخرت في مسارها الأفعواني عشر سنين. من نفرٍ عادي في «البعث» تدرج بلمح البصر إلى قمة الهرم الحزبي بعد أن كلّفه العقيد أحمد حسن البكر تأسيس جهازٍ أمني يكون ذراع الحزب القادرة. خلال عام ١٩٦٤، وبتوصيةٍ من «القيادة القومية»

ممثلة في شخص الأب المؤسس لحزب البعث العربي الاشتراكي الأستاذ ميشال عفلق، انتُخب صدام حسين عضواً في «القيادة القطرية» للبعث العراقي. لم يلبث الأمين العام الجديد للبعث العراقي صديقه وحليفه، العقيد البكر ذاته، أن عيّنه نائباً له. كل تلك الترقيات لم تشغل الرفيق صدام حسين عن واجباته الحزبية: طوال شتاء وربيع وصيف ذلك العام الحاسم في حياته وحياة البعث العراقي، انشغل في تشكيل جهازٍ أمني أطلق عليه اسم «جهاز حنين» واختار عناصره عنصراً عنصراً من كوادر الحزب الأشد إخلاصاً، الأصعب مراساً، والأقل كلاماً.

قال لرفيقه عبد الكريم الشيخلي واقفَيْن في وكرٍ مظلم حول مكتبٍ مضاءٍ بمصباحٍ واحد ومغطى بالأوراق واللوائح التي أُنقِذَت من بيت ناظم كزار قبلَ مداهمته:

ـ سوف يكون جهازاً أخطبوطياً لم يعرف العراق مثله من قبل.

تلك الجملة لم تكن جملة عابرة، ولا كانت بنت ساعتها.

منذ تظاهرات ١٩٥٦ اكتشف صدام حسين، وهدير الهتافات المعادية لإسرائيل والامبريالية وحلف بغداد يصمّ أذنيه، أن درب القوّة يستطيع اختراق كل الحشود إذا توفرت عزيمة مناسبة على رأس مجموعة صغيرة منظمة: الحشد يتموج في جميع الاتجاهات مثل طوفان، أما المجموعة المنظمة فتنطلق في اتجاهٍ واحد، في مجرى يرسمه القائد بدقّة بالغة إلى أن يبلغ الهدف.

قاعداً في الكرسي الهزّاز عند العصر يشرب كوب قهوته السوداء بالحليب البارد، استمع إلى الرفيق عدنان خير اللّه (ابن عمه) يحدثه عن كوادرِ مخلصة في الأهوار شمال البصرة. صدام حسين لم يكن حتئذٍ يعرف تلك المنطقة. قال عدنان:

ـ يحيون في أكواخ تطفو على سطح الماء. صيادون مهرة.

يصيبون الطير العابر خطفاً على علو ٢٠٠ متر.

استمع صدام حسين إلى الصوت يُحدِّثه عن إخلاصهم للعقيد البكر منذ كانوا جنوداً تحت إمرته قبل سنوات. انتبه إلى الشبه بين هذا الصوت وصوت زوجته ساجدة، ثم تذكر أن عليه تنبيه العقيد البكر مرة أخرى إلى أهمية الضغط على الرئيس عارف لإطلاق بعض الرفاق البعثيين ـ حدَّدهم هو اسماً اسماً ـ من السجون.

في شباط (فبراير) ١٩٦٤ سافر صدام حسين سرّاً إلى دمشق للمشاركة في المؤتمر القومي السابع لحزب البعث. خلال المؤتمر أنتُخب العقيد أحمد حسن البكر عضواً في «القيادة القومية». مساء يوم مثلج جلس صدام حسين مع ميشال عفلق في غرفة مسدلة الستائر، أرضها مغطاة بالسجاد الإيراني السميك، وفي مركزها تماماً تتوقد نيران الحطب في «وجاق قاطورجي» مستوردٍ من صوفر اللبنانية. كان عفلق متعباً من رشحِ مزمنٍ أرهقه ذلك الشتاء. شرب كوب زهورات ساخناً، بينما صدام حسين يرشف فنجان قهوته المرّة. في الخارج كانت رياحٌ عاصفةٌ ترتطم بجدار قاسيون.

سأله عفلق:

ـ كيف نستطيع مساعدتكم؟

أجابه صدام حسين:

ـ ادعوا لنا وأعطونا سلاحاً.

ضحك عفلق. عطس عطسة قوية وأخرج منديلاً من جيبه. قال:

ـ هذا الطقس اللعين!

أمسك بقضيب الحديد وحرّك حطبةً رفيعة في بيت النار، ثم أعلم رفيقه العراقي أن السلاح جاهز، وأن مخصصات مالية مناسبة قد أُقِرّت سرّاً بحسب اقتراحه.

الكوادر الجديدة الآتية إلى بغداد من الأهوار كشفت عن براعة

تقنية فائقة في صناعة قنابل من مادة ت.ن.ت. كانت هذه حياتهم: قنابل لصيد الأسماك. عبد الكريم الشيخلي أخبرهم باسماً أن شيئاً لم يتبدل:

ـ الأسماك باتت أكبر، هذا كل شيء.

خلال ذلك الربيع اكتشف صدام حسين مهارة كوادر أخرى. هذه المرة كان الرفيق من معارفه: عبد الخالق السامرائي. في غضون أسابيع شنّ عبد الخالق السامرائي هجوماً نظرياً كاسحاً على أعداء «البعث» في نشرات حزبية طُبعت سرّاً في أنحاء العراق.

التقيا في الأول من نيسان (أبريل) ١٩٦٤ للمرة الأولى بعد افتراقهما في سامراء مطلع العام. بدا عبد الخالق السامرائي بعباءته الجذّابة ووجهه الوسيم مركز الأنظار وسط المقهى البغدادي المزدحم. انتبه صدام حسين في مساء اليوم التالي، خلال عشاء في بيت العقيد البكر، أن لرفيقه السامرائي سطوة على المتحلقين حوله. ليس عبد الناصر، قال صدام حسين في سرّه، لكنه يقدر أن يكون. استمع إلى الصوت القوي وراقب وجوه المستمعين.

فتش عن عبد الكريم الشيخلي بنظرات كاشفة كمصابيح تدور وتراقب ساحة سجن. لم يعثر عليه. بعد دقائق رآه واقفاً على الشرفة المطلّة على دجلة يتحدث مع رفاقٍ وعسكريين. فكّر صدام حسين أن الشيخلي أيضاً صاحب شخصية. لا يُظهر الشيخلي ذلك أمامه في مواجهات مباشرة. لكنه ـ صدام ـ يُدرك الأثر الذي يُخلِّفه حديث الشيخلي في المستمعين. كلّما أعطاه ظهره أدرك أنه ينطلق في الكلام حرّاً متدفقاً. من زاوية مظلمة راقبه قبل أيام يتبادل الدعابات مع الرفاق الصيادين القادمين من الأهوار. هؤلاء الرجال الضخام الجثث أصحاب الأصابع الرشيقة والضحكات الصاخبة، يتصرفون أمام الشيخلي كأنه قائدهم السرّي. وحين يحضر هو ـ صدام حسين ـ بينهم، يغرقون في

صمتٍ هائلٍ لا بدَّ أنهم اعتادوا عليه خلال رحلات الصيد الطويلة في قواربهم على وجه صفحة مياه تمتد مزروعةً بالقصب والجذوع اليابسة، فسيحةً كالسماء.

بعد سهرات صاخبة بأحاديث ونقاشات ولقاءات، مثل تلك السهرة في بيت العقيد البكر، اعتاد صدام حسين أن يقضي الليل ـ أو ما تبقى من ساعات الليل ـ ساهراً وحيداً في كرسيه الخيزران، نظرته تحدّق إلى الظلام.

حين وُلد ابنه البكر عُدي بات حبل أفكاره الليلية ينقطع أحياناً بصيحات بكاءٍ صادرة عن غرفة النوم. كان ينهض في مراتٍ قيلة، يدخل الغرفة، ويأخذ الطفل من أمّه، ويطلب منها أن ترجع إلى النوم. يحمل الطفل ثم يغادر الغرفة عائداً إلى الكرسي الهزّاز. تظهر ساجدة في الصباح وهي تمشط شعرها وقد التفَّت بروبها الأبيض الطويل. ترى الطفل نائماً بين ذراعي أبيه. وترى زوجها جامد الوجه كأنه قُدَّ من حجرٍ، بعينين واسعتين فارغتين تنظران إلى حيث لا يعلم أحد.

صدام حسين كان يعلم. عصر اليوم التالي، في اجتماعٍ مغلقٍ ضمّه وخمسة قياديين آخرين بينهم الشيخلي والبكر وعمّاش، أَعْلَمَ صدام حسين الرفاق أن «جهاز حنين» أعدّ خطّة لاغتيال الرئيس عبد السلام عارف واستعادة السلطة المخطوفة. الحاضرون خيَّم عليهم الصمت. سرّى في المكتب الموصد تيار كهرباء يشبه هدوءاً يسبق العاصفة.

عبد الكريم الشيخلي قال عندئذٍ العبارة التي ينتظرها صدام حسين:

ـ والخطة هي؟

فتح صدام حسين على الطاولة خريطة القصر الجمهوري. كانت خطوطاً تُظهر أبواباً خارجية وداخلية، غرفاً وقاعات وسلالم، ممرات

ومخارج طوارئ ونوافذ تطلّ على النهر. توزعت ثلاث علامات ضرب × باللون الأحمر على ثلاث نقط من التصميم الهندسي المثير للقلق.

بظفرٍ طويل أشار صدام حسين إلى العلامة الأولى الحمراء وقال:

ـ هذا باب خلفي للقصر. سيكون في انتظار المجموعة رقيبٌ من الحرس الجمهوري يدلّها إلى...

ورفع إصبعه عابراً ممراً ينعطف في زاويتين قائمتين ثم سقط بظفر القط مرة أخرى على علامة ضرب ثانية:

ـ... هنا: سلالم الخدم.

بحركة خاطفة طار إصبعه يتسلق السلالم ثم انعطف مرتين فبلغ علامة الضرب الأخيرة، العلامة الثالثة:

ـ قاعة الاجتماع. الحكومة كاملة مع الأركان ورئيس الجمهورية. موعد التنفيذ حُدِّد.

العقيد صالح مهدي عمّاش، وزير الدفاع في الحكومة البعثية التي أطاح بها الرئيس عارف خلال السنة الفائتة، تكلَّم عندئذٍ:

ـ حُدِّد؟

هزَّ صدام حسين رأسه بالإيجاب:

ـ حُدِّد رفيق. الثلاثاء المقبل. الاجتماع يبدأ عند الحادية عشرة صباحاً. الباب الخلفي يُفتح أمام سبعة عناصر من وحدة «جهاز حنين» الخاصة عند الحادية عشرة وخمس دقائق. الوحدة تخلع باب قاعة الاجتماع قبل الحادية عشرة وعشر دقائق. الإعدام شامل ويحتاج إلى دقيقة واحدة. طلقات الرشاشات تكون الإشارة لبدء الجزء الثاني من الخطّة.

مرّة أخرى نفَّذ عبد الكريم الشيخلي الأوامر المسبقة. تقدم برأسه إلى الأمام وسأل:

ـ الجزء الثاني؟

أجابه صدام حسين:

ـ الجزء الثاني دقيق خاطف وينقذ وحدتنا الإنتحارية من موتٍ محقق. هنا تدخلون أنتم على الخط!

كانت نظرة صدام حسين موجهة إلى الضباط عندئذٍ. قال العقيد عمَّاش:

ـ تابعْ رفيق.

قال صدام حسين:

ـ فور تنفيذ عمليتنا تتحرك وحدات عسكرية للسيطرة على محيط القصر وتأمين الحماية لوحدة «جهاز حنين». هذه مهمتك عقيد. في الوقت نفسه تقتحم وحدة أخرى ـ وهذه من أمن الحزب ـ مبنى الإذاعة، ويُعلَن اغتيال الرئيس عارف على الهواء.

العقيد أحمد حسن البكر تكلَّم عندئذٍ للمرة الأولى:

ـ والتلفزيون؟

أجابه صدام حسين:

ـ هذه مهمتك حضرة الرفيق. عليك أن تظهر على الشاشة فوراً وتعلن نفسك باسم «البعث» رئيساً للبلاد ولمجلس الوزراء وقائداً عاماً للقوات المسلحة.

قال العقيد عمَّاش بصوت مرتبك:

ـ خطَّة خطرة.

أجابه صدام حسين:

ـ كل خطَّة انقلاب هي خطَّة خطرة. هذه بالذات غير متوقعة.

سأله العقيد البكر عندئذٍ بنبرة الموافقة:

ـ ومن يقود وحدة الإعدام الخاصة إلى قلب القصر؟

سكت صدام حسين لحظة، أراد أن يعطي الموقف بُعدَه التاريخي المطلوب. نظر إلى الوجوه، بادل العيون المسدّدة التحدي، ثم أجاب:

- الرفيق صدام حسين.

صباح الاثنين اجتمع صدام حسين في وكرٍ في محلة حيدرخانة مع عناصر «جهاز حنين» الذين انتقاهم للعملية. مرة أخرى شرح لهم الخطّة بالتفصيل. ظهراً تناول طعام الغذاء في بيته في الكرخ. عند العصر اجتمع مع عبد الكريم الشيخلي والعقيد أحمد حسن البكر. غادر الشيخلي قبل صدام بساعة: كان مكلفاً بالتنسيق مع الرقيب (أعطوه اسم «الديك» في شيفرة العملية «أهوار») في القصر الجمهوري.

العقيد أحمد حسن البكر واقفاً مع غليونه ينظر عبر النافذة إلى مياه دجلة المظلمة، قال له:

- أنت تعلم أنك تضع رأسك تحت سيف العقيد عمّاش. إذا تأخر ربع ساعة في تحريك قواته سيقضي عليكم الحرس الجمهوري. لماذا هذه المجازفة؟

ظل صدام حسين صامتاً. وضع يده على الجرح القديم.

ابتعد العقيد البكر عن النافذة وجلس قبالته. كانت سنتمترات قليلة تفصل بين الرأسين. قال صدام حسين:

- العقيد عمّاش في النهاية مخلص للبعث.

أكّد البكر:

- للبعث ولقيادة البعث. ليست عندي شكوك.

قال صدام حسين واقفاً:

- هذا يكفي.

ماشياً في العتمة إلى الكرخ يرافقه عنصران من «جهاز حنين» مكلفان بحراسته ليلاً نهاراً، تابع صدام حسين في رأسه الجملة التي أنهى بها حديثه عن العقيد عمّاش: «هذا يكفي. . . في هذه المرحلة». كان يعلم ـ كان يشعر غريزياً ـ أن لا شيء يكفي. أن التحالفات تتبدل باستمرار وأن الواحد لا يستطيع الوثوق إلاً بنفسه. بدا له حديث العقيد البكر هذه الليلة كاشفاً: مثله، يخفي العقيد البكر في أعماقه شكّاً أصيلاً بالبشر، كلّ البشر. هل يشكّ فيه هو أيضاً، ساعده الأيمن؟ رؤية أعراب يعبرون الشارع العريض في تلك الساعة المتأخرة من المساء أثارت استغرابه. فكّر أنهم لا بدّ أضاعوا طريقهم في متاهة المدينة. وجد ذلك مسلياً: يعثرون على بئرٍ مفقودة في صحراءٍ لا نهائية، لكنهم يفقدون الرشد في أصغر مدينة. تذكر عندئذٍ عبارة عبد الخالق السامرائي، الرفيق الصاعد نجمه سريعاً في فلك «البعث»: «حياة البدو حلوة». في اللحظة ذاتها أحسّ على لسانه طعم قهوة خضراء.

ألقى تحية المساء على الحارسَيْن، تركهما في المدخل، وصعد السلالم إلى بيته. أدرك بينما يرمي علاقة المفاتيح على الراديو أنه مرهق. يعرف أنه مرهق حين تستولي ذكريات تافهة وأفكار أشد تفاهة على دماغه: يفكر في الأعراب ولغو الرفيق المنظّر عبد الخالق الآن!

حين خرج من الحمام ملتفّاً بمنشفة وجد زوجته تنتظره. كان العشاء حاضراً وعدي نائماً في سريره الصغير. توزعت أطباق منوعة على الصدْر المعدن الواسع. أكل لقمتين ثم أشعل سيجارة. حملت ساجدة الصدر إلى المطبخ.

حين خرجت من المطبخ وجدته نائماً في كرسي الخيزران الهزّاز، يشخر وقد ارتدى منامته البيضاء المقلمة بالأسود. كان رأسه ملقى إلى خلف، وخشخشة خافتة تصدر عن الراديو قربه.

عند الفجر أيقظته طرقات على الباب. فتح صدام حسين عينيه

ونظر إلى الساعة في رسغه بينما يجذب مسدسه عن الكنبة. كانت الثالثة فجراً إلاَّ خمس دقائق. سمع صوت مرافقه وراء الباب قبل أن يفتح. الرفيق المرافق أَعْلَمَه في وقفة استعداد عسكرية أن الرفيق عبد الكريم الشيخلي واقف في الأسفل يطلب الصعود لمقابلته.

وصل عبد الكريم الشيخلي لاهثاً. كان ممتلئ الجسم، وكان يحمل خبراً سيئاً: الرقيب «الديك» في القصر الجمهوري، مفتاح العملية كلّها، نُقِل أمس بالذات إلى نقطة أخرى.

التقط صدام حسين علبة سجائره. أشعل سيجارة ثم ألقى أمراً مقتضباً:

ـ شكراً رفيق. عليك إبلاغ الرفاق المعنيين فوراً أمر إلغاء العملية، تصبح على خير.

بعد أربعة أيام، في اجتماعٍ مغلقٍ آخر مع المجموعة القيادية ذاتها، أعلن صدام حسين أن «جهاز حنين» وضع خطة جديدة لإغتيال الرئيس عبد السلام عارف واستعادة السلطة المخطوفة. العملية «أورمان» حُدِّد موعدها: يوم سفر الرئيس عارف إلى القاهرة للمشاركة في «القمة العربية».

العقيد عمّاش أعلن هذه المرة معارضته:

ـ هذه خطّة غير مأمونة إطلاقاً. يستحيل اغتياله في الطريق إلى المطار، ويستحيل اغتياله في المطار. الجيش منتشر في كل نقطة.

التفت صدام حسين إلى أقصى اليمين. تبادل النظرات مع العقيد يحيى عمران من قوات سلاح الجو، ثم أعلَمَ الحاضرين بسرِّهما المشترك:

ـ سنضرب الطائرة الرئاسية في الجو.

كانت خطّة لا تُقهر: تُطارد مقاتلةٌ حربيةٌ الطائرة الرئاسية وتسقطها فوق الصحراء بالصواريخ. لا مجال للفشل.

في ذلك اليوم الصافي من منتصف أيلول (سبتمبر) ١٩٦٤، جلس صدام حسين أمام التلفزيون يدخن سجائره منتظراً الإعلان عن سقوط الطائرة الرئاسية بعد دقائق من مغادرتها مطار بغداد الدولي. الراديو أيضاً كان مرفوع الصوت، إبرته ثابتة على «إذاعة بغداد»، ونور الشمس ينزلق على خشبه اللامع. حين انهالت الطرقات على الباب قفز صدام حسين من مكانه كأن ناراً لَسَعته.

لم يكن الجيش في الباب. لكن الجيش كان قادماً: «المدرعات في الشوارع، ووحدات الحرس الجمهوري تداهم أوكار البعث. الخبر ليس مؤكداً بعد بالنسبة إلى الرفيق العقيد البكر لكن يبدو أنه أصبح في السجن. هناك سبعة رفاق في الأسفل، معهم متفجرات إضافة إلى الرشاشات». أسكت صدام حسين الرفيق المرافق بحركة من يده:

ـ انتظرْ تحت!

أخذ حزامه عن الكنبة وقال لساجدة الواقفة في باب الغرفة الأخرى تهزّ عدي الصارخ بكاءً بين ذراعيها المرتجفتين:

ـ أرجع حين أرجع.

ثم اختفى يهبط السلالم قفزاً مع حزامٍ ومسدسٍ ومع علبة سجائره، إلى متاهة الكرخ المزدحمة بالبشر.

لم يعرف أحد كيف استطاع الرئيس عبد السَّلام عارف اكتشاف المؤامرة المدبَّرة على حياته. النظريات كثيرة لكن البراهين قليلة: البوليس السرّي كان يراقب بعض الطيارين البعثيين ولاحظ حركة مشبوهة. أو: أحد هؤلاء الطيارين كان هو نفسه عنصراً في البوليس السرّي. ثم هناك نظرية ثالثة أشد خطراً: البوليس السرّي كان حاضراً في الاجتماع الذي ضمَّ صدام حسين مع خمسة قياديين آخرين بينهم البكر والشيخلي وعمّاش.

لن يعرف أحد حقيقة الأمر وسوف يصنع كل شخص معنيّ نظرية

خاصة به تشرح ما حدث، ويبني مواقفه في أيام آتية انطلاقاً من نظريته. النتيجة المباشرة في المقابل كانت واضحة: أنقض الجيش على البعثيين ورمى بهم في السجون. الرئيس عبد السلام عارف قضى ذلك النهار في غرفةٍ تحت أرض القصر الجمهوري يذرع المسافة الضيقة بين الحيطان جيئةً وذهاباً، ينظر إلى التلفزيون أو إلى حراسه، ويتلقى اتصالاً هاتفياً كل نصف ساعة. لن يخرج من هذه الغرفة قبل أن يتأكد من زوال الخطر تماماً. عند الواحدة فجراً ـ بينما يغفو على كنبة قبالة التلفزيون الذي يخشخش منذ مدة من دون أن يجرؤ أحد على إطفائه خوفاً من إيقاظ الرئيس ـ رنّ الهاتف. «عمليات التطهير تكاد أن تكتمل»، أبلغوه. كان جسمه يؤلمه من النوم على الكنبة. قال قبل أن يضع السماعة من يده:

ـ بعثي، شيوعي، كردي، تركي، لا يهمّني. أريدهم جميعاً في السجون قبل طلوع الصباح.

عام ١٩٩١ نشر باحثان أميركيان في نيويورك «سيرة سياسية لصدام حسين» بالإنكليزية. في مقطع قصيرٍ يحلّل تلك الفترة يظهر الشاب البعثي البالغ من العمر ٢٧ عاماً، رجلاً محنكاً قادراً على اتخاذ القرار المناسب لحفظ مستقبله السياسي في أشد اللحظات حرجاً. كان صدام حسين حينئذٍ عند تقاطع طريقين: بصفته واحداً من قلّة بين قياديي «بعث العراق» الذين ما زالوا خارج السجن، كان الفار من وجه العدالة يواجه مصير رفاقه المعتقلين إن هو بقي في البلاد، أو مصير الحزبيين المقيمين في المنافي إن هو لجأ إلى سورية. عليه أن يختار. وأن يختار سريعاً.

قافزاً السلالم إلى مدخل البناية الشبيهة ببرجٍ أبيض جديد وسط ركام بيوت الكرخ المنخفضة المتداعية، أعدَّ صدّام حسين في رأسه سلسة أوامرٍ أطلقها ما إن أطلّ بجسمٍ مشدودٍ كالوتر على حراسه.

عليهم طمر السلاح والافتراق حالاً. كل واحد ينجو بحياته بانتظار أوامر جديدة. أخفى المسدس تحت ثيابه وأسرع يقطع الأزقة المزدحمة بالباعة والعربات الخشب وبسطات الخضر والناس والحمير والقطط والكلاب باتجاه حارة «الشيخ صندل».

طوال أيام تنقل بين أحياءٍ وبيوتٍ وبساتين ومخابئ في الكرخ والرصافة والأعظمية والكاظمية، لا ينام في المكان ذاته مرتين. حلق شاربه على سبيل التمويه والتنكر. أوشك أن يحلق شعر رأسه أيضاً، لكنه عدل عن ذلك خشية أن يُحسب فارّاً من الجندية. قرّر أنه في هذه المرة لن يهرب من بغداد. المدينة تكتظ بثلاثة ملايين نسمة وهو يقدر أن يضيع عن عيون رجال الأمن في هذه الزحمة من الوجوه والأنفاس. حسن حظّه (أو التاريخ) أعطاه أن يعيش عندئذٍ في زمنٍ سابقٍ على العصر البوليسي لدولة العراق الحديثة: هذا العصر الذي بناه بعد سنوات بعزم صحراوي لا يلين، وبقوة مخيلته المظلمة.

خلال عشرين يوماً أعاد اكتشاف أحياء بغداد زقاقاً زقاقاً. أدرك أن الأسلوب الوحيد لتجنب السقوط في قبضة الأمن يكمن في التحرك باستمرار وبلا لحظة راحة واحدة. الراحة هي ساعات نوم قليلة يخطفها في مكان آمنٍ، بين نصف الليل وشقشقة نور الفجر. أربع ساعات أو خمس بعينين مطبقتين تُسكن روع الأعصاب المتحفزة، وتُعدّه لعشرين ساعة جديدة في المتاهة المكتظة بالأجساد والسيارات والضجة. المهم ألا يجلس على قفاه. كل كائن متحرك هو كائن بعيد عن الشبهة. لا يراقب رجال الأمن مكاناً كما يراقبون تلك المقاهي. كان يعبر أرصفة المقاهي مراقِباً مع رجال الأمن في النظارات السود كل هؤلاء القاعدين في الداخل يتكلمون ويشربون القهوة البرازيلية أو البيرة الباردة بالرغوة البيضاء على الوجه.

كان يستطيع أن يحصي خلال ساعة واحدة (أثناء عبوره الرشيد أو

شارع النهر أو شارع البنوك) أربعين أو خمسين رجل أمن، موزعين عند التقاطعات وأمام المقاهي والمطاعم. يتحركون بين الناس ويجلسون إلى طاولات وينهضون. النظارات السوداء تخفي عيونهم. أصابعهم تتلمس طوال الوقت صحيفة مبللة بالعرق، متجعدة، رائحتها ورق وحبر ومزيج من إفرازات الجسم البشري. أحصى ذات ظهيرة عشرين مخبراً في مقهى «أُم كلثوم». كل مخبر وراء طاولة يزيّنها كوب ماء، وقرب الكوب الصحيفة المألوفة، ملفوفة مثل لفّة خبز قديمة. يستمعون من وراء عتمة الزجاج على العيون، إلى صوت أُم كلثوم متعالياً من الفونوغراف. في لحظة محددة من الإنشاد يعلو التصفيق في الحفل المصري البعيد ويغطي صوت المطربة. عندئذٍ كان صدام حسين الواقف أمام دكانٍ يشرب اللبن الرائب الممزوج بملحٍ ونصف فص ثوم مدقوق، يرى كل هؤلاء الرجال ـ المشابهين كأخوةٍ خرجوا من البطن نفسها ـ يرفعون الأيدي ويطلبون الشاي من نادلٍ محتار بين الطلبات الكثيرة المفاجئة. ثم يلقون رؤوسهم إلى خلف في حركة تخفي لوعة وألماً.

ساعات المساء كان يقضيها متجولاً في شارع أبو نواس، حيث التجول ليلاً أمر معتاد، وحيث زحمة النهار البغدادي تتواصل في صورة أخرى، وعلى دروب جديدة، دروب لا تلبث أن تفضي بعد البيرة وعرق «المسيح» وسجائر «سومر» إلى ظلمات «الكلجية» المضاءة ببياض الأرمنيات. يذهب مع التيار إلى حيث يذهب. عابراً «كوك نزر» يرى رجالاً خارجين من دار قديمة ترتفع في حوشها، وراء الحائط العالي، سبع نخلات. في المساء الرطب تهتز السعف وترتطم بحيطان لا يراها. يخيفه الصوت. يخيل إليه لبرهة أن رجلاً يقف خلفه ويفتح صحيفة ملفوفة. يستدير فلا يرى إلاً كلباً يحوم على برميل نفايات أو لا يرى شيئاً. أصوات الليل تخيفه كلّما عبر زقاقاً مهجوراً. بات يتجنب هذا الجزء من «كوك نزر» ولا يمشي إلاّ بين الأبواب المفتوحة المضاءة

بالمصابيح، على عتباتها يقف رجال ضخام الجثث وخلفهم تظهر العاهرات. يتسكع في زقاق ريجينه مراد: المرأة التي صنعت صيت هذا المكان الأسطوري في زمن الإنكليز والتي علقت في مدخل «الكلجية» المطلّ على «الرشيد» لافتة من خشب الأرز اللبناني رسمت عليها بماء الذهب كلمة Brothel، كلمة تشع ليلاً بنورٍ فوسفوري. التقى ذات ليلة غريبة، بينما دوائر ملونة تعبر السماء القاتمة، أخاه برزان التكريتي.

صدام حسين لم يعرف أخاه حين اقترب منه هاتفاً باسمه. منذ زمنٍ بعيد لم يره. نما الصبي، نما الفتى، صار رجلاً.

ـ أنا برزان. أخوك برزان.

قضى صدام حسين مع أخيه ساعة واحدة تلك الليلة. بينما يمشيان بين زقاق ريجينه مراد وطريق الصابونجية عرض عليه برزان مكاناً للنوم في فندق يعرفه جيداً. قال صدام حسين كاذباً إن بعض الرفاق ينتظرونه هذه الليلة في الرصافة. هذا اللقاء بأخيه غير الشقيق بدا له مشبوهاً. الدوائر المشعة عبرت السماء مرة أخرى، وظهرت «المجرة» بيضاء سابحة في فراغ لا ينتهي. في ظلال كنيسة الأرمن الأرثوذكس أصرّ برزان أن يعطي أخاه المطارد مالاً. أخذ صدام حسين المال واختفى في الليل المتشعب.

نام ليلة في بورة وراء جامع عطا. نام ليلة على شاطئ دجلة. نام ليلة في قاطرة ألمانية مهجورة في محطة سكة حديد الكرخ. نام ليلة في بيت تاجرٍ سوري في «محلة الذهب». التاجر الخمسيني رحّب به وأخبره أنه سمع من ميشال عفلق كلاماً طيباً عنه. قال له إنه يستطيع أن يبقى هنا كل الوقت الذي يريد. صدام حسين أجاب أنه لا يستطيع تعريضه للخطر، وهو يفكر سرّاً أنه لن يعرض نفسه لخطر البقاء أكثر من ليلة في مكان واحدٍ.

جلسا في الحوش الفسيح، وكانت الخادمة العجوز ترفع ماء من

البئر بدلوٍ خشب، وتدلقه في برميل قريب. عند جوانب الحوش اصطفت حجارة ضخمة منحوتة، تشبه قطيعاً من حيوانات خرافية. كانا يشربان القهوة المُرّة ويدخنان تبغاً فاخراً من اللاذقية. أخبره التاجر السوري أن هذه الحجارة من بقايا قصر «باب الذهب»، القصر الذي شيّده أبو جعفر المنصور في المركز من مدينة بغداد المدوّرة حين بناها. اكتشف صدام حسين أن التاجر كان أستاذ تاريخ، وأن صداقته بميشال عفلق تعود إلى زمن الطفولة.

ـ بيت أهله كان مقابل بيت أهلي: ٩ زقاق الموصلي في حيّ الميدان في دمشق. أبوه مثل أبي كان تاجر حبوب، أي صاحب «بايكة». يشتري محصول القمح والحمص والعدس والفول من الفلاحين قبل الموسم، ويسلفهم المال لشراء البذور وأدوات الحصاد والزراعة. كل حوران كانت تبيع مواسمها في «بوايك» الميدان. سنة ١٩٢٨ سافرت أنا والأستاذ ميشال عفلق والأستاذ صلاح الدين البيطار ببعثة من الحكومة. بالسوربون درسنا ٥ سنين...

كان التاجر الشامي يتكلم، وصدام حسين يشرد في ظلمات دماغه: إلى متى يستمر هذا الفرار؟

في نور الحوش الخفيف تدفق التاجر الخمسيني كالشلال. أنوار النوافذ في البيت العراقي التقليدي رمت مستطيلات صفراء على أرض الحوش ومساكب الزرع وفوهة البئر والحجارة القديمة المنحوتة وجذوع النخلات وشجرة فاكهة اصفرت أوراقها. في السكون المخادع، المقطوع بكلمات التاجر الدمشقي، فكّر صدام المحاط بالحيطان أن هذا المكان الآمن هو فخ أيضاً. كلمة واحدة من جارٍ، من عجوز فضولية كتلك الخادمة التي ترفع ماء من جوف الأرض، كلمة واحدة وحسب تكفي كي ينقض رجال الأمن على الباب الخارجي، ثم يتسربوا كالجرذان إلى هذا الحوش. هزَّ هواء الليل النخلة فرأى ظلال السعف

تتموج قاتمة على بركة الماء في الجانب البعيد. كانت نقط النور الكهربائي الأصفر تلمع تحت صفحة الماء. رأى النقط تكبر في عينيه، كأنها مصابيح وهّاجة. صوت التاجر اخترق دماغه من أذنٍ إلى أخرى مثل شيشٍ ساخن. منذ أسابيع لم ينمْ جيداً. ساعات النوم القليلة التي يخطفها خطفاً لا تكفي جسمه التعبان. تابع التاجر الشامي كلامه. كان بديناً متورداً، يعيش لسببٍ غامض بلا زوجة أو ولد، ويبدو مُصرّاً على الابتسام طوال الوقت وإطلاق كلمات غير مفهومة. تكلم عن دمشق الثلاثينات، حين رجع مع عفلق والبيطار من باريس. الثلاثة كانوا في العشرين. عفلق استْلم تجارة والده الذي توفي سنة ١٩٣٣. بعد ذلك صار أستاذ تاريخ في «تجهيز دمشق»، والبيطار صار أستاذ العلوم في المدرسة ذاتها. التاجر الخمسيني قال إنه هو سبقهما إلى السياسة فحضر مؤتمر «عصبة العمل القومي» التأسيسي في بلدة قرنايل اللبنانية عام ١٩٣٣، وكتب مقالاً عن التبعية للغرب في مجلة «الطليعة» قبل أن ينشر الأستاذ عفلق مقالته «خرافة البؤس» بثلاثة شهور. لكن الأمور اختلفت بعدئذٍ. في البداية كان هو منشغلاً بالسياسة، وصديقه ميشال عفلق يطارد الأشباح في قُرى جبل حوران لتحصيل ديون أبيه الكثيرة. في ذلك الزمن كان الإنسان يعيش بلا ماء وبلا كهرباء. فَقَدَ عفلق نصف وزنه على دروب البرية تائهاً في شِعاب جبل الدروز، ولم يُحصل قرشاً واحداً. الفلاحون الفقراء أعطوه أحياناً بعض الزيت والصابون، وفي أحيانٍ أخرى عناقيد بامية يابسة.

رفع صدام حسين رأسه وسدّد نظراته إلى السماء الظاهرة بين سعف النخل. التاجر (الذي يُدعى علي هلال) حَسِبَ أن الشاب يراقب النجوم والغيوم. صدام حسين كان يصيخ السمع لأصواتٍ تأتي من وراء جدار الحوش. كل صوت قد يعني خطراً محققاً. عليه أن يغادر هذا المكان. لماذا يستمر هذا الرجل في حكاياته السخيفة؟ هذه الذكريات هل هي ذكريات حقاً، أم خطّة لتأخيره هنا بانتظار. . .

ـ في السوربون كنا نقرأ جيد وهوجو ودوماس. عفلق حين رجع إلى الشام كتب أن الفقر ليس فضيلة كما أعتقد جان فالجان، وأن المومس ليست امرأة مملوءة نبلاً وحبّاً مثل غادة الكاميليا. توقف عن مطاردة ديون أبيه، وبدأ يكتب مقالات سياسية.

فكّر صدام حسين أن الرجل فارقه لحظات قليلة في أول المساء، بينما هو ـ صدام ـ يغتسل من عرق النهار ومن وسخ الليلة الفائتة المترسب في جسمه. لكنها كانت دقائق قليلة وغير كافية لخروج التاجر من البيت. لكن في البيت هاتفاً. ماذا لو أن التاجر أجرى اتصالاً بالمخفر أو الإستخبارات خلال وجوده في الحمام؟

ـ كنّا في عزّ الشباب، الدم يفور في عروقنا، كنّا مثلك أنت الآن، كم عمرك؟ ٣٠ سنة؟ كنّا حتى أصغر منك. حين ضرب الإنكليز العراق، حين ضربوا حكومة الكيلاني، نزلنا إلى الشارع ووزعنا مناشير تدعو إلى «نصرة العراق». عفلق والبيطار أرسلا كتاب استقالة إلى وزارة المعارف السورية، وتفرغا للنضال. كنت أعطيهما مالاً، وحين أكون غائباً عن الشام يعيشان على الحمص والفول. كان صحن الحمص بـ ١٥ قرشاً، والرغيف بعشرة قروش: سعر موحد في مطاعم الشام. لكنهما كانا يشتريان الرغيف بخمسة قروش من المخبز للتوفير، وصاحب مطعم الفول يسمح لهما بذلك، لأنه يرى اسميهما في الجريدة.

لا يبدو هذا التاجر باطنياً. ثم إنه هنا منذ ثلاث ساعات: تعشيا ودخّنا وشربا قهوة ولم يأتِ أحد. المشكلة في دماغه إذاً. هذا تعب الأرق والأعصاب المتحفزة ٢٤ ساعة من ٢٤ ساعة.

ـ توقفت عن شغل السياسة حين مرض أبي. أبي قال لي إن التجارة لا تستقيم إلاّ إذا أعطيتها كل وقتك. نصف الوقت لا يكفي. قال إنه صنع تجارته بعرق جبينه، وأخبرني أنه في أيام المجاعة في

حرب الأربعتعش أكل التراب كي لا يموت. وأكل جراداً. ناس هذا الزمن لا يعرفون شيئاً عن تلك الأيام. كان هناك جزار في دمشق يتصيد الأولاد الصغار ويذبحهم ويبيع لحومهم (المعلقة وراء دكانه بعيداً من العيون) على أنها لحوم بقر وغنم. ولم ينكشف أمره إلاَّ بعد أن ذبح ٥٧ ولداً وبنتاً.

قام صدام حسين واقفاً ومشى إلى البركة. غمس يديه في المياه الراكدة ثم استدار. التاجر سأله هل يريد النوم.

استيقظ صدام حسين مع صياح الديكة. تسلل خارجاً من البيت قبل نهوض الرجل وخادمته العجوز. في عتمة الفجر خيّل إليه أنه يرى شبحين جالسين حيث جلس مع التاجر بالأمس. كان ينظر إلى الكرسيين. حانت منه التفاتة إلى حجارة «باب الذهب» أسفل الجدار فرآها ترتجف، كأنّها تنبض بالحياة. أيقن أن الإرهاق ما زال يشوش حواسه.

خلال أسبوعه الثالث من الهروب التقى رفيقاً آخر فارّاً في «سينما روكسي». كان الوقت ظهراً. في ظلام الصالة، تحت شاشة بيضاء ـ رمادية، أَعلَمه الرفيق (المرتجف الجسم من النوم القليل) أن «القيادة القومية» في دمشق أصدرت أمراً حزبياً صارماً لجميع الكوادر البعثية المختبئة في العراق بالمغادرة إلى سورية فوراً وعدم تعريض حياتها للخطر تحت سلطة الرئيس عارف. الرفيق الأصفر الوجه قال إنه هذه الليلة سيبدأ رحلته نحو الحدود. صدام حسين نظر إلى عبد الحليم حافظ يركض على شاطئ الرمل مطارداً الحسناوات بثياب البحر الكاشفة، وقال إنه باقٍ في بغداد. بأصابعٍ حديدٍ أمسك ذراع الرفيق المرتجف وأمره:

ـ كنْ رجلاً رفيق! «البعث» حزب رجال.

أجابه الرفيق بصوتٍ متألم:

ـ كل ما في الأمر أنني لم أنمْ جيدَ. ولكن. . .

قاطعه صدام حسين:

ـ كنْ رجلاً. هيا واذهبْ الآن. في الليل الطريق أخطر. حين تصل إلى دمشق قلْ للرفاق الشوام أن «بعث العراق» لا يخاف السجون ولا يخاف فصائل الإعدام.

خلال الأسبوع الرابع حاصرته قوى الأمن في ملاذه الأخير: تلك الغرفة في أسفل المبنى الكبير حيث أقام قبل سنين بعيدة، قبل أن يُنفى إلى مصر، قبل أن يحاول اغتيال عبد الكريم قاسم، وقبل أن يصير بعثياً.

في ظلام الساعة الثانية بعد منتصف ذلك الليل، أيقظته خربشة غامضة. فتح عينين واسعتين، ورأى ـ من مكانه على الحصير الممزق القديم ـ جزماً عسكرية تعبر وراء شبك النافذة الغارق نصفها في الأرض. بعد جزء من الثانية سمع دعسات وراء الباب، دعسات تهبط الدرج. كان تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤ ينتصف. بينما يصوب مسدسه إلى الباب، راكعاً على الركبة اليمنى، بجسم متصلب كالحطب، نسي كل تعب الشهر الفائت، كل مناظر الأيامَ الماضية: نسي النوم على سجاجيد الجوامع المشبعة بعرق المصلين الحفاة. نسي الإستلقاء للحظات على مقاعد «حديقة الأمة». نسي تعثره ذات فجر، ماشياً كمن يمشي في منام، في زقاق في محلة «الشواكة»، بقناة قذرة تعبر في منتصفه، وبشناشيل خشبِ تتقارب في الفضاء عن الجانبين وتصنع سقفاً يفصل رأسه عن السماء وهواء السماء. نسي وقوفه في سوق الغزل ساعات يتفرج على عجائز يلعبون الطاولة ويتبادلون المزاح ويغضبون إذا عاكسهم الحظ، يرمون كلماتهم التركية مع بصاق على وجه الواقف ـ أو الجالس ـ قبالتهم، ثم يضحكون. نسي رجلاً أبيض الشعر، جالساً وراء طاولة مغطاة بالدفاتر والكتب في سوق الوراقين،

مقوس الظهر، يبدو قصيراً وشبيهاً بميشال عفلق وأحمد حسن البكر في الوقت نفسه. كان رجلاً يشبه عظاماً معلقة من حبل رفيع، أقل هبّة هواء ويتبعثر على وجه الأرض. نسي كل تلك المنازل ذات الطابقين الخشب تطلّ على دجلة، أطرافها مسودة بآثار نيران قديمة. نسي الجسر المعلق الطويل والنوارس تعبر تحته مجنحةً وصوتها يمزق الفضاء. نسي أزواج حمام تتقافز على قبّة مقبرة الشيخ معروف. نسي شرطياً يحمل عصا مهددة وقفاً في مدخل سوق الشورجة من جهة شارع الرشيد، بين الأعمدة الحجر، ينظر إلى سيارات وإلى باصات حمراء بطابقين، ويصفر. نسي جلوسه ١٧ دقيقة في سوق البزازين يتفرج على أقفاص الحمام وأقفاص الديكة وأقفاص طيور الحب. نسي عبوره زقاقاً في «العباخانة» محاطاً عن الجانبين بندّافين يفترشون الأرض، كل واحد يحمل قوساً ومضرباً، والقطن يتقافز إلى أعلى ثم يتساقط كالثلج. نسي إغفاءة مباغتة أخذت دماغه وجسمه إلى ليلٍ صامت مدلهم بينما يقف في عزّ ظهيرة ٣٠ أيلول (سبتمبر) أمام متجر «أورزدي باك»، أفخم متاجر بغداد قاطبةً. نسي غفوةٍ خائنةٍ أخرى على مقعد يواجه بركة البط في «حديقة الأمة»، ونسي تلك اللحظة حين فتح عينيه فزعاً فماج ظلُّ جسرٍ على وجه البركة، وداهمته ظلال الأولاد يلقون الخبز الجاف والكعك القديم للطيور المائية الكثيرة المجتمعة عند الضفة وعلى بعد سنتمتراتٍ من قدميه. نسي المتنبي وروجينة مراد والرشيد، والقبو غير الموصد تحت كنيسة القديس كريكو لوسافوريج بالدهليز الذي اكتشفه صدفة فإذا به واقفاً في كواليس «سينما النصر» محاطاً ببكرات أفلام قديمة صدئة وبفئران تنظر إليه بعيون الحذر. نسي شارع السعدون والتمثال الفيصلي الذي تتلاشى ملامحه أول الليل فتختفي رزمة الأوراق المطوية تحت يمناه وتختفي الكلمات المنحوتة على الرخامة، ذلك الاسم الغريب: بياترو كانونيكا، وتحت الاسم: ١٩٣٣. نسي تماثيل لا تحصى، تماثيل جنود وزعماء وقادة، ونسي

نصب الجندي المجهول، ونسي جدارية بمساحة بناية، ونسي رجال أمنٍ ينتزعون طيور الحمام من الجدارية بأيدٍ سريعة وقوية ويلقون الحجارة الدقيقة الزرقاء في سطولٍ علقت إلى السلالم الطويلة. نسي دخوله بار «الخليج العربي» ذات مساء مشتاقاً إلى جرعة بيرة باردة تطفئ ناراً أجنبية لا يعرف من أشعلها بغتة في أعماقه. نسي هربه من نافذة بيتٍ في فجرٍ مبلّلٍ برذاذ مطرٍ فاترٍ. نسي مدرسة في الرصافة راقب تلامذتها يخرجون ضاجين من بوابةٍ حديدٍ سوداء كبيرة، ونسي مشهد تدافعهم أمام بائع الشكرلمة والسمسمية والفرارات وشعر البنات وبيض اللقلق، رغم أنه ذاق عندئذٍ على رأس لسانه الجاف طعم الحلوى الخيالية الملونة ذات الأشكال الطريفة، وهي تذوب رويداً رويداً في فمه، فيفيض ريقه. نسي الجوع والعطش. نسي ثقل المسدس في ثيابه، يخفيه مرّات في حائط قديم أو في سيارة مهجورة محطمة، ثم يعود إليه بعد ساعات. نسي آلام جسمه. نسي عبوره أمام «فندق بغداد» يتأمل بياض الواجهة الكبيرة وهي تستدير وتشرف على دجلة، ونسي الصفرة الزعفرانية المريضة تكسو البناء بأكمله. نسي اضطراب عقله ونسي تشوش حواسه. نسي سقوطه في حفرة على شاطئ النهر ذات ليلة كثيفة الظلام. نسي بغداد كلّها ونسي دجلة الكحلي بالماء العارم والجسور والطيور والخرير المتواصل كالطنين. نسي مصبات المجارير في النهر العريض ونسي روائح توقظه ليلاً كحراب بنادق تنغرز في فتحات وجهه. نسي الأيام الماضية ونسي لحظة البداية ونسي تلك الطَّرْقات على باب منزله في البناية الجديدة في الكرخ، ونسي منظر زوجته ساجدة واقفة في باب الغرفة ترتجف، ونسي بكاء عُدي صارخاً بالجوع وبما لا يعرفه أحد. نسي الناس والأزقة والسماء والمطر والشمس، ونسي صدام حسين. راكعاً على ركبة واحدة في غرفة عاش فيها قبل سنوات بعيدة، امتدت ذراعاه أمامه، مثل قصبتي سكر ناشفتين. لم يعد رجلاً. صار فزّاعة تحمل

مسدساً مصوباً على بابٍ عتيقٍ يوشك أن يتحرك في أي لحظة الآن. أيقن - في جزءٍ غامض من دماغه، جزء ظلّ يعمل كآلة أوتوماتيكية، رغم تحول باقي الأعضاء إلى جمادٍ - أيقن أنه ولج فم الموت. عدّ الرصاصات في عقله وأدرك أنه قد يقتل حفنةً، لكن حفنة أخرى، بتلك الجزم العسكرية الثقيلة، لن تلبث أن تأخذ مكانها، بينما مسدسه بات فارغاً من الرصاص. وجّ في باله عندئذ منظر رفيقٍ بعثي أصفر الوجه يعبر الحدود إلى منطقة «بوكمال» السورية ناجياً بحياته. في تلك اللحظة خلعوا الباب ودخلوا. وجدوه راكعاً على ركبته اليمنى، أصابعه العشرة مرفوعة في الهواء، والمسدس على الأرض. كانوا خمسة رجال. أنوار مصابيحهم دفعته إلى إغماض عينيه. في الطريق إلى السجن، بينما السيارة العسكرية ترتج، راقب المدينة النائمة عبر قضبان الفوهة المربعة. أسند رأسه إلى الجنب الحديد ثم سقط في نومٍ عميق.

هذه المرة لن يخرج سريعاً. أُتهم صدام حسين في ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤ بالتآمر على موقع رئاسة الجمهورية العراقية، وبالتخطيط مع قياديين بعثيين لإغتيال الرئيس عبد السَّلام عارف. حُكم بالسجن ٣٥ عاماً. زوجته ساجدة خير اللّه حسين أجرت عملية حسابية بسيطة فاكتشفت أن عُدي سيكون قد أصبح رجلاً في منتصف العقد الرابع عندئذٍ. بدا لها الأمر غريباً: كتبت الرقم على لوح خشبٍ في مخيلتها ثم تأملته طويلاً. كتبت الرقم والمعادلة الحسابية كاملة في إطار مستطيلٍ:

١٩٩٩ = ٣٥ + ١٩٦٤

صدام حسين لم تخطر في باله أبداً هذه الأرقام. حين رموه في السجن وجد رفاقه بانتظاره. عبد الكريم الشيخلي سوف يقاسمه الزنزانة نفسها طوال عامين. في ساعة النزهة، تحت شبك السماء المقطعة إلى مربعات دقيقة، التقى صدام حسين مرة أخرى رفاقاً بعثيين جمعهم

الجيش والبوليس من جهات العراق الأربع. هنا، في السجن، أُتيحت للشاب البعثي البالغ من العمر ٢٧ عاماً، أن يوثق صلاته بأشد عناصر «بعث العراق» شراسة. تحول السجن بؤرة خطط ومؤامرات تنتظر لحظة مناسبة للتنفيذ. تصرف صدام حسين في تلك الأيام مثل رجل خارج من السجن بعد أيام أو أسابيع أو شهور. كان يكتشف مرة أخرى، وبثباتٍ هائل، تلك القدرات غير المحدودة الكامنة داخله: أن يجد العزم في الساعة الأشد ظلاماً. ألا يسمح لمعنوياته بالسقوط. أن يحفظ صفاء دماغه (رؤيته للهدف البعيد، تلك السلطة المطلقة) وأن يحفظ ذلك الصفاء الساكن المخيف بصلابة الإرادة وحسب.

في سنواتٍ آتية سوف يجد نفسه مرة تلو الأخرى محاصراً بالقصف ومهدداً بالموت. وفي كل مرة سوف يظهر على التلفزيون ويؤكد للشعب أن العراق انتصر وسحق الأعداء من جديد. كان يعيش في رأسه. لكنه استطاع أن يفرض عالمه الخيالي ـ بعدوانية لا تعرف الرحمة ـ على العالم الواقعي.

أحد الرفاق البعثيين في السجن حسن عادل الأميري، سأله لماذا عصى أوامر «القيادة القومية» ولم يغادر بغداد إلى الملاذ السوري. أجابه صدام حسين:

ـ كلْ رفيق، كلْ!

كانوا ١٧ رجلاً يفترشون أرض القاووش الذي لا تتجاوز مساحته ٢٥ متراً مربعاً، وفي أيديهم صحون معدن مطعوجة الحواف تملؤها حبوب الفول المسلوقة مع الملح وعظام البقر. نور الواحد والنصف ظهراً تسرب مملوءاً بذرات الغبار عبر النافذة المرتفعة المزوّدة بقضبان حديد تخينة وبشبك معدنٍ رفيع ممزق، وزجاج ـ وراء القضبان والشبك ـ مهشم وملطخ ببقع زيتٍ وأوساخ. عرض النافذة يقارب المتر. ارتفاعها لا يتجاوز ٤٠ سنتمتراً. كانوا يتناوبون على القفز

والتعلق بالقضبان ورفع الرأس والنظر إلى الرمال الممتدة شرقاً والأسواق المتشعبة غرباً. الأقصر بينهم كان يعينه بعض الأقوياء فيرتفع لحظات على أكفٍ أو أكتاف ثم يهبط بعد قليل. فوق النافذة امتدت قساطل وأنابيب، تهرأت بطانةُ إسفنجٍ تُغلفها فتدلت مع خيطان العناكيب وفتائل الغبار القاتمة. الحمام كان في الزاوية، بنصف حائطٍ يفصل الحفرة وحنفية الماء، عن باقي القاووش. الحيطان كلّها مبقعة بالعفونة، في موسم الأمطار تنزّ ماء من الجوانب ومن السقف. الأرض تكسوها قشرة سميكة من الشحوم وما يشبه الطحالب. يشطفونها بمياه يجلبونها من حنفية الماء بالسطل الحديد، لكن القشرة القديمة المتحجرة كصدفٍ بحري لا تزول. توزعوا عاجزين على فرشات إسفنج ضيقة، وألقوا ظهورهم العرقانة على الحيطان.

صدام حسين كان ينهض باكراً مع أذان الفجر، ويبدأ تمارينه الرياضية. يسمع عبر الجدار حركة في الزنزانة المجاورة ويدرك أنهم يصلّون. بعد دقائق يتلاشى كل صوت. وحده الشخير حوله يبقى مسموعاً في ذلك الوقت الفاصل بين أذان الفجر واستيقاظ المدينة. مع شعاع الشمس الأول تفرقع أبواب الحديد الجرّارة في الأسواق المجاورة، يرفعها أصحاب المحلات بعنف من استيقظ من نومه عَكِر المزاج، فتعلو الشتائم في الزنزانة.

ذات فجر فتح عينيه على مشهد غريب. ما يشبه موجة خضراء مفتتة إلى قطع، قطع تتقافز في عتمة الفجر الشفافة، وتغطي رفاقه النيام على فرشات ضيقة، وقد تغطوا ببطانيات تحميهم قليلاً من البرد والرطوبة. حين استقام جالساً فرقعت عظامه كأن الصدأ نال منها في ساعات النوم. في اللحظة ذاتها انفصلت قطعة كبيرة عن الموجة الأم الخضراء والتصقت بأسفل الجدار تحت النافذة. عندئذٍ فقط انتبه أنها ضفادع.

ركل الرفاق النائمين واحدا واحداً. ١٧ رجلاً في قاووشٍ بباب

حديد سميك، وجدوا عشرات الضفادع تملأ المساحة التي لا تتجاوز ٢٥ متراً مربعاً، وتتكوم على حافة النافذة، ووراء الزجاج المهشم. في الحمام وجدوا مزيداً من الضفادع على الأرض والحنفية وفي السطل الحديد وفي حفرة المرحاض. حتى علب البلاستيك والصناديق التي يحفظون فيها بعض التمر والقهوة والكعك كانت طافحة بالحيوانات البرمائية ذات الجلد الأخضر ـ البنّي الداكن.

أحدهم قفز صارخاً مرة تلو الأخرى يحاول تخليص ساقيه وقدميه من الضفادع التي التصقت بعرق بشرته. حين نفضوا بطانيتهم تطايرت الضفادع عنها وارتطمت بصوت لزج مقرف على الحيطان.

أحد الحراس قال بعدئذٍ:

ـ أحسن لكم من «خلف السدة». في ذلك السجن تأكلكم الجرذان أحياء.

خلال ساعة النزهة كانوا يرون عبر الشبك والسلك الشائك شرفة مرتفعة بعيدة، لا بدَّ أنها تقع عند حافة سهل الرمل. أحياناً يرون أولاداً على الشرفة العالية. في أحيان أخرى يراقبون امرأة تنشر ثياباً ملونة. المسافة بعيدة. المرأة قد تكون عروساً وقد تكون عجوزاً.

صدام حسين واقفاً في بقعة الشمس، الأشعة على جلده ووجهه وأصابع يديه، فكّر للمرة الأخيرة بسلسلة قرارات سريعة حاسمة أوصلته إلى هذا المكان: في الأسبوع الثالث من أيلول (سبتمبر) ١٩٦٤ أدرك أنه عند تقاطع طريقين. آنذاك كان هارباً في متاهة الشوارع لا ينام في المكان ذاته ليلتين. بينما يتنقل بين ضفتي دجلة سأل نفسه: ما العمل؟ يهرب إلى دمشق ويتابع النضال من خارج الوطن، أم يبقى في العراق ويعرض نفسه لمصير الرفاق: التعفن في السجن. «القيادة القومية» وجّهت إليه أمراً واضحاً: أن يغادر العراق إلى القطر السوري فوراً. لكنه لم يكن مستعداً لتنفيذ أي أمر قبل حساب طويل لنتائج تنفيذه أو

عصيانه. أن يغادر العراق والرفاق في السجون فهذا لن يفسر إلاّ بطريقة واحدة: أنه هرب من وجه البوليس إلى شاطئ الأمان. أما إذا بقي في العراق فماذا يحدث له؟ يقبضون عليه؟ يرمونه في السجن مع الآخرين؟ هذا ليس سيئاً. على الأقل لن يقتلوه. هذه المرة لم يمزق كتف الرئيس برصاصة ساخنة. هكذا يربح رفاقه ولا يخسر شيئاً. «القيادة القومية» يعرف كيف يتصالح معها في أي وقت.

خلال الشهر الثاني سجيناً، التقى صدام حسين العقيد البكر. كان لقاءً قصيراً لم يتجاوز الخمس دقائق. لاحظ أن بشرة العقيد اكتست بلون طحلبي مخضر. صدام حسين ظلّ صامتاً طوال مدة المقابلة تقريباً. قبل أن يتصافحا ويفترقا قال العقيد:

ـ قد أخرج بعد أيام. لكن اتصالنا لن ينقطع.

لم يعرف صدام حسين أن العقيد البكر أُفرج عنه بضغطٍ من الدول العربية إلاّ بعد أسبوعين على حدوث الأمر. أخبرته زوجته ساجدة خير اللّه حسين ذلك حين أتت تزوره حاملة عدي ملفوفاً في بطانية صوف ناعمة زرقاء. أخبرته أيضاً أن أخاها عدنان مسجون في «خلف السدة» وأن العقيد البكر يحاول التوسط ونقله من هناك إلى هنا، لكي يكون بين رفاقه. كانت دامعة العينين. رفع صدام حسين إصبعاً في وجهها. لاحظت ساجدة الظفر المتشقق المسود. ورأت آثار حروق ضعيفة ظاهرة على قفا يده. أخذت نفساً عميقاً وقالت إنها مصاب بالرشح منذ الأمطار الأخيرة.

في الأسبوع الأول من شباط (فبراير) ١٩٦٥ حمل صدام حسين ابنه عدي بين ذراعيه، بينما زوجته ساجدة تخبره عن أحوال العالم الخارجي. قبل أن يعطيها الولد دسّ ورقة في الثياب الرقيقة البيضاء. كانت تلك رسالته الأولى من السجن إلى رفيقه العقيد البكر. خلال الأسابيع التالية تحول عدي الملفوف بالثياب إلى صندوق بريد بين

الرجلين. في رسائل مقتضبة، وأحياناً طويلة، أعاد العقيد البكر بمساعدة ذراعه اليمين صدام حسين، تنظيم فلول «البعث» وترميم هيكل «جهاز حنين» بانتظار اللحظة المناسبة. من زوايته في الزنزانة كان صدام حسين قادراً على متابعة تحالفات الرئيس عارف المستجدة تحالفاً تحالفاً. العقيد البكر في المقابل وطّد أحلافه القديمة في تنظيم «الضباط الأحرار» وأعاد فتح قناة مهمة مع حردان التكريتي. كان عليه أن يضمن الرجل إلى جانبه، ضد الرئيس عارف، الرئيس الذي بات تابعاً لعبد الناصر على نحوٍ مكشوف.

في رسالة وصلت بعد عاصفة أمطار ورياح دامت أياماً، سأل العقيد البكر مساعده صدام حسين أن يختار اسمين من ثلاثة أسماء. كتب العقيد البكر في تلك الرسالة أن الرئيس عارف وافق على إطلاق رفيقين من كوادر قيادة «بعث العراق»، بشرط اختيار السجينين من لائحة وضعها بعض الضباط. اللائحة خلت من اسم صدام حسين، وضمّت ٢٣ اسماً. العقيد البكر أخبره أن عليه اختيار اثنين من الثلاثة الذين دوّن أسماءهم هنا. كتب العقيد البكر: «اختصرت اللائحة من ٢٣ اسماً إلى ٣ أسماء. عليك الآن حذف اسم من الثلاثة».

صدام حسين رفع رأسه عن الورقة المجعوكة بين أصابعه الجافة. نظر إلى ظلمة الساعة السادسة مساء وراء القضبان والزجاج العالي المتسخ. كان يلفّ ساقيه ببطانية، وعلى كتفيه بطانية أخرى تفصل ظهره عن صقيع الجدار. انتبه أن العقيد البكر يلعب معه جولة شطرنج. ذلك واضح من الأسماء الثلاثة على الورقة: ناظم كزار، العقيد عمّاش، وعبد الخالق السامرائي.

أيقن صدام حسين عندئذٍ أن العقيد البكر استطاع بلوغ سريرته بنظرة قاتمة باردة. كآبة العقيدة منحته طاقة التكهن. ريبته الأصيلة الباطنية تدلّه إلى الأثر الصحيح مثل كلب صيد. العقيد البكر يعرف

سلفاً الاسم الذي يود صدام حسين حذفه. لن يحذف ناظم كزار. لن يحذف العقيد عمّاش. سوف يحذف رفيقه عبد الخالق السامرائي. أدرك صدام حسين أن هذا الاختيار سيرسم ابتسامة على وجه العقيد البكر. أدرك أيضاً أنه بهذا الاختيار يخسر الجولة التي لعبها العقيد بمكرٍ وحسّ دعابة في آن معاً. «البعث» يحتاج طاقة ناظم كزار الأمنية الآن. كما يحتاج قدرة عبد الخالق السامرائي القيادية بصفته أحد المنظرين المدنيين، لكنه لا يحتاج العقيد عمّاش: العقيد البكر يقدر بلا مساعدة أن يرتب التحالفات المطلوبة في صفوف العسكر في الوقت الحاضر. ثم أن العقيد عمّاش بات منذ إحباط عملية اغتيال عارف الأخيرة في دائرة الشكّ. الشخص الوحيد الذي يظلّ خارج هذه الدائرة، بالنسبة إلى صدام حسين، هو العقيد البكر. لن يقبل العقيد البكر أي تحالف مع أي سلطة ضد «البعث». إذا ظهر للعامة أنه يفعل أمراً كذلك، فهذا لا يعني أنه يفعله حقاً. قال صدام حسين إنه يقدر أن يعتمد على العقيد البكر دائماً. فكّر أنه الآن يخسر جولة: سوف يختار عبد الخالق السامرائي ويسمح للعقيد البكر بتلك الابتسامة لكن هذه الخسارة المؤقتة لن تؤذيه. بالعكس: العقيد البكر سوف يتشجع أكثر منذ اليوم على التعامل معه كابنٍ وصديق.

حين رجعت ساجدة بعد أسبوع أعطاها ورقة مطوية. دفعتها بيدٍ مرتجفة داخل بطانية عدي الجديدة المقسمة إلى مربعات خضراء وصفراء. كانت رسالة في كلمة واحدة: «السامرائي».

خلال فصل الربيع، قبيل مغادرته البلاد في رحلة أوروبية، أصدر الرئيس العراقي عبد السّلام عارف أمراً بإطلاق مجموعة من المعتقلين السياسيين. ساجدة خير اللّه حسين، في البيت في الكرخ، لم تكن تتوقع خروج زوجها، لكنها أملت أن يخرج أخوها عدنان مع الخارجين. مشدودة الأعصاب أمام الراديو الذي بات يخشخش كثيراً في الآونة الأخيرة استمعت إلى الأسماء التي يذيعها صوت حزينٌ وقوي

يشبه صوت فريد الأطرش. لم تسمع الاسم الذي تنتظره. لكنها سمعت أسماء مألوفة. ناظم كزار مثلاً. العقيد عمّاش أيضاً.

أثناء الصيف اكتسح البعوض السجن. كل رمل السهل فقس بعوضاً. بصفعة واحدة على الجدار كان الواحد منهم يقضي على أربع حشرات. الحشرات الصغيرة امتلأت دماً في الزنزانات المكتظة بالمحابيس. نهاية ذلك الصيف، حين نجحت المبيدات السامة في كف أذى البعوض قليلاً، ظهر الذبان. الـ د.د.ت لم ينفع معه. ولا الديمول. السجناء وجدوا الذبان يقاسمهم سطول الطعام ومطرات الماء. حين هطلت الأمطار أخيراً تراجعت غيوم الذبان وتلاشت في الفضاء مثل أسراب جراد تزحف إلى بقاع خضرة مجاورة. لكن بعد الأمطار، صفت السماء من جديد، ظهرت الشمس وخرجت سحابات نمل طائر طنّان من التراب والرمل وشقوق الباطون.

هجمة النمل الطائر لم تلبث أن انتهت بتساقط زخات بَردٍ عنيفة كسَّرت سعف النخل وقتلت أغناماً سارحة في الحقول. كل حبّة برد كانت بحجم بيضة نعام. بعد سنوات طويلة، في شتاء ١٩٨٥، جلس صدام حسين في القصر الجمهوري يتفرج على خريطة عسكرية للمحاور المشتعلة على الحدود العراقية ـ الإيرانية، بينما البَرَد يطقطق على الزجاج. رفع كوب القهوة السوداء إلى فمه، وقبل أن يلمس السائل الساخن شفتيه عصفت به رياح حنين غادرة فأضاع الحدود بين أرض الواقع وسماء الخيال، وانتابه ذعرٌ مبهمٌ إذ أحسّ للحظة خاطفة أنه لم يغادر ذلك السجن تحت الأرض وأنه ما زال يتعفن في زنزانة رطبة ينيرها نورٌ خفيف يتسرب عبر نافذة عريضة متسخة وعالية.

ذات ظهيرة باردة رجع إلى الزنزانة من قاعة الزيارات. جلس في زاويته، أخرج رسالة البكر الجديدة وفضّها، فإذا الرسالة من الأستاذ ميشال عفلق. نظر صدام حسين حوله فرأى الشيخلي وثلاثة رفاق

آخرين يلعبون بالورق في الجانب الآخر. الشيخلي يجلس قبالة سعدون شاكر، وحسن علي يجلس قبالة عزت إبراهيم. كان ضوء الشتاء ينير نصف الوجوه. خفض صدام حسين نظراته وقرأ الكلمات التي خُطت في مكتبٍ بعيد مملوء كتباً تشتعل في مركزه نيران حطب في «وجاق قاطورجي» يقهر برد دمشق.

مثل العقيد البكر كان الأستاذ عفلق يكتب إليه لكي يخبره عن مشاكل البعث. البكر يحكي عن بعث العراق. عفلق يحكي عن بعث سورية. والمشكلة واحدة في البعثين: العسكر. جناح عفلق المدني بات مهدداً، بعد أن تعاظم جبروت الضباط البعثيين. لكن بينما يملك العقيد البكر أن يصمد أمام العسكر، كونه عسكرياً، فإن سلطة أستاذ التاريخ عفلق تبدو شديدة الاهتزاز. انتبه صدام حسين أن الطفل ترك أثراً من رائحته في الرسالة. انتبه للأثر لأنه لم يكن أثراً طيباً. تذكر عندئذٍ أن ساجدة أخبرته أن عدي يعاني إسهالاً وأنها أخذته إلى مستشفى المأمون قبل أيام. في السطر الأخير من الرسالة أخبره الأستاذ عفلق أنه سوف يرسل له بعض القصص والكتب. كتب له من مكتبه الفسيح في الشام بالنوافذ المطلة على باحات وشوارع، إن القراءة تملك أن تُخرج الواحد من السجن. تذكر صدام حسين سطراً مشابهاً في رسالة من العقيد البكر. العقيد البكر نصحه أن يتخلى عن الداما وأن يتقن لعبة الشطرنج، لأن هذه اللعبة ليست لعبة، بل هي عالم كامل بملكة وملك وجنود وأحصنة وقلاع ووزراء: عالم مقسم إلى ٣٢ مربعاً أبيض و٣٢ مربعاً أسود، ولا يسيطر على الرقعة إلاّ اللاعب الأشد دهاء ومكراً بين الإثنين.

في ٢٤ ـ ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٥، بينما بعض المساجين المسيحيين في زنزانة مجاورة يضجون محتفلين بعيد الميلاد، سُمعت قرقعة مفاتيح خارج البوابة. حين ظهر مساعد آمر السجن في الباب، رأى صدام حسين في نور الممر الخارجي الكهربائي الأصفر

ثلاثة رجال ضخام الجثث تشوهت ملامح وجوههم وبدت أوصالهم معقوفة ومتقلصة كأنها شويت على نار بطيئة. لم يكن مخطئاً. الرفاق الثلاثة الذين دفعهم نائب آمر السجن بطرف عصاه دفعات قصيرة عنيفة، انضموا إلى نزلاء «القاووش ٩ـ ب»، فتحول المكان الضيق وكراً بعثياً يضم ٢٠ عنصراً. الثلاثة تساقطوا على الأرض في الظلام الدبق، ولم يلفظوا كلمة قبل طلوع شمس الصباح التالي ـ صباح الميلاد. في نور الفجر الشتائي الأخضر المزرق فتح صدام حسين عينين واسعتين ورأى أنه يعرف جيداً وجهين من الوجوه الثلاثة: وجه ابن خاله (وعمه) عدنان خير اللّه طلفاح. ووجه رفيق هروبه في أنحاء العراق المنظّر عبد الخالق السامرائي.

في اليوم الأول من السنة الميلادية الجديدة جلس صدام حسين يلعب الشطرنج مع عبد الخالق السامرائي. الرفاق الـ ١٨ الآخرون لاحظوا بسرعة الصداقة الوطيدة التي تجددت بين الرفيقين القديمين. تلازم الرجلان حتى باتا ثنائياً، لا يُرى أحدهما إلاَّ مع الآخر. حين نُقل السامرائي إلى زنزانة أخرى تواصلت العلاقة بين الاثنين في ساعات النزهة. يتبادلان الكتب، يتحدثان بصوت منخفض، وفي أحيان قليلة يدخلان مع الآخرين في جولات نقاش سياسي.

قرأ صدام حسين قبل نهاية ذلك الشتاء مجموعة إصدارات سلسلة «روائع الأدب العالمي» المبسطة. قصص لأندريه جيد وفيكتو هوغو وألكسندر دوماس وفيودور ديستويفسكي ووليم شكسبير. كانت سلسلة يترجمها ويحررها أحد تلامذة ميشال عفلق. عفلق كتب له في رسالة أخرى ـ بلا رائحة، ذلك أن عدي لم يلبث أن شفي من الإسهال ـ إن هذه القصص ضرورية لتربية كل بعثي: على البعثي أن يدرك مدى إتساع وتشعب وثراء الطبيعة البشرية. أعاد قراءة «على سبيل البعث» ٧ مرات. الأسلوب السهل الواضح لهذا الكراس كان يمدّه بنقاط قوة في النقاشات اليومية ـ خلال ساعة النزهة ـ مع اليساريين، خصوصاً

الشيوعيين. بكلمات قليلة أظهر عفلق أن الماركسية لا تصلح في هذه المنطقة من العالم. الماركسية فلسفة غريبة عن الفكر العربي، فلسفة عاجزة عن فهم الذات العربية. قد تُقدم لنا بعض الأسلحة المفيدة، لكن هذا هو كل ما تقدر أن تقدمه لنا. عبد الخالق السامرائي كان يندفع إلى نقاش حافل بمسالكٍ خطرة. هو ـ صدام حسين ـ فضّل عدم سلوك تلك المتاهة من الأمثلة والحجج والردود. لا ضرورة لإتعاب الذهن وإبعاده عن الهدف الأساس. لا ضرورة لتبديد الوقت في إقناع الخصوم. اكتفى صدام حسين بالمهم: أن يجمع الرفاق حوله، وأن يكفّ عنهم أذى كلمات الآخرين، وخطر هذه الكلمات.

ـ على البعثي أن يتحصن في قلعته.

عدنان خير اللّه، بقدمين محروقتين بأعقاب السجائر، كان يمشي قافزاً كطير الحجل، ثم يرمي نفسه على طرف الإسفنجة، في زاوية ابن عمته صبحة، ويستمع إلى صوته الناشف المعبأ بالسلطة. كان هذا الصوت ـ صوت صدام حسين ـ البوصلة الوحيدة التي تعينه على الخروج من ضباب آلامه الكثيف المتجمد. مع كل خطوة، منذ أن أحرقوا جسمه وكسّروا ألواح خشب على عظامه، يحسّ عدنان خير اللّه طلفاح، أنه ما عاد يمشي على أرض صلبة، أنه ما عاد يمشي على ترابٍ أو باطون أو أسفلت أو صخر. يحسّ أنه يمشي على صفحة نهر متجمد. مع كل خطوة يملأ الخوف قلبه: قد تتصدع القشرة الرقيقة ويجد نفسه مغموراً بالماء. الذكريات كانت تداهمه في الليل، فيخرج من كوابيسه صارخاً، ورئتاه مطعوجتان إلى الداخل، فارغتان من الهواء: يرى في المنام أنه ما زال في سجن «خلف السدة» وأنهم يدلّونه مربوطاً كالبهيمة من كاحليه في بركة المجارير العميقة. ينزل رأسه في السائل الكثيف، شعره، جبهته، حاجباه، عيناه، أنفه، فمه، يغمر القرف عنقه، ويُدلّونه أيضاً: القرف على صدره العاري، على كامل جذعه، ويدرك أنه يختنق. لم يعد يوجد أوكسيجين في رئتيه، في

دمه، في جسمه. يدرك أنه يختنق، يموت غارقاً في البول والخراء. لن يفتح فمه، يقول في نفسه. يفضل أن يموت بلا هذا القرف في داخل جسمه أيضاً. ثم يكتشف مذعوراً أن السائل الكثيف ولج فتحتي أنفه وبات يجري في أعضائه.

صوت صدام حسين الصارم أنقذه:

ـ كنْ رجلاً رفيق. ما حدث انتهى. الماضي لا يؤثر في البعثي. المهم الغد.

حين أراد عدنان أن يفتح فمه كرّر صدام حسين الأمر:

ـ الضعيف يُضعف الجماعة، يُهدد الحزب، علينا أن نتحصن في قلاعنا وأن نستعد طوال الوقت. استعدْ!

قال عدنان خير اللّه:

ـ حاضر رفيق!

بعد ذلك الحوار مع صدام حسين سيطر عدنان خير اللّه على كوابيسه. بينما يدلّونه بالحبل إلى البركة المقرفة أمسك بالأيدي التي تقبض على جسمه وغرز أسنانه فيها. كانت أسنانه تتكاثر في فمه. عشرات الأضراس، عشرات الأنياب، نبتت في فكيه وفرَّخت بقوة الرائحة العضوية الخصبة المتصاعدة من الحفرة القاتمة. عليه أن يتحصّن، أن يستعد، هكذا قال له الرجل صاحب العينين الواسعتين تحدقان إلى الظلام بنظرات تهدم الجدران. عليه أن يتحصّن، ليجعلْ هذا الجسم الضخم سلاحه إذاً. في الكابوس، بينما أسنانه التي لا تُحصى تنغرز في لحم وعظام أعدائه، ذاق عدنان خير اللّه طلفاح طعم الدم البشري على لسانه. فتح عينيه في ظلام الزنزانة فاكتشف أنه أدمى معصمه. كان يعض ذراعه لئلا يصرخ في الليل.

بعد ثلاثة أيام، في ساعة النزهة، تعارك البعثيون والشيوعيون. في الباحة المسوّرة بالحيطان العالية، المسقوفة بالشبك والعوارض الحديد

والأسلاك الشائكة، رأى عدنان خير اللّه طلفاح ابن عمته صدام حسين محاصراً بين الحائط وبين شيوعي هائل الجثة. ركض قافزاً فوق الأجسام ثم التحم مع الرجل. كانا بضخامة أسدين، وبشراستهما. الشيوعي استطاع أن يركب على صدر عدنان خير اللّه وأن يُسدد لكمات قاتلة إلى وجهه. بعد لكمة حطمت أسنانه رأى عدنان عبر غمامة حمراء ابن عمته صدام ملتحماً مع شيوعي آخر في الزاوية. ارتفع الضجيج إلى أن بلغ السماء في ذلك اليوم الربيعي المصفر. لم يعرف عدنان خير اللّه كيف خَلّص ذراعيه من ثقل جسم خصمه، ولم يعرف كيف استطاع أن يقبض على العنق الثخينة القاسية كالحطب بين أصابعه المحطمة المفاصل. كانت الأجساد ترتطم به عن الجانبين، سمع ضجة بعيدة، وأدرك أن الحراس يتأخرون عمداً في فكّ الاشتباك. الشيوعي الضخم ألقى ثقل ذراعيه هو الآخر في قبضة شديدة على عنق خصمه. كانا يختنقان معاً. في تلك اللحظة، بينما يختنق والعزم يتلاشى من عضلاته المحترقة بثاني أوكسيد الكاربون، رأى عدنان بطرف عينه الشيوعي الآخر يضرب رأس صدام حسين على الجدار. أدرك عدنان أن عليه التصرف حالاً. رفع جذعه ـ بجبروت الرجل الذي غُطِّس في قاذورات الجنس البشري مرات لا تُعد وخرج من التجربة حيّاً ـ وألصق فمه بعنق خصمه ثم غرز أسناناً كثيرة في خشب العنق المجدول الملتف. انبثق السائل لزجاً حاراً ولطخ فمه وجهه. في اللحظة ذاتها انفكت القبضة المروعة عن أنفاسه ورجع الأوكسيجين إلى رئتيه. قذف الخصم النازف بعيداً، طار في ثلاث خطوات، وسقط على الشيوعي الآخر وانتزعه من التحامه القاتل بابن عمته صدام. أراد أن يلطمه في الوجه أو بين الفخذين. لم يفعل ذلك. كان الدم في فمه. هوى بكل ثقله على العنق الظاهرة من لباس السجن الممزق الياقة، وغرز أسنانه الحمراء في اللحم الطري.

بعد سنوات، في ١٩٧٧، أصدر الرئيس العراقي رئيس مجلس

قيادة الثورة الأمين العام لبعث العراق القائد الأعلى للقوات المسلحة رئيس مجلس الوزراء العقيد أحمد حسن البكر قراراً بتعيين الرفيق عدنان خير الله طلفاح وزيراً للدفاع، باقتراح من نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الأمين العام المساعد لبعث العراق الرفيق صدام حسين. خلال صباحه الأول في الموقع الجديد في المكتب الجديد في مبنى وزارة الدفاع وقف عدنان خير الله إلى النافذة المطلّة على باحة مسورة وخالية إلاً من مُدرعتين فتذكر تلك الباحة الأخرى القديمة في ذلك اليوم الربيعي.

اجتاح الحراس الباحة وانهالوا على الجميع بالعصي وأعقاب البنادق. بعد ذلك جمعوا القادرين على الوقوف وأمروهم بحمل الجرحى والغائبين عن الوعي. كان الدم على الأرض وعلى الحيطان وعلى الأصابع وعلى الأفواه وعلى الثياب.

ذلك المساء اجتاحت عاصفة رملية السجن. كان الرمل يدخل عبر النوافذ المهشمة ويغطي البطانيات والفرش بصفحات صفراء. في الخارج التصقت الذرات الجافة الدقيقة بالرطوبة اللزجة على أرض الباحة المسوّرة وعلى حيطانها. بعد موجات متتالية من صفحات الرمل جفّ البلل عن الباطون وترك بقعاً قاتمة. في الصباح كانت الباحة قد تغطت بالرمل الأصفر. داخل السجن انهمك النزلاء ـ المثخنون بجراح الأمس ـ بتكنيس الرمل وشطف القواويش والممرات بالماء. حين التقى بعثيون وشيوعيون أمام الحنفية الكبيرة قرب غرفة الحرس حاملين الدلاء الحديد والفوط الموحلة، ظهر أحد الحراس مع عصاه ووقف ينتظر عراكاً آخر. لم يحدث شيء. تناوبوا على الحنفية، ملأوا الدلاء، غسلوا الوحل عن الفوط، ثم تابعوا التنظيف.

في «القاووش ٩ ـ ب» أصدر صدام حسين أمراً حزبياً:

ـ ممنوع حدوث عراك مرة أخرى.

قال حسن عادل الأميري:

ـ الشيوعيون هم الذين بدأوا.

أجابه صدام حسين بنبرة قاطعة:

ـ لا نريد أن نربح معركة في سجن. طَلَبُنا العراق رفيق. خذوا حذركم!

في ذلك الأسبوع قرأ «الملك لير» و«ريتشارد الثالث» و«مكبث». بينما يقرأ «هاملت» ثم «الكونت دي مونت كريستو» قرر صدام حسين أن الوقت قد حان: عليه الخروج من هنا. تلك الليلة باشروا شحذ ملاعق الطعام وتسنينها على الجدران.

كانت الخطة صناعة منشار حديد من كل ملعقة. امتلأت الأصابع بالجروح بينما العيون تتعلق بقضبان النافذة العالية والملاعق تتكسر في الأيادي وعلى الحيطان. سرعان ما أدركوا أنها خطة معطوبة. جمعوا ما معهم من نقود، نجحوا في رشوة أحد الحراس بثلاثة وثلاثين ديناراً، وحصلوا على منشارٍ حقيقي بطول موس حلاقة.

في ١٧ آذار (مارس) ١٩٦٦، بعد عملٍ شاقٍ دام يومين، نجحوا في انتزاع القضيب الأول من النافذة. كان عليهم انتزاع ثلاثة قضبان بعد. لكن في تلك الليلة بالذات، بينما شوارع العالم تقترب من أقدامهم مرة أخرى، طافت المجارير، فأصدر آمر السجن أمراً بإخلاء الطابق الأرضي كلّه، ونقل المساجين إلى الطابق الأول. ذلك الطوفان المباغت أغلق إلى الأبد الطابق الأرضي في «سجن بغداد»، وقضى نهائياً على خطة الهرب من نافذة «القاووش ٩ ـ ب». المنشار أيضاً غرق في الطوفان. وغرقت معه ثيابٌ وعلبُ تمرٍ وكعكٍ و«الشياطين» لدوستيوفسكي، ومسرحيات شكسبير المبسّطة.

كانت صدمة قاسية للرفاق. صدام حسين، كالعادة، وجد في ظلمة المعنويات الهابطة التي حاصرت الآخرين، طاقته اللامرئية. كان جسمه يمتص كل خيبة ويعمد إلى تحويلها غضباً مُوضَّباً: «فشل الخطة

لا يعني فشل كل شيء». حين أعلن عبد الكريم الشيخلي ذات خميس أنهم سوف يتعفنون أحياء في هذا السجن المقيت، وأن الرئيس عارف سوف يعدمهم بالرصاص إن لم تقتلهم الزنازين، أجابه صدام حسين بنبرة جليدية:

ـ نحن من سيقتل عارف بالرصاص.

كان صوته مملوءاً بثقة فظيعة، بيقينٍ قاطع لا يقبل الشكل، حتى أن جميع الذين سمعوا كلماته حينئذٍ حسبوا أن تلك الأوراق المطوية الصغيرة التي تصل إليه ظهر كل يوم أربعاء مضمخةً برائحة حليبٍ وبودرة أطفال، قد حملت إليه في الأمس فقط خبر خطة جديدة لإغتيال الرئيس عارف. وحده عبد الكريم الشيخلي ـ الذي تذكر عندئذٍ جواباً آخر لصدام حسين سمعه تحت سماء القاهرة قبل سنوات ـ أدرك أن رفيقه يُلقي كالعادة حكمة أخرى مخيفة توصل إليها في ليالي أرقه، وبينما يرفع جسمه على ذراعين صلبتين خلال فترة تمارينه الصباحية. ذلك الصوت المثلج دفعه إلى فرشته في الزاوية. ألقى عبد الكريم الشيخلي رأسه إلى خلف ونظر عبر النافذة الضيقة الطويلة إلى سهل الرمل الممتد حتى الأحياء السكنية. كان عرض النافذة لا يتجاوز ٢٠ سنتمتراً، وارتفاعها يقارب متراً ونصف. نظر عبد الكريم الشيخلي إلى الرمل الأصفر وإلى البناية الصفراء وإلى الغيم الأصفر وإلى أصابعه الصفراء وأحسّ أن رملاً أصفر يزحف مع مطرٍ أصفر ويغلف دماغه الأصفر. كان يجفّ ويتشقق وجسمه يفلّع تحت صوتٍ أصفر ونظرات صفراء. أيقن أنه مقيم منذ زمن بعيد بين حائطين أصفرين متواجهين، وأن كل حائط يحمل مرآة صفراء، وأنه يضيع بين انعكاسين يتكرران عبر الأيام إلى ما لا نهاية. قبل سنين سمع الصوت في ظلال أشجار كافور عالية: «الملك خارج مملكته كلب». اليوم يسمع الصوت نفسه: «نحن من سيقتل عارف بالرصاص». عبد الكريم الشيخلي شعر لبرهة خاطفة أن ذلك الصوت الأصفر هو صوت الكون الأصفر وليس صوت

إنسان عادي مثله وليس صوت رفيق بعثي يقاسمه هذه الزنزانة في الجناح الشرقي من الطابق الأول في «سجن بغداد». شعر عبد الكريم الشيخلي لبرهة قصيرة فتاكة أن صدام حسين قال بالحرب الجليدي ما هو فاعلٌ حقاً في الغد القريب. ناظراً إلى فضاء أصفر يعتم رويداً رويداً وراء نافذة ضيقة ممشوقة غريبة أدرك عبد الكريم الشيخلي أن صدام حسين سوف يُعدم ـ بالرصاص ـ الرئيس عبد السّلام عارف غداً أو بعد أسابيع أو شهور أو سنوات.

لم يحدث ذلك. لم يُعطِ التاريخ صدام حسين أن يقتل الرئيس عبد السلام عارف. في يومٍ صافٍ نقي السماء من نيسان (أبريل) ١٩٦٦ باغتت عاصفة رملية طوافة الرئاسة فوق الصحراء غرب الفرات. توقفت المروحة عن الدوران، فرقعت في دوي هائل، ثم انكسرت. الطوافة هوت كالطير المقتول بطلقة بندقية. سقطت على كثبانٍ تغطي صخوراً تتكرر متشابهة إلى أن تبلغ الحدود العراقية ـ السورية. انفجرت وتطايرت شظاياها المعدن إلى أربع جهات. قُتل الرئيس العراقي رئيس مجلس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة عبد السلام عارف على الفور، واحترقت معه في مقصورة واحدة جثث خمسة مرافقين: الربّان قذفه الانفجار على كثيبٍ قريب، ووصلت الجوارح إليه قبل أن تصل إلى الجثث الأخرى في الحطام الساخن. حين أُعلن الخبر من «إذاعة بغداد» خيّم الصمت على المدينة. الأخ الأكبر للرئيس المتوفى، عبد الرحمن عارف، ظهر على التلفزيون بعد أيام وصار رئيساً جديداً للجمهورية العراقية. كان هذا رئيس العراق الثالث منذ انقلاب ١٩٥٨ الذي أنهى عصر الملكية.

دشّن الرئيس عبد الرحمن عارف عهده الرئاسي بإطلاق عشرات المعتقلين السياسيين من السجون. خرج مع الخارجين ثلاثة بعثيين من أقارب صدام حسين: سعدون شاكر الذي يمت بصلة قربى إلى آل المجيد؛ عدنان خير الله طلفاح؛ وسبعاوي حسن إبراهيم المجيد

التكريتي أخوه غير الشقيق. سعدون شاكر وعدنان خير اللّه غادرا «سجن بغداد» صباح يوم اثنين. سبعاوي التكريتي غادر سجن «خلف السدة» صباح يوم خميس. بعد أسبوع على إطلاقه زار زوجة صدام حسين، السيدة ساجدة خير اللّه حسين، في بيتها في الكرخ.

ظهيرة الأربعاء تلقى صدام حسين في قاعة الزيارات في «سجن بغداد» ثلاث رسائل شفهية من زوجته ساجدة خير اللّه. كانت آتية بلا عدي. الرسالة الأولى من أخيه سبعاوي، يسلّم عليه، يدعو له بالخروج القريب، ويسأله هل يأمر شيئاً. الرسالة الثانية من شقيق زوجته ابن خاله (وعمه) عدنان، يسلّم عليه، ويبلغه تحيات الرفاق جميعاً، ويسأله هل يأمر شيئاً. الرسالة الثالثة من ناظم كزار ـ نائب رئيس «جهاز حنين» والمكلف بمهام الرئيس مؤقتاً وحتى خروج الرئيس من السجن ـ يسلّم عليه، يقول له إن «حنين» تتعافى، ويسأله هل يأمر شيئاً.

أصغى صدام حسين إلى كلمات زوجته صامتاً. بعد أن وضعت على الطاولة علبة بلاستيك وقالت إنها الحلوى التي يحب (الأرز بالحليب مع السكر وماء الزهر)، سألها لماذا سكتت ولم تكمل. ارتبكت ثم قالت:

ـ عدي أضراسه تنبت، عليه حرارة. خفت أن يبرد في هذا الجو.

نظر صدام حسين إلى الحراس الواقفين وراء الشبك. نظر إلى السجناء الآخرين واقفين وسط حلقات الأقارب. لم ينظر إلى الكحل على جفني زوجته ولا إلى الحمرة على شفتيها والخدين. كان ينتظر أن تتابع الكلام. قالت:

ـ العقيد البكر يقول إنه يحاول. لكن عليك الانتظار.

قام صدام حسين واقفاً. جسمه انتفض كالنابض. استدار ومضى إلى زنزانته. ساجدة، مفتوحة الفم، تركت يداً معلقة في الهواء بأصابع

مرتبكة مطلية الأظافر تشير إلى علبة الحلوى المتروكة. أمس فقط صنعتها، وجلست تتفرج على أخيها عدنان الخارج من السجن مشوه الوجه والأوصال، يلتهم صحناً ساخناً تلو الصحن، ناظراً عبر النافذة إلى زحمة السوق. تذكرت عندئذٍ ما لم يتذكره أخوها عدنان، وما تعلم ـ علم اليقين ـ أن زوجها لا يمكن أن يتذكره غارقاً في الهموم كما هو. تذكرت أيام إصابته بالحصبة في تكريت، وكيف طبخت المرحومة أمّها عند شفائه أرزاً بالحليب، وجلسوا جميعاً على الشرفة يتفرجون على القلعة الأيوبية، ويأكلون الحلوى بالملاعق الصغيرة. في «قاعة الزيارات» في تلك الظهيرة، واقفة وحدها وسط صخب العناق والبكاء والصرخات، تساءلت ساجدة خير اللّه ماذا حدث لذلك الصبي المحموم يطلب في الليل عون الحسين ويذوب بين يديها حين تغسله بالماء والصابون.

صدام حسين لم ينمْ تلك الليلة. ها هو ينهي سنة من عمره ويبدأ أخرى سجيناً في زنزانة بنافذة تطلّ على قطعة سماء عرضها ٢٠ سنتمتراً وطولها متر. لم يعد فتى. بات في التاسعة والعشرين، ويحسّ أنه عاش دهراً. يعلم ما يريد، ويعلم أنه قادر على بلوغ ما يريد. هل تعيقه هذه الحيطان؟ هل يستطيع الحديد والإسمنت أن يحجبا عنه سماء بغداد وأسواق بغداد، سماء العراق وشوارع العراق، كل تلك المدن والقُرى والجبال، دجلة والجسور، الفرات والصحراء وراء الفرات، الموصل وكوكوك والبصرة، العالم كلّ العالم، سورية ومصر وكل تلك البقاع التي لم يعرفها بعد، والتي تنتظره، وتنتظر اسمه. لا يقدر أن يُضيع مزيداً من الوقت. قبل يومين أفرجوا عن دفعة جديدة من السجناء. عبد الخالق السامرائي يسهر الليلة في بغداد وسط حلقة رفاق. ماذا يفعل هو؟ يتقلب على فرشة إسفنج ضيقة محدقاً إلى نجوم متسخة وراء زجاج النافذة الكريهة؟ يستمع إلى شخير الباقين معه في هذه الزنزانة الحقيرة؟ حسن عادل الأميري وعبد الكريم الشيخلي

وعزت إبراهيم. خرج الرفاق من الزنزانة فإذا بها تضيق! باتت أضيق من قبر ضيق!

قبل نهاية ذلك الربيع الساخن المغبر، عيّنت محكمة الاستئناف أخيراً الموعد المنتظر لمحاكمة ١٣ بعثياً اتهموا قبل سنتين بالتآمر على موقع رئاسة الجمهورية والتخطيط لقلب النظام، فصدرت بحقهم آنذاك أحكاماً بالسجن تراوحت بين ثلاثة أعوام والمؤبد مع الأشغال الشاقة. بين الأسماء الـ ١٣ ظهرت على اللائحة أسماء صدام حسين وعبد الكريم الشيخلي وحسن عادل الأميري.

قال عبد الكريم الشيخلي:

ـ محكمة جديدة وحكم جديد. على الأقل نذهب في نزهة.

قال حسن عادل الأميري رافعاً أصابعه الطويلة في الهواء:

ـ وربما خفضوا الحكم إلى خمس سنوات.

قاطعهما صدام حسين:

ـ هذه فرصتنا الوحيدة للخروج من هنا.

خلال سبعة أسابيع فصلت الرفاق الثلاثة عن موعد المحاكمة، لم يتغيَّر شيء في حياة نزلاء الزنزانة الخامسة بعد غرفة الحرس في الجناح الشرقي من الطابق الأول في «سجن بغداد». كان صدام حسين يستيقظ مع أذان الفجر. يمارس تمارينه الرياضية وينتظر الشتائم: لا رفاقه في الزنزانة ولا السجناء في الزنازين الأخرى تعبوا طوال هذه الأسابيع والشهور والأعوام من إطلاق الشتائم نصف نائمين كلّما ارتفعت فرقعة أبواب الحديد الجرّارة في الأسواق القريبة. أحياناً كان يسمع فناجين تطقطق بعيداً ونداء بائع القهوة الجوّال. في بعض الأصائل يرى رجلاً سودانياً وامرأة سودانية، الرجل في عباءة بيضاء والمرأة في ثياب ملونة، يتحركان بين باحة معبدة في أسفل البناية البعيدة وبين بستانٍ عند حافة سهل الرمل. يحملان المقاطف المملوءة بثمار لا يتبينها جيداً، أو

يجرّان خرطوماً لري مساكب الورد الجوري، أو يجلسان على العتبة ويتفرجان على أولاد يتراكضون دافعين عجلة سيارة قديمة بالعصي. لا تبلغه الأصوات من تلك الناحية إلاّ في ما ندر. لكنه يرى الريح ترفع الرمل وتدفعه نحو الباحة المعبدة. ويرى المرأة تُخرج مكنسة وتنحني على الرمل الكثير. وفي مرات قليلة يخيّل إليه أن الرجل والمرأة يتحدثان عن السجن، ويشيران برأسيهما إلى الطابق الأول، وإلى النوافذ الضيقة الطويلة المظلمة كعيون غول. كان صدام حسين يدرك في تلك اللحظات أن الإرهاق ينال منه، أن الحبس يفرغ جسمه من القوّة، أنه بات على حافة فقدان السيطرة على خيوط العالم، وأنه مضطر للخروج من هنا الآن.

للمرة الأولى في حياته يسيطر على صدام حسين إحساسٌ غريب بالهزيمة. خروج الرفاق في مجموعات متتالية إلى الحرية ضاعف شعوره بضيق السجن، بضيق عالمه، وضيق حياته. ثم زاد الطين بلّة انشغال العقيد البكر بتسوية أمور كل هؤلاء الخارجين، العائدين إلى صفوف الحزب، والتحديات الخطرة التي تواجه بعث العراق بعد المصيبة في سورية: في ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٦٦، قبل شهر تقريباً من تحطم مروحية الرئيس عبد السلام عارف في الصحراء، أقدم صلاح جديد رأس الجناح العسكري في «بعث سورية» على سحب السجادة من تحت أقدام الجناح المدني. البعثيون الماركسيون تحالفوا مع الجيش، سيطروا على البلاد، ورموا الحرس القديم (ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار ورفاقهما) في الأقبية. «القيادة القومية» للبعث لم تعد موجودة.

بعد أسبوع من تحديد موعد المحاكمة استيقظ صدام حسين في نصف الليل بعرقٍ يتصبب من جسمه. أيقظه الدم الهادر في عنقه. كأن القلب انزلق من القفص الصدري إلى حنجرته. كأن قلبه عالقٌ في زلعومه. سمع مضخة الدم وأحسّ الأوداج والشرايين تنتفخ وتهبط.

نبضة الدم خفقت في أذنيه وتحت رموشه. عصفت به في الظلام الحالك سبعُ موجات من ذعرٍ خالصٍ نقيّ، ذعر خام نسيّ طوال السنين العشرين الماضية أنه موجود في هذه الحياة. مبللاً بعرق خوفه المبهم، مصدع الرأس بهدير الدم في عينيه وأذنيه، سحب جسمه بين الأجساد الهاجعة ووسط رائحة العرق وإفرازات الجسم البشري التي تخلّلت صوف البطانيات وإسفنج الفرشات وباطون الأرضية، إلى أن بلغ النافذة الضيقة الطويلة. ألقى وجهه على الزجاج وبدأ تنظيم أنفاسه. شهيق زفير، شهيق زفير، شهيق زفير... رويداً رويداً ابتعدت الغمامة الوردية عن عينيه. من قلب الظلام خاطبه نعيقُ بومٍ ثم دعاء كروان. حين بانت أضواء المدينة، صفراء وزرقاء وبرتقالية وبيضاء، أحسّ الرؤية تصفو في رأسه. محدقاً إلى تلك الأضواء تحت سماء مخفية النجوم كثيفة الغيوم غرز صدام حسين أظافره في باطن يديه وعضّ شفته السفلى بأسنانه. في لحظة خاطفة أحرق سنين محتملة من الذعر وبلغ خلاصه الفردي: يملك أن يفعل ما يشاء، يعلم ما يريد، ويعلم كيف يبلغ ما يريد. ظلّ ساهراً وعرقه يجفّ كأنه يبخرّه بحرارة قرارٍ إرادي أو بحرارة طاقةٍ جوّانية متقدة، إلى أن أذّن الفجر شيخٌ بهيُّ الصوت من «جامع صلاح الدين». كان جانب المئذنة ظاهراً فوق ركام البيوت. وقف صدام حسين، غسل وجهه، جرع بعض الماء، ثم بدأ تمارين الفجر. هذه المرة ضاعف المدة المحددة للرياضة. كان جسمه يفور مثل قدر حليبٍ تغلي على النار. ظهيرة الأربعاء أعطى زوجته رسالة إلى العقيد البكر.

في الأربعاء التالي أتاه الجواب. عند الظهر أبلغ الشيخلي والأميري قرار القيادة: عليهم التصرف، لا حاجة لإضاعة المزيد من الوقت. المحاكمة في يوم ثلاثاء، عند الخامسة عصراً. الحراس يأخذونهم من هنا في الصباح إلى مركز الأمن في شارع السعدون. السجناء يسمّون هذه الرحلة «نزهة الاستئناف». ما زالت هناك خمسة أسابيع قبل أن يحلّ موعد المحاكمة، قبل أن يحلّ ذلك الثلاثاء، ثم...

بينما يلعب الشطرنج مع عبد الكريم الشيخلي، تذكر صدام حسين أحاديثه قبل شهور مع عبد الخالق السامرائي. كان السامرائي يحرك بيدقاً ثم يتراجع بجذعه إلى خلف ويحدق إلى وجه صدم حسين. صدام كان يحسّ النظرة بينما عيناه تستقران على الرقعة وعلى الحجارة الموزعة على المربعات البيضاء والسوداء. سأله عبد الخالق السامرائي في منتصف جولة من تلك الجولات:

ـ ماذا يعني المنام الذي يتكرر كل ليلة؟

صدام حسين لم يأبه بالسؤال. كان مركزاً على حركة الحصان الباقي في جيش السامرائي، وعلى تنقلات ملكته الخطرة. قبل دزينة جولات كان يخسر أمام السامرائي في عشر دقائق، في عشرين دقيقة، الآن اختلف الحال. أمس هزم السامرائي للمرة الأولى. عليه في هذه اللحظة أن ينتبه لتلك القلعة الفالتة في الميمنة. بينما يحسب ثلاث نقلات سلفاً مع ردود فعل خصمه، سمع صدام حسين ذلك السؤال ذاته مرة أخرى:

ـ ماذا يعني المنام الذي يتكرر كل ليلة؟

بعد خروج السامرائي من السجن تذكر صدام حسين ذلك الحوار. قال السامرائي إن نابليون بونابرت ظلّ طوال حياته يرى مناماً واحداً فقط. يرى أنه يسبح من كورسيكا إلى سردينيا وحين يبلغ النقطة الوسط بين الجزيرتين يرفع رأسه وينظر إلى البحر وإلى بيوت بعيدة وصغيرة كبيوت النمل على الجزيرتين البعيدتين. في تلك اللحظة كان بونابرت يدرك أن المسافة طويلة جداً وأنه قد يغرق في أي لحظة. وفي تلك اللحظة نفسها كان دائماً يستيقظ. بونابرت أخبر طبيبه الخاص أنه وجد تفسيراً للمنام. سأل السامرائي صدام حسين:

ـ تعرف ماذا كان تفسيره؟

أجابه صدام حسين:

ـ ما يهمّك في كل هذه الخزعبلات رفيق؟

نقل السامرائي وزيره إلى موقع متقدم، قال:

ـ كش ملك.

انتبه صدام حسين أنه وقع في فخ. استطاع أن يرى النقلة التالية (بالبيدق) والأخرى التي تليها (بالحصان) ثم الثالثة القاضية (بالبيدق الآخر). هزّ رأسه. تراجع بجذعه إلى خلف ونظر إلى خصمه. كان السامرائي يبتسم، وأصابعه في لحيته الشقراء المشذبة الأنيقة، وقال:

ـ بونابرت أخبر طبيبه أنه لن يموت إلاّ في سريره، ولن يموت إلاّ إذا نسي الاستيقاظ من ذلك المنام. قال لطبيبه: سوف أموت في فراشي غارقاً في البحر عند النقطة الوسط الفاصلة بين كورسيكا وسردينيا.

في جولة أخرى أخبره السامرائي أن جوزف ستالين عاش حياة كاملة بلا منام واحد. كان لا يرى منامات إطلاقاً. أما المغولي هولاكو الذي أحرق بغداد عام ١٢٥٨ للميلاد، ورمى مكتبتها (كانت أكبر مكتبة في العالم آنذاك) في دجلة فصار النهر أسود قاتماً من الحبر الكثيف الذي سال فيه، أما ذلك المغولي فظلّ يرى الكابوس ذاته كل فجر من كل يوم في حياته المخيفة. يرى أنه يتحول تمثالاً حجراً على سفح هضبة تشرف على بحارٍ تمتد إلى ما لا نهاية. تمثال حجر تحطّ عليه النوارس، تلطخّه بقاذوراتها، ولا يملك أبداً أن يبعدها عن جسمه الحجر بذراعيه الحجريتين. سكت السامرائي لحظة ثم سأل صدام حسين:

ـ هل تعرف ماذا يرى الرفيق العقيد البكر في مناماته؟

هذا السؤال أبعد ذهن صدام حسين عن مجرى الحرب الدائرة على الرقعة. هناك حرب أخرى تجري فصولها خفيةً في دماغ رفيقه السامرائي. تراجع صدام حسين إلى الوراء، حدّق إلى عينيّ خصمه،

وأخبره أن هذه الأمور لا تعنيه إطلاقاً.

لم يُظهر السامرائي انزعاجاً من الجواب، ولا من النبرة الجافة. بدا في تلك اللحظة عارم القوة. قال ناظراً في عينيّ صدام حسين:

ـ الليل نصف حياة الإنسان. ألا يعنيك ذلك؟

بينما يلعب الشطرنج مع عبد الكريم الشيخلي، واللون البرتقالي ـ الأصفر للغروب يكسو الجو والنافذة الممشوقة، فكّر صدام حسين أن السامرائي ينمو الآن كالأخطبوط، وأن أوصاله المغطاة بوبرٍ أشقر تتمدد، وأن أصابعه تستعيد لونها الأول ـ لون ما قبل السجن وحفلات التعذيب. كان الشيخلي يخبر حسن الأميري عندئذٍ أن الرفيق صدام بات يلعب الشطرنج أحسن من السوفيات، ولم يستطع صدام حسين إلاَّ أن يفكر بخصمه الطليق مرة أخرى، ويتساءل ماذا يفعل الآن، أين هو، ماذا يخطط، ومع من يخطط؟

قبل أسبوعين من موعد المحاكمة حملت إليه زوجته ساجدة رسالتين مهمتين. رسالة من ناظم كزار. ورسالة من العقيد البكر. كان عدي يقف إلى جانب أمه في بنطال أسود وقميص بيضاء. عبث صدام حسين بشعر الصبي الأسود وسأله كيف يجد السجن. الولد الداخل في السنة الثالثة من عمره بدا خائفاً من هذا الرجل الغريب الذي يراه في السجن مرة كل أسبوع أو كل أسبوعين ولا يحدثه أبداً إلاَّ بالكلمات ذاتها. في الزنزانة، بعد الزيارة، قرأ صدام حسين الرسالتين وأيقن أن الأقدار رجعت إلى جانبه. الكلّ يعتمد عليه.

في الثلاثاء السابق للثلاثاء المنتظر أخبر عبد الكريم الشيخلي رفيقه صدام حسين أن كل شيء يجري على ما يرام. علاقته بالحراس باتت وثيقة جداً، ثم إنه غمرهم بالهدايا. تلك الليلة تأكد الرفاق الثلاثة مرة أخرى من تفاصيل الخطّة. في صباح اليوم التالي، صباح الأربعاء، زارت ساجدة خير اللّه حسين زوجها في «سجن بغداد» فوجدته هادئ

القسمات ساكن النظرة. حسن الأميري تلقى زيارة مختلفة: زاره سعدون شاكر، وأبلغه أنه سيكون في النقطة المحدّدة في الوقت المحدّد.

تلك الليلة عجز حسن الأميري عن النوم. بينما شخير عبد الكريم الشيخلي يتصاعد في الزنزانة الصغيرة، وصدام حسين ينام على جنبه بلا أدنى صوتٍ، حدّق حسن الأميري إلى أضواء الكهرباء البعيدة وأحسّ بدموعٍ تختنق في حنجرته. عليه أن ينفذ الأوامر، الجماعة أهم من الفرد، والبعث لن ينسى. كانت ساقه مغطاة بقرصات البقّ وعقصات البعوض. هرشها بأظافرٍ حزينة حتى انبثق الدم من البشرة السمراء.

فجر الثلاثاء الموعود استيقظوا مع الأذان. في النور الضعيف ارتدوا الثياب، خبأوا الدنانير في الجوارب والجيوب الداخلية، ثم انتعلوا الأحذية. عند التاسعة والنصف صباحاً قرقعت المفاتيح في الباب. اقتادوهم عبر الممر الطويل ثم هبطوا درجاً. شاهدوا عمالاً يثبتون سلالم خشباً، وسيارة شحن تتراجع حتى تكاد تصطدم بالجدار. من السيارة هبط عمال آخرون يحملون دلاء طلاء وفراشي ضخمة. وقفوا في الباحة، تحت الشمس الطازجة، بانتظار وصول السيارة الخاصة بنقل المساجين. كان الندى يلمع على العشب عند حواف الباحة، وظهرت شاحنة بصندوق أبيض مرتفع عند طرف سهل الرمل المحجوب بجدار السجن ثم اختفت عن أنظارهم. صدام حسين كان ينظر إلى الفضاء بعينين فارغتين. حسن الأميري كان يهرش جلده بأظافر معبأة غيظاً. عبد الكريم الشيخلي كان يتذكر ليلة مضت قبل أسابيع: أيقظه صياح ديك قبل الفجر بساعتين، فرأى في سهل الرمل أشباحاً قصيرة، تعمل بنشاطٍ في نور النجوم، تحفر الأرض بالرفوش، وتُسقط في أعماق الحفر ذبائح ملفوفة بشراشف بيضاء. كان الرمل يتطاير ونور النجوم الأبيض ينعكس على الذرّات البلورية، فهوى

الشيخلي إلى ظلمات النوم من جديد، وحين أيقظته تمارين صدام صباحاً، رأى السهل الرملي مستوياً كصفحة السماء، ولم يعرف هل رأى ما رآه حقاً، أم أن كل ذلك حدث في منام.

الرفاق الثلاثة ركبوا في الصندوق الحديد ذي النافذة المربعة الصغيرة مع حارسين مسلحين. في المقعد الأمامي جلس السائق وإلى جانبه حارس آخر. الحراس الأربعة بدوا متشابهين كأخوة.

عبر شبك النافذة التي لا تتسع لخروج رأس، راقب حسن عادل الأميري شوارع بغداد تكتظ بالباعة والناس والسيارات والنداءات. كان يتذكر بساتين البصرة والطفولة، تسلق النخلات إلى عناقيد البلح الحمراء، ورائحة حمص أخضر يحترق ويفرقع في حقول شطّ العرب. ارتفعت الأبواق الهادرة في ظهيرة بغداد. شمّ رائحة بصل وثوم يقلى في الزيت، شمّ رائحة بيض مسلوق، شمّ رائحة خبز حار، وشمّ رائحة بؤسه أقسى وأشد وأفظع من كل روائح العالم.

صدام حسين الجالس صامتاً يحدق إلى الخطوط في أرض العربة، سمع عبد الكريم الشيخلي يتكلم أخيراً:

ـ تعرفون «الوردة البيضاء» في «أبو نواس»؟

كانت خطّة بسيطة لا تتطلب إقناعاً كثيراً. الحراس الأربعة سرعان ما وافقوا. يفكّون قيود المعتقلين الثلاثة ويدخلون معاً إلى المطعم: سبعة رفاق يحبّون العرق والمازة الطيبة واللحمة المشوية. عندهم ما يكفي من الوقت. يجلسون ساعتين، يشبعون، ثم يمضون إلى مركز الأمن في شارع السعدون. ويحصلون فوق ذلك على حفنة من الدنانير. الشيخلي أقنعهم بيسرٍ. كان يتدفق متكلماً، ووجهه يحفظ ابتسامة ودٍ ثابتة طوال الوقت، وروائح الطعام والشراب تتصاعد من عباراته المتقنة التركيب. عند الحادية عشرة والنصف ركنوا السيارة أمام مطعم «الوردة البيضاء» وترجلوا. متحلقين حول المائدة المزدحمة

بالأطباق شربوا عرقاً وأكلوا حمصاً وفولاً وخبزاً ساخناً شهياً وسمكاً وكبدة نيئة ولحماً مشوياً. حسن الأميري شرب ثلث القنينة. أراد الشيخلي أن يطلب قنينة أخرى لكن الحراس لم يوافقوا. الاتفاق كان ألا يطلبوا غير قنينة عرق واحدة. إذا دخلوا مركز الأمن ورائحة العرق تفوح منهم سوف تقع كارثة على رؤوسهم. هزّ الشيخلي رأسه متفهماً. كان النادل قد اقترب ووقف إلى يمينه. طلب الشيخلي قهوة للجميع وطلب الحساب. أخرج الدنانير من جيبه ووزعها على الحراس بانتظار وصول القهوة. ثم قال إنه يريد أن يدخل إلى الحمام. صدام حسين تكلم عندئذٍ:

ـ انتظرني.

وقام واقفاً. الحراس ارتبكوا لجزءٍ من الثانية. حسن الأميري سألهم هل يريدون فاكهة قبل القهوة؟ الشيخلي ربت على كتف الحارس الجالس قربه بأصابع لامعة بالزيت، وأسنان مزينة بورق البقدونس، ثم قال محدثاً الكل معاً:

ـ هذا الرجل لن يترك لي حبّة فواكه واحدة.

وأطلق ضحكة مجلجلة. كانوا يضحكون، وضحكاتهم تمتزج وتتعالى في فضاء المطعم شبه الفارغ. ورأى الرفيقان بينما يسيران إلى الحمام رجلين يدخلان المطعم في ثياب أنيقة ويجلسان بينما يتكلمان مع رئيس الندل. الساعة المعلقة في صدر المطعم أشارت إلى الواحدة إلاّ عشر دقائق: خلال دقائق يزدحم المطعم. قبل أن يختفيا وراء باب الحمام سمع الرفيقان حسن الأميري يضحك مقهقهاً، ثم انفجرت ضحكات الحرس من جديد.

عَبَرا الحمام بخطى ثابتة، ثم فتحا النافذة المنزوعة القضبان فوق كرسي المرحاض، وقفزا واحداً تلو الآخر إلى الزقاق. في الجانب الآخر، قرب براميل طافحة بالنفايات، كان سعدون شاكر جالساً خلف

مقود «مرسيدس ١٨٠» بيضاء اللون، يدخن سجائره كمن يشعل ناراً في غابة خضراء، ويجفّف العرق عن وجهه بمنديل أسمر بلون التراب.

عبد الكريم الشيخلي ارتمى ضاحكاً على المقعد الخلفي. صدام حسين جلس إلى يمين سعدون شاكر ونظر في مرآة الباب. رأى تجاعيد في جبهته العريضة، ورأى انعكاس قطة ذهبية سمينة خرجت من برميل وراء السيارة ثم قطعت الزقاق واختفت في زاروبٍ وراء مطبخ «الوردة البيضاء».

ألقى سعدون شاكر ثقل قدمه اليمنى (ثقل الساق كلّها) على دعسة البنزين. هدر المحرك وانطلقت السيارة في متاهة بغداد.

مثقل الجفنين والأنفاس من الأرق والعرق والبصل والفول المدمس بالزيت والحامض والملح والثوم، تنهد صدام حسين بلا انتباه. كان يفكّر في الوقت الذي انقضى، في سنتين ضاعتا وراء قضبان «سجن بغداد». انتبه بينما يقطعون شوارع الظهيرة المكتظة بالبشر والسيارات والروائح والشاحنات، أن النفايات تتكوم عند زوايا الطرق، وأن قططاً وكلاباً كثيرة تتدافع فوق الجبال الصغيرة القذرة، وسط طنين سحابات البرغش والذبان. سعدون شاكر كان يُحدث عبد الكريم الشيخلي ناظراً في المرآة:

ـ عمال البلدية مضربون منذ ثلاثة أسابيع.

قطعوا شارع الرشيد وانعطفوا في دربٍ فرعية، وهنا أيضاً تكومت النفايات أمام واجهات دكاكين بلافتات نيون مضاءة في عز الظهيرة. بعد انعطافة أخرى ظهرت كومة أخرى من الأوساخ. عندئذٍ فقط لفظ صدام حسين عبارته الأولى في حياته الجديدة خارج السجن:

ـ كل هذا القرف!

وراء دجلة العريض، عند أطراف بساتين نخلٍ كثيفة كالغابات، يستدير سورٌ من الحجارة البركانية الزرقاء القاتمة، حاجباً عن أعين الفضوليين فيلا إيطالية الطراز مطروشة بالكلس الأبيض. في هذه الفيلا التي يملكها «بعث العراق» تمدّد صدام حسين في ذلك الأصيل الأول لفراره من «سجن بغداد» مغموراً بالمياه الساخنة وبرغوة الصابون الكثيفة البيضاء. كان يفرك جسمه بليفة خشنة. لون المياه حال إلى أسمر موحل. نزع سدادة الحوض، وحين فرغ الحوض من الماء تماماً ملأه مرة أخرى، ثم ألقى رأسه إلى خلف. في الماء الساخن، بينما البخار يتخلل مسامه، خرجت من جسمه سوائل الحبس الكثيفة، وشعر للمرة الأولى منذ سنتين أن الهواء النقي الصافي يدخل رئتيه من جديد.

وقف ينشف جسمه بالمناشف البيضاء الكبيرة وينظر عبر النافذة المشرعة إلى بساتين نخل تمتد في الأسفل حتى الأفق. رأى النهر البعيد يتعرج كثعبان برتقالي هائل الحجم في نور الشمس الغاربة. كانت روائح الطعام تتصاعد من المطبخ في الطابق السفلي، ورأى دخاناً خفيفاً يصعد متمايلاً في نسيم أول المساء ثم يتبدّد تحت سماء موشحة بسحابات وردية سمينة. وقف أمام المرآة وحلق ذقنه. حين غسل وجهه من بقايا الصابون والشعر انتبه أنه حلق ذقنه أوتوماتيكياً، من دون أن ينظر أو يفكر في ما هو فاعل. طوال الوقت كان يفكر في

أمرٍ واحد فقط: اللقاءات والاجتماعات والتحديات الآتية. عليه أن يتصرف، وأن يكون صاعقاً خاطفاً.

في تلك اللحظة نفسها صرخ حسن عادل الأميري باكياً في زنزانة إفرادية ضيقة في «سجن بغداد». بعد أن جَلَدوه جلداً مبرحاً، معلقاً من كاحليه في الفضاء، كسّروا أصابعه الممشوقة، وأحرقوا ذقنه وشفتيه بقضيب حديد متوهج الرأس. لم يقل شيئاً. مرمياً في ظلام «الانفرادي» بكى حين أدرك أن طرف لسانه احترق أيضاً وأنه ما عاد قادراً على تشكيل الكلمات بلفظ صحيح. الراء يلفظها ثاء. العين يلفظها غين. والميم يلفظها نون.

البكاء أنعسه. غفا مبللاً بالدمع والمخاط وبدماء تنزف من جراحه المملحة. في الصباح أيقظوه بسطل ماء قذرة. بعد ثلاثة أيام كفّوا عن تعذيبه. حين رموه في زنزانة تعجّ بالسجناء تنفس الصعداء. ما كان يعلم أنه بلغ للتو فاتحة درب الآلام التي ستغير حياته.

في ذلك الصيف الحارق توقف الرئيس عبد الرحمن عارف عن مطاردة البعثيين. بين العرق والويسكي والنبيذ كان وقته يمضي من دون أن يعطيه الفرص الكافية للقبض على خيوط السلطة كلّها. ضباط الجيش يتعاركون، الأحزاب تتعارك، الوزراء يتعاركون، الكلّ ضد الكلّ، ولا أحد مع أحد. قرر الرئيس عبد الرحمن عارف أن يكون متسامحاً. لعله بذلك ينأى عن تلك الصراعات. ليتصارعوا قدر ما يريدون وهو يشرب كأساً ويتفرج عليهم كمن يشاهد مصارعة ثيران على التلفزيون.

أُخرج القسم الأكبر من البعثيين من السجون. كان الحزب نفسه يقدم لوائح بالعناصر السجينة، والحكومة توافق، والعناصر يخرجون. صدام حسين أشرف شخصياً، بصفته رئيساً لأمن البعث، على إعداد تلك اللوائح. سُميت «لوائح الخروج». الحزب الشيوعي قدم لوائح

مماثلة. نصف اللوائح الشيوعية مُزق ورمي في سلة المهملات قبل أن يُقرأ. الرئيس عبد الرحمن عارف أراد أن يُطلق من سجناء الأحزاب أعداداً متساوية. ديك ضد ديك، قال وهو يسكب النبيذ في جوفه.

«سجن بغداد» كاد أن يفرغ من السجناء البعثيين. لم يفهم حسن الأميري لماذا تأخر إطلاق سراحه إلى ذلك الحد. كل يوم يرى رفاقاً يغادرون الزنزانة المكتظة بـ ٦٦ شخصاً. تقلص العدد إلى ٣٣، باتت الزنزانة وكراً شيوعياً، وهو البعثي الوحيد فيها، ولم يأتِ الحراس ويقرأوا اسمه من اللوائح الصفراء بعد. أدرك أن إخراجه يحتاج إلى بعض الوقت لأن تهمة جديدة أضيفت إلى سجله بعد أن تآمر مع رفيقيه وعمد إلى إلهاء الحراس وتشتيت انتباههم لكي. . . كان يفكر في كل ذلك بينما يغسل رأسه في حمام السجن حين أحاط به أربعة سجناء. دفعوه حتى الجدار وبينما يدافع عن نفسه بذراعين لا تفهمان ماذا يحدث له، وبكلمات تسقط عن لسانه عرجاء ضعيفة غامضة، تلقى اللطمة الأولى وسقط على الأرض الزلقة. أراد أن ينادي الحراس لكن أحدهم ركله في وجهه. حاول أن يتمسك بمنشفته لكن هذه تمزقت قطعتين. صرخ مقدار ما استطاع الصراخ بينما أحشاؤه تتمزق بألمٍ لم يعرفه من قبل، ثم فقد وعيه.

طوال أسبوعين تجنب الدخول إلى الحمام. لم ينقذه ذلك. ذات ليلة أيقظته أجسام ثقيلة هوت على جسمه. هذا الاغتصاب الثاني كاد أن يقتله. بعد يومٍ في مستوصف السجن أعادوه إلى الزنزانة نفسها. دام هذا العذاب خمسة أشهر. ثم نُقل إلى زنزانة أخرى. في الزنزانة الجديدة أعطاه أحد الأخوان مصحفاً. اكتشف بينما يقرأ الآيات الكريمة عالماً فقده قبل زمن بعيد: كان يجلس في الحوش في بيت الطفولة، يلعب بالتراب مراقباً قطعان النمل، بينما جدّه يجلس في ظلّ النخلة المائلة، يقرأ سور القرآن منغماً مخارج الحروف. مسح حسن عادل الأميري سائلاً ينزل من فتحتي أنفه مالحاً. قرأ آيات من سورة

آل عمران ممدداً على جنبه: ﴿ . . هذا بيانٌ للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تَهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله وتلك الأيام نُداولها بين الناس ليعلم اللّه الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء واللّه لا يحب الظالمين. وليمحص اللّه الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يعلم اللّه الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. ولقد كنتم تمنَّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون. . . ﴾. كان النور يتلاشى وراء زجاج النافذة الممشوقة. حاول حسن الأميري القعود لكن الألم أعجزه. ظلّ ملقياً، كذبيحة تنتظر ساطور الجزّار، على جنبه. حمل له أحد الأخوان كوب شاي. أخذ الكوب الساخن وأبعد المصحف. كانت الكلمات تتراقص في عينيه، وصدى معناها يلمس دماغه، وينزل منّاً وسلوى على قلبه المطعون. نسيه «البعث» في الظلمات، ورماه الآخرون في غياهب الجبّ، ولم تنقذه إلاّ هذه الآيات الكريمة. في الجانب المقابل رأى أحد الأخوان يرفع مصحفاً إلى شفتيه ويقبّله. دموع حسن الأميري سالت من وجهه قطرة قطرة في كوب الشاي.

صدام حسين لن يسمع باسم حسن الأميري مرة أخرى إلاّ بعد سنين طوية: عام ١٩٨٥، أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية، أرسلت له وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية سبع لوائح جديدة بأسماء مجاهدين عراقيين في أفغانستان. اسم حسن الأميري كان بينهم. بات يُعرف في سهل شومالي قرب تاخار في شمال شرق أفغانستان بالشيخ المجاهد أبي محمد حسن الأميري البصراوي العراقي. كان هو ذاته، رفيق الزنزانة في «سجن بغداد» قبل عشرين سنة، لا مكان للشك. الشيخ المجاهد أبو محمد حسن الأميري البصراوي يُمثل صلة الوصل بين الاستخبارات الباكستانية (التي يدعمها الأميركيون والسعوديون) وبين أسد بانجشير المجاهد أحمد شاه مسعود الذي يذيق السوفيات

المرّ والعلقم في جبال أفغانستان. تقرير CIA أفاد أن الشيخ الأميري البصراوي يذكر أيامه في العراق دائماً في ليالي السمر، ويذكر رفيقه القديم الرئيس العراقي «المجنون صدام حسين الذي يحارب إيران الخميني بالشباب المسلم العراقي في عطشه الذي لا يرتوي لدماء المسلمين».

صدام حسين، في ذلك الصيف الحارق البعيد الذي أعقب خروجه من «سجن بغداد»، كان مصاباً بحمى غريبة من الحركة الدائمة والنشاط الخارق، حتى أن العقيد أحمد حسن البكر سأله في اجتماع «القيادة القطرية» هل طوّر قدرة الأولياء الخاصة على الظهور في مكانين مختلفين في الوقت نفسه. كان يُرى صباحاً في أحد أوكار البعث في الرصافة، ويعقد اجتماعاً في ظهيرة اليوم ذاته في كركوك شمال البلاد، ثم يسهر الليل مع رفاقٍ في الأهوار أو عند الحدود الجنوبية، قبل أن يشرب قهوة الفجر مع عمال مطبعة الحزب في قلب العاصمة.

في المقابل أمضى عبد الكريم الشيخلي أيامه الأولى خارج «سجن بغداد» في أحضان زوجته. يأكل ويشرب وينام ولا يصدق أنه بات قادراً على التنزه في الشوارع، وعلى القعود أمام التلفزيون ساعات، وعلى السباحة وصيد السمك في دجلة حين يشاء. بعد فترة النقاهة هذه رجع إلى النشاط الحزبي. لم يتذكر الشيخلي رفيقه حسن الأميري مرة أخرى إلاّ بعد انقضاء سنتين تقريباً، بينما يتناول طعام العشاء مع الجنرال حردان التكريتي في الطابق العلوي الجديد من مطعم «الوردة البيضاء» في «أبو نواس». بعد ذلك بسنتين أيضاً، تذكر الشيخلي حسن الأميري للمرة الثانية، خلال زيارة رسمية إلى العاصمة السورية، بصفته وزير خارجية الجمهورية العراقية الآتي إلى الشام لتهنئة الفريق حافظ الأسد بتنصيبه رئيساً. ضابط الطيران البعثي أفلح في انتزاع السلطة من ضباط بعثيين آخرين على رأسهم صلاح جديد. في القصر الرئاسي في دمشق رأى وزير الخارجية العراقي عبد الكريم الشيخلي بستانياً ملتحياً

يشذب شجرة ورد بمقصٍ حديد وبأصابعٍ ممشوقة طويلة ذكَّرته فوراً برفيق الحبس القديم حسن الأميري. تذكرَ الشيخلي حسن الأميري مرة ثالثة أيضاً، بعد سنوات طويلة، خلال إقامته الجبرية في «٢٣ داوني ستريت» في لندن. لكن تلك الذكرى الثالثة المخبأة في المستقبل البعيد سوف تكون الذكرى الأخيرة، ومن بعدها يُنفى حسن الأميري إلى الأبد من ذاكرة وزير الخارجية السابق السفير العراقي في بريطانيا عبد الكريم الشيخلي.

صدام حسين، بينما يُعد «لوائح الخروج» في صيف ١٩٦٦ ويُرمم أجهزة البعث الأمنية ويُوسع نطاق نشاطها بمساعدة ذراعه اليمين ناظم كزار، تابع مراقبة نشاط عبد الكريم الشيخلي المتجدد عن كثب. ناظم كزار كان يُزوده بتقرير يومي عن حركة الشيخلي، إضافة إلى حركة عناصر أخرى في «القيادة القطرية». كل لقاءات عبد الخالق السامرائي مع رفاقه وحلفائه في مقاهي بغداد وباراتها كانت مراقبة. حتى العقيد أحمد حسن البكر اكتشف بمرور الأسابيع أن عيون «حنين» مسلطة عليه. حين فاتح نائبه صدام حسين بالأمر، اكتفى هذا بالابتسام، ثم قال:

ـ طبعاً حضرة الرفيق. تريد أن تتحرك بلا أمن يحميك؟

بادله العقيد البكر الابتسامة. كانا جالسين على الشرفة المطلّة على دجلة، يشربان القهوة، يتفرجان على مصابيح الجسور تضاء أول المساء، ورقعة الشطرنج جامدة بينهما. عبرت سيارات، وألقت نور مصابيحها الأمامية على شجر الحديقة. أشعل العقيد أحمد حسن البكر غليونه الذي انطفأ في هواء آخر الصيف. قال صدام حسين:

ـ ملك مات.

ثم نقل حصاناً أسود وهدّد الملك الأبيض بموتٍ محققٍ بعد ثلاث نقلات.

أجابه البكر:

ـ هذه فضائل الحبس.

ونقف بظفره رأس الملك الأبيض فأسقطه.

كانت تلك آخر جولة شطرنج لعباها في ذلك الصيف. ولن يلعبا الشطرنج مرة أخرى إلاً بعد انقضاء سنوات طويلة، خلال عطلة أسبوع يقضيانها معاً سنة ١٩٧٥ عقب توقيع «اتفاقية الجزائر». وفي هذه الجولة أيضاً يخسر ملك العقيد الأبيض كما خسر قبل تسع سنوات.

قبل نهاية ذلك الصيف الحارق من عام ١٩٦٦، نظَّم الأمين العام لبعث العراق العقيد أحمد حسن البكر بمعونة نائبه الرفيق صدام حسين، مؤتمراً طارئاً للحزب أُعلن خلاله الانفصال عن البعث السوري المتوغل في درب الانحراف الشيوعي الخطر بعد أن خرج بقيادة صلاح جديد عن مبادئ البعث الأصيلة، مبادئ «حرس البعث»، مبادئ ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار.

ذلك الشهر نفسه، قبل نهاية أيلول (سبتمبر) ١٩٦٦ أحصى جهاز «حنين» تسعة ضباط بعثيين عراقيين يمكن أن يشكلوا خطراً مباشراً وفورياً على الجناح المدني للحزب. صدام حسين، جالساً في كرسي الخيزران الهزّاز عند ساعة العصر يشرب كوب القهوة السوداء المرّة بالحليب البارد ويسمع ضجة الكرخ وراء الحيطان وتحت النافذة المشرعة، قلَّب الأسماء التسعة في رأسه كأنه يُقلِّب بصلاً في مقلاة على النار.

ليل ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٦، بينما العقيد يحيى عمران من قوات سلاح الجو، يغادر «بار البحرين» مترنحاً بين ثلاثة مرافقين ومجموعة من السيدات، خرج ثلاثة رجال مسلحين بالرشاشات من سيارة بويك خضراء اللون متوقفة في الجانب المقابل من الشارع. اقتربوا بلا أي كلمة، وبهدوء، من المجموعة المخمورة، ثم فتحوا

النار. الشارع المضاء بلافتات نيونٍ تُزين مداخل البارات وبمصابيح البلدية العالية، توهج بغتة بألوان باهرة جديدة برقت كعواصف الشتاء. العابرون في طرف الشارع رأوا وهجاً يشبه الألعاب النارية، وحسبوا للوهلة الأولى أنهم يشاهدون احتفالاً. ذلك الانطباع الخاطئ لم يستمر أكثر من من ثوانٍ قليلة: خلال تلك الثواني القصيرة وصل صوت الصرخات إلى المشاهدين العابرين ليل «أبو نواس». لم يُقبض أبداً على الفاعلين. إفادات الشهود تناقضت. ما لون البويك؟ خضراء، زرقاء، سوداء، رمادية؟ هل هي بويك أم طراز آخر من السيارات الأميركية؟ هل هي سيارة أميركية بالتأكيد، هذه السيارات ليست كثيرة في بغداد؟ كم مسلحاً خرج من السيارة؟ ثلاثة أم أربعة؟ أسئلة الشرطة ضاعت في متاهة من الملاحظات المجانبية والإفادات التي لا تفيد شيئاً. الشائعات في المقابل وجهت إصبع الاتهام سريعاً إلى صديق سابقٍ للعقيد الذي قضى مع اثنين من مرافقيه. (نجت السيدات، كما نجا المرافق الثالث الذي تلقى رصاصتين في بطنه وسبع رصاصات في أطرافه وظلّ على قيد الحياة).

الصديق السابق المذكور النقيب صلاح مهدي الصقر هدّد العقيد يحيى عمران بالقتل قبل أسبوعين فقط خلال مشادة كلامية بين الرجلين وقعت في كافيتريا مطار الرشيد العسكري. أجهزة البعث الأمنية كانت على علم بالمشادة. الأمين العام للحزب، العقيد البكر شخصياً، تلقى تقريراً آنذاك من نائبه صدام حسين وقَّعه ناظم كزار، وفيه وصف تفصيلي للشتائم التي أطلقها الضابطان الرفيقان البعثيان تلك الظهيرة في مقهى مطار الرشيد. تحريات «حنين» أفادت أن سبب التباعد بين الرفيقين امرأة. يبدو أن الرفيق العقيد يحيى عمران أقدم في إحدى غاراته على غزو حرم الرفيق النقيب صلاح مهدي الصقر. بعد مقابلات مع جنود وضباط آخرين في سلاح الجو تبين أن العقيد عمران على علاقة بما لا يقل عن خمس سيدات متزوجات مقيمات في «المجمع

السكني لضباط سلاح الجو» المطلّ على دجلة. استدعي النقيب صلاح مهدي الصقر للتحقيق في مركز الأمن الداخلي في شارع السعدون، ثم أُفرج عنه بسند إقامة. في اليوم التالي استدعي للتحقيق أمام لجنة حزبية خاصة تشكلت من ٣ أعضاء من القيادة القطرية للحزب، إضافة إلى رئيس جهاز أمن الحزب صدام حسين ونائبه ناظم كزار. المتهم نفى التهمة. صحيح أنه هدّد العقيد عمران بالقتل، وصحيح أنه كان مستعداً لتنفيذ تهديده، وصحيح أن قتل الرفيق لم يزعجه أبداً، كل ذلك صحيح، وهو لا ينفيه، أما القول إنه أرسل إليه هؤلاء الرجال، أو ذهب معهم، فذلك غير صحيح. قال الرفيق النقيب صلاح مهدي الصقر إنه لا علاقة له بعملية الاغتيال التي حدثت أمام «بار البحرين».

جلسة التحقيق دامت ساعة واحدة وانتهت في محضرٍ أعلن براءة الرفيق النقيب الصقر من التهمة التي وجهتها إليه «شائعات أطلقها أعداء البعث». صدام حسين أملى المحضر على ناظم كزار في حضور أعضاء اللجنة الحزبية الخاصة وفي حضور المتهم. بعد ثلاثة أيام عُثر على النقيب صلاح مهدي الصقر جثة هامدة في حقلٍ قريبٍ من «المجمع السكني لضباط سلاح الجو». قتلته رصاصة واحدة ثقبت سقف حلقه وخرجت من قبّة الجمجمة. بين أصابع يده اليمنى استقر مسدسه الحربي بمشطٍ ناقصٍ طلقة واحدة. الشرطة اعتبرت الأمر انتحاراً وأقفلت الملف.

صدام حسين في كرسي الخيزران الهزّاز في بيته في الكرخ، قرأ الخبر في الصفحة التاسعة من جريدة «الجمهورية». زوجته ساجدة خير اللّه طلفاح حسين ملأت له الكوب مرة أخرى، أخبرته بصوتٍ متردد أن أباها خرج من المستشفى بعد الأزمة القلبية التي تعرض لها، ثم اختفت في المطبخ. بينما يشرب قهوته السوداء المرّة بالحليب البارد، ودخان سيجارته يؤطر وجهه الداكن بلون أزرق شفاف، تلمس بأصابع جامدة شاربه الذي بات كثيفاً من جديد. تلمس بيدٍ شاربه

الأسود الكثيف، وقلّب بالأخرى ـ على نار طموحه القاتل ـ سبعة أسماء باقية تنتظر على اللائحة.

بعد ثلاثة أيام جلس صدام حسين صباحاً في مكتب أمين عام البعث العقيد أحمد حسن البكر يتحدثان في شؤون الحزب. عند الحادية عشرة إلاً عشر دقائق قطع راديو بغداد مسلسلاً دراميًاً عن حياة شجرة الدرّ وأذاع ملحقاً إخبارياً عن تعرض العقيد عبد الكريم سُلَمْ حيدر عضو القيادة القطرية في بعث العراق لمحاولة اغتيال أثناء خروجه من منزله مقابل السفارة اليوغوسلافية في بغداد. حراس السفارة اشتبكوا مع المجرمين الذين فروا بسيارة مرسيدس ـ بنز زرقاء اللون إلى جهة مجهولة. العقيد حيدر أصيب إصابات خطرة وهو لا يزال في غرفة العناية الفائقة في المستشفى العسكري.

كان الهرج يعمّ مركز الحزب. في المكتب الكبير الموصد، استدار العقيد البكر بوجهٍ محتقنٍ، ووجّه أمراً حاداً إلى نائبه صدام حسين:

ـ منذ هذه اللحظة أُحملك شخصياً، أنت وكزار، مسؤولية أي عملية اغتيال لأي ضابط بعثي عراقي.

صدام حسين تلقى الصدمة المباغتة بأعصاب باردة كالجليد. حدق في صندوق الراديو الخشب كأنه يريد النظر إلى داخله، أو كأنه سيرى في قلب الصندوق ما حدث في مسرح العملية. كلمات العقيد فاجأت صدام حسين. طوال الأيام الماضية بينما يدرس ويخطط ويوجه الأوامر إلى وحدات «حنين» الخاصة لم يفكر لحظة أن عليه إستشارة الأمين العام. يتصرف دائماً على أساس أن الرفيق العقيد إلى جانبه. في هذه المرحلة كل ما يريده هو توطيد سلطة العقيد، جعل الأمين العام السيد المطلق على قمة هرم الحزب. لم يتوقع ولو لبرهةٍ خاطفة أن تستيقظ غريزة الجندي المهدد بالموت في أعماق الرجل. عليه أن يعيد

حساباته، وأن ينهي الجردة سريعاً. عليه إزالة سوء الفهم فوراً. وإلاّ زال الغطاء الذي يحمي رأسه.

العقيد البكر وقف بالبذلة العسكرية محتداً وألقى ثقل جسمه على قبضتين مغروزتين في خشب المكتب:

ـ هذه العمليات تتوقف فوراً. مفهوم؟

كان صوته يرتجف غضباً. وكل عضلات وجهه وعنقه ترتعش. أيقن صدام حسين عندئذٍ أنه ارتكب أكثر من خطأ. الخطأ الأول كان عدم التنسيق المسبق مع العقيد البكر: هذا الضرب من التطهير قد يزرع الخوف حتى في قلب الأمين العام. الخطأ الآخر كان اعتماد الأسلوب الدموي: عملية اغتيال العقيد عمران كادت تتحول إلى مجزرة. لاحظ الخطأ بينما يقرأ الصحف ويتفرج على الصور المنشورة. هذا خطأ يتحمل وزره ناظم كزار. ما زال يتصرف بسلطة صاحب البلاد الذي عذب الشيوعيين في «قصر النهاية» وأعدم عائلات كاملة في ١٩٦٣. عليه تقليم أظافره قليلاً، السلطة ليست في قبضتهم بعد.

العقيد البكر كرَّر سؤاله الغاضب:

ـ مفهوم؟

أجابه صدام حسين بصوت هادئ:

ـ مفهوم حضرة الرفيق. لكنني أود إزالة سوء تفاهم: كل هذا الذي يحدث كان الغرض الوحيد منه إزالة العقبات من دربك. الأسلوب ربما كان متطرفاً. لكن سلامتك الشخصية لم تكن أبداً على المحك. لا أريد أن أغادر هذا المكتب قبل أن تصارحني: أريد ثقتك الكاملة الآن.

استرخى العقيد أحمد حسن البكر في كرسيه. كل الغضب الذي أشعل بدنه بينما يستمع إلى الملحق الإخباري، تبخر من جسمه بعد كلمات نائبه صدام حسين. تابع التحديق إلى سطح المكتب صامتاً،

وحين تكلم أخيراً سمع صدام حسين صوت العقيد القديم المألوف:

ـ سوء التفاهم دفنّاه. اقتراحي الوحيد هو اتباع أساليب مُحافظة في عملياتنا الأمنية.

«الأساليب المحافظة» كانت بالضبط العبارة التي أراد صدام حسين أن يزرعها في دماغ نائبه ناظم كزار تلك الليلة. العقيد البكر لفظ العبارة بينما تتشكل في دماغ صدام حسين.

تلك الليلة، بعد اجتماع دام ساعتين مع ناظم كزار وعنصرين قياديين آخرين في «حنين» هما خالد عبد الشافي وسلامة خير الدين، قاد صدام حسين سيارته البيجو 504 إلى بيت خاله (وعمه) خير اللّه طلفاح في الكرخ. كان متعباً خائر القوى كأنه ركض حول بغداد ألف دورة ودورة. ثلاثة من مرافقيه ترجلوا معه أمام الملحمة التي كانت مخزن تمورٍ قبل سنوات. المرافق الرابع ظلّ واقفاً جنب السيارة المركونة.

رائحة المرض والمصل والأدوية كانت بانتظاره في الباب. خير اللّه طلفاح بدا في الفراش الأبيض العريض عجوزاً متقلص الجسم قاتم اللون. كانت رائحة الموت تفوح من ثديه الأيسر المنكمش. منذ أعادوه من المستشفى لم يأكل غير الكعك المبلل بالماء والسكر.

حين رأى ابن أخته محاطاً بالمرافقين، رفع خير اللّه طلفاح جذعه على كوعين مغروزين في الفراش، وقال:

ـ أهلاً رفيق. جئت تُودع؟

أجابه صدام حسين واقفاً فوق رأسه:

ـ تُريد أن تموت؟

قال خير اللّه طلفاح:

ـ لست أنا من يريد. بل شرايين قلبي المسدودة.

عقد صدام حسين أصابع يديه وراء ظهره. قال:

ـ الإنسان لا يموت إلاّ إذا أراد ذلك.

ابتسم خير اللّه طلفاح:

ـ لن أموت إذاً.

لم يمت خير اللّه طلفاح بالذبحة القلبية. خرج من المرض أقوى وتزوج للمرة الثالثة. بعد سنوات طويلة، في خريف ١٩٨١، عيَّنه الرئيس العراقي صدام حسين عمدة لمدينة بغداد.

خير اللّه طلفاح بدا شاباً في خريف ١٩٨١. هذا الرجل الذي رفع في وجه الإنكليز والمرتزقة الهنود حربة صدئة لبندقية عثمانية أثناء ثورة الكيلاني عام ١٩٤١، استطاع في خريف ١٩٨٦ الحلو الهواء أن يملأ زوايا الشوارع في العاصمة العراقية بصناديق جديدة للنفايات، وأن يطلق مشروعاً ـ لن يُكتب له النجاح بسبب الفساد الإداري ـ لترميم شبكة مجارير قديمة في شمال المدينة، شبكة أثرية غير مستعملة منذ زمن الحضارات القديمة التي ازدهرت ما بين النهرين. في خريف ١٩٨١ أيضاً نشر، بتشجيع من الرئيس العراقي (ابن أخته) صدام حسين، كتاباً فلسفياً شرح فيه للعامة والخاصة مسألة الأجناس الثلاثة التي لا يفهم أحد لماذا خلقها اللّه: الفرس، اليهود، والذبان. الحدود الجنوبية للبلاد كانت تشتعل بنار المدفعية الإيرانية حينئذٍ. هذا الجهد الفلسفي لم يشغل خير اللّه طلفاح عن واجباته تجاه بغداد بصفته عمدة المدينة. بين ١٩٨١ و١٩٨٩ أنشأ ٢٣ مؤسسة تجارية وتحول إلى أحد أكبر أثرياء البلاد. قبيل اجتياح الكويت في صيف ١٩٩٠ كان خير اللّه طلفاح قد تحول مضرب مثلٍ ـ في جهات العراق الأربع ـ للفساد المحيط بالرئيس. عندئذٍ فقط أمر صدام حسين بإقفال ١٧ شركة يملكها خاله (وعمه)، بإلقاء مدراء هذه المؤسسات في السجون، وبإقالة عمدة بغداد السيد طلفاح من منصبه.

بعد أن أُقيل من منصبه قبيل اجتياح الكويت عام ١٩٩٠ جلس السيد خير اللّه طلفاح على شرفة بيته الجديد في بناية حديثة مجاورة لمنتجع الحبانية (هذا ليس بيته الدائم، بل بيت زوجة من زوجاته، هي زوجته الأخيرة، والأقرب إلى قلبه) وتذكر ذلك الزمن البعيد حين أتاه الرئيس صدام حسين يعوده إثر خروجه من المستشى عقب نكسة قلبية. مغمض العينين، بأرجيلة تقرقر أمامه، وأصابع زوجته رقيقة على قدميه المنقوعتين في مياه فاترة مملحة، غادر السيد خير اللّه طلفاح تلك الشرفة العالية المشرفة على «منتجع الحبانية» غرب بغداد ورجع ٢٣ سنة إلى الخلف، إلى فراشٍ أبيض عريضٍ في بيتٍ قديم في صوب الكرخ. كان يتلمس ثديه الأيسر المنكمش وينظر إلى ابن أخته المملوء سلطة يقف فوق رأسه بشاربٍ أسود كثيفٍ وملامح متصلبةٍ داكنة وخطوطٍ عميقة تنقش جبهة مظلمة. قال له ذلك الرجل المحاط بثلاثة مرافقين ضخام الجثث:

ـ الإنسان لا يموت إلاّ إذا أراد ذلك.

الكلمات نزلت في أذن خير اللّه طلفاح كالمعدن المذاب الملتهب. كسيلٍ يتدفق منحدراً من فوهة بركان. لن ينساها بعد ذلك. وكلّما ألمَّت به وعكة صحية تذكرها. ذلك الصوت لم يكن صوت ابن أخته. قوة غير مرئية تحدثت إليه عبر الرجل. طاقة خيالية هي ذاتها الطاقة التي تجبر الكواكب على السباحة في مدارات فلكية ثابتة ـ لا تتغيّر ـ حول الشمس. عام ١٩٧٣ اصطدمت سيارة خير اللّه طلفاح بشاحنة عسكرية. أطبق السقف عليه وانغرز الزجاج الأمامي في عنقه. حين بلغ المستشفى كان جسمه خالياً من الدم تقريباً. لكنه لم يمت. الطبيب قال إنها معجزة. القلب استمر يضخ هواء بعد أن نضب الدم. حين نقلوا دماً إلى الجسم الأصفر انتعش في لحظة، كالنبات الصحراوي تحت قطرات المطر. عام ١٩٧٧ سقط خير اللّه طلفاح عن

حافة حجر عالية بينما يشرف ـ بصفته مديراً في «وزارة الثقافة والتعليم» ـ على أعمال بناء «مدرسة نموذجية» في الأعظمية. نُقل إلى مستشفى الأعظمية تحت حال الخطر. لكنه لم يمت. الطبيب الذي قطّب الجمجمة قال إنه لا يفهم كيف بقي حياً ونصف دماغه خارج رأسه. عام ١٩٨٤ أطلق عليه مجهولون الرصاص. تلقى جسم خير اللّه طلفاح خمس رصاصات، رصاصة بينها اخترقت صدره وخرجت من ظهره من دون أن تصيب أي عضو حساس. هذه أعجوبة، قال الطبيب بعد أن أدخل خيطاً مشبعاً باليود في ثقب الصدر ـ المحترق بحرارة الصاعق ـ ثم أخرجه من ثقب الظهر، كأنه ينظف قسطل بارودة صيد. في ١٩٨٧ تعرض لحادث سيارة آخر عند تقاطع طرق في قلب أربيل. كان مشغولاً بكردية راكبة إلى يمينه. نقلوه إلى «مستشفى الشرطة» عند زاوية التقاطع، راكضين، وقدمه اليمنى بلا حذاء. علق الحذاء في حطام السيارة المبعوجة. كان ينزف من جميع فتحات وجهه، وحين حاول الطبيب أن يفحص قفصه الصدري شقت صرخاته سقف المستشفى. الأضلاع كلّها كانت محطمة. وضعوا جذعه في قالب جفصين فتحرك كالرجل الآلي العجيب طوال نصف سنة، وخرج من التجربة أشد وأقوى: انتفخت عضلات ساقيه تحت ثقل الجذع المدرع بالجفصين، واستعادت سلسلته الفقرية استقامة أيام الجيش والخدمة تحت إمرة الضباط الأشاوس الذين حاربوا الأتراك خلال الثورة العربية. في ١٩٨٨ تعرض خير اللّه طلفاح لأزمة قلبية: كانت سحابة مظلمة تخيم على رأسه بعد أن جاءت ابنته ساجدة إليه باكية للمرة العشرين، للمرة الثلاثين، أو الأربعين. كالعادة استقبلها بجوابٍ حاسم، كأنه يكرر العشرين سنة الماضية حرفاً حرفاً:

ـ لا تكوني بلهاء! وقولي لعدي أن يتعقل!

إثر خروج ابنته أحسّ خير اللّه طلفاح بالإنذار الأول: تنمل في

ذراعه اليسرى، كأن قطيع نمل يسري على الجلد، فوق الجلد، وتحت الجلد. بينما يمدّ ذراعه نحو الهاتف ليطلب رقم طبيبه الخاص، دخلت عليه إحدى زوجاته. كان اللون مخطوفاً من وجهها، وسمعها تلفظ اسم عدي.

سمع خير اللّه طلفاح كلمات الزوجة الصغيرة ولم يسمعها. في سيارة الإسعاف في ذلك اليوم المعتم من عام ١٩٨٨، تذكر خير اللّه طلفاح تلك الكردية الأولى التي حطمت قلبه بفرارها إلى الجبال. كيف غدرت به؟ ألم يغمرها بالمال والهدايا؟ بنت الكلب تتركه؟ وضعوا كمامة الأوكسيجين على وجهه وطوال الوقت كان يفكر في تلك الكردية الأولى ولا يفهم سبب الضجة في رأسه، ويحاول أن يتذكر ما قالته الزوجة الصغيرة قبل لحظات عن عدي والحفلة والسيدة المصرية الأولى سوزان مبارك وقتل الطباخ بالمضارب أمام جميع الحاضرين، ولا يقدر أن يتذكر. ثم تذكر أن ساجدة جاءته باكية، وضاع منه حبل الزمن، ووجد نفسه يتدلى في الفضاء المظلم لبئر أخرى، وهوة أخرى، وزمن آخر. . . كانت البنت تبكي، وحين تبكي لا تكون امرأة، تنكسر كالإبريق، ترجع صغيرة، وكان يأمرها: «لا تكوني طفلة» أو: «لا تكوني بلهاء»، أو «أنت أم أولاده الآن»، أو: «هل تعتبرين صدام رجلاً عادياً؟». في غرفة العمليات قال خير اللّه طلفاح للطبيب إنه لن يموت، بعملية جراحية أو من دونها لن يموت. لم يحن الوقت بعد. حين استيقظ من التخدير في غرفة العناية الفائقة وجد نفسه عالقاً في تلك البئر الأخرى القديمة، بئر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨ حين جاءت ساجدة إليه باكية للمرة الأولى وأخبرته أن زوجها على علاقة بفتاة يونانية لبنانية عراقية. أجابها صارخاً: «اخرسي، لا تكون غبية». ولم يكن قصده أنها تتوهم. ذلك أنه كان يعرف الحكاية الكاملة: يعرف أين التقى صدام تلك المرأة،

يعرف ماذا قال لها في ذلك اللقاء الأول، ويعرف مكان الشقة التي تقيم فيها تحت الحراسة. في الغرفة رقم ٩٢٣ في «مستشفى صدام»، بينما ذهنه يصفو وأثر المخدر يزول عنه نهائياً، سأل خير اللّه طلفاح نفسه من أين يجلب هذه القوة، من أين يستمد هذه الطاقة، هذه الإرادة للبقاء على قيد الحياة. فتح عينين متعبتين فرأى زوجته الصغيرة ترتب زهوراً في إناء على كومودينة، ورأى التلفزيون المعلق عالياً في الزاوية: كالعادة تدفق سيل من صور الرئيس في اجتماعات ولقاءات وجولات على الأحياء الشعبية والثكنات والمؤسسات الحكومية. حين اقتربت الزوجة الصغيرة منه قال لها خير اللّه طلفاح:

ـ هذه المرة كانت أقوى من المرة الماضية.

صدام حسين الواقف على رأس السرير الأبيض العريض في ذلك المساء البعيد في الكرخ، قال لخاله وعمه:

ـ في المرة المقبلة اجعلْ قلبك قاسياً.

عند خروجه وجد صدام حسين مصابيح الكهرباء أضيئت في حارات الكرخ. المرافق الرابع كان يدخن سيجارة جالساً على غطاء المحرك. حين رأى رئيسه قفز واقفاً، رمى السيجارة، وداسها.

قال صدام حسين:

ـ لنتجولْ قليلاً.

أراد أن يمشي ويتنفس بعض الهواء ويقف عند ضفة دجلة. أراد أن يرى النهر وأن يراقب أفكاره تجري أمام عينيه. أراد في الوقت ذاته ألا يرجع إلى البيت الآن. ساجدة زوجته حامل للمرة الثانية. ما يحتاجه الآن جولة شطرنج. لكن ليس مع العقيد البكر. قال للسائق:

ـ إلى بيت الرفيق عبد الخالق... السامرائي.

ابتسم بينما يترجل من السيارة. غداً سوف يقرأ اسم صدام حسين

في تقرير ناظم كزار المرفوع إليه. كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف. ليل بغداد بدا مشتعلاً بمصابيح الكهرباء وبشاشات التلفزيون المتوهجة عبر النوافذ الكبيرة. الحارسان الجالسان في مدخل الحديقة يشربان الشاي، ويستمعان إلى «إذاعة بغداد»، انتصبا وأدّيا التحية الحزبية.

صافحه الرفيق عبد الخالق السامرائي بأصابع ملطخة بالحبر. كان يكتب نشرة حزبية جديدة عن العلاقة بين البعث والأحزاب الشيوعية العربية. وُضعت طاولة الشطرنج. إلى جانبها القهوة المرّة السوداء وجاط من العنب الأحمر والإجاص الحلو والتفاح اللبناني المستورد.

قال عبد الخالق السامرائي ضاحكاً:

- كأننا في القاووش ٩- ب.

أجابه صدام حسين:

- ولكن بلا زحمة.

قال السامرائي:

- تماماً.

بينما يغرز المفتاح في قفل باب البيت عند الثانية فجراً أدرك صدام حسين أن ما يحتاجه لا علاقة له بالمشي أو بدجلة أو بالشطرنج. نور الصالون مضاء. لكنه يعلم أن ساجدة نائمة. تترك المصباح مشتعلاً له. وضع مسدسه على طاولة المطبخ وأخرج قنينة ماء من الثلاجة. هذه المياه لن تروي عطشه. يعرف الآن ماذا يريد. تأخر طويلاً قبل أن ينتبه. تمدد في حوضٍ من المياه الباردة. إلتف بمنشفة ثم جلس في كرسي الخيزران الهزّاز يدخن ويشرب البيرة. الوقت قليل والخطط لا تُحصى. أما رغباته فعليها أن تنتظر. كل شيء يجب أن يتبع الإرادة وليس العكس. الرغبات تقدر أن تنتظر... إلى وقتٍ مناسب. كان يجرع قنينة البيرة الثالثة. وضعها أرضاً في نصفها. هذه رغبات أيضاً.

أطفأ السيجارة. جلس في النور المتسرب عبر زجاج الصالون المحجر حتى طلع شعاع الشمس عليه.

في خريف ١٩٦٧، أثناء حفلة ليلية صاخبة في فيلا في قلب بغداد يملكها تاجر الأقمشة الأرمني هاروت، التقى صدام الشقراء اليونانية كرستين كازانتزاكيس. كانت هناك مع أبيها، مهندس يعمل في مشروع لأنابيب النفط العراقي. أخبرته عن مدرستها في بيروت. كانت ممتلئة الجسم، في الثامنة عشرة، والوبر الأشقر الناعم يغطي كامل بشرتها. سألها صدام حسين هل أحبت بغداد. قالت إن الرجال هنا أقسى من الرجال اللبنانيين. ابتسم صدام حسين ووضع مزيداً من فراخ السمك المقلية في صحنها. أخذ رشفة من كوب العرق وأشعل سيجارة. ثم ضغط على يدها الطرية بأصابع الصدف البحري المشبعة برائحة التبغ، وقال لها محدقاً في عينيها بنظرة جامدة:

ـ ستكونين لقمة السمّاك الليلة.

الشقراء اليونانية كرستين كازانتزاكيس تذكرت بعد سنوات طويلة تلك الليلة الأولى للقاء الأول بالرجل الذي بدّل مجرى حياتها صدام حسين، وقالت إنها كانت لا تعرف شيئاً عن العالم آنذاك.

برزان التكريتي كان جالساً في الجانب الآخر، وعينه عليها.

صدام حسين قال لأخيه غير الشقيق برزان:

ـ لا تلمسها، إنها لي.

كرستين ارتجفت أمام العبارة الصلبة كالفولاذ، المسنّنة كشفرة جرّاح. برزان التكريتي في المقابل ابتسم بلا أي تعليق ثم حمل صحنه وكأسه وانتقل إلى الطرف البعيد من المائدة. لم يكن بلغ العشرين بعد، لكنه أيقن منذ بدأ يعمل في «حنين» قبل سنة ونصف تقريباً تحت جناح أخيه غير الشقيق صدام حسين، أنه لن يكون سعيداً في هذا

العالم إلاّ إذا رضي عنه هذا الرجل صاحب الصوت الجليدي. طيلة تلك السهرة لم يوجه برزان التكريتي نظرة واحدة أخرى إلى المراهقة اليونانية الضاحكة ذات الشعر الذهب المسترسل والجسم السمين الممتلئ بالاستدارات.

في الأسبوع الثاني من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٧، جاء برزان مع أخيه سبعاوي إلى الكرخ وقابلا رئيس أمن البعث صدام حسين في مركز الحزب الذي يبعد ثلاثة شوارع عن بيته وأربعة شوارع عن بيت الخال خير الله طلفاح. صدام سألهما عن أمهما صبحة وأبيهما حسن إبراهيم. سبعاوي بدا رجلاً صلباً رغم سنواته القليلة: حين رُمي في السجن قبل سنوات كان في الثالثة عشرة أو الثانية عشرة! برزان جمع في وجهه الصلابة والمكر. صدام حسين لم يتذكر عندئذٍ ذلك اللقاء في عتمة «زقاق روجينة مراد». برزان لم يذكر اللقاء المربك أيضاً. هذا زمن آخر. هذه حياة أخرى. الوقت يُبدل العالم بلا توقف. بلا لحظة راحة. بعد كلمات قليلة ـ كان سبعاوي يطلب عملاً في مطبعة الحزب أو إحدى التعاونيات التابعة للبعث أو أي مكان آخر، أما برزان فلم يحدد شيئاً بالضبط وظلّ معظم الوقت صامتاً، ينظر إلى صور على الحيطان أو إلى مسلحين يدخلون ويخرجون حاملين صناديق ذخيرة ـ وقف صدام حسين، أبعد كرسيه إلى خلف، نظر مرةً إلى سطح المكتب المغطى باللوائح والأسماء، ثم قال للشابين القادمين من بيت أمه في تكريت:

ـ أريدكما معي.

طوال ربيع ١٩٦٧ لم يتنفس برزان نَفَساً واحداً إلاّ بإذن من أخيه غير الشقيق رئيسه صدام حسين. صدام حسين في المقابل لم ينتبه إلى وجود برزان الدائم إلى يساره إلاّ مرة واحدة طوال تلك الشهور الملبدة بغيوم الرمل والغبار: في الثالث من نيسان (أبريل) ١٩٦٧، قبل ثلاثة

أسابيع من بلوغه الثلاثين، كان صدام حسين خارجاً من متجر جديد للحزب في شارع الرشيد حين أطلق عليه مجهولٌ رصاصتين ثم لاذ بالفرار. الرصاصة الثانية طاشت وكسرت إشارة ضوئية قريبة. الأولى استقرت في كتف مرافقه: برزان.

تلك الليلة اجتمع صدام حسين مع العقيد البكر وأعلمه بالخطة الجديدة. العقيد البكر بدا متردداً. قال صدام: ·

ـ لن تقرأ الأخبار إلاّ في صفحات الحوادث.

الحادث الأول وقع بعيداً من العاصمة. الضابط الشيوعي إحسان الجادرجي ـ المعروف بصداقاته الغريبة مع بعض الأوساط البعثية والناصرية ـ لقي حتفه على طريق الموصل ـ كركوك حين انحرفت سيارته عن مسارها. بعد ثلاثة أسابيع على هذا الحادث قضى الرقيب البعثي رفعت شيرزاد بانفجار قارورة غاز في منزله في الرصافة. في ٢٦ أيار(مايو) ١٩٦٧ هوّت لافتة نيون ضخمة على رأس النقيب البعثي غازي السعدون أثناء عبوره الشارع الذي يحمل اسم سلفه محسن السعدون، فانفتحت جمجمته وقُتل على الفور متفحماً بشرقطة الكهرباء. الصحف استعادت ـ بحسٍّ تاريخي مناسب ـ الغموض الذي أحاط بانتحار رجل الاستقلال محسن السعدون (صاحب التمثال الشهير في مدخل الشارع)، وتحدثت عن لعنة الأقدار التي تطارد السلالة. أحد كُتاب العواميد انتقل من لعنة الأقدار إلى الحديث عن «لعنة الفراعنة» ومقبرة توت عنخ آمون والرصد المسحور الذي يحمي أهرام خوفو وخفرع ومنقرع من لصوص الآثار القادمين من اللوفر والمتروبوليتان والمتحف البريطاني.

كل هذه الحوادث توقفت دفعة واحدة حين حدث ذلك الأمر العجيب الذي أعاد خلط الأوراق في كامل منطقة الشرق الأوسط: «حرب الأيام الستة». في الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ شنت

إسرائيل حرباً ساحقة على ثلاث جبهات: مصر، سورية، والأردن. هزمت الجيش المصري وانتزعت شبه جزيرة سيناء. هزمت الجيش السوري واحتلت مرتفعات الجولان. وهزمت الجيش الأردني (مع لواءٍ عراقي يسانده) وسيطرت على الضفة الغربية والقدس الشرقية. كان نصراً خاطفاً مخيفاً. مقاتلات جيش الدفاع الإسرائيلي حطمت طائرات سلاح الجو المصري في المطارات العسكرية المصرية. بعد تدمير القوة الجوية المصرية تحولت رمال سيناء مقبرة للدبابات ولآلاف الجنود الهاربين. عقب هذه الحرب سيطرت إسرائيل على سماء الشرق الأوسط.

في بغداد تحلق الناس حول الراديوهات يستمعون إلى صوت العرب من القاهرة، والمذيع الأسطوري الحماسة أحمد سعيد يعلن انتصار العرب على إسرائيل وتساقط الطائرات الإسرائيلية كالذبان من سماء القاهرة برصاص المضادات الأرضية وبصواريخ الطيران المصري المقاتل الشجاع. عبد الحليم حافظ ينشد: «خلي السلاح صاحي صاحي صاحي». أحمد سعيد يؤكد: عشرات الطائرات الإسرائيلية سقطت، ٣٧، ٣٨، ٣٩ طائرة للعدو سقطت. ولم تسقط مقاتلة مصرية واحدة. دام الانتصار ساعات. العراقيون احتفلوا في الشوارع: خزانات النفط تحترق في تل أبيب. أربعة جيوش عربية تزحف على عاصمة الكيان الصهيوني. اللواء العراقي غادر عمان على جناح السرعة، وفي عملية تكتيكية خاطفة عَبَر نهر الأردن إلى الضفة الشرقية وبات على أبواب القدس الغربية. اليهود يرمون أجسادهم في البحر. اليوم، في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧، يثأر العرب لهزيمة ١٩٤٨. اليوم تتحقق العدالة ويزول الغرباء عن الديار المقدسة. أربعة جيوش عربية باسلة تصنع مرة أخرى ما صنعه صلاح الدين الأيوبي (ابن العراق) قبل قرون بعيدة. اليوم، في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧، يشهد الشرق معركة حطين الثانية.

الاحتفالات لم تستمر طويلاً. إذاعة صوت العرب من القاهرة فقدت حماسها رويداً رويداً. الاحتفالات توقفت قبل ذلك. الإذاعات الأجنبية وأخبار الوكالات الغربية تتحدث عن مسارٍ آخر للحرب الجارية. يبدو أن سلاح الجو المصري دُمِّر على الأرض ولم يُعطَ فرصة المشاركة في المعارك الجوية. يبدو أن جيش الدفاع الإسرائيلي اخترق الجبهة السورية وسيطر على هضبة الجولان ذات الموقع الاستراتيجي. يبدو أن نهر الأردن اعتكرت مياهه فعلاً بالأحذية العسكرية وجنازير المدرعات، لكن الأحذية لم تكن أردنية ولا عراقية، والمدرعات كانت تحمل نجمة اليهود المسدسة. ولكن أغرب ما يقال هو ما يحدث في سيناء: ألوية الدبابات المصرية التي كانت على مشارف تل أبيب، استدارت متراجعة إلى خطوط دفاع خلفية. آلاف الجنود ينسحبون تحت شمس الصحراء بلا أي غطاء جوي. يبدو أن الطائرات الإسرائيلية تحصدهم بالنار. يُقال إن الصحراء باتت مسرح قتل لا يُحد. الرمال تغطيها دبابات محترقة، مدرعات يتصاعد منها الدخان، سيارات عسكرية متفحمة، وآلاف الجثث. الأسود يغطي رمل الجزيرة الصحراوية الصفراء.

الرئيس المصري جمال عبد الناصر يعلن استقالته بعد النكسة التي أصابت مصر والعرب. الحشود تنزل إلى الشوارع. في بغداد أيضاً تعمّ التظاهرات. حزب البعث يتحرك. في أوكار الكرخ والرصافة والكاظمية والأعظمية، كما في أوكار الموصل والبصرة وكركوك، تنشغل الكوادر البعثية برسم اللافتات وتأليف الشعارات.

في ذلك الصيف البعيد من عام ١٩٦٧ عاش صدام حسين مرة أخرى لحظات قديمة: عاش تظاهرات ١٩٥٦ التي أعقبت العدوان الثلاثي على مصر. لكنه في هذه المرة كان سيد التظاهرات. هذه المرة كان «البعث» هو المركز. صدام حسين قال في اجتماع طارئ عامٍ لعناصر جهاز الأمن:

ـ وظيفتكم ليست الصراخ ورفع شعارات «البعث» فوق كل شعار آخر. هذا يفعله أي بعثي. مهمتكم أهم وأخطر: أن تراقبوا أصحاب الشعارات الأخرى، وأن تحاصروهم.

خلال صيف الهزيمة، والخريف الذي أعقبه، تكسَّرت الأشجار في «حديقة الأمة»، شوِّهت الشعارات التماثيل والنصب والجداريات، احترقت عربات مدنية وعسكرية، وعمّت الإضرابات المدارس والمصالح الحكومية. المتظاهرون طلبوا الاستقالة الفورية لرئيس الحكومة طاهر يحيى، ووجهوا هتافات معادية إلى الرئيس عبد الرحمن عارف ذاته. «البعث» استغل الشعور الفظيع بمرارة الهزيمة أمام إسرائيل، وحَشَدَ الجماهير في صفّه: كان علينا أن نشارك بألوية مدرعة في الحرب. لماذا بقيت طائراتنا المقاتلة في مطار الرشيد ولم تهب للإغارة على تل أبيب؟ ما قيمة جيش لا يحارب عدو الأمة؟ كيف نترك فلسطين لليهود؟

في «ميدان التحرير» تحولت تظاهرة حاشدة ذات أصيلٍ خريفي إلى عراكٍ دموي بالعصي والمضارب. وحدات «حنين» الخاصة حاصرت مجموعة شيوعية في قلب التظاهرة ودفعتها تدريجياً إلى طرف الحشد، إلى زاوية قريبة من متجرٍ للأدوات الكهربائية. ما لم ينتبه إليه عناصر «حنين» ـ الآتون من الأهوار ببشرة أحرقتها شمس المستنقعات الحامية ـ هو الاختلاف التكتيكي بين أسلوب صيد السمك وأسلوب صيد البشر. السمكة لا تملك أن تصيد صاحب صنارة أو شبكة أو إصبع ديناميت. رجال الأهوار عجزوا ـ في ذلك الأصيل الرطب ـ عن التنبه لهذا الفارق. أمام متجر الأدوات الكهربائية، بينما يُخرجون الشفرات من جيوبهم، ويطبقون على الشيوعيين ـ الذين وقعوا في الفخ بين الجدار البعثي الأمني وبين الواجهة الزجاجية الضخمة بالغسالات والبرادات والتلفزيونات المعروضة وراء شبك الحديد ـ انتبه عناصر

جهاز «حنين» إلى تكشيرات غريبة على وجوه ضحاياهم. ليست هذه تكشيرات حيوانات خائفة! في اللحظة ذاتها لاحظ الأخوان الصيادان يونس وموسى الخيّون (عبد الكريم الشيخلي ـ الذي قرأ الجزء الأول من «تاريخ الطبري» خلال سنة قضاها في «جامعة القاهرة» طالباً دارساً للتاريخ ـ يسميهما عيسو ويعقوب)، لاحظا بالنظرة الثاقبة التي تميّز عشيرتهما، حركة مريبة تنعكس على الواجهة الزجاجية. التفتا إلى خلف في اللحظة ذاتها: مجموعة مؤلفة من ثلاثين أو أربعين شيوعياً انفصلت عن التظاهرة المبتعدة في الشارع وتحركت في اتجاه متجر الأدوات الكهربائية مسلحة بالمضارب والعصي والشفرات. هكذا وقع جهاز «حنين» في فخِ شيوعي فتّاك.

بعد تلك المعركة بات شعار «حنين» واضحاً:

ـ أمامنا عدوان: الشيوعيون والرئيس عارف.

الأخوان الصيادان يونس وموسى الخيّون حاربا كوحشين. بدأت المعركة على الرصيف العريض وانتهت داخل المتجر الكبير. تحطمت الواجهة الزجاجية في دقيقة. شبك الحديد صمد عشر دقائق قبل أن يتمزق وتتفكك مفاصله ويهوي تحت ثقل الأجساد الضخمة المتدافعة. المعركة تلقت خلال لحظات موجات جديدة انفصلت عن التظاهرة الأم. بعد أن مزقت شفرة خده الأيمن استدار يونس الخيّون الأهواري حاملاً مروحة وهوى بها على رأس مهاجمه. المهاجم النحيل المرن تجنب الضربة ثم مزق خد يونس الأيسر بطعنة مائلة من شفرته الحمراء. الأخ الأكبر موسى الخيّون الأهواري تقدم عندئذٍ في خطوتين ثقيلتين وأسقط غسالة يرفعها فوق رأسه على جمجمة المهاجم الشيوعي اللين الجسم السريع الحركة. حين وصلت قوات الأمن كان المتجر مغطى الأرض بالأجساد المدماة والآلات المحطمة. على الرصيف تابع رجلان التلاحم بأسنانهما والأظافر. بعد سنوات طويلة، أثناء تنفيذهما

مهمة أمنية في بروكلين ـ نيويورك، تذكر الأخوان الصيادان يونس وموسى تلك المعركة الكهربائية المريعة مع الشيوعيين في خريف ١٩٦٧ البغدادي، وأحسّا بينما يتفرجان على تلفزيونات ضخمة لامعة في متاجر «جيفرسون ستريت» أن الزمن لا يمضي إلى الأمام كما يحسب الناس عموماً، بل هو يدور في حلقات مفرغة إلى ما لا نهاية. تلك الليلة طاردا رجلاً عراقياً من بروكلين إلى الجادة الخامسة في مانهاتن. تعقباه من بعيد، من دون أن يشعر بهما، وكانا يخطوان على الأرصفة بالخفّة ذاتها التي تميّز حركة الصياد في مركبٍ ساكن على صفحة مياه راكدة. طوال السنوات الفائتة اعتادا هذه المدن الضخمة: لندن، باريس، برلين، هونغ كونغ، شيكاغو، جوهانسبرغ، بوينس أيرس، سيدني، موسكو، ملبورن، مكسيكو سيتي، ريو دي جينيرو، أوتاوا، براغ، ميتشيغان... كان العالم كلّه، بقاراته الخمس، ساحة الصيد الجديدة. عام ١٩٧٤، بعد أن أخرجهما «رجل بغداد القوي» من السجن، نفذا العملية الأولى لجهاز الإستخبارات «حمورابي»، الخاص بالعمليات الخارجية. في تلك المهمة غادرا بغداد إلى بومباي يصحبهما ثلاثة رفاق آخرون. بين ١٩٧٤ و١٩٨٣ نفذا ١٦ عملية في آسيا، ٧ عمليات في إفريقيا، ٣ عمليات في أستراليا، ٢٧ عملية في أوروبا، ٥ عمليات في أميركا الشمالية، و٤ عمليات في أميركا الجنوبية. الأسفار الدائمة زادت خبرتهما في الحياة ولقّنتهما كلمات كثيرة في لغات أجنبية. يونس، الأصغر، كان الأسرع فهماً بينهما. موسى، الأكبر، كان الرجل القادر بأصابعه على تكسير رقاب سبعة أشخاص في سبع ثوانٍ. كان يحزم خصره على الدوام بحزام جلدٍ عريض لئلا تنفتح سرة بطنه حين يحمل أثاثاً ثقيلاً يرمي به ضحاياه. يونس اعتاد حفظ القواميس بينما يحلقان فوق المحيطات. عام ١٩٧٥، في رحلتهما الأولى إلى ما وراء الأطلسي، حفظ يونس في تسع

ساعات تسعين صفحة من «قاموس المورد إنكليزي ـ عربي» طبعة دار العلم للملايين، بيروت. لم يفده الأمر كثيراً في تلك الرحلة: هبطت الطائرة في مطار كينيدي عند السادسة مساء بالتوقيت المحلي. كان في انتظارهم ديبلوماسي عراقي من القنصلية. صباح اليوم التالي نفذا المهمة. عند الظهيرة حملهما الديبلوماسي ذاته في سيارة القنصلية إلى المطار نفسه. غادرا أميركا قبل أن يلفظ موسى كلمة إنكليزية واحدة. يونس، في المقابل، الذي حفظ كل ما حفظه وليم شكسبير من كلمات تبدأ بحرف A، إضافة إلى حفظه نصف الكلمة الإنكليزية التي تبدأ بحرف أول هو B يليه حرف ثان هو a، يونس المرتبك بالكلمات اللانهائية التي زحمت دماغه وجد نفسه يُحدث أخاه طوال الوقت بكلمات غامضة. بينما يعبران «السنترال بارك» رأى طفلاً في عربة، وحين انطلقت السلسلة القاموسية في دماغه، قال لأخيه موسى: Baby ومعناها طفل طفلة رضيع، أصغر أفراد الأسرة أو الجماعة، شخص يتصرف كالأطفال، فتاة، امرأة. موسى من جهته كان منشغلاً بمراقبة فتيات ممددات على عشب أخضر عند حافة البحيرة في ثيابٍ قليلة تكشف أجسادهن للعيون. يونس الغارق في ذاكرة مقسمة إلى كلمات مطبوعة بحرف أسود سميك وأخرى مطبوعة بحرف أبيض رفيع انتقل من Baby إلى Baby blue-eyes الناموفيلة، زهرة الأحراج، عشب أميركي ذو زهرة أزرق مرقش بنقط داكنة، لا ينمو كما يبدو في «السنترال بارك»، هذه الحديقة العامة المستطيلة التي تتوسط مدينة ناطحات السحاب، ومن الناموفيلة ذهب إلى Baby Farm: المحضن، موضع للعناية بصغار الأطفال لقاء أجر، ثم Baby hood أو الطفولة، سنّ الطفولة، و Babyish طفلي، صبيانيّ، وبعد Babyish تأتي الكلمة التي يحبّ: Babylon. موسى الذي يحدّق إلى فتاة تفرك ظهر فتاة أخرى بزيت البحر تلقى ضربة في وركه عندئذٍ. أخوه الأصغر يونس يريده أن يسمع. اسمعْ هذه الكلمة: Babylon مدينة بابل،

مدينة كبير منغمسة في الترف والإثم، و Babylonian مثلي ومثلك ومثل الأجداد، البابلي، أحد أبناء بابل، البابلية، اللغة البابلية، بابلي، مترف، آثم. كانت الساعة تقارب الواحدة ظهراً. جلسا على مقعد خشب أخضر وأكلا سندويشات بالجبن زوّدهما بها رجل السفارة ملفوفةً في كيسٍ ورقٍ. قبالتهما أولاد يشترون سندويشات من رجلٍ يقف وراء عربة بيضاء. يفتح السندويشة في كفٍ ثم يخرج قطعة لحم طويلة بملقط معدن من العربة، وينفض المياه عن قطعة اللحم ثم يغرزها في السندويشة، ويفرغ فوقها سائلاً أصفر ثم سائلاً أحمر، ويلفّها في ورقة مربعة بيضاء ويدفعها للزبون. تلك معرفة سوف تتأتى ليونس قبل سنين من بلوغه الصفحة ٤٣٦ في قاموسه: Hot dog، سندويشة سجق (نقانق) ساخن، وبعدها مباشرة Hotel فندق، أوتيل. عند الثالثة بعد الظهر وقفا مقابل Hotel Plaza Athenee. بعد ساعة بالضبط ظهر الرجل المطلوب خارجاً من البوابة المحاطة بظلّات حمراء: سلامة خير الدين، رفيقهما القديم، الرجل الذي كان رابعاً في جهاز «حنين» بعد صدام حسين وناظم كزار وخالد عبد الشافي خلال تلك السنة البعيدة العاصفة التي شهدت هزيمة العرب أمام إسرائيل. سلامة خير الدين، في بذلة سوداء بمنديل أبيض أنيق ظاهر من الجيب العلوي، أخرج ديناراً (دولاراً) من جيبه ودفعه إلى البوّاب. البوّاب رفع قبعته ثم يده طالباً سيارة تاكسي. بينما يده مرفوعة في الهواء رأى البوّاب رجلين متشابهين يقطعان الشارع باتجاهه. لم يفهم ماذا يحملان أمامهما. كان نظره ضعيفاً. ثم رأى وهجاً أصفر كنارٍ تشتعل في فرن. وسمع الصرخات. الرجلان ما لبثا أن اختفيا وراء زاوية الأوتيل Hotel. يونس قال في الطائرة التي حملتهما إلى باريس في طريق العودة إلى الوطن أن الرفيق سلامة بدا على وشك البكاء حين أبصرهما وتعرف على وجهيهما. الأخ الأكبر موسى أثبت عندئذٍ أنه صاحب دماغ هو أيضاً. قال باسماً لأخيه الصغير: «Baby، الرفيق سلامة

المرحوم Baby». يونس ربّت على فخذ أخيه الأكبر، وأحسّ بالنعاس بينما يرشف كوبه الصغير الرابع من النبيذ الأحمر الفرنسي. حين استغرق في النوم كانت البوينغ ٧٤٧ تحلق فوق القنال الإنكليزي. عالياً آلاف الأقدام فوق صفحة الأرض رأى يونس الأهواري أنه يغرق في مياه صاخبة وأن سمكة كبيرة زرقاء تقترب منه فاغرة الفم. أبعدها بحركة من ذراعه كادت تسقط الكوب عن الصينية، فرأى أنه لا يغرق في الماء، ورأى أنه يغرق في سائل أحمر وفي نثار من زجاج. فتح عينيه فأبصر راديو مكسوراً، أشرطة كهرباء، ترانزستورات، ورأساً مدمى في قلب غسالة محطمة. وجه الرفيق القديم الباكي أعاده في المنام إلى ذلك الخريف البعيد المملوء بالتظاهرات والمعارك والصراخ.

قوات الأمن حملت الجرحى من متجر الأدوات الكهربائية إلى السجن. الجزء الأكبر بينهم بعثيون. المخفر كان أضيق من أن يتسع لكل هؤلاء. بعد سبعة أيام خرج الأخوان الصيادان من الحبس. طوال أسبوعين احتفظ الأخ الأكبر موسى بذراعه اليمنى في قالب جفصين. الندبتان المتشابهتان على خدّي يونس سوف تسببان له طوال حياته الباقية (وسوف تكون حياة طويلة حافلة بمرايا الفنادق والمغامرات) حكاكاً مزعجاً، حكاكاً يتضاعف إذا لم يحلق ذقنه حلقاً ناعماً صقيلاً مرتين كل يوم.

قبل أن ينتهي خريف ١٩٦٧ الغاضب، كان صدام حسين الهادئ كبركانٍ خامدٍ، قد مدّ أطراف الأخطبوط الذي سمّاه «حنين» إلى العمادية والخابور وزاخو في الشمال، إلى السليمانية وحلبجة وخانقين والمقدادية في الشرق، إلى وادي الغدف والرطبة وجبل عنيزة في الغرب، وإلى السلمان وبصية وشطّ العرب والفاو في الجنوب. كانت التقارير المخابراتية تصل من جهات البلاد الأربع إلى الوكر المركزي في الكرخ. كل صباح كان يُعقد اجتماع يرأسه صدام حسين ويحضره

ناظم كزار وخالد عبد الشافي وسلامة خير الدين. في فترة لاحقة انضم إلى الأربعة عدنان خير اللّه طلفاح وبرزان التكريتي وفهمي سعيد وعبد الكريم الشيخلي وزياد مجيد موسى وعزت إبراهيم وعباس السنجاري من جبل سنجار عند الحدود الشمالية مع سورية. لم يصل كرديٌ إلى هذا المجلس القيادي المصغر لجهاز «أمن البعث» قبل مرور سنة أخرى: نزار وهّاب دربندخان لم يلبث أن جَنَّد في «حنين» بين ١٩٦٩ و١٩٧٥ ـ في عزّ حرب السلطة العراقية المركزية على المتمردين الأكراد ـ ٧٢ عنصراً كردياً توزعوا على شقلاوة وكركوك وقلعة دزة والسليمانية وأربيل وجمجمال. في الوكر المركزي في الكرخ وزع صدام حسين وقته بالتساوي بين ثلاث مهمات: المهمة الأولى تعزيز جهاز «حنين» بالعناصر وبالسلاح وأرشيف للمعلومات. المهمة الثانية إدارة التظاهرات والإضرابات في البلاد بالتنسيق الكامل مع باقي أعضاء «القيادة القطرية». (عند نشوب خلاف بين الأعضاء، عليه الاكتفاء بالتنسيق مع الأمين العام). المهمة الثالثة جسّ نبض كبار ضباط الجيش العراقي في شأن خطة انقلابية على الرئيس عبد الرحمن عارف. هذه المهمة الثالثة كان يقودها عندئذٍ مجلس ثلاثي من الحزب: العقيد البكر، حردان التكريتي، وصدام حسين نفسه.

خلال وقتٍ قصير اكتشف صدام حسين أن العمل المخابراتي لا بدَّ أن يتركز في المدن الكبرى. إرسال العناصر إلى أطراف البلاد مزودين بخرائط طرق تخترق الصحاري والجبال والوديان إلى قُرى نائية تقع خارج حدود العالم الواقعي لن يفيد «حنين» شيئاً. ناظم كزار اقترح إنشاء أوكار أمنية متفرقة: وكر في كل مدينة، وكر في البصرة مثلاً، وكر في الكوفة، وكر في الرطبة، وكر في الموصل... وتكون هذه الأوكار جميعاً متصلة بالوكر المركزي في بغداد وتابعة له. صدام حسين أمره بتنفيذ الخطة فوراً، ثم أطفأ سيجارته وغادر إلى بيته بعينين معتمتين.

رياح أول الشتاء تُحرك وخزاً في جرحه القديم. في البيت جلس أمام منقل نحاس حُفر عليه هلالٌ اسطنبولي واسم السلطان عبد الحميد. كان الجمر يتوهج عبر الثقوب.

اكتشف بينما يشرب قهوته السوداء المرّة بالحليب البارد، أن كرسي الخيزران الهزّاز بات يطقطق حين يسترخي فيه، يطقطق كأنه يتكسّر. اكتشف عقب مرور لحظة أخرى أن أوصاله هو أيضاً ليست بخير. مع العطسة الأولى أدرك أن رشحاً أصابه.

تلك الليلة، بعد حمامٍ ساخن، تمدّد صدام حسين عارياً في فراشه وترك زوجته ساجدة تُدلّك جسمه بالزيت. دلّكت ظهره وعنقه وساقيه. حين انقلب كي تدلّك صدره وبطنه رأت ساجدة خير اللّه طلفاح تلك النظرة المظلمة في عينيه الواسعتين. ارتجف جسمها وهي تُدلّك بطنه. بعد ساعة كان غارقاً في نوم عميق. ساجدة لم تنم تلك الليلة. أقفلت على نفسها باب الحمام وبكت حتى ظهرت شرايين حمراء في عينيها. حين أبصرت احتقان تلك الحمرة تحت الرموش خافت. غسلت عينيها وذهبت إلى المطبخ وصنعت شاياً. كانت تتحرك على رؤوس أصابعها وهي تحضن بطنها الكبيرة باليدين الاثنتين.

بينما صدام حسين يغرق في نومٍ عميق، جلس الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف في فراشه في القصر الرئاسي مرتجف الأطراف من البرد. كل نيران الحطب في العالم، كل أدوية الأطباء، كل بطانيات الصوف الهندي والفارسي، لن تجلب الدفء إلى جسمه الآن. لم يعد شاباً. ليس عجوزاً لكنه لم يعد شاباً.

لمس جبهته بكفٍ مفتوحة وقاس حرارته. كان وجهه يشتعل. أضاء المصباح على الكومودينة ونظر إلى الهاتف الضخم. لن يرنّ. لا لن يرنّ. قرب الهاتف كوب الويسكي، مكعبات الجليد تذوب في جوفه ببطء. رغم نار الحطب يحسّ الهواء أبيض من الصقيع. كأن

الصقيع يتسرب من جوفه ويملأ العالم برداً. لكنه ساخن كالنار. حرارته أربعون والبرد يُثلج أعضاءه في آنٍ معاً. لم يعد شاباً. وكل هذا الكحول الذي سال في جسمه منذ أن دخل الكلية الحربية عام ١٩٣٦ تحوّل خشباً في العروق، وزجاجاً في الكليتين. تلك السنوات (كم كان عمره؟ كان بلغ العشرين للتو!) مضت، تلاشت، مثل قطار ذاهب في الاتجاه المعاكس لخط حياته، مرّت الأعوام، أبداً لن تعود. ليس عجوزاً، ما زال في الواحدة والخمسين، لكن الطاقة تغادر جسمه.
حين انضم إلى تنظيم الضباط الأحرار في مطلع ١٩٥٧ قال له أخوه المشير عبد السلام الذي يصغره بخمس سنوات إن عليه أن يكون جريئاً الآن. ابتسم عبد الرحمن ولم يقل شيئاً. أواخر ١٩٥٧ اكتشف عبد الرحمن عارف أنه لم يصبح جريئاً بعد. اللجنة العليا للتنظيم أعدت خطة انقلابية تُنفذ في ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨، يوم استعراض الجيش. عبد الرحمن عارف رفض تنفيذ الخطة بحجة عدم وجود ذخيرة كافية. بعد خمسة أسابيع أقدم الأخ الأصغر ـ عبد السلام ـ على تنفيذ ما عجز عنه الأخ الأكبر عبد الرحمن. ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ التي أنهت حقبة الملكية في العراق، بدت لعبد الرحمن عارف قطعة غامضة أخرى في حياةٍ غريبة مهتزة مثل قاربٍ رجراج وسط ضباب الويسكي السكوتلندي ورائحة اليانسون المنبعثة من العرق الزحلاوي. في مرحلة أخرى، بعد الخلاف الذي نشب بين أخيه المشير عبد السّلام وبين حليفه القديم عبد الكريم قاسم، نُقِل عبد الرحمن عارف مع وحدته إلى الحدود الأردنية. هناك اكتشف العرق التونسي المقطر من التين، لا من العنب، ولا من رطب النخيل.
حين أحاله الرئيس عبد الكريم قاسم على التقاعد في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٦٢ أحسّ براحة عميقة. كان يفكر في الانتقال إلى أسطنبول. أحد رفاقه القدماء، من أيام الكلية الحربية، يعيش في تركيا. عنده تجارة وبيوت ودكاكين. يذهب إلى العاصمة العثمانية ويضيع في

متاهة شوارع وحمامات وخمارات. كان حلماً كاملاً ينتظر عند أطراف الأصابع. أخوه عبد السَّلام عارف أخبره عندئذٍ أن عبد الكريم قاسم إلى زوال. في ٨ شباط (فبراير) ١٩٦٣ أدرك عبد الرحمن عارف أن حلمه تبدّد كسحابة صيف. بعد نجاح الانقلاب على قاسم عيّنه الرئيس الجديد ـ أخوه الأصغر عبد السَّلام ـ قائداً للفرقة الخامسة. عند خروج «البعث» من السلطة بعد تسعة أشهر عيَّنه الرئيس العتيد ـ أخوه الأصغر ـ رئيساً للأركان. في موقعه الجديد رئيساً للأركان تمدّد عبد الرحمن عارف في أحواض فاخرة موزعة على قصور بغداد وضاعف كثافة الضباب الكحولي حول رأسه وعينيه حتى كاد يغرق في لهب البخار. أيقن عندئذٍ أنه محكوم بحياةٍ لا يريد أن يعيشها. لكنه حدَّث نفسه أيضاً أن العذاب انتهى. الرئيس العتيد عيَّنه رئيساً للأركان، وبهذا بلغ قمة الهرم. لن يرفعه إلى أعلى مرة أخرى، لن يغمره بمزيدٍ من المسؤوليات، مزيدٍ من المقابلات، مزيدٍ من المؤامرات، مزيدٍ من التقارير، مزيدٍ من المؤتمرات، مزيدٍ من الاستعراضات، مزيدٍ من الإستشارات، ومزيدٍ من الاستقبالات! اللعنة! لكنه لن يستطيع أن يرفعه أعلى مرة أخرى. الآن عليه أن يتأقلم مع هذه الكرسي المدببة كخازوق، هكذا حدّث عبد الرحمن عارف نفسه، ضائعاً في أحزانه وشرابه طوال الفترة الممتدة من أواخر ١٩٦٣ إلى ١٣ نيسان (أبريل) ١٩٦٦. في ذلك اليوم الحزين استطاع الرئيس العتيد أخوه الأصغر عبد السلام عارف أن يفعلها به مرة أخرى: تحطمت طوافة الرئاسة على صخور بادية الشام فوجد عبد الرحمن عارف نفسه مضطراً للارتفاع درجة أخرى على سلم السلطة. الضباط اجتمعوا حوله ودفعوه إلى أعلى غصباً عنه. منافسه عبد الرحمن البزاز فاز عليه في دورة أولى من الاقتراع. لكن عبد الناصر أيضاً تدخل. مدّ الرئيس المصري ذراعاً قوية وساعد الضباط العراقيين على رفع عبد الرحمن. الرجل المتعب من البراندي التشيكي الجديد الذي وصله هدية، ومن الفودكا الروسية

التي أعاد اكتشافها أخيراً، لم يعرف ماذا يفعل. البزاز منافسه كان يخطب ويصيح. عارف الذي لا ينتابه السُكر ـ لأنه مقيم في أعماق الذهول الكحولي ليلاً نهاراً ـ استمع إلى كلمات البزاز المرتفعة النبرة كأنه يسمع فرقعة عجلات مطاطية في منام. خلال دورة الاقتراع الثانية، مع صيحات مشابهة لكن بعيدة هذه المرة ومائلة إلى الخفوت واليأس، انسحب البزاز. بعد ثلاثة أيام على رحيل الرئيس عبد السَّلام عارف بحادثة جوية، وجد عبد الرحمن عارف نفسه على التلفزيون رئيساً ثالثاً عتيداً للجمهورية العراقية. مع الموقع الجديد دخل في دوامة جديدة. مرة أخرى وجد العزاء والسلوى في المكان الغائم ذاته. يمضي الربيع ويتبعه الصيف. يمضي الصيف ويحلّ الخريف. «وها أنت في فصل الشتاء سيادة الرئيس». شرب ما بقي في كوب الويسكي وقال في سرّه إن الأمور يمكن أن تكون أسوأ دائماً. عطس، استخدم منديلاً مطرز الحواف، ثم رنّ الجرس الفضي الموضوع جنب الهاتف الضخم. قبل أن يضع الرئيس الجرس من يده فتح حارسٌ الباب ودخل. وقف في الباب المفتوح منتصباً، نور الخارج يؤطره بالأصفر الكهربائي، ثم أدى التحية العسكرية، وصرخ:

ـ أمرك سيادة الرئيس.

صيحته الحربية دوَّت في الغرفة الفسيحة الساكنة، وشقَّت رأس سيادة الرئيس إلى نصفين. أمسك عبد الرحمن عارف دماغه بين يديه وسأل نفسه أين عثروا على هذا الفتى العبيط، في أي قرية نائية مجهولة من قُرى الجبال؟

صدام حسين استيقظ في تلك اللحظة في فراشه في بيته في الكرخ. نظر إلى ساعته التي يتركها على الكومودينة خلال النوم، فوجد العقارب تشير إلى الثالثة والنصف فجراً. كانت عضلاته مشدودة ترتجف. حين رفع صوته ظهرت ساجدة في الباب.

التفّ بدثارٍ صوفٍ وجلس على كرسي الخيزران الهزّاز. المنقل أرسل حرارة على قدميه وساقيه. كل الإذاعات تبثّ الأغاني ذاتها. أطفأ الراديو.

وضعت ساجدة كوب الزهورات الساخن وحبّتي الدواء على الطاولة أمامه. كانت تتجنب أن يرى وجهها، وتتحرك في خطى شبه مواربة. حين اختفت من أمامه لم ينتبه. عيناه مفتوحتان لكنه لا يرى الأشياء في الغرفة والبيت. سمع أذان الفجر ولم يسمعه. انتبه إلى صمت بغداد الهائل في سويعات الفجر ولم ينتبه. رأى طيوراً على سلك كهرباء خارج النافذة ولم يرها. أحسّ ببرد الشتاء في عظامه ولم يحسّ. تذكر حواراً مع العقيد البكر قبل ليلتين ولم يتذكر. أزعجه طعم الزهورات الحلو ولم يزعجه. أوجعته عضلات ساقيه ولم توجعه. كان يحيا ليلة مرضٍ وأرقٍ وكان ميتاً في اللحظة ذاتها. تلمس البيجامة الصوف في موضع جرحه القديم، وحاول أن يُحدد هذا الإحساس بالوخز في كلمة: هل هو وخز حارق، وخز كالنار، أم العكس؟ أهو وخز مثلج، بارد كالجليد؟ لم يكن يعرف. هذا جرح عمره عشرة أعوام تقريباً، ترك ندبة لا يزيد طولها عن أصبع، لكنه ما زال يؤلمه كلّما دخل فصل الشتاء. ألقى صدام حسين رأسه إلى خلف. طقطق ظهر الكرسي. في البعيد البعيد عَبَر قطارٌ، كان صوتاً يقترب، يتعاظم. حديد العجلات على حديد السكة، وهدير المرجل، صوت يتصاعد في الليل، ثم يخفت، يبتعد، يتلاشى، كأنه لم يكن. لكن الصوت كان وخلّف أثراً. خلّف صدى كالكهرباء جعل كرسي الخيزران ترتجف. أحسَّ صدام حسين الارتعاشة في عموده الفقري. أيقن أنه يحتاج إلى أشياء كثيرة. أيقن أنه لا يملك شيئاً بعد. أيقن أن القوّة ليست في قبضته. . . ما زالت بعيدة، بعيدة وقريبة على أطراف الأصابع. كانت الحمى تحرق نخاعه ولم يجد خلاصاً آخر غير ذلك الخلاص القديم نفسه، الخلاص المنشود منذ اكتشف أن الإنسان يحيا

وحيداً ويموت وحيداً، وأن الحياة غابة وأن لا أحد يبقى على قيد الحياة فيها إلاّ إذا كان أشرس من الآخرين جميعاً. من دون أن يتحرك، جامداً تحت صوف البطانية الثقيلة، أحسّ جسمه يخترق العالم مثل ذلك القطار، يهدر متقدماً، إلى أمامٍ، إلى أمام...

الرشح المدمر تراجع بعد ٤٨ ساعة. صباح الأربعاء قرأ صدام حسين في مركز «حنين» ثلاث نشرات حزبية أثارت فضوله. لم يقرأ النشرات كاملة. قرأ العناوين العريضة والعناوين الفرعية والجمل الأولى والأخيرة. قرأ أيضاً توقيعين غريبين: «الرفيق مهدي» و«الرفيق حكيم». نادى ناظم كزار وسأله لماذا يكتب الرفيق عبد الخالق السامرائي نشرات الحزب بأسماء مستعارة. ناظم كزار أصغى إلى كلمات رئيسه ولاحظ نحول وجهه والإصفرار الذي يغطي بشرته. بعد قليل اختفى من أمامه. بقي صدام حسين وحيداً في نور مكتبة يقرأ أن الحزب الشيوعي علاوة على أنه حزب أجنبي يستمد سياسته وأهدافه من دولة أجنبية وينشر فكرة شعوبية تتنافى مع يقظة العرب القومية في الحاضر ورسالتهم القديمة الخالدة إنما هو بعيد كل البعد عن فكرة الانقلاب وعاجز كل العجز عن الاضطلاع بالمهمة الإنقلابية في البلاد العربية لأنه أصبح في الواقع لا يحلم بأكثر من أن يكون حزباً سياسياً انتهازياً يفوق الأحزاب والهيئات الأخرى في التضليل والتدجيل وفي الخنوع للواقع المنحط.

قرأ صدام حسين حتى زاغت نظراته. الكلمات بدت له شيفرة خطرة تخفي أسراراً ومؤامرات. الأحزاب الأخرى، التضليل والتدجيل، الخنوع للواقع المنحط. لم يحبّ الرسل والأنبياء يوماً. ما هذا الكلام الكبير الذي لا يسمن جائعاً؟ هل بات السامرائي يعتبر نفسه المهدي المنتظر؟ وأين أختفى هذا اللعين ناظم كزار؟

للتو ظهر ناظم كزار أمامه يحمل ملفاً مفتوحاً بين يديه. قال ناظم كزار إن كاتب النشرات ليس عبد الخالق السامرائي. صدام حسين

استغرب ذلك: خلال الإقامة في «القاووش ٩ـ ب» حفظ غيباً نظريات السامرائي حول القومية العربية وغربة النظرية الشيوعية عن الفكر العربي. لم يجد فرقاً كبيراً بين كلامه وكلام عفلق المعروف والمسجل في كراسات البعث. لكن السامرائي يتألق حين يتكلم في حلقات الرفاق. ليس السامرائي إذاً!

ـ ليس السامرائي ولكن رفيق متعلم من الذين يترددون على منزل السامرائي دائماً.

وقف ناظم كزار فاتحاً الملف وتابع الكلام:

ـ «الرفيق مهدي» أو «الرفيق حكيم» وأحياناً «الرفيق رفعت»:
سليمان حيدر ياسين عبد الرزاق. مواليد الرصافة ١٩٢٧. انتسب إلى البعث عام ١٩٦٠. قبل ذلك درس الطب في موسكو بمنحة من الحزب الشيوعي العراقي. هذا ملفه الكامل هنا.

سليمان عبد الرزاق كان جالساً عندئذٍ بين الرفوف في «مكتبة المثنى» في وسط بغداد يدخن غليوناً ويقرأ كتاباً إنكليزياً عن الملاحم السنسكريتية القديمة. ما كان يدري أن المقالات التي كتبها بطلبٍ من الرفيق عبد الخالق السامرائي قد وضعته في دائرة اهتمام رئيس «أمن الحزب» صدام حسين في تلك اللحظة بالذات. ولو عرف الأمر ما كان اهتم كثيراً. بالنسبة إلى هذا الرجل، الحياة رحلة غامضة، نقدر أن نفهمها لكننا لا نقدر أن نتحكم بمسارها. الحكمة هي فهم التيار ومسايرة جريانه قدر الممكن. الشجرة القاسية تكسرها الريح. العشبة اللينة تميل، وتنتظر، ثم تستقيم. الطري ينجو، لا يفنى، ثم ينمو ويعلو.

سليمان عبد الرزاق علَّم نفسه أن يعيش الحياة ناظراً في بُطون الكتب كمن ينظر إلى بشرٍ، وناظراً إلى البشر كمن ينظر في بُطون الكتب. في عيد ميلاده الثالث عشر سمع أباه يبكي ورآه يضرب رأسه

على حائط المطبخ. أخوه الأكبر عبد الحسن أخبره بعد وقتٍ أن الأب يبكي لأنهم اغتالوا المناضل الشيوعي الأممي ليون تروتسكي في منفاه المكسيكي. سليمان عبد الرزاق ابن العائلة الشيعية المرموقة عاش سنوات التفتح بين تأثيرين: الأب الشيوعي، والأخوال أصحاب العمامات الذين يحجون إلى النجف وكربلاء أربع مرّات أو أكثر كل عام. أثر الأب لم يكن طاغياً. حيدر عبد الرزاق آمن أن على كل واحد أن يجد معتقداته بنفسه. صحيح أنه بعثر كراساتِ الأممية في أنحاء البيت، وترك ترجمته العربية المميزة لأعمال تروتسكي الكاملة تحتل أهم المواقع في المنزل (طاولة الطعام، الأرجوحة في الحوش، الكنبة القريبة من الراديو...)، لكنه في المقابل لم يجبر ابنه على قراءة «ما العمل؟» ولا على الجلوس ساعات أمام «رأس المال». (سليمان عبد الرزاق سمع من صديق في «ثانوية الرصافة» حكايات مشابهة). قبل الانقلاب على الملكية سأله أبوه ماذا يريد أن يصير حين يكبر. سليمان عبد الرزاق فكر في الحياة الهادئة لعمه الدكتور حسين ياسين عبد الرزاق وقال إنه يريد أن يكون طبيباً. الأب دبّر له منحة إلى الاتحاد السوفياتي. في موسكو اكتشف سليمان عبد الرزاق أن العلم لا ينفع بلا دين. سمع الحكايات المخيفة عن الرفيق ـ الراحل قبل فترة قصيرة ـ الأمين العام جوزف ستالين حاكم الاتحاد السوفياتي منذ ١٩٢٢ إلى ١٩٥٣ ورأى بعينيه أسى العيون التي تنتظر في طوابير الخبز واللحم والسكر والقهوة. نائماً مع زميلة روسية في نزلٍ قريبٍ من الكرملين سأل نفسه ماذا يفعل في هذه البلاد.

ما دَرَسَه عن الجسم البشري فتح أمامه أفقاً. أيقن بينما يراقب أستاذه يعطب جرذاً بإبرة غرزها في النخاع الشوكي أن الحياة هشّة، هشّة مثل إبريق زجاج عند حافة طاولة. لكن هذه المعرفة لم تحرره. هذه المعرفة أرهقته. جعلته ثقيلاً. أحد رفاقه العرب، طالب شيوعي من سورية، أعاره كتباً لأديبٍ لبناني يدعى ميخائيل نعيمة. أديب عاش

في موسكو قبل سنوات. بينما يقرأ هذه الكتب أدرك أنه لا يريد أن يصبح طبيباً. بعد رجوعه إلى العراق تعارك مع أبيه. لم يكن يريد ذلك. لكن الأب طرده من البيت. ذهب إلى أخواله. أحدهم كان انتقل إلى النجف قبل سنة واحدة. سافر سليمان عبد الرزاق إلى النجف وبدأ يدرس الفقه على الإمام علاء الدين الواسطي. أرخى لحيته وتعمم. بعد وقتٍ أيقن أن الدين لا ينفع بلا علم، وأن هذه الدرب ليست دربه. ترك الخال ورجع إلى بغداد. وجد عملاً في «مكتبة المثنى». ينظف الغبار عن الرفوف، يمسح الأرض، وينام ليلاً في العلية الخشب، على فراشٍ من القطن الوثير. عام ١٩٥٨ اطلع على كتابات ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار. خلال الفترة ذاتها كان يقرأ أشعار الرومنطيقيين الإنكليز: ووردسورث وشيلي وكيتس ولورد بايرون. الأشعار ألهته عن «البعث» سنتين. في ١٩٦٠ قرأ «على سبيل البعث» مرة أخرى بينما يساعد صاحب المكتبة على إضافة رفوف جديدة، وقرر أن ينتسب إلى الحزب. منذ ذلك الحين صنع لنفسه اسماً في دوائر الرفاق المثقفين. لم يكن مقطوعاً من شجرة. أبوه ترجم أعمال تروتسكي الكاملة إلى العربية. هو، في المقابل، يتقن الروسية والإنكليزية والفارسية، ويدرس هذه الأيام الأوردو على تاجرٍ هندي مقيمٍ في طرف سوق الوراقين.

المعلومة الأخيرة في الملف لفتت نظر صدام حسين. المعرفة باللغات مهمة لرجل الإستخبارات، وهذا الرجل الأربعيني على علاقة بالمكتبات وتنظيم المعلومات، وربما صار مفيداً بعد تشذيب أفكاره الزائدة. ثم أنه يريد حفنة شيعة في «حنين». كل هذه الذرائع كانت في كفّة من الميزان. في الكفّة الأخرى استقر السبب الحقيقي لاهتمام صدام حسين بالرفيق مهدي أو حكيم أو رفعت. هذا الرفيق ـ سليمان عبد الرزاق ـ مقرب من عدوه اللدود عبد الخالق السامرائي.

صباح الخميس وقف سليمان عبد الرزاق أمام مكتب صدام

حسين. قبل أن يخرج من مركز «أمن الحزب» كانت حياته قد تبدّلت: صار مسؤولاً عن «أرشيف حنين». تلك الظهيرة نقل أغراضه القليلة من علية الخشب في «مكتبة المثنى» إلى منزله الجديد: الأرشيف الأمني في الكرخ.

صباح الجمعة التقى صدام حسين عبد الكريم الشيخلي العائد من مهمة حزبية طويلة أخذته إلى الموصل وكركوك والرطبة. أخبره الشيخلي أنه التقى في الرطبة رفيقهما القديم حسن عبد الإله، وأن الرفيق صار صاحب مزرعة وبساتين، يشتغل في الأرض مع الفلاحين، يحرث بالسكة على الثور، يرعى الغنم، يقطف الشجر، يسقي السهل، ويعيش في بيتين متجاورين مع زوجتين وتسعة أولاد، مع البط والدجاج والبقر والوزّ. صدام حسين استمع إلى السيل المتدفق وإلى ضحكات الشيخلي، إلى أن أنهى كلامه. عندئذٍ سأله منزعجاً:

ـ ومن يكون هذا الرفيق؟

حاول الشيخلي أن يُذكّره برفيق السنوات الصعبة في فيلا القاهرة، فروى حكايات من زمن المنفى المصري. صدام حسين لم يتذكر الرفيق المذكور، ولم يحاول أن يتذكره. كان يفكر في أشياء أخرى أهم من هذه الذكريات التي لن تفيده شيئاً. بعد أيام تذكر حكايات الشيخلي فجأة بينما يخرج مرهقاً من المرحاض فبدت له تلك السنوات الثلاث في القاهرة كأنها من حياة أخرى.

في السبت والأحد التقى صدام حسين العقيد البكر أكثر من أربع مرّات. في اللقاء الثالث كان الجنرال حردان التكريتي حاضراً. حردان التكريتي أعرب عن انزعاجه من محاولات الرفيق العقيد صالح مهدي عمّاش تنظيم تحالفات خاصة بين الضباط بعيداً من التنسيق مع الحزب. اقترح حردان التكريتي توجيه إنذار حزبي صارم إلى العقيد عمّاش.

في اللقاء الرابع المنفرد بين صدام حسين والعقيد البكر، لاحظ العقيد تصلب ملامح نائبه. سأله ما الأمر. صدام حسين ظلّ صامتاً. كان يعاني إمساكاً فظيعاً منذ أصيب بذلك الرشح اللعين. حين تكلم بدا كأنه يحدث نفسه وليس العقيد البكر فقط:

ـ الرفيق حردان فقد حسّه بالواقع. ما يفعله العقيد عمّاش لن يؤذي «البعث».

هزّ العقيد البكر رأسه. كان ينتظر أن يتابع نائبه الكلام، لكن صدام حسين أخلد إلى الصمت. في الخارج واصل مطرٌ رتيبٌ التساقط على بيوت بغداد.

العقيد البكر أشعل غليونه وسأل صدام حسين:

ـ ماذا تقترح؟

أجابه صدام حسين:

ـ الرفيق حردان شبه معزول عن العسكر في هذه المرحلة. تقاريرنا الأمنية تؤكد أن الاستخبارات العسكرية تراقب بيته ليلاً نهاراً وترفع تقارير يومية بنشاطه إلى العقيد عبد الرزاق نايف. هم يراقبونه ونحن نراقبهم. هذا وضع غير جيد. نحتاج إلى رفيق آخر في الجيش يكون معنا في المجلس القيادي. العقيد عمّاش ضروري الآن.

ظهيرة الاثنين تناول العقيد البكر وصدام حسين والعقيد عمّاش طعام الغذاء على مائدة واحدة. العقيد عمّاش بدا متحفظاً. العقيد البكر ابتسم لتحفظه: الرجل بات مقطب الوجه منذ أبعدوه عن الصفوف الأمامية. صدام حسين دخل في الحديث مباشرة:

ـ نحتاج تعاونك الكامل رفيق. اعتماد «البعث» عليك. نريدك معنا في كل خطوة من هذه الطريق.

الكلمات القوية الصريحة أربكت العقيد عمّاش لحظة. أحسّ حين

جرى الاتصال به أن الأمين العام العقيد البكر هو الرجل الذي طلبه إلى هذه الجلسة. وإذا به الآن يكتشف أن صدام حسين ـ هذا الرجل الذي لم يرتح إليه يوماً ـ هو من يقترح اسمه، وليس الأمين العام. تبادل نظرة طويلة مع الشاب الغامض الذي استطاع في حفنة شهور أعقبت فراره من «سجن بغداد» أن يتحول رئيساً لجهازٍ أمني معقد متشابك لا أحد يدرك حقاً مقدار سطوته. العقيد عمّاش قال في جلسةٍ خاصة قبل سبعة أيام فقط أن أغرب أمر في هذا الوحش الذي يُسمى «حنين» والذي يراقب قيادة «البعث» أكثر مما يراقب أعداء «البعث»، هو رأسه المفكر. هذا الرأس المصنوع من عيون واسعة لا تُحصى هو رأس غير مفهوم. من هو الرئيس فعلاً؟ صدام حسين التكريتي؟ أم نائبه ناظم كزار الشيعي؟ الكلّ يعرف أن ناظم كزار لا يطيق السنّة. في خريف ١٩٦٣ حدث خلاف بين كزار والعقيد البكر، وسُمِع كزار يقول بينما يسير غاضباً في ممرٍ من ممرات رئاسة الوزارة أنه يريد أن يمحو تكريت عن وجه الأرض. هذا ليس كل شيء. العقيد عمّاش قال في تلك الجلسة الخاصة أنه لم يولد البارحة وأن ناظم كزار أيضاً لم يولد البارحة. حين كان كزار يبني الحرس القومي للحزب مع الرفيق نصرت أين كان هذا الولد صدام حسين؟

جاء العقيد عمّاش بعد إنقضاء سبعة أيام على تلك الجلسة الخاصة ليتناول الطعام مع الأمين العام العقيد البكر ومع نائبه رئيس «أمن البعث» صدام حسين، بأصابع مبللة بالعرق. كان المسدس في حزامه، والطلقة في بيت النار. كلماتُ صدام حسين القوية الصريحة أربكته. شرب ماء من الكوب العرقان، وأحسّ بالبرد في حنجرته وصدره. وضع الكوب على الطاولة ثم فتح كفيّه في الفضاء، وابتسم للأمين العام ونائبه. بدا كأنه يتلقى بكفيّه مطراً خيالياً يتساقط من السقف. عندئذٍ تكلّم العقيد البكر:

ـ من هم الضباط الذين يمكننا أن نعتمد عليهم؟

اقترب العقيد عمَّاش بجسمه إلى الأمام. غطّت غيمة سوداء رأسه. تكلم ببطءٍ، وبصوتٍ منخفض:

ـ نحتاج أعمدة نظام عارف الأربعة إلى جانبنا. رئيس الاستخبارات العسكرية العقيد عبد الرزاق نايف. رئيس الحرس الجمهوري العقيد عبد الرحمن داوود. قائد الكتيبة المدرعة في الحرس الجمهوري العقيد سعدون غيدان. وقائد حامية بغداد العقيد حماد شهاب.

العقيد البكر قال إنه يضمن هذا الأخير: العقيد حماد شهاب يمت بصلة قربى إلى العقيد البكر، وهو ابن تكريت، ويميل إلى مبادئ «البعث». لكن ماذا عن الثلاثة الآخرين؟

العقيد عمَّاش ابتسم قائلاً:

ـ العقيد سعدون غيدان صديقي. يبقى أن نقنع رجلاً واحداً فقط.

قال العقيد البكر:

ـ تقصد رجلين.

رفع العقيد عمّاش إصبعاً وقال:

ـ رجل واحد فقط: العقيد نايف. ما يقرره العقيد نايف ينفذه العقيد داوود فوراً.

صدام حسين الجالس مكتف الذراعين طوال الحديث سأل عندئذٍ بنبرة محايدة كأنه يتحدث عن طقس الشتاء، أو عن البضائع الكثيرة في واجهات المحال التجارية الغارقة في الزينة والاستعداد لموسم الأعياد:

ـ من تُرشح لهذه المهمة الحساسة؟

كان السؤال موجهاً إلى العقيد عمَّاش. مرة أخرى أحسّ بارتباك. فكّر العقيد عمَّاش أنه ربما كان مخطئاً. ما تفوه به بحق هذا الشاب الهادئ لم يكن عين الصواب. ثم إن الأمين العام العقيد البكر يثق به

كفاية ليضعه رأساً لأمن الحزب. استجمع العقيد عمّاش أفكاره، نظر إلى الأطباق التي بردت على الطاولة، ثم أجاب:

- هذا عمل جماعي. أستطيع أن أشارك في عملية إقناع العقيد نايف. طبعاً الأمين العام هو الأساس هنا. وربما يساهم رفاق آخرون في الجيش.

هزّ العقيد البكر رأسه. صدام حسين ظلّ صامتاً. كان يرى النسيج يتشابك فوق المائدة، والعنكبوت غير المرئي يمدّ الخيط ويلحم تقاطعات الشبكة القاتلة بلعابه.

على مائدة أخرى، ظهيرة ذلك الاثنين نفسه، جلس الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف يتناول طعامه مع ثلاثة من أركانه: العقداء نايف وداوود وشهاب. العقيد الرابع سعدون غيدان كان يأخذ قيلولة على بُعد أمتار في جناحه الخاص في القصر الرئاسي مع زوجته الجديدة.

بعد سبعة كؤوس ثقيلة من الأوزو اليوناني ينشرح صدر الرئيس عبد الرحمن عارف بعض الشيء ويحسّ أن أركانه ليسوا حراس النظام وحسب إنما هم أعز الأصدقاء أيضاً. منذ زاولت جسمه نزلة البرد اللعينة اكتشف أن الحياة في القصر الرئاسي يمكن أن تكون خفيفة غير ثقيلة. أركانه يحملون عنه معظم الأعباء. بات يشعر أن ذراع عبد الناصر تلك، التي رفعته مع سواعد الضباط إلى هذا العلو، كانت ذراعاً مباركة. استغرب ما يفعله المرض الجسماني بروح الإنسان. كيف تهوي المعنويات إلى الحضيض هكذا بسببٍ من جرثومة واحدة صغيرة؟ خلال الكأس التاسعة فكّر أن الشتاء يوشك على الانتهاء ثم يحلّ الربيع. تأتي تلك الطيور إلى الحديقة وتبتعد الغيوم المثقلة بالمطر ويصفو الهواء وينبت العشب الأخضر الطري. طعم الشراب يتغيّر عندئذٍ. والجلوس في الخارج يحلو.

في الكأس العاشرة سمع ذبابة تطنّ بين حيطان القاعة، ثم فكّر أنها ذبابة تطنّ في رأسه. يستحيل دخول ذبابة إلى هذا القصر من دون إذنه. أعجبته الخاطرة فزاد على معدله الوسطي من الشراب عند الغذاء كأساً أخرى، وأفرغ قنينة الأوزو المستوردة من جزيرة كريت في الأرخبيل اليوناني.

كانت صور كثيرة تتشكّل أمام عينيه بينما يتذكر الخريطة الكبيرة المعلقة في صالون استقبال السفراء والقناصل. خريطة للعالم ملونة يقف أمامها عند العصر نصف ساعة، مع كأسٍ من نبيذ بوردو الفرنسي هدية من ابنه الدكتور، ويتفرج على كل تلك الدول، كل تلك البحار، كل تلك الجزر، كل تلك الأسماء الغريبة. ثم تتركز نظراته عند نقطة معيّنة من الحدود الآسيوية ـ الأوروبية. تلك البقعة الزرقاء، مضيق البوسفور، لماذا تجذبه على هذا النحو؟ صورة أسطنبول، تلك المتاهة من الدروب ومساجد سنان باشا والخمارات والمراكب تعبر بين ضفتي المدينة وصديقه التركماني القديم من زمن الكلية الحربية والضياع بلا أي حارسٍ أو تابع في دروب تتشعب بلا نهاية وتفضي دائماً إلى خمارة أو بسطة سمك أو حفنة رجال يجتمعون حول طاولة الزهر يدخنون ويشربون ويضحكون ولا يهتمون بشؤون البلاد والحدود وبالمتمردين في الشمال وبالذين يوشكون على التمرد في الجنوب والتحالفات المقلقة بين الضباط وعملية الاغتيال في شارع أبو نواس الجميل وضرورة الانتباه إلى ترقية الضابط المناسب في الوقت المناسب، وإحالة الضابط المناسب إلى التقاعد في وقت آخر مناسب، كل ذلك تحت مطرٍ فاتر يهطل متواصلاً بلا انقطاع ويحول المدينة إلى أطلال غارقة في نهر دجلة، في قعر محيطٍ قديم، الأطلسي الهندي الهادي المتجمد الشمالي المتجمد الجنوبي، كل تلك المحيطات وهو في القعر مع الأوزو والفودكا والنبيذ وأبو نواس القديم ليس الشارع بل الشاعر

ودع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسّها ضوء مسّته سراء، لكن الأحزان تنزل ساحتها أيها العزيز، تنزل تنزل بلى تنزل أيها الصديق الميت، أيها الوفي دائماً، آه اسطنبول.

الأركان، العقداء الثلاثة، سمعوا الرئيس ينشد بيتين عباسيين من الشعر واسترخوا بعد أن فكّوا الأحزمة المثقلة بالمسدسات والذخيرة. بينما يقضم رؤوس أسماك البزري الدقيقة ويرشف رشفات صغيرة من العرق اللبناني، فكّر العقيد عبد الرزاق نايف أنه يعيش في عالم مضحك، عالم شرير بالتأكيد لكنه مضحك أيضاً. الرئيس عارف، في تلك اللحظة نفسها، كان يفكّر في أمر مشابه: أنه يعيش في عالم مبهم، مبهم بالتأكيد لكنه مضحك أيضاً، غير أن هذا الضحك الذي يتخلل نسيج الحياة البشرية، بل كل حياة، هذا الضحك الكوني ليس مضحكاً فعلاً، بمعنى أنه ليس ضحكاً صافياً، ليس ضحكاً صانعاً للفرح والحبور والسعادة. كانت الملانخوليا تغلب بعنفٍ على دماغ الرئيس عارف في تلك اللحظة حتى أنه أحسّ أن فصل الربيع لن يأتي أبداً، وأنه قد علق إلى نهاية حياته في هذه الظهيرة الماطرة الكئيبة، ظهيرة هذا الاثنين الشتائي، والعالم ينتظر موسم الأعياد، والدكاكين في الرشيد تزين واجهاتها والعقيد سعدون غيدان يحكي عن باريس ولندن وبرلين وجنيف وروما ونابولي وعن أشجار عملاقة مزينة بأضواء الكهرباء في الساحات والكلّ يحتفل مع الكلّ في الشارع كأنهم في تظاهرة. . . لكنه ليس هناك، ولن يبلغ تلك الساحات أبداً. علِق هنا، في هذا القصر الكبير، في متاهة الغرف والممرات والسلالم، محاطاً بالحرس الجمهوري، بالجنود والمدرعات والأسوار، محاطاً بحديقة من الأشجار المبلّلة السوداء اليابسة، وبعد الأسوار تحاصره متاهة أخرى: تحاصره بغداد التي لن تدعه يغادرها، بغداد الغولة. أنهى كأسه

وانسحب إلى غرفته. تمدد على سريره وأدرك أنه يعيش على الدوام يوماً واحداً يتكرر إلى ما لا نهاية. بعد شهور حلّ الربيع في ٢١ آذار (مارس) كعادته كل عام. في الأسبوع الأول أو الثاني أو الثالث أو الرابع من نيسان (أبريل) ١٩٦٨ وجد الرئيس عبد الرحمن عارف على مكتبه الرئاسي مذكرة وقَّعها ١٣ ضابطاً متقاعداً (خمسة بينهم من «البعث») تُطالب بالاستقالة الفورية لحكومة يحيى طاهر المتخاذلة والبعيدة عن طموحات الشعب والأمة في هذه المرحلة الدقيقة من الصراع مع العدو الصهيوني، وتُطالب بتشكيل حكومة جديدة حالاً وتأسيس مجلس تمثيلي. قرأ الرئيس عارف المذكرة ١٣ مرة ولم يفهم بالتحديد ما هي المشكلة بالضبط. طلب رئيس الحكومة يحيى طاهر على التلفون وقال له: «افعلْ ما يريدون، تحدث معهم، توصلوا سوية إلى حلٍ معقول». أجابه رئيس الوزراء: «لكنهم لا يريدون حلاً سيادة الرئيس. ما يطلبونه هو السلطة».

آه السلطة، فكّر الرئيس عارف، وفكّر أنهم يطلبون العيش في هذا القصر والتعامل مع هذه المذكرات ورفع سماعة هذا التلفون الثقيل. آه السلطة، فكّر الرئيس عارف، وسمع طنيناً في أذنيه، هذا الطنين المستمر منذ تلك الظهيرة الشتائية، سأل طبيبه الخاص عن سببه فسأله الطبيب باسماً ماذا يشرب هذه الأيام؟ وحين أخبره عن الأوزو الذي أرسله سفيرنا من أثينا نصحه الطبيب بتوزيع الهدية على الوزراء لأن الأوزو كما يبدو غير مناسب لجسمه. ونصحه في المقابل بكل نبيذٍ أوروبي شرط أن يكون «روزي» فهذا أفضل للقلب والدماغ ولن يعاني طنيناً في رأسه بعدئذٍ. آه الطنين، فكّر الرئيس عارف، وتذكر أنه سمع النصيحة ووزع الأوزو على وزراء الصحة والتجارة والصناعة الوطنية والزراعة لكن الطنين ظلّ في أذنيه هو ولم ينتقل مع القناني ـ المسكوبة كالإناث ـ إلى آذان الحكومة العتيدة. كان طنيناً يبدأ خافتاً في الصباح،

ثم يرتفع بمرور الوقت، حتى يتحول إلى هدير قطار عصراً، بينما الرئيس يقف أمام خريطة العالم ويتفرج على الخطوط الجوية المتقطعة والخطوط البحرية المتصلة والخطوط البرية الملونة. كان القطار يصخب في رأسه بينما يتفرج على خط برلين ـ بغداد، وعلى علامات الضرب الزرقاء التي خطّها أحدهم على الخريطة (من يكون فعل ذلك؟ أخوه الأصغر عبد السَّلام، أم حليفه القديم وعدوه عبد الكريم قاسم، أم الوصي على العرش عبد الإله، أم الملك الشاب القتيل، لكن الملك الشاب لم يقطن هذا القصر! أم أنه عاش هنا أيضاً؟).

تلك الليلة طلب الرئيس عبد الرحمن عارف من الحراس أن ينقلوا الخريطة الضخمة إلى غرفة النوم الرئاسية. في نور المصباح في جوف القصر الهاجع، سهر الرئيس عارف يتأمل علامات الـ × الزرقاء. كان يعلم أن ظهيرة ذلك الاثنين الشتائي مستمرة. لم يتغيّر شيء في العالم منذ تلك الظهيرة. حين أمر الحراس بنقل اللوحة من صالون السفراء والقناصل إلى هنا أحسّ أنه يبدِّل شيئاً في هذا العالم المتموج الرتيب. لكنه كان مخطئاً. شرب جرعة ويسكي فأضاع الخريطة وقال لنفسه إنها عادت إلى جدار صالون السفراء والقناصل كما يعود كلبٌ إلى بيته في قلب بغداد بعد نقله بالسيارة بعيداً إلى أطراف المدينة. فتح عينيه، أو للدقة: زالت الغشاوة عن عينيه فعاد صفاء الرؤية، وشاهد ما يشبه الوطاويط تتدلى من المصباح، وما يشبه البعوض والهوام يسبح في النور الأصفر فوق الهاتف الضخم الذهب والجرس الرقيق الفضة. لو يرنّ الهاتف الآن! يرنّ ويقفز في الفضاء كما يحدث على التلفزيون في الرسوم المتحركة. لكنه لن يرنّ. لن يرنّ. فكّر في الخروج والجلوس مع الحراس أو مع العقيد غيدان أو مع العقيد داوود. لكنهما في الأغلب يغرقان في النوم الآن. العالم كلّه نائم الآن. ثم انه تعبان. جلس على الأرض، على السجاد الأفغاني بكل تلك الرسوم للقصور

والحدائق والطواويس الضخمة بالريش الملون المتشعب من زوايا السجادة إلى مركزها، وأحسّ أنه يضيع. أراد حبلاً يتمسك به فعاد يحدق إلى الخريطة وإلى علامات الـ × الزرقاء. اكتشف بينما يسكب كوباً آخر من القنينة الصفراء التي تشبه الطابة أن العلامات تتبع سكة الحديد من البصرة إلى أوروبا. رأى علامة على البصرة، ثم طارد سلسلة العلامات بعينين زائغتين بينما القطار يهدر في رأسه، ورأى الناصرية ـ بغداد ـ كركوك ـ الموصل. كان الكوب ثقيلاً في أصابعه فوضعه على السجادة، على امرأة في ثوبٍ من الحرير الصيني تحمل مروحة وتقف فوق أرجوحة يستلقي فيها ملك أو نبيل، ثم تابع رحلته شمالاً. كانت العلامات جاوزت الحدود الآن وبعد «ديار بكر» استوت السكة ومخر القطار أراضي الأناضول غرباً إلى أدنا ـ قونية ـ بورصة، ثم أطلّت أسطنبول. كانت السكة تتابع الدرب غرباً عبر تركيا إلى ألمانيا لكن القطار الذي يطن في أذني الرئيس سكت فجأة. كان الرئيس في أسطنبول الآن، وكان يشخر نائماً على جنبه. هذه هي الحياة التي أُعطيت له: ظهيرة يوم اثنين شتائي تتكرر إلى ما لا نهاية، بمطرٍ رتيبٍ وأسماك تسبح في الشوارع وتعبر داخلةً من نوافذ المطبخ إلى القدور على النار. هذه هي الحياة التي ورثها عن أخيه الأصغر المرحوم عبد السّلام. كل ليلة يتمدد أمام الخريطة، وبعد أن يصل في القنينة إلى نصفها أو قعرها ينام شاخراً مطروحاً على جنبه. على التلفون قال لرئيس حكومته يحيى طاهر، أو طاهر يحيى، إن المسؤوليات هذه مرهقة، خصوصاً مع هذا الجو المشحون في البلد منذ ٥ حزيران (يونيو)، ومع هذا الارتباك في صفوف الضباط. «الحياة تبدو مظلمة»، قال الرئيس في السماعة الثقيلة بين أصابعه. رئيس الوزراء أجابه بصبرٍ رواقي: «هذه هي الحياة سيادة الرئيس». لكن سيادة الرئيس لم يكن يسمع. كان ينام جالساً وراء مكتبه، والسماعة في حضنه. بعد

نصف ساعة أيقظه طنين قطار الظهيرة في أذنيه. فتش عن ذبابة غير مرئية، بنظرات زائغة ترسلها عينان ثقيلتان، فلم يرَ الذبابة لكنه رأى بيوت عنكبوت على السقف العالي كمثل لطخات بيض على خشب الجوز الشامي المنقوش. بعد سبع دقائق رنَّ الهاتف. حمل السمّاعة فأتاه صوت رئيس الحكومة يخبره أن أركان القصر يخططون للانقلاب عليه، وأن هذا الخط الهاتفي مراقب، وأنهما معرضان لخطر الموت الفوري. الرئيس عارف أجابه ـ بهدوء رجل تجري الدماء في عروقه مشبعةً بنسبة عالية من الكحول ـ أن لا حاجة للذعر هكذا، وأن الذعر لا يليق برئيس وزراء مفوَّه، وكل ما عليه أن يفعله هو أن يلفظ الآن أسماء الأركان المتآمرين وهو يدبر الأمر. حين أنهى رئيس الحكومة تعداد الأسماء طمأنه الرئيس عارف ووضع السماعة من يده. نهض من وراء المكتب وفتح الباب ثم بدَّل رأيه ورجع إلى الكرسي. كان جسمه ثقيلاً والعالم يتموج عن جانبيه. رفع سماعة الهاتف وطلب العقيد نايف وأمره أن يحضر حالاً ومعه العقيد داوود.

في المكتب الرئاسي الموصد سألهما هل يخططان للانقلاب عليه. العقيد نايف اصفرَّ وجهه، وقفز من كرسيه وهرع ملتفاً حول المكتب الخشب الضخم ثم انحنى مقبلاً يد الرئيس والدموع تسيل من عينيه. العقيد داوود تبعه فوراً. الاثنان أقسما الولاء المطلق لسيادة الرئيس، حلفا أنهما لن يخططا لأمرٍ مريع كهذا أبداً، وقالا إنهما يفضلان الموت على انتزاع شعرة واحدة من رأسه.

الرئيس عارف أجابهما:

ـ لا تصابا بالذعر هكذا. الرئيس يصدقكما.

في ذلك المساء نفسه، مساء ١٦ تموز (يوليو) ١٩٦٨، جلس الرئيس عارف على السجادة الأفغانية مع كوب ويسكي يتفرج على الخريطة. حين أرَّقه طنين أذنيه، والرحلة وراء العلامات الزرق، سحب

جسمه إلى السرير العالي العريض وغرق في نوم عميق. استمر شخيره ساعة، ثم انتظمت أنفاسه، وصار نومه أحلى وأرق. رأى في المنام أنه رجع ولداً، يتسلق مع رفاقه شبكاً حديداً يفصل بين ملعبين في «مدرسة الرصافة للبنين والبنات»، ويطلّ من الأعلى على بساتين نخلٍ وعلى دجلة وعلى بقرات سوداء وبيضاء ترعى بين الشجر.

في تلك اللحظة ذاتها كانت القيادة القطرية لبعث العراق مجتمعة في منزل العقيد أحمد حسن البكر. كان اجتماعاً سرّياً طارئاً، والكلّ على أعصابهم. قال الأمين العام العقيد البكر إن أركان القصر الجمهوري قبلوا خطة البعث الانقلابية بشرطين. الأول أن يُعطى العقيد نايف منصب رئاسة الوزراء والعقيد داوود منصب وزارة الدفاع. أما الشرط الثاني فهو تنفيذ الانقلاب فوراً، هذه الليلة، لأن الرئيس عارف يشكّ في العقيدين، وأي انتظار أو تلكؤ سيعرض حياتهما والخطة بكاملها للخطر.

العقيد عمّاش قال إنه يشارك الأمين العام الرغبة في الإطاحة بعارف سريعاً لكنه يرى الشرط الأول ابتزازاً للحزب. «إذا أخذوا رئاسة الوزارة ووزارة الدفاع فهذا يعني أنهم خطفوا السلطة لحسابهم الخاص»، قال العقيد عمّاش.

حردان التكريتي قال:

ـ علينا أن نؤجل تنفيذ الخطة.

العقيد البكر سأل الأعضاء الآخرين رأيهم. أحدهم قال إن الابتزاز المطروح مهينٌ لحزب البعث ومهينٌ للعراق ومهينٌ للأمة.

صدام حسين الجالس صامتاً طوال الوقت، وقف عندئذٍ، ومشى متجاوزاً الكراسي والكنبات، ثم وقف إلى يمين الأمين العام العقيد البكر. لبث صدام حسين صامتاً لحظة ثم تكلّم:

ـ أعلم أن العقيدين نايف وداوود فُرضا علينا فرضاً، وأنهما يريدان طعن «البعث» في الظهر.

توقف ثانية عن الكلام، حدق أمامه، وتابع:

ـ لكن ليس عندنا خيار آخر الآن. علينا التعاون معهما لإبعاد عارف عن السلطة. هذا ضروري وعاجل ولا يقبل أي تأجيل.

اعترض العقيد عمّاش:

ـ هذا يعني إزاحة عدو من السلطة لتسليمها إلى عدو آخر.

حردان التكريتي قال:

ـ بالضبط.

تدخل عبد الكريم الشيخلي:

ـ ليس تماماً.

صدام حسين رفع يده في وجه الحضور وأعلن خطّته شبه الكاملة:

ـ «لن نضع عدواً آخر في السلطة. ما إن ينجز العقيدان نايف وداوود الانقلاب على الرئيس عارف حتى تنتهي حاجة «البعث» إليهما. علينا أن نتعاون معهما خلال الانقلاب لكن بعد ذلك مباشرة علينا تصفيتهما».

ساد السكون المكان. لم ينبس أحد بكلمة، بحرف، بهمسة. تابع صدام حسين بتلك النبرة الجليدية التي طالما زرعت الذعر في قلوب رفاقه:

ـ لن نسمح بخطف السلطة من «البعث» مرة أخرى. وأتطوع شخصياً لتنفيذ عملية التصفية.

لم يكن الصباح طلع على القصر الجمهوري بعد، حين رنَّ

الهاتف الثقيل الذهب في غرفة النوم الرئاسية. الرئيس عبد الرحمن عارف رفع يداً ثقيلة والتقط السماعة. الجنرال حردان التكريتي أعلمه أنه يحدثه من صالون القصر، على بعد أمتار منه. الرئيس عارف مسح آثار النوم عن رموشه باليد الأخرى، وأحسّ السماعة تثقل كصخرة وهو يسمع الصوت الحاد الناشف يرتجف بالحماس:

- إني مخول إبلاغك أنك لم تعد رئيساً للعراق. «البعث» سيطر على البلاد. إذا استسلمت بلا مقاومة أضمن سلامتك الشخصية. استسلمْ الآن!

أفاق العراقيون صباح السابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٦٨ على رئيسٍ جديد وحكومة جديدة. كان انقلاباً خاطفاً لم تُهرق فيه قطرة دم واحدة. حين سُمِعت لعلعة عيارات نارية في أحياء العاصمة تلك الظهيرة عُرِف أنهم البعثيون يطلقون الرصاص في السماء ابتهاجاً بالنصر وبإبعاد عارف عن البلاد. عبد الرحمن عارف المخلوع أُخرج من القصر الجمهوري بالمشاية ولباس النوم. اقتاده الجنرال حردان التكريتي إلى مطار الرشيد ووضعه على متن طائرة متجهة إلى لندن. حين ارتفعت الطائرة فوق غيوم ذلك اليوم الحار الرطب، رأى عبد الرحمن عارف من النافذة المربعة تلك المتاهة التي يسمونها بغداد تختفي وتتلاشى دفعة واحدة مثل بيت عنكبوتٍ تبدّد في الهواء.

أمين عام بعث العراق الرفيق العقيد أحمد حسن البكر صار رئيساً رابعاً للجمهورية. عُيِّن العقيد عبد الرزاق نايف رئيساً للوزراء، وحليفه العقيد داوود وزيراً للدفاع. حليف ثالث لهما هو ناصر الهاني أُعطي حقيبة الخارجية. العقيد البعثي عمَّاش عُيِّن وزيراً للداخلية. الحقائب الوزارية الباقية وُزعت بالتساوي بين «البعث» ومحور نايف ـ داوود. الحكومة الائتلافية بدت في قبضة العقيدين، لا في قبضة «البعث». تقرر إنشاء مجلس قيادة للثورة. هذا المجلس أيضاً طغى عليه محور

نايف ـ داوود. في القصر الجمهوري قال صدام حسين لرئيس العراق الجديد:

ـ اسمعْ حضرة الرفيق، إن لم نضرب الآن ضاعت علينا الفرصة.

أجابه الرئيس البكر من وراء دخان غليونه:

ـ سوف نفعل ذلك، لكن بلا دماء. علينا الاحتفاظ بقاعدة شعبية لهذه السلطة. حزبنا صغير وقوّته في حكمته. إذا سال الدم الآن قد تضيع فرصتنا.

قاطعه صدام حسين:

ـ تريد انقلاباً بلا دم؟

ابتسم الرئيس البكر:

ـ على الأقل في البداية.

سكت صدام حسين ثلاث دقائق. ترك الكنبة ومشى إلى النافذة ووقف هناك جامداً، بأصابع معقودة وراء ظهره، وبساقين متباعدتين، يحدق إلى فراغ سماء الصيف. الرئيس البكر راقب من مقعده الجديد ذراعه الأيمن صدام حسين واقفاً تلك الوقفة العسكرية، يُقلب خططاً في دماغه. تذكر الرئيس البكر عندئذٍ نزهة قديمة على ضفاف دجلة: آنذاك كان هذا الرجل الواقف إلى النافذة شاباً مندفعاً نارياً يطلب الدخول إلى الكلية الحربية ويفشل مرة تلو المرة. الرئيس البكر تذكر كل ذلك وقال إن ذلك من حسن حظه. كان الرئيس البكر يضع كامل ثقته في ذراعه الأيمن لأنه آمن دائماً أن الخطر الأول على سلطته يكمن في ضباط «البعث» وليس في الجناح المدني. في هذه البلاد لا يخطف السلطة إلاً صاحب عسكر.

صدام حسين، الناظر إلى سماء الصيف في تلك اللحظة، رأى طائرة عالية ولم يرَها. حين خفض نظره ورأى جنوداً وحراساً ومدرعات ومدافع رشاشة سأل نفسه ما الذي يمنع كل هؤلاء من

الاستدارة فجأة وتسديد كل هذه النيران المحتملة إلى وجهه هو ورأسه هو. أعتمت النظرة في عينيه. في تلك اللحظة ذاتها ألقى الرئيس المخلوع عبد الرحمن عارف نظرة على أصابع يديه الصفراء وحدَّث نفسه أن الأسوأ انتهى: ها هو في المنفى الأوروبي الشاسع، ومن لندن الدرب مستقيمة إلى تركيا.

صدام حسين استدار واقترب من مكتب الرئيس البكر. الرئيس رأى اللمعة الغادرة في البؤبؤين. قال صدام حسين:

ـ علينا إرسال وزير الدفاع في مهمةٍ إلى خارج البلاد. مهمة عسكرية سريعة.

هزَّ الرئيس البكر رأسه:

ـ إلى الأردن مثلاً. لتفقد اللواء العراقي هناك؟

تابع صدام حسين:

ـ في غيابه لا بدَّ أن تُسلَم قيادة الجيش إلى رئيس الأركان الرفيق حردان.

قال الرئيس البكر:

ـ هذا هو الإجراء المتبع.

جلس صدام حسين على الكنبة. نظرِ إلى الأرض، إلى حذائه أو إلى نقشة الرخام، ثم رفع عينيه إلى وجه الرئيس البكر وقال بصوت هادئ:

ـ ثم تدعو رئيس الحكومة إلى تناول طعام الغذاء على مائدتك.

في تلك الأثناء كان مسؤول «أرشيف حنين» الجديد الرفيق سليمان عبد الرزاق يقرأ مدهوشاً ملفات الأرشيف التي لا تُعد. اعتاد طوال السنوات الماضية أن يراقب أصحابه ومعارفه وأن يرسم في دماغه صوراً كاملة لشخصياتهم. منذ رأى أباه الجبار يبكي ويضرب رأسه على جدار

المطبخ في ذلك اليوم البعيد أيقن سليمان عبد الرزاق أن الطبيعة البشرية بئرٌ عميقة، أنها البئر الأعمق والأشد غموضاً في هذا الكون المتمدد الرحب. في ليالي موسكو الثلج والزمهرير قرأ دوستيوفسكي وتورجينيف وتولستوي وتعلّم أن يُحول الكتب في دماغه إلى شخصيات من لحم ودم. بينما ينام مع زميلته توشكا التي لا تنام مع رجلٍ إلاّ بعد أن تجرع قنيّنة فودكا، أدرك بحسٍّ أقرب إلى الغريزة الحيوانية منه إلى المنطق الإنساني أن الحياة أُعطيت للإنسان لسببٍ واحدٍ فقط: لكي يتأملها ويفهمها. لكنه أدرك في اللحظة ذاتها ـ بتأثير خفيٍ ربما من زمن الطفولة ومن العيش بين شيوعيين مناضلين وبين رجال دين شيعة يبكون أيام كربلاء حتى الغياب عن الوعي ـ أن هذا التأمل في الحياة لا يكتمل من دون الانغماس فيها، ومن دون التماس الدائم مع كل هؤلاء الأحياء رفاق الطريق من المهد إلى اللحد. يوم قرر الانتساب إلى «البعث» أيقن أنه بذلك إنما يدخل مختبراً جديداً.

في القبو المضاء بلمبات النيون الطويلة تحت وكر «حنين» المركزي في الكرخ، وعلى بُعد أمتار قليلة من مرقد الوليّ الصوفي معروف الكرخي، أحسَّ سليمان عبد الرزاق أنه بدخوله هذا المختبر البشري الجديد، هذا الأرشيف المخيف، وضع حياته كاملةً في دائرة خطر لم يفكر فيه من قبل: خطر أن يتحول فأراً، جرذاً مطارداً في المختبر، مطارداً بالشفرة والمشرط والإبرة، ومطارداً برصاصة الرحمة في الختام. بعد سنين بعيدة سوف يتذكر لحظة الكشف الأولى تلك في القبو المملوء بالصناديق والجوارير والملفات. بفم فاغرٍ قرأ ملفاً متروكاً خارج الجوارير، ينتظر اليد التي ترفعه وترده إلى مكانه، فرفعته يد الرفيق سليمان عبد الرزاق، المسؤول الجديد عن «أرشيف حنين». للمرة الأولى في حياته يكتشف سليمان عبد الرزاق أنه لا يعرف كل شيء عن حياته. الذين كتبوا هذا الملف يجهلون بعض الأمور عن مغامراته في الاتحاد السوفياتي: اسم توشكا وارد في الملف ـ كيف

عرفوا؟ مَنْ بين زملاء الدراسة يعمل هنا؟ ـ واسم آنا أيضاً. لكنهم لا يعرفون شيئاً عن تلك الرحلة إلى ستالينغراد، أو عن إقامته في أوكرانيا سبعة شهور كاملة. بلى، يجهلون بعض الأمور، لكنهم يعرفون أشياء لم يخبره أحد بها: لماذا لم تخبره أمه يوماً أن أباه تزوج امرأتين قبل أن يتزوجها؟ ولماذا يخفي أبوه أسراراً؟ لأنه شيوعي؟ قرب اسم أبيه وجد إشارة حمراء، وفي أسفل الورقة قرأ بالأحمر أيضاً: «الملفات القديمة». الرفيق سليمان عبد الرزاق وضع الملف الذي يحمل اسمه على الطاولة وجلس ينظر إلى الجوارير حوله. في الزاوية البعيدة خزائن كاملة من الأضابير والدفاتر والمغلفات التي خُطَّت عليها العبارة ذاتها: «الملفات القديمة». تلك ملفات من أرشيف ناظم كزار الأول: الأرشيف الذي جُمع مطلع الستينات. في ذلك الركام الهائل من الحروف هناك ملف يحمل اسم حيدر عبد الرزاق وآخر يحمل اسم ياسين عبد الرزاق وآخر يحمل اسم... كل أسماء هذا العالم. لم يخطر في باله لحظة في ذلك العصر البعيد في «مكتبة المثنى»، حين قرر أن ينتسب إلى «البعث»، أنه قد يجد نفسه في قبوٍ مثل هذا القبو الكابوسي ذات يوم. أحسّ قطرات عرق تتشكل على جبهته، على عنقه، على عموده الفقري، وتحت إبطيه. حين سمع دعسات تنزل السلالم نهض قافزاً مبغوتاً وطرق السقف برأسه.

ذلك المساء، في اجتماع عام لكوادر جهاز الأمن، طلب صدام حسين من جميع الرفاق الاستنفار الأقصى في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الحزب والوطن والأمة. طلب أيضاً أن يقدم كل منهم خطّياً اقتراحات يعتقد أنها مناسبة لتطوير العمل الأمني. سليمان عبد الرزاق لاحظ أن المحيطين به يشيرون إليه بالأصابع. كان الاجتماع قد انتهى، والرفيق نائب الأمين العام قد غادر مع مساعده ناظم كزار والمرافقين. سليمان عبد الرزاق التفت وسأل الرفاق الباسمين ما الأمر. قال أحد العاملين معه في الأرشيف، الرفيق سعدي عبد الوهاب:

ـ قميصك رفيق، غطست في دجلة قبل الاجتماع؟

انتبه الرفيق سليمان عبد الرزاق عندئذٍ أن قميصه مبلل بالعرق، أنه مبقع بالعرق، أن العرق يتدفق نازفاً من جميع مسام جلده. الرجل الأربعيني الذي عَبَر مستوحداً جمهوريات الاتحاد السوفياتي بالقطار، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، مع روبلات قليلة في جيوبه ورواية أو روايتين في حقيبة منتفخة بالثياب وبمعلبات لحم الخنزير الغنية بالشحوم، أحسّ في المساء العراقي المحتشد بالرفاق أنه غارقٌ في الوحدة أكثر من أي وقتٍ مضى، وأن العرق الذي يبلّل جسمه في هذه الساعة أقسى وأشد فتكاً من عرقٍ قديمٍ غَمَر جسمه يوم أصابته حمى السحايا المرعبة أثناء عبوره جبال يبلونوفوي الشاهقة وراء بحيرة بايكال.

في ٢٩ تموز (يوليو) ١٩٦٨، بعد ١٢ يوماً على وصول الرئيس العراقي المخلوع عبد الرحمن عارف إلى جناح إقامته المؤقتة في فندق Mandarin Oriental Hyde Park اللندني، تناول رئيس الوزراء العراقي الرجل الأقوى في البلاد العقيد عبد الرزاق نايف طعام الغذاء على مائدة الرئيس أحمد حسن البكر في القصر الجمهوري. وزير الدفاع العقيد عبد الرحمن داوود كان عندئذٍ يتفقد الوحدات العراقية المرابطة في الأردن، تاركاً الجيش في قبضة رئيس الأركان حردان التركيتي.

بينما يشربان العرق ويأكلان «السمك المسقوف» تكلّما في شؤون السلطة والعائلة. تحدث العقيد البكر عن ابنته وسأله العقيد نايف عن أمورٍ قديمة، عن ذكريات تعود إلى عشرين سنة خلت. طوال الوقت، بينما الرئيس البكر يتكلم والشوكة والسكين تتحركان بأناقة بين أصابعه ولحم السمك، كان رئيس الوزراء نايف يتذكر الرئيس المخلوع عارف وأسلوبه المختلف في تناول الطعام. في هذه القاعة ذاتها، على ذلك الكرسي بالغطاء الجلد اللامع والأزرار الفضة، جلس الرئيس المخلوع

عارف ظهيرة تلو الأخرى يشرب ويشرب ويشرب ثم يقسم رغيف الخبز نصفين ويملأه بالبابا غنوج، أو اللبنة المتبلة بالثوم، أو الكباب المشوي بالسماق والبصل، ويرمي اللقمة الهائلة في فمه. يأكل ثلاث لقمات، ما يوازي رغيفاً ونصف، ثم يقول: «شبعنا». الرئيس البكر وضع الشوكة والسكين على جانبي الصحن الصيني الأبيض الواسع، وسأل العقيد نايف كيف وجد الطعام. في تلك اللحظة بالذات كان العقيد نايف يسأل نفسه إلى متى سيبقى الرئيس البكر محتفظاً بذلك الكرسي في صدر المائدة الرئاسية؟

حين دخل الطبّاخ حاملاً صينية نحاس صُفَّت عليها قطع البطيخ الأحمر كان الرئيس البكر يحكي عن مطعم فول اشتهر في الثلاثينات ثم أُزيل وصعدت في مكانه عمارة عبد الهادي الدامرجي الشهيرة في شارع البنوك، أضخم عمارات العاصمة على الإطلاق. قال الرئيس البكر إن المهندس نيازي فتو الذي رسم مخطط تلك العمارة رسمها أصلاً بخمسة طوابق لكن الدامرجي أصرَّ على رفعها طابقين زيادة. والطريف في كل ذلك، قال الرئيس البكر وهو يمسح شفتيه بمنديل حرير مطرز الحاشية، إن المهندس فتو كان يريد بناء العمارة في مكان آخر لأنه كان مولعاً بصحن الفول المدمس بالليمون «بو صفير» في ذلك المطعم العتيق.

رئيس الوزراء العقيد نايف فعل مع البطيخ ما فعله مع العرق والسمك والأطباق الأخرى قبل ذلك: انتظر حتى أكل الرئيس البكر ثم مدّ يده. بينما يأكل القطعة الحلوة الباردة أخبره الرئيس البكر أن ابنته الصغرى تحبّ فن العمارة وتريد أن تصبح مهندسة. حين يكون عنده بعض الوقت يتجول معها بالسيارة في أنحاء بغداد ويتفرجان على أهم العمارات والأنصاب: مصرف الرافدين، العمارة الدائرية البيضاء الزرقاء النوافذ في مدخل سوق البرازين، البنك المركزي، التماثيل المجنحة في مواجهة سينما «الشعب»، جدارية فائق حسن، تمثال معروف

الرصافي، الأبراج الدائرية البيضاء لكاتدرائية الأرمن، تمثال الأم الرخام الأبيض في حديقة الأمة، البوابة الآشورية في ساحة التحرير، نصب الجندي المجهول.

رئيس الوزراء العقيد نايف أوشك أن يتثاءب. بعد البطيخ شربا شاياً هندياً. عند الانتهاء وقف الرئيس البكر وودَّع رئيس الوزراء نايف ماشياً معه حتى باب القاعة. رئيس الوزراء نايف قطع مع مرافقه البهو الأول، ثم عَبَر ممراً، وقطع البهو الثاني، وأطلّ على بهو الاستقبال بالبوابة العريضة المشرفة على باحة القصر الجمهوري. أنعسه الطعام والشراب لكن ذهنه ظلّ متحفزاً بما يكفي كي يفكر أن الرئيس البكر لا يتمتع بالذوق المطلوب: أهلكه بالذكريات التافهة والتأملات الهندسية العقيمة وبعد ذلك لم يودّعه حتى بوابة القصر. قال العقيد نايف في سرّه إن الرئيس البكر صدَّق باكراً جداً نفسه: صدَّق أنه صار رئيس البلاد. في تلك اللحظة، بينما يقطع البهو العريض إلى بوابة القصر، وجد رئيس الوزراء نايف نفسه محاطاً مع مرافقه بسبعة رجال. أمامه تماماً وقف صدام حسين في بذلةٍ سوداء يحمل مسدساً.

ارتفع المسدس، الفوهة تجمدت أمام عينيه، ثم سمع ذلك الرجل ـ رئيس أمن «البعث» ـ يقول بلهجة جافة:

ـ ارفعْ يديك!

رئيس الوزراء العقيد نايف لم يخفْ من المسدس. خاف من العبارة القاسية كالفولاذ. كان الصوت بارداً ميتاً لا يقبل أي مساومة، أي حوار، أي تنازل. بعد لفظ العبارة فقط تحول المسدس فعلاً إلى آلة قتلٍ، إلى خطرٍ فتّاك. أيقن العقيد نايف أنه خسر الحرب، أن العدو باغته بالضربة الأولى القاضية. صعقته الهزيمة. لم يحسب لحظة أن «البعث» قادر على التحرك بهذه السرعة الخاطفة.

ـ ارفعْ يديك!

العقيد نايف رفع يديه عندئذٍ وغطى وجهه بالأصابع المذعورة. كان جسمه يرتجف، وحين تكلم خرج الصوت من فمه متهدجاً مخنوقاً:

ـ عندي أربعة أطفال.

أجابه صدام حسين:

ـ لا تخف. أطفالك بخير إذا تصرفت بتعقل. عبد الرزاق، أنت تعلم أنك تطفلت على هذه الثورة وأنك عقبة في طريق الحزب. دفعنا ثمن هذه الثورة دمنا. قرار «البعث» هو إزاحتك من الطريق. عليك مغادرة العراق فوراً. حدّد عاصمة نضعك فيها سفيراً.

قال نايف:

ـ بيروت.

قاطعه صدام:

ـ غير بيروت.

قال نايف:

ـ الجزائر.

هزّ صدام المسدس:

ـ غيرها.

قال نايف:

ـ الرباط.

أجابه صدام:

ـ الرباط.

في تلك اللحظة فقط أحسّ نايف أنه نجا من الموت. كان في فم الحوت لكن الحوت أطلقه، سمح له بالنجاة. لكن جسمه استمر يرتجف.

ابتعد صدام حسين إلى طاولة خشب قريبة بحوافٍ مذهبة، ثم رفع سماعة هاتف. اتصل بمطار الرشيد العسكري وطلب تزويد طائرة وقوداً كافياً لبلوغ المغرب، على الفور. ثم استدار وواجه رئيس الحكومة المخلوع ثانية. كان المسدس لا يزال في يده. قال:

- اسمعْ! لا نريد مجزرة في الباحة! أخرج أنا وأنت والشباب خلفنا. أي إشارة إلى حراس القصر اعتبرْ نفسك ميتاً. تُلقي التحية العسكرية وهذا كل شيء. أي كلمة أي غمزة أنت مقتول وعائلتك تُقطع بالبلطة ولداً ولداً.

بعد الكلمات الباردة كالثلج أولج صدام حسين يده بالمسدس تحت السترة، ثم أشار برأسه إلى العقيد نايف بالتحرك. في الخارج أدى العقيد التحية العسكرية بأصابع قاسية كالمسامير. عليه أن يتشجع. لن يحدث له أمر. من هنا إلى المطار، ومن المطار إلى المغرب. وبعد خروج عائلته من بغداد يفكر في الردّ.

ترك صدام حسين ثلاثة من رجاله في القصر: الأخوين موسى ويونس الخيّون الصيادين القادمين من الأهوار، وعنصراً ثالثاً من «حنين» قوي الذهن سريع البديهة يُدعى عبد الواحد البصري. أمرَهم صدام حسين أن يقفوا خارج باب الرئيس البكر وألا يسمحوا لأحد بالدخول عليه.

- لا تثقوا بأحد. حياة الأمين العام بين أيديكم.

في مطار الرشيد العسكري كانت الطائرة قد أُعِدت. ألقى العقيد نايف التحية العسكرية على الجنود حين ألقوها، ثم حدَّق أرضاً ومشى في خطٍ مستقيم إلى سلم الطائرة. صدام حسين عانق العقيد نايف قبل أن يتسلق السلم، وقبّله مرتين. الشمس لمعت بعيداً على الإسفلت.

بعد سنين طويلة، في الذكرى الرابعة عشرة لثورة ١٧ تموز (يوليو) ١٩٦٨، روى صدام حسين أمام الصحافيين أنه شعر

بالدموع تنزل من عينيه حين أقلعت الطائرة حاملةً عبد الرزاق نايف بعيداً من العراق. قال الرئيس صدام حسين جالساً في القصر الجمهوري يحتفل بالذكرى السنوية الرابعة عشرة لثورة ١٩٦٨ أن طلقة واحدة آنذاك كان يمكن أن تجهض عملية التخلص، ولكن الأقدار جعلت العملية تُنفذ بكل هدوء ومن دون أي خطأ.

من مطار الرشيد عاد صدام حسين سريعاً إلى القصر. كان الرئيس البكر في انتظاره. بعد عشرين دقيقة أعلنت «إذاعة بغداد» أن الرئيس البكر أمين سر القيادة القطرية للبعث رئيس الجمهورية العراقية، قد قبل أيضاً تكليف الحزب والوطن والأمة لسيادته بمنصب رئاسة الوزراء بعد أن غادر العقيد نايف البلاد إلى منصبه الجديد سفيراً في المغرب.

قبل أن تمضي ساعة أخرى أعلنت «إذاعة بغداد» في بيانٍ جديد أن الرئيس البكر رئيس الجمهورية العراقية رئيس مجلس الوزراء قد تولى أيضاً منصب القائد العام للقوات المسلحة إلى جانب مهامه الأخرى.

تشكلت حكومة جديدة. ظلّ عمّاش وزيراً للداخلية. عُيِّن حردان التكريتي وزيراً للدفاع بدل العقيد داوود الذي تلقى أمراً بالبقاء مع العسكر في الأردن حتى إشعار آخر. الاتصال الهاتفي الذي جرى مع العقيد داوود كان قصيراً: أُبلغ العقيد داوود أن جميع أعضاء عائلته بخير وأن عليه الجلوس على قفاه في عمّان بانتظار أوامر جديدة. كل الوزراء غير البعثيين ذهبوا إلى بيوتهم. عُيِّن عبد الكريم الشيخلي وزيراً للخارجية في مكان ناصر الهاني. وأعطي عبد الخالق السامرائي مقعداً في مجلس قيادة الثورة.

في المساء الأخير من تموز (يوليو) ١٩٦٨ اجتمعت القيادة القطرية لبعث العراق في القاعة الرئاسية في القصر الجمهوري. الأمين العام رئيس العراق أحمد حسن البكر بادل الرفاق الوزراء الأنخاب، ثم ألقى خطاباً قصيراً. قبل الجلوس إلى مائدة العشاء أعلن الرئيس البكر (رئيس

الحكومة القائد العام للقوات المسلحة أمين عام مجلس قيادة الثورة) أنه تقرر تعيين الرفيق صدام حسين نائباً لأمين عام مجلس قيادة الثورة. صدام حسين، وسط تصفيق المحيطين به، وقف عندئذٍ وطلب إعفاءه من هذه المسؤولية. ساد الصمت القاعة. قال صدام حسين:

ـ «البعث» صار في السلطة. لكن مهماتنا الأمنية لا تنتهي. أرجو عدم الإعلان عن هذا المنصب الجديد. يكفيني أن أخدم الحزب.

الرئيس البكر هَزَّ رأسه موافقاً. لم يُعلَن خبر تعيين صدام حسين نائباً لأمين عام مجلس قيادة الثورة إلاّ بعد انقضاء سنة كاملة وثلاثة أشهر على ذلك العشاء الاحتفالي الذي بدأ في السابعة والنصف مساءً وانتهى عند الثانية فجراً.

بحلول آب (أغسطس) ١٩٦٨ بات «البعث» سيد العراق. الانقلاب الذي جرى على مرحلتين، من دون إهراق قطرة دم واحدة، بدا كاملاً. لكن الهدوء لم يدمْ طويلاً.

الرفيق سليمان عبد الرزاق حدس باكراً أن الهدوء الذي يعمّ البلاد لن يستمر. في القبو الذي يعجّ بالملفات في الكرخ كانت ملفات جديدة تتكوم كل يوم على الأرض والطاولات وفوق الخزائن. الرفيق ناظم كزار بدأ تنظيم مجموعة من الملفات في صندوق كرتون كَتَبَ عليه: «مشبوهون بالتجسس». في يوم خميس وصلت سيارة تابعة لجهاز «حنين» بصناديق جديدة: كانت آتية من البصرة. في خميس آخر وصلت سيارة أخرى: من الموصل. أحد الصناديق حمل عبارة أثارت ذكريات سليمان حيدر عبد الرزاق: «الحزب الشيوعي ـ قيادة عزيز الحاج المركزية».

عذَّب الأرق سليمان عبد الرزاق في تلك الليالي الحارة. رجل جاوز الأربعين، لم يتزوج، يعيش في غرفة في مؤخرة قبوٍ كابوسي في الكرخ، ويعلم أن خطراً وشيكاً يتهدد أهله: أو هؤلاء الذين كانوا

أهله. ثلاثة من أخوته يتبعون قيادة عزيز الحاج المركزية. أربعة آخرون يتبعون الجناح الآخر في الحزب الشيوعي العراقي: جناح اللجنة المركزية. أبوه المريض منذ سنوات يعيش خارج العالم. أصابه نشافٌ في شرايين الدماغ، لا أحد يدري هل ذلك من سوء حظه أم من حسن حظه. سوف يموت قبل أن يعلم أن حزبه الأسطوري، حزب الرفيق الشهيد فهد صديقه العزيز، بات حزبين، وأن أبناءه أيضاً انقسموا وتباعدوا. نشاف الدماغ أيضاً يحميه من حقيقة أخرى هي جزء من شناعة العالم الواقعي: ابنه سليمان، الذي سمّوه مهدي حين وُلِد، يعمل في قبوٍ في «أمن البعث» منظماً للمعلومات التي تترصدها عيون «البعث» وآذانه كي تجلب الدمار الماحق على كل عدو. في الاجتماع الأخير لكوادر «حنين» القيادية قال الرفيق صدام حسين:

ـ المؤامرات تُحاك الآن بينما نعقد هذا الاجتماع، ومهمتنا أن نكون لها بالمرصاد. المطلوب تصنيف جديد وفعّال لمعلوماتنا. أن نجمع الملفات حسب المحاور الاستراتيجية: الأكراد، اليهود، العراقيون من أصول إيرانية، الإيرانيون المقيمون في العراق، الشيوعيون المقسمون على جناحين، البعثيون الذين تعاونوا مع عارف في ١٩٦٣، البعثيون أصحاب العلاقات المشبوهة مع بعث سورية وسلطة صلاح جديد. لا يكفي أن تكون العيون مفتوحة والآذان مفتوحة. الثورة بحاجة إلى عقلٍ يفكر. وأنتم أدوات هذا العقل.

سليمان عبد الرزاق، ساهراً في ليل القبو المضاء بالنيون، استمع إلى طنين الأنابيب الأبيض المتواصل، وتذكر أن نائب رئيس الأمن الرفيق ناظم كزار اعترض دربه قبل يومين وسأله:

ـ رفيق عبد الرزاق، أنت مواليد ١٩٢٧؟

صحَّح له سليمان عبد الرزاق المعلومة بالدقّة التي تليق برجل أرشيفٍ وبالصدق المطلوب بين الرفاق:

ـ بل مواليد ١٩٢٨. الأوراق الثبوتية خاصتي ليست لي. وُلدت بعد أقل من سنة على وفاة أخٍ طفلٍ. أهلي أعطوني هويته. كنت قبل ذلك أُدعى مهدي، ثم صرت أَحملُ اسم أخي الميت أيضاً.

قاطعه ناظم كزار بصوت حيواني يخرج كالفحيح من بين أسنانه:

ـ لا يهم، لا يهم. ما أعنيه أنك كبرت وابيض شعرك ولم تتزوج بعد. لماذا؟

صنع سليمان عبد الرزاق إبريقاً من الشاي الأسود، ثم جلس وراء المكتب يشرب الشاي ويقرأ الأوراق: «الإيراني إبراهيم محمد: دخل البلد في ١٩٥٤. عمل في البدء حمالاً في سوق الشورجة يشتري ويبيع صناديق خشبية فارغة وأكياس جنفيص. انضم إلى أحد معارفه (٩٣٢ ـ فئة شورجة ـ ١٦٦) وفتحا دكاناً صغيراً وراء عمارة الدامرجي: دكاناً يبيع سندويشات لعمال شارع البنوك والموظفين. بعد ١٩٥٨ عمل مستورداً للشاي من مزارع تركية على سواحل البحر الأسود، وبالتهريب من إيران. تجارته ازدهرت بعد أن احتكر صنفاً خاصاً من الشاي كان مطلوباً جداً في تلك الفترة يسمونه «شاي أبو غزالة». يستخدم الدين غطاء لتجارته غير المشروعة ولنفوذه المتنامي. يُمول جمعيات شيعية معروفة بعلاقاتها الإيرانية، وبعلاقات أخرى مع المتمردين الأكراد. يعقد مجالس عزاء أيام كربلاء في بيته الكبير في محلة العطيفية. ثروته الحالية تقدر بنصف مليون دينار، إضافة إلى بيته الذي يقدر بمئة ألف دينار، ويملك سيارة «مرسيدس ـ بنز ٢٨٠ س» جديدة، إضافة إلى ثلاث سيارات شحن يستخدمها في تجارته».

في الجانب البعيد من القبو المتفرع إلى دهاليز وإلى أقبية أخرى كانت قبل زمن بعيد مخازن بابلية، تحركت الأشباح تنظم صناديق أخرى وتصفّ لصق الحيطان خزائن حديدية ضخمة صادرها «البعث» من إحدى الوزارات. كان القبو قفير نحل، قفير دبابير، يطنّ طوال

النهار ولا يسوده الهدوء إلاّ في ساعات الليل المتأخرة. عند الواحدة فجراً يجد سليمان عبد الرزاق نفسه وحيداً تماماً. لكنه يعلم أنه ليس وحيداً: يسمع خطوات فوقه، ويعلم أن الوكر يعجّ بالحراس الليليين وبالرفاق الذين يفضلون السهر هنا على النوم في بيوتهم. شرب كوباً آخر من الشاي، أسقط الملف في الصندوق الإيراني، وصعد السلالم. النوم لن يزور عينيه هذه الليلة.

في محلة «الذهب» المجاورة، النسخة المصغرة عن محلة «الكلجية» في قلب المدينة، استلقى قرب إمرأة بدينة صامتة وقبّل كتفها. كانت ساكنة كالميتة وأيقن من كلماتها القليلة أنها غريبة، أنها من هضاب الصابئة المندائيين، تلك الطائفة الغامضة المقيمة على ضفاف نهر الكرخا على الحدود العراقية ـ الإيرانية. في موسكو صادق واحداً منهم. كل ما عرفه من معتقدات الصابئة ولعهم بالماء. لا يعيشون إلاّ جنب الأنهار. يتحممون مرّات لا تحصى كل يوم. نبيّهم يحيى عمَّد قبل ١٩٥٠ سنة تقريباً عيسى عليه السَّلام بمياه نهر الأردن. اليهود طردوهم من فلسطين، فتشردوا يطاردون سراب مياه غزيرة حتى بلغوا أرض الرافدين. صديقه الصابئي في كلية الطب الروسية كان يحمل معه في حقيبته أينما ذهب، كتاب الطائفة المقدسة: كنزاربا. ذات مرة ذهبا معاً إلى منتجع مياه حارة على ساحل البلطيق. الصابئي سأله كيف يحسّ بعد الاستحمام؟ سليمان عبد الرزاق أجابه بابتسامة لطيفة:

ـ أنني صرت نظيفاً.

الصابئي أكمل الفكرة:

ـ بالضبط. المياه تغسل جسمنا وروحنا.

في غرفة مربعة بستائر بيضاء تحجب قبب موسكو اللامعة وسماء الرصاص، فتح زميله حمودي جابك مطشر جاروراً، وأخرج كتاباً

يسمونه «قلستا»، وأخبره أنهم يتبعون تعاليم هذا الكتاب في جميع شؤون النكاح والعلاقات الاجتماعية.

سليمان عبد الرزاق تذكر رحلة أخرى مع حمودي جابك مطشر ذات ربيعٍ قوقازي يعجّ بأسراب الباعة وبفلاحات مسرعات وراء زجاج القطار فيِ ثيابهن الملونة البهيجة. ثم انقلب على ظهره ونظر إلى سقف غرفة الطين بعينين دامعتين من السهر. المرأة الصابئية تمددت فوقه ثم انقلبت وغادرت السرير إلى طشت الماء في الزاوية. كانت تعرج، كأنها بقرة مصابة بقروح في إحدى قوائمها.

أثناء ذلك كانت وحدات خاصة من جهاز «حنين» تقتحم بيوتاً في جانب الرصافة بمساندة ثلاث مجموعات من «أمن الدولة». ناظم كزار أخرج مفاتيح قديمة من المخابئ وفتح أبواب الأقبية في «قصر النهاية». واقفاً في البهو الملكي المضاء بثريات كريستال بوهيمي مستوردة من أوروبا الوسطى قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، بدا ناظم كزار بجسمه المدوّر اللحيم شبيهاً بقطٍ عملاق يقف على قائمتيه الخلفيتين. ملامح وجهه المسنّنة كانت تخفي شراً لا نهائياً. تلك الليلة استيقظت نساء في البيوت المجاورة للقصر المشؤوم. أمهات في ثياب النوم نهضن في العتمة على صرخات مكتومة وطويلة كممرات ودهاليز مظلمة، ثم أسرعن إلى أسرَّة أطفالهن، يتفقدن نومهم العميق.

في ذلك الصباح عرض الرئيس العراقي أحمد حسن البكر على الشيوعيين الدخول في الحكومة. في اجتماع للقيادة القطرية قبل يومين اقترح هذه الخطة وسيلة لتوسيع القاعدة الشعبية لسلطة «البعث» ولإسقاط كل معارضة مسبقاً.

جناح عزيز الحاج (الكردي الشيعي) رفض المشاركة في حكومة يرأسها البعثيون، وطلب منح الأكراد في الشمال حكماً ذاتياً مستقلاً. الجناح الآخر من الحزب الشيوعي العراقي ـ جناح اللجنة المركزية ـ قَبِل أن يشارك في الحكومة.

في المكتب الرئاسي في القصر الجمهوري قال صدام حسين بينما يشعل سيجارته أن هذا متوقع. الرئيس أحمد حسن البكر استخدم عوداً معدنياً رفيعاً لإخراج التبغ المحترق من فوهة الغليون. في المكتبة، بين مجلدات سميكة، اصطفت غلايين كثيرة. معظمها محفور من خشب الورد. «هذا الخشب يظلّ بارداً، لا يحمى سريعاً». الرئيس البكر مسح الغليون بمنديل مبلّل بماء الزهر وقال إن ما يزعجه الآن «ليس هذا الكردي الشيوعي بل هؤلاء الأكراد الأكراد». كان يتحدث عن الهجوم الأخير الذي شنَّه الملا مصطفى البارزاني على دورية عسكرية في هضبة قريبة من كركوك. استخبارات الجيش أحصت آلاف المقاتلين المسلحين الأكراد يتحركون في مجموعات كبيرة بين أربيل والسليمانية ويخططون لهجومٍ واسع على كركوك الغنية بآبار النفط.

صدام حسين نظر إلى النجمات على كتف الرئيس البكر وصدره، ثم ترك رماد سيجارته يسقط في المنفضة. كان نسيم رطب يدخل من باب الشرفة المشرع. سمع أبواقاً من جهة دجلة، وشمَّ روائح طعام. قال الرئيس البكر عاقداً قبضتيه على المكتب:

ـ ثم هناك البصرة والخطر الشيعي الإيراني.

قال صدام حسين بصوتٍ جامدٍ:

ـ البصرة محلولة.

بعد سنوات طويلة، أثناء إقامته في البيت رقم ٢٩ في شارع القناصل في نيودلهي، تذكر القنصل العراقي سليمان عبد الرزاق ذلك الصباح البعيد من أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨ حين استيقظ العراقيون على «إذاعة بغداد» تبث أناشيد عسكرية قبل أن تعلن إحباط مؤامرة ماسونية لقلب النظام جرت فصولها في البصرة. في العاصمة الهندية المزدحمة بالبشر والأصوات منذ دقائق الصباح الأولى كان شارع القناصل المحمي بالحراس والشجر وحيطان السكون العالية يبدو كأنه خارج هذا

العالم. نهض القنصل العراقي سليمان عبد الرزاق من الفراش متمهلاً لئلا يوقظ زوجته غالا المستغرقة في نوم عميق. بينما يغسل وجهه في الحمام، ويضع معجون أسنان ماركة «كولينوس» على الفرشاة، تساءل الرجل الخمسيني ماذا ترى زوجته في المنام الآن. هو يرى العراق في مناماته، ويرى نهر الدون أحياناً، ومرات يستيقظ بإحساسٍ غريب لم يراوده منذ زمنٍ بعيد: يحسب للحظة، وهو ضائع عند الحافة الغامضة بين النوم واليقظة، أنه شاب عشريني يدرس الطب في موسكو ويمشي كل صباح إلى مقهى على ضفة الفولغا فيشرب القهوة والكونياك ويتحدث مع رفاق مصريين وسوريين يشتغلون هناك بترتيب خاص من «الرابطة الطلابية». أينما رحل تعلق الأنهار في رأسه منذ عرف ذلك الرفيق الصابئي القديم. حين سافر إلى القاهرة مع عبد الخالق السامرائي سهر ليالي على الكورنيش المقابل لفندق سميراميس يشرب الشاي مع خمرة الروم الكثيفة الحمراء أو من دونها، ويتفرج على أنوار الكهرباء تلمع على صفحة النهر. من الاتحاد السوفياتي لا يتذكر مشهداً طبيعياً أكثر مما يتذكر مشهد الدون عابراً السهول، ومشهد الفولغا متعرجاً تحت جسور موسكو وبين الأبنية القديمة الضخمة الساكنة. في لندن التقط صوراً فوتوغرافية لا تُحصى لساعة بيغ بن ولمبنى البرلمان. لم يكن مهتماً لا بالساعة ولا بالبرلمان. كان واقفاً على جسر يعلو التيمز، يتفرج على النهر، وعلى كلمات الشاعر وردسوورت منقوشة على الجسر بين أعمدة تحمل مصابيح كهرباء. لم يحبّ ذلك النهر: وجده وسخاً، يهدر بأبواق المراكب، والدخان يعلو في سحابات مازوت من مداخن السفن العريضة. زوجته غالا ماذا ترى في مناماتها؟ هل ترى دجلة الآن؟ أخذها إلى بغداد مرة واحدة فقط، وقالت إنها أحبّت النهر وأحبّت الناس. حين رآها أول مرة في طليطلة كانت جالسة في مقهى يشرف على نهر تاجة. على الطاولة رأى كوب شاي وكتاباً فنياً مفتوحاً. التفتت ورأته ينظر إليها من الطاولة المقابلة. كانت في

ثوب أبيض، يلفّ عنقها وشاحٌ كحلي قاتمٌ، وتغرق بوجهٍ حزين تحت قبعة قطن بيضاء. ابتسم ووقف مقترباً. تحدثا عن توليدو (قال نحن نسميها طليطلة)، عن صيادي السمك، وعن بيكاسو الذي تحبّ لوحاته القديمة فقط.

غسل القنصل العراقي سليمان عبد الرزاق فمه من الكولينوس، ثم غسل وجهه مرة أخرى ونظر في المرآة. أحصى التجاعيد في جبهته. عليه أن يقيس ضغطه حين تستيقظ غالا. ماذا ترى الآن في منامها؟ بيت طفولتها في فالنسيا (نحن نسميها بلنسية، يقول لها كي يسمع ضحكتها)؟ أم ذلك الفندق في غرانادا (نحن نسميها غرناطة) حيث قضيا عشرين يوماً في ذلك الصيف البعيد؟ كانت تريد أن تبقى أسبوعاً آخر في Hotel La Bobadilla ذاك، غارقةً في أحضانه وفي قلب متاهة خضراء من كروم العنب وشجر الزيتون وممرات الرخام المحاصرة بمساكب الورود ونوافير الماء. قال لها إنه لا يستطيع، عمله لا يسمح له بالابتعاد عن العاصمة كل هذا الوقت. في مدريد لم تقبل السكن في شقته المجاورة للقنصلية. نزلت في Hotel Ritz، وكان يأتي إليها كل ليلة عابراً Retiro Park بزحمة العشاق بين الشجر، متجاوزاً Prado Museum بالسياح الخارجين مع طنين الجرس الكهربائي، ملقياً نظرة سريعة على شبانٍ في ثياب أنيقة وربطات عنق يغادرون مبنى البورصة، ويده في جيبه تتحسس مفاتيح. كانا يتحدثان بالفرنسية والإنكليزية والإسبانية معاً. أخبرته أنها كل حياتها لم تشعر مرة أن المال قد يعطيها السعادة. كل حياتها تعيش غارقة في ثروة العائلة ولا تهتم. لكن الآن اكتشفت أن للمال قيمة.

كانت تطلق ضحكات قصيرة كأنها تخشى على سعادتها من التبخر بينما يتمددان على السرير العريض ويسمعان الضجة الخافتة الآتية عبر بوابة الشرفة. قالت له إنها كرهت الفنادق دائماً. أمها كانت تأخذها من Hotel Sonvida في مالوركا إلى Hotel Puente Romano في

ماربيلا إلى Grand Hotel Residencia في جزر الكناري خلال يومين أو ثلاثة أيام. كل الوقت تنامان في فنادق، تأكلان في فنادق، تعيشان في شوارع وساحات ومطاعم بين فندقٍ وفندق. لم تحبّ ثروة العائلة يوماً. شعرت دائماً أن هذه الثروة لا تعطيها إلاّ الوحدة. قالت له غالا في ذلك الصيف الأسباني الأزرق السماء الثلجي الغيوم:

ـ الآن كل هذا تغيّر.

أرادت أن يترك عمله وأن يسافرا إلى مكان بعيد (Let's go to NewYork) ويقضيا كل الوقت معاً بلا أي عمل أو حاجة للانفصال لحظة، ما تملكه من مالٍ يكفي (!Oh my Love)، ألا يريد هذا، ألا يريد أن يمكثا في مكانٍ بعيد، وحدهما، دائماً؟ حين أخبرها أنه لا يستطيع الاستقالة من عمله، أن في ذلك خطراً عليه، وعلى أمه وأخيه، لم تفهم ماذا يقول (I don't understand). أخبرته أن أميركا شاسعة، هي درست في كاليفورنيا، وعاشت في أوهايو، وأختها تقيم في بنسلفانيا منذ سبع سنوات، وعندها أخت أخرى ـ كبيرة ولا تعرفها كثيراً ولا تتفقان ـ تحيا في شيكاغو مع زوج وعدد لا يحصى من الأولاد. نذهب إلى أي مكان. . . كانت تحكي ويداها تتلمسان جسمه، تعانقان وجهه، وكانت الروح تختنق فيه. قال لها إنه يريد أن يكون معها دائماً، لكن ما تقوله خطر ولن ينجح. هو يعرف ما لا تعرفه، يعرف حياته. هي لا تعرف حياته. أنتِ لست من العراق، قال لها. أخبرته بعد أسابيع أنها لا تهتم. لا تريد إلاّ أن يبقى إلى جانبها. تسكن في بيته. تسافر معه إلى بغداد إذا كان ذلك ضرورياً. المهم أن تظلّ قربه.

واقفاً في باب الحمام في المنزل رقم ٢٩ في شارع القناصل في العاصمة الهندية فكّر القنصل العراقي سليمان عبد الرزاق في حياته، وفكّر في بلاده المنكوبة، وفكّر في غالا وأصابعها الحزينة. تأملها

تتقلب في نومها، وطوال الوقت لم يستطع أن يبعد عن صدره ثقل الكابوس المرهق الذي أيقظه من النوم: كان يحلم أنه يعيش مرة أخرى ذلك الصباح البعيد من أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨ حين فتح الراديو وفهم أخيراً معنى كل تلك الصناديق التي توافدت من البصرة على مدى أسابيع.

في ذلك الصباح الكابوسي البعيد من أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨ أعلنت «إذاعة بغداد» إحباط قوى الأمن العراقية «مؤامرة ماسونية على النظام والوطن والأمة». خلال أيامٍ قليلة، في بيانات جديدة من القيادة والرئاسة والاستخبارات العسكريةِ و«أمن الدولة»، ظهرت أمام الشعب العراقي صورة المؤامرة وأبعادها. طوال ذلك الخريف عمَّت الشائعات البلاد. «لا دخان من دون نار». ومع كل بيانٍ من الإذاعة تُقتحم بيوت ويختفي رجال. في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٨ أعلنت الحكومة، في بيانٍ لوزير الداخلية العقيد عمّاش، أن «أمن الدولة» كشف خلية تجسس صهيونية خطيرة في مدينة البصرة جنوب البلاد. طائرة عسكرية أقلعت من مطار البصرة بـ١٧ يهودياً أُثقلوا بالحديد ونُقلوا في عربات تخص «سجن بغداد» إلى «قصر النهاية». أُلقي القبض على مدير فرع شركة كوكاكولا الأميركية في العراق. ظهر الرئيس البكر على التلفزيون قبل إذاعة نشرة الأخبار المسائية وأعلن أن الأجهزة الأمنية الساهرة على حماية العراق وشعب العراق من الأعداء ومن الطابور الخامس ومن المشبوهين كشفت أخيراً خطة جديدة ومؤامرة شريرة تستهدف قلب النظام من أجل كسر صمود العراق الشجاع في مواجهة الخطط الرجعية والجشع الصهيوني ومؤامرات الامبريالية. في المكتب الرئاسي في القصر الجمهوري تلك الليلة اقترح صدام حسين على الرئيس البكر خطوة أخرى لحشد الجماهير.

في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٨، خلال توترٍ على الحدود الأردنية ـ الإسرائيلية، فتحت المدفعية العراقية المرابطة هناك النار على

الجيش الإسرائيلي. العراقيون نزلوا إلى الشوارع. كوادر «البعث» والفِرق الطلابية التابعة للحزب قادت التظاهرات في بغداد والموصل. اللافتات طبت من الرئيس البكر قيادة حرب شاملة على إسرائيل واستعادة فلسطين من المغتصب الصهيوني. سليمان عبد الرزاق سهر ليلة في بيت عبد الخالق السامرائي. كان البيت مزدحماً بالرفاق. ماشياً في شوارع بغداد تك الليلة، سمع سليمان عبد الرزاق هتافات ورأى زجاجات بيرة تنكسر على حيطان وأيقن أن حياته تنحدر يوماً بعد يوم إلى هاوية تزداد عمقاً كلّما مضى الوقت. في ٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨ ردّت إسرائيل على القنابل العراقية بغارة جوية أسقطت ١٦ قتيلاً وخمسين جريحاً. التوابيت الملفوفة بالأعلام العراقية طارت من عمان إلى بغداد وسط تظاهرات حاشدة عمَّت العواصم العربية. في أوكار «البعث» أُفرغت سطول طلاء جديدة، وظهرت لافتات قديمة أزيلت عنها كلمات بائدة مثل «عارف» أو «طاهر يحيى» وكُتب في مكانها «إسرائيل» و«الطابور الخامس» و«اليهود» و«أميركا». البعض رفع لافتات توجه تحية إلى «الضابط البطل رئس الأركان فيصل الأنصاري».

توقفت حركة السير في شوارع بغداد والموصل والرطبة وامتلأت الساحة بحشود هائجة غاضبة. في المقاهي عُلقت التلفزيونات في أماكن مرتفعة. الرئيس أحمد حسن البكر ظهر على الشاشة مرّة تلو أخرى، بالبذلة العسكرية والقبعة المائلة وحزام الجلد على صدره وحول خصره. كان حازماً، كلماته تخرج حارقة كالنار من تحت شاربه الرفيع، ورموشه لا ترف.

من ميدان التحرير سارت تظاهرة إلى القصر الجمهوري. لم تكن تظاهرة. كانت جنازة. توابيت الجنود الذين عادوا في أكفانٍ من مواقعهم على الحدود الأردنية ـ الإسرائيلية، طفت فوق الأيادي سابحةً في فضاء ذلك الشتاء المكفهر. الغيوم جعلت ليل بغداد يبدأ قبل غروب الشمس. كان النهار يقصر، والليل يطول. المتظاهرون

العراقيون حملوا على الأكف ١٦ تابوتاً و٣٣ فدائياً فلسطينياً أحياء أتوا من الأردن بدعوة خاصة من الجمهورية العراقية للمشاركة في الاحتفالات. على مدى ساعتين خاطب الرئيس أحمد حسن البكر الجماهير في احتفال نقله التلفزيون العراقي مباشرة على الهواء. النهار الشتائي القصير بدا طويلاً.

ـ بينما يتعرض جيشنا الباسل لهجمات العدو الصهيوني الغادر نواجه في داخل البلاد أعمالاً تخريبية يقودها الطابور الخامس والمتعاونون الأقلية مع أميركا وإسرائيل. هؤلاء الذين يختفون وراء جبهات وشعارات وأحزاب صار الشعب يرى من خلالها ويفهم ماذا تخفي. هؤلاء المشبوهون الذين ينفذون خططاً ويلعبون دورهم في المؤامرة الأميركية. بالتخريب والقتل ونشر الشائعات المغرضة يحاربون جيشنا الباسل في قلب بيته. الخونة الذين يريدون إلهاء الجيش عن العدو الصهيوني. هؤلاء الخونة ماذا تريدون أن نفعل بهم؟ أدوات الامبريالية والصهيونية ماذا نفعل بهم؟

بعد كل سؤال من الرئيس البكر كانت الموجة تعلو في الحشد والصراخ يشق سماء بغداد:

ـ الموت للجواسيس! الموت للجواسيس!

مساء ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨ بث التلفزيون العراقي محاكمة ثورية لرؤوس «المؤامرة الصهيونية المدبرة ضد العراق». هذه المحاكمة التلفزيونية أطلقت سلسلة محاكمات ثورية أعادت العراقيين إلى عصر عبد الكريم قاسم. لكن غير المألوف في هذه المحاكم الجديدة كان مفاجآتها التي لا تُحصى: حين اقتربت الكاميرا من وجوه المعتقلين بثيابهم النيلية اللون (تظهر الملابس سوداء في التلفزيونات) رأى العراقيون أن قفص الإتهام لا يحوي فقط يهوداً وشخصيات معروفة بعدائها لحزب «البعث»، إنما يحوي أيضاً مسؤولين بعثيين

وضباطاً كباراً! حتى رئيس الأركان الضابط فيصل الأنصاري ظهر في قفص الاتهام. في محاكمة أخرى ظهر رئيس الوزراء السابق عبد الرحمن البزاز، ووزير الداخلية السابق رشيد مصلح، ووزير الدفاع السابق عبد العزيز العقيلي وأمين عام بعث العراق القديم الشيعي فؤاد الركابي. وزير الداخلية السابق رشيد مصلح الذي ترك «البعث» وانضم إلى الرئيس عبد السلام عارف في ١٩٦٣ اعترف بالتجسس لمصلحة الـ CIA، فأُعدم بعد يومين من اعترافه. عبد الرحمن البزاز وعبد العزيز العقيلي لم يعترفا بارتكاب الجرائم التي اتهما بهما، فأودعا السجن. رئيس الأركان المخلوع فيصل الأنصاري حلف على الشاشة الصغيرة أن لا علاقة له بالخطة الفظيعة التي حبكها المتآمرون في البصرة لمصلحة أميركا وإسرائيل وإيران، ثم أعلن أنه بريء ولا يريد إلاّ الخير للعراق. حُكِم عليه بالسجن ١٢ عاماً بتهمة التآمر على الدولة.

المحاكمات العلنية على التلفزيون كانت نصف المحاكمات الجارية. خلال تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٨، في ليلة ظلماء لا يرى فيها الواحد إصبعه أمام وجهه، خُطِف وزير الخارجية السابق ناصر الهاني من أمام باب منزله. الزوجة التي سمعت البوق المألوف أسرعت إلى الباب تفتحه لزوجها العائد إلى البيت. فتحت الباب وأضاءت المصباح في اللحظة ذاتها فرأت في الضوء الضعيف باب السيارة مفتوحاً وحقيبة زوجها مطروحة على الأرض. لم ترَ زوجها. فقط لمحت سيارة تختفي وراء المنعطف. بعد ثلاثة أيام عُثِر على وزير الخارجية السابق ناصر الهاني جثة هامدة ملقاة في بورة وممزقة بالرصاص. «الجمهورية» نقلت الخبر على الصفحة الثانية واتهمت المجرمين واللصوص بالجريمة الفظيعة. بعد أيام وُجِد العقيد عبد الكريم مصطفى نصرت، الضابط البعثي العراقي المقرب من بعث سورية وحركة صلاح جديد، مطعوناً بخنجرٍ معقوف في سريره.

وجدته الخادمة حين جاءت تنظف البيت صباح يوم الجمعة. هذه المرة ألقت الشرطة القبض على القاتل: كان لصاً بدوياً اعترف بالجريمة خلال التحقيق وأُعدم. أمين عام بعث العراق الأول فؤاد الركابي سمع الخبر في سجنه. المحكمة حبسته سنة ونصف فقط بسبب «تعاونه مع المحققين» وكشفه معلومات «ضرورية وماسة ومفيدة» أمام «أمن الدولة». قبل أيام قليلة من موعد إطلاق سراحه، بعد سنة ونصف على ظهوره التلفزيوني، استيقظ باكراً وحلق ذقنه ولبس ثيابه. حين انفتح باب زنزانته الانفرادية ابتسم. ابتسامته لم تكتمل. دخل رجل ضخم الجثة يرتدي ملابس السجناء النيلية وطعنه ثلاث طعنات في صدره. الحراس دخلوا وأبعدوا الرجل الضخم ثم نقلوا الركابي إلى المستوصف. ممدداً على ظهره، وسط غرفة بيضاء تفوح برائحة المطهرات والأدوية، انتظر الركابي الأطباء. لم ينتظر طويلاً. خلال أقل من عشرين دقيقة نزف جسمه كل ما فيه من دم. بعد أن هوت ذراعه عن السرير اقترب طبيبٌ وغطاه بدثارٍ أبيض رقيق.

قبل نهاية ذلك الشتاء الكئيب كشفت الأجهزة الأمنية الساهرة في البرد والزمهرير والمطر ـ «أجهزة البعث وأجهزة الدولة وأجهزة الشعب العراقي» ـ مؤامرة أخرى تورط فيها مسلمون وأكراد ويهود معاً. على التلفزيون سمع العراقيون التفاصيل التي بدت شبه خيالية. مؤامرة صهيونية ـ إيرانية ـ لبنانية برز فيها اسم الرئيس اللبناني الأسبق كميل شمعون وحليفه الثري هنري فرعون: الرجلان مولا عملية تهريب سلاح عبر الحدود الإيرانية ـ العراقية، وعملية تفجير جسر في البصرة (ذلك الجسر الذي اعتقد العراقيون أنه سقط بسبب خطأ هندسي واصطدام بين شاحنتين)، وعملية تمرين يهود عراقيين في جبال كردستان على حمل السلاح، وعملية نقل أموال من إسرائيل عبر إيران إلى الأكراد في شمال العراق وبأكثر من وسيلة بينها استئجار سفينة نقل باكستانية وأخرى أميركية. المتورطون في المؤامرة من العراقيين اعترفوا

بالجريمة وأثبتوا اعترافاتهم خطياً مع تواقيعهم وبين هؤلاء صاحب الكوكاكولا وصاحب وكالة شركة فورد في العراق.

في نهار صافٍ من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩ علقت المشانق في ساحة التحرير في قلب بغداد. ١٥ رجلا أُعدموا: ٩ يهود و٣ مسلمين و٣ أكراد. العواميد نُصبت متباعدة كي يتاح لأكبر عددٍ من البشر المتظاهرين مشاهدة العدالة الثورية. مئات الآلاف تدفقوا عبر الشوارع إلى ساحة التحرير. «الثورة» قدرت عدد الحشود بمليون نسمة. وزير الإرشاد عضو مجلس قيادة الثورة صلاح عمر العلي خَطَب في الجماهير، بينما الريح تتلاعب بالجثث المعلقة ذات الأعناق الممطوطة، ووعدهم أن هذه هي البداية فقط:

- يا شعب العراق العظيم! العراق لن يقبل بعد اليوم خونة في صفوف الأمة، لن يقبل جواسيس، لن يقبل عميلاً، ولن يقبل طابوراً خامساً!

الهتافات كانت تطغى على صوت الوزير. استجمع صلاح عمر العلي أنفاسه في الهواء البارد النقي، وتابع:

- يا إسرائيل، يا أميركا، أيتها الامبريالية، اسمعوني! سوف نكتشف كل ألعابكم القذرة! سوف نعاقب عملاءكم ونشنق جواسيسكم حتى ولو كانوا بالمئات، حتى ولو كانوا بالآلاف، حتى ولو كانوا بالملايين...

كان صراخ الحشد يثير حماسة لا نهائية في صدر وزير الإرشاد. أحد الرفاق خلفه اقترب وهمس شيئاً في أذنه. هزّ وزير الإرشاد رأسه ثم رفع يداً عالياً:

- حتى لو كان الجواسيس بالعشرات والمئات سوف نعدمهم يا شعب العراق العظيم! هذه هي البداية فقط!

نُصبت المشانق في البصرة كما نُصِبت في بغداد. الخطابات

أكَّدت على وجوب إعدام الطابور الخامس في البلاد كلّها والقضاء على الخونة المتعاملين مع إيران وإسرائيل وأميركا. أهل البصرة(المدينة ذات الأكثرية الشيعية الواقعة على بُعد رمية سهم من حدود العراق الجنوبية مع إيران) اكتشفوا في تلك الأيام الأولى من ١٩٦٩ أنهم تحت مراقبة خفية لا ترحم. سقطت وجوههم. كفّوا عن الضحك في الأسواق.

الرئيس البكر عَرَضَ على جناح الحزب الشيوعي المعارض (قيادة عزيز الحاج المركزية) الدخول في الحكومة. كان يقدم عرضه للمرة الثانية. رَفَضَ عزيز الحاج.

اجتمع الرئيس البكر مع نائب أمين عام مجلس قيادة الثورة غير المعلن، ساعده الأيمن الرفيق صدام حسين. في المكتب العالي بالشرفة المطلّة على دجلة شرب الرئيس البكر شاياً، وشرب رئيس الأمن صدام حسين كوب قهوته المرّة بالحليب البارد. الرئيس البكر، بينما ينفض غليونه، سأله عن شرابه باسماً. أجاب صدام حسين:

ـ فنجان قهوة مرّة أُفرِغه في كوب حليب بارد رفيق.

الرئيس البكر حشا غليونه تبغاً ثم سأله:

ـ وعزيز الحاج؟

أجابه صدام حسين:

ـ تتكفل به «حنين».

عزيز الحاج الشيعي الكردي المولود في مزرعة جائعة عام ١٩٢٦ انتسب إلى الحزب الشيوعي العراقي مطلع أربعينات القرن. جمع بين القوة الجسمانية كمناضلٍ ضد السلطة الملكية وبين التنظير الماركسي كمشرفٍ على نشرة الحزب: «القاعدة». في ١٩٤٨ أُلقي القبض عليه وعُذب. ظلّ يشتم أعداء الشيوعية حتى غاب عن الوعي. نوري السعيد نسيه: رقد عزيز الحاج في سجنٍ تحت الأرض عشر سنوات. بعد ثورة ١٩٥٨ خرج إلى نور بغداد بوجهٍ أبيض كالشمع ولسان ثقيل وعينين

ناعستين. بعد أسبوع واحد انتخب عضواً في اللجنة المركزية. في ١٩٦٣ قاوم السلطة البعثية، وحين طارده الجيش فرَّ إلى المنفى. رجع في زمن عارف. بعد نكسة الـ ٦٧ دخل في خلافٍ شرس مع اللجنة المركزية ثم قاد انشقاقاً. حاول أن يخطف اللجنة المركزية في هجوم مباغت لكن الأقدار عاكسته. أعلن أمام رفاقه في الجناح الجديد أن السلطة لا تؤخذ إلاً بالقوة، وأن السلاح وحده يتكلم ولا بدَّ من تسليح الشعب. اللجنة المركزية ردّت بالدخول في حكومة «البعث» على أساس أن اجتماع القوى الوطنية يشكّل جبهة قادرة على مناهضة «الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية».

في ذلك الصيف الحار، قبل أن تهبّ نسائم الخريف العليلة، ظهرت جثث شيوعيين من جناح عزيز الحاج تطفو منحدرة مع مياه دجلة. مرَّ صباحٌ بلا جثث ثم أشرقت الشمس من جديد، وفي هذه المرة كشف النور ثلاث جثث في مكب نفايات عند أطراف الرصافة. عزيز الحاج، محاطاً برفاقٍ مسلحين، أخرج كلماته مسنّنة قاسية:

- يحسبون أنني عبد الرحمن السكران عارف.

في ليلةٍ رطبة، بينما صدام حسين يترجل من سيارته أمام بيته الجديد في الجهة الأخرى من الكرخ ظهرت سيارة مسرعة آتية من وراء المنعطف. خلال لحظة خاطفة، في رمشة عين، تحول الشارع ميدان قتال. الرصاصات الأولى قصّت مسكة باب السيارة وكادت تقطع أصابع صدام حسين. المرافقون أسقطوه أرضاً ثم فتحوا النار على السيارة المهاجمة. ساجدة خير اللّه طلفاح كانت عندئذٍ في الحوش تسقي شتلات فليفلة حارة زرعتها قبل أسبوع فقط. ركضت إلى البوابة لكن الحارس اعترض دربها. صرخت به:

- اخرجْ.

أرادته أن يخرج ويرى ما يحدث. الحارس أشار بإصبع حازمة

إلى ثقبٍ في بوابة الخشب السميكة ولم يقل شيئاً. كانت أوامره لا تقبل نقاشاً:

ـ ممنوع فتح البوابة في حال حدوث إطلاق نار في الشارع. قد يكون ذلك فخاً للهجوم على البيت.

ساجدة خير اللّه طلفاح رأت عبر الثقب سيارة زوجها محطمة الزجاج مثقوبة بالرصاص. في نور الأصيل رأت قريبها برزان التكريتي يخطف رشاشاً عن الأرض ويقفز راكضاً. كان يطارد السيارة الهاربة وسمعت صرخات تتعالى في الجهات الأربع. التفتت ورأت ابنها عدي راكضاً إليها. حضنته، كبست وجهه على بطنها، ثم ألقت نظرة أخرى على الشارع، وصرخت بالحارس أن يفتح الباب حالاً:

ـ كلب!

كانت كلمة بعنف رصاصة. انهالت طرقات على الباب ثم سمع صوت رئيسه. حين فتح الحارس البوابة رأى وجوهاً غارقة في الدم.

لم يصب صدام حسين برصاصة واحدة. زجاج النوافذ المنفجرة جرح جبهته وباطن يده اليسرى. ساجدة خير اللّه طلفاح حسين أرادت أن ترضع طفلها قصي تلك الليلة فاكتشفت أن الحليب جفّ في ثدييها. عدي لم ينم إلاّ ثلاث ساعات ثم استيقظ من النوم باكياً. حملته إلى السرير مرة أخرى وسألته ماذا يوجعه. قال إنها بطنه ووضع يده على رأسه. ضمته وغنّت له «نامي نامي يا صغيري» إلى أن غرق في النوم من جديد. كانت الساعة تقارب الثانية فجراً. وضعت روب النوم على كتفيها وظهرت في الحوش. رأت عدداً لا يحصى من المسلحين ولم ترَ زوجها. ثم ظهر أخوها عدنان، بمسدس في يده، وبندقية معلقة من كتفه. أمسكها من كتفيها ونظر في وجهها. قال لها:

ـ روحي نامي.

صدام حسين كان عندئذٍ في مركز أمن البعث الرئيسي يجري

اتصالات بالهاتف وبجهاز اللاسلكي.

عند الرابعة فجراً بينما يسمع صوت ناظم كزار من الجهة الأخرى يخبره أنهم اقتحموا بيت عزيز الحاج ولم يجدوا أحداً، أحسّ صدام حسين بضغط هواء مخيف يرفعه عن الكرسي سنتمترات قليلة، بينما انفجار هائل يُدوّي في أرجاء المركز وجهاز اللاسلكي يطير من بين أصابعه. السيارة الملغومة التي انفجرت في الجانب المقابل من الشارع أحرقت السيارات المجاورة، كسرت زجاج البيوت في الحيّ كلّه، وأوقعت ٣ قتلى و٢٢ جريحاً بين الرفاق المحتشدين تحت مصابيح الشارع يدخنون السجائر ويجرعون بيرة باردة.

كان الهاتف يرنّ. رفع صدام حسين السماعة وسط الجلبة والصراخ وسمع صوت الرقيب عاطف عبد الحسين من «أمن الدولة» يعلمه أنهم عثروا على مخبأ عزيز الحاج وأنهم يحاصرونه في هذه اللحظة. صدام حسين أوشك أن يصرخ في الهاتف:

ـ اقتلوه!

لكن صوتاً آخر في أعماقه ـ ذلك الصوت الذي يسمعه دائماً في ليالي الأرق جالساً في كرسي الخيزران ـ خرج هادئاً من فمه:

ـ انتظروا وصول ناظم كزار. أريد الحاج حيّاً.

عند الخامسة إلاّ خمس دقائق، بينما الشمس تنير سماء بغداد وجميع أزقة المتاهة المصنوعة من خشبٍ وحجر وطين، أطلق عزيز الحاج الرصاصة الأخيرة من مسدسه، ثم رفع عبر الكوة قميصاً بيضاء.

وصل صدام حسين إلى «قصر النهاية» عند السابعة إلاّ ربعاً. ناظم كزار استقبله في البهو الملكي:

ـ لم يلمسه أحد بحسب أوامرك.

سأله صدام حسين:

ـ أين هو؟

نزلا درجاً حجراً مبرياً في الوسط إلى تحت الأرض. كأنهما يهبطان إلى قعر بئرٍ. قال ناظم كزار:

ـ لن يتعاون الآن. اتركني معه ساعة ثم ترى.

صدام حسين لم يقلْ شيئاً. لكنه استطاع قراءة أفكار ناظم كزار في تلك اللحظة كمن يقرأ في كتابٍ مفتوح. رفع يده في حركة تفيد أنه لا يريد أن يسمع هذا الحديث الآن. أدّى أحد الرفاق التحية الحزبية ثم دفع باباً. ظهرت غرفة دائرية منارة بالنيون. في مركز الغرفة جلس عزيز الحاج مقيداً إلى كرسي، عيناه مفتوحتان والمخاط يسيل من أنفه.

اقترب صدام حسين خطوة، سكت دقيقة، ثم قال:

ـ أريد أن تعترف على التلفزيون بكل المؤامرات الشيوعية وبكل مؤامرات أعداء «البعث» ضد حزبنا وضد العراق وضد الأمة العربية. هذا ما أريده منك الآن.

في الزاوية وقف ناظم كزار يحدق إلى عزيز الحاج، ويفكر في أصناف تعذيب لا تُحصى: عليه أن يعمل على هذا الشيوعي العتيق ساعات وساعات وساعات. هذا رجل ذاق التعذيب مراراً وقضى في السجن عشر سنوات. لكن أساليب التعذيب تطورت، وهؤلاء الأقدمون ـ رجال نوري سعيد ـ ما كانوا يوماً أصحاب مخيلة، وأصحاب موهبة. عقد ناظم كزار يديه وراء ظهره وانتظر كلمات عزيز الحاج المتحدية. كلّهم هكذا في البداية، أقوياء أشاوس لا يضعفون. لكن بعد ذلك، بعد إطفاء السجائر في العيون، بعد لسعة الكهرباء على الأظافر، بعد المطرقة على أصابع القدمين، بعد ذلك يختلف الوضع.

صدام حسين قطع حبل أفكار ناظم كزار:

ـ عزيز أريد جوابك الآن! عندي اجتماع في القصر.

رفع عزيز الحاج وجهه. قال بصوتٍ ساكن:

ـ لا أريد أن يعذبني أحد. اكتبْ لي كل الاعترافات وأنا أقرأها على التلفزيون.

باعترافات عزيز الحاج المتلفزة تلقى الحزب الشيوعي العراقي أقسى ضربة في تاريخه منذ إعدام الأمين العام الرفيق فهد. بين ليلة وضحاها تحول الشيوعيون من مناضلين إلى خونة وعملاء ومجرمين.

بعد سنوات طويلة، أثناء إقامته في باريس ممثلاً العراق في منظمة اليونسكو، كتب عزيز الحاج مذكراته «مع الأعوام»، فاستعاد تلك الاعترافات المتلفزة ورجع في العمر عشر سنين إلى خلف، وأكد أن كل ما قاله على الشاشة الصغيرة في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩ كان صحيحاً وأنه لم يلفظ كلمة واحدة تحت الضغط. في مقابلة صحافية مع «اللوموند» كشف أن كل ما تنسجه المعارضة العراقية من شائعات حول اضطهاد أو تعذيب في العراق هو ببساطة أمر غير صحيح، وما على هؤلاء إلاّ الرجوع إلى الوطن ورؤية الأوضاع بعيونهم. عمليات التعذيب النادرة التي حدثت في «قصر النهاية» جرت في عصر الملكية وربما في عصر عبد الكريم قاسم أو عصر الرئيسين الأخوين عارف وعارف. لكن ثورة ١٧ تموز (يوليو) ١٩٦٨ أقفلت إلى الأبد أقبية ذلك القصر المشؤوم. في شقته الباريسية العالية جلس عزيز الحاج يشرب النسكافيه ويأكل الكرواسون الفرنسي المشبع بالسكر والزبدة، متفرجاً على السين يجري تحت سماء زرقاء موشحة ببياض الغيوم. لم يكن يرى كل هذه الألوان. في تلك الليلة البعيدة، بينما صدام حسين واقف فوق رأسه ينتظر جواباً وناظم كزار يلتصق كالعنكبوت بزاوية الجدار، نزلت مياه زرقاء في عينيّ عزيز الحاج الاثنتين. حين فتح عينيه مواجهاً كاميرا التلفزيون باعترافاته المخيفة رأى طاقم التصوير موزعاً حوله في ثياب بيضاء وسوداء، ورأى مسلحين يقفون في الباب بثياب عسكرية سوداء، ورأى أن الوجوه ذاتها كانت بيضاء أو سوداء، والورود في المزهرية على الطاولة كانت سوداء، وأصابعه بيضاء، وورقة الاعترافات

بيضاء مغطاة بحروف سوداء تشبه الحشرات، والسقف أبيض والحيطان بيضاء. بعد التصوير أخرجوه إلى شرفة فرأى السماء بيضاء، ورأى دجلة أسود كما يروي المؤرخون أن لونه صار بعد أن رُميت فيه مجلدات المكتبة المستنصرية في الزمن السحيق، ورأى بغداد سوداء ورأى الأفق أبيض. فرك عينيه كي يرى بالألوان مرة أخرى. بينما العراقيون في أنحاء البلاد وإلى آخر نقطة يبلغها الإرسال يتابعون على الشاشة الصغيرة اعترافات عزيز الحاج بالأبيض والأسود. فرك عينيه حتى سالت الدموع على خديه. الدموع كانت سوداء، جمعها في حفنة، وأسقطها من باطن كفّه ورآها تهوي في الفضاء. ومال بجسمه الأسود على الدرابزين الأسود ورأى جنوداً في الأسفل والخوذ السوداء والمدرعات السوداء والسيارات السوداء، ورأى بائع ذرة ورأى بائع فستق، ولم يرَ لون الذرة الأصفر، ولم يرَ لون الفستق الأحمر. وحين رفع رأسه مرة أخرى رأى العالم أسود وأبيض يمتد إلى آخر لحظة في حياته. واعترف في سرّه أن السماء ليست فارغة كما كان يحسب، وأن ماركس لم يكن دقيقاً في فلسفته، وأن الرفيق ستالين أخطأ حين اعتبر المادة سابقة على الروح. كان الهواء أبيض يداعب وجه عزيز الحاج الأبيض، وقال عزيز الحاج في نفسه أنه يعترف، الآن يعترف أمام نفسه أن هذا العقاب الإلهي صائب وأنه بالتأكيد يستحق ألا يرى ألوان العالم بعد اليوم: لن يرى زُرقة السماء التي حُرِم من رؤيتها عشر سنوات بسبب الإنكليز والملوك ونوري السعيد. لن يرى ألوان الفواكه والخضر التي طالما تمنى أن يذوقها في طفولته الجائعة القاسية. لن يرى صفرة الشمس الحلوة، ولن يرى صفرة بيض الدجاج. لن يأكل صفار البيض المسلوق إلا أسود اللون كأنه صفار فاسد. وحبّة البندورة سوف يقضمها سوداء كالحبر. وحين يجرح ذقنه بالشفرة بينما يحلقها في الصباح سوف يرى طوال أيام وأسابيع وشهور وسنوات قطرات دم بلون الفحم تسيل على بشرة طبشورية البياض. أمسك عزيز الحاج درابزين

الشرفة بيديه الاثنتين ونظر إلى مدينة سوداء ونهر أسود وسماء سوداء، وقال هذه هي حياتي حتى أموت، وقال هذا عقابي، وقال قبلت هذا العقاب. كان راضياً مسروراً. ذات ليلة خريفية حلوة الهواء توقف في دكانٍ صغير قبل أمتار من شقته الباريسية واشترى بعض الإجاص الأسود والخبز العربي الأسود والجبنة البيضاء (أحياناً يتغيَّر لونها بغتة إلى أسود) والبندورة السوداء و٢٥٠ غراماً من مارتديلا الخنزير السوداء. كان جائعاً والطقس الباريسي البديع يزيده جوعاً. أراد أن يقطع الشارع العريض إلى الجانب الآخر. حدّق إلى الإشارة الضوئية غير عارف الأحمر من الأخضر من الأصفر، كل الألوان سوداء وبيضاء، وهو عادة يعرف الإشارة من مكانها: حَفِظ مكان المصباح الأحمر وحَفِظ مكان المصباح الأخضر. وأحياناً يلجأ إلى الطريقة الأبطأ لكن الأقل خطراً: ينتظر الآخرين كي يتحركوا ثم يتحرك معهم. كان واقفاً في المساء الجميل والناس يمشون حوله بالأسود والأبيض. السماء كانت سوداء، الأبنية سوداء، ووحدها الخطوط في الشارع ومصابيح السيارات كانت باللون الأبيض. الجوع داهمه. وبحدسه الحيواني الذي يصيب دائماً عرف أن السماء تترصده. أيقن أن خطر الموت ينتظره وسط هذا الشارع العريض. إذا أخطأ وتحرك في اللحظة غير المناسبة ستصدمه سيارة وتقتله. لا يريد ذلك. يريد أن يصعد إلى شقته، أن يتناول الجبنة والمارتديلا والخبز والبندورة، ثم أن يأكل إجاصة. لا يهمه لونها. يغمض عينيه ويأكل، وفي البراد قنينة نبيذ أبيض بقيت من سهرة البارحة، من مغربية الأمس الجميلة، قالت إنها عاشت طفولتها في الدار البيضاء لكنها أحسَّت نفسها دائماً فرنسية. وغداً يراها مرة أخرى، وغداً ليلة أخرى. والحياة هي هذه الأيام والليالي وهو يريدها كلّها. الحياة لمن يحبّ الحياة. وهو يحبّها. والسماء وحدها تعلم أي عذابات تحمَّلها قبل بلوغ هذه النقطة. وقف شبان وفتيات قربه ينتظرون الإشارة الضوئية. ابتسم ومن دون انتباه

تذكر رفاقاً قدامى: محمد القادري وكاظم الجاسم وعزيز حميد وثابت حبيب وعلي يحيى ويوسف البارزنجي. هاجمته الوجوه القديمة بغتة وأحسّ للحظة أنهم يحيطون به أحياء يرزقون رغم أنه يعلم علم اليقين أنهم قضوا قتلاً وبعد تعذيب بطيء في الأسابيع التي أعقبت اعترافاته المتلفزة. أتوا جميعاً ووقفوا عن يمينه ويساره، بعضهم سُجن معه في أيام نوري السعيد، في عصر الملكية. كانوا يقفون بثيابٍ سوداء مخططة بالأبيض، كالسجناء في الأفلام الأميركية، وكانوا يحدقون إلى الفراغ الأسود أمام عيونهم المتسعة بالبياض، ولا ينظرون إليه. ماذا أتوا يفعلون هنا؟ كيف عبروا المسافات من أقبية «قصر النهاية» إلى مونمارتر؟ ولماذا لا ينظرون إلى وجهه؟ أحسّ للحظة أنه غير موجود، أنه ميت، ثم فكّر أن هذا معقول. منذ فتح عينيه أمام تلك الكاميرا ورأى تلك الكلمات المسمومة السوداء على الورقة البيضاء فقد حياته. لم يعد عزيز الحاج. السماء أضاعت لونها الأزرق. وهو أضاع حياته. هو ميت الآن. هذه حياة الموتى. هكذا ترى عيون الموتى. كانت لحظة من الإرتباك، لحظة من غياب الصفاء، ثم تبدّدت الرؤيا: اختفى الرفاق القدامى في الهواء بلا أي صوت، كما اختفوا قبل زمن بعيد بلا أي أثر في زنازين ناظم كزار. اختفوا وبقي عزيز الحاج وإلى جانبه مجموعة عشاق في ثياب حديثة، شبان وفتيات، يتبادلون قبّلاً وضحكات وسجائر، مثله هو وصاحبته المغربية التي نشأت في الدار البيضاء لكنها أحسَّت دائماً أنها فرنسية. في تلك اللحظة تغيّر ضوء الإشارة وتحركت المجموعة الضاحكة على إيقاع موسيقى جسمانية غير مرئية. كانت رائحة أجسادهم قوية، عبقت في الفضاء، امتزجت برائحة جبنة الماعز الطازجة في كيس الورق الذي يحمله، وامتزجت برائحة الإجاص البلجيكي الناضج يقطر سكراً عبر قشرته الرقيقة. قطع عزيز الحاج الشارع العريض بخطوات واسعة حامياً جسمه من أي سيارة قد تظهر بغتةً، بمجموعة الأجساد الضاحكة الفتية. حين بلغ الرصيف

ابتسم لنفسه. بعد خطوات قليلة ظهر مدخل البناية حيث يقطن منذ سنوات. يحبّ هذه المدينة. رفع رأسه ورأى نجوماً بيضاء في سماء سوداء. كان مشهداً باهراً قلّما يتاح له أن يرى مثله. حتى البنايات بدت بيضاء في الليل الأسود. في تلك اللحظة أحسّ إحساساً خارقاً: لو فتح الكيس الورق سوف يرى الإجاصة صفراء، سوف يرى حبّة البندورة حمراء. كان إحساساً غريباً لم يزاوله منذ أمدٍ بعيد. وقف في مدخل البناية، تحت ظلّة القماش، وفتح الكيس ونظر في جوفه. نور مصابيح الشارع والبناية نزل أبيض كالثلج في الكيس. رأى الإجاصة سوداء وحبّة البندورة سوداء والمرتديلا سوداء، ورأى لون الجبنة أيضاً أسود. أراد أن يشتم السماء لكنه انتبه إلى الحاجب يفتح له البوابة ويقف جامداً كالتمثال بحاجبين مرفوعين وملامح غامضة. ماذا يريد منه؟ بقشيشاً؟ لم يعد يهوى الطبقة العاملة. هذه البروليتاريا لا تفهم شيئاً، لا تعرف قيمة الحياة. النضال يُعمي البصر والبصيرة. قال عزيز الحاج إنه لا يميل إلى هذا الحاجب الواقف كالغبي، كالتمثال، بوجهٍ يريد أن يخبرك شيئاً لكنه لا يفعل. بينما يخطو إلى الأمام انتبه عزيز الحاج إلى صوتٍ غريبٍ خلفه. قبل أن يستدير رأى انعكاس أخيلة سريعة في زجاج البوابة وفي زجاج عينيّ الحاجب. كانت لطخات سوداء تعبر خاطفة على شاشات بيضاء كالثلج. نزلت صاعقة على رأسه. هوى إلى الأرض ثم انقلب على جنبه ورأى أنها لم تكن صاعقة. فوقه وقف رجلان يتشابهان كأخوين، أحدهما يحمل ندبتين متماثلتين على خديه. أراد أن يقول شيئاً، وأن يقول إنه يعرف... يعرف ماذا؟ الجملة لم تكتمل في رأسه. أراد أن يفتح فمه لكنه رأى ساطوراً لامعاً يخرج من معطف أسود ثم سمع الخبطة، عميقة، كأنها خبطة في غرفة أخرى، في شارع آخر، ولم يعد يعرف أين هو. شخط الدم من جسمه وأضاع رأسه. أين أنا؟ تدحرجت رأس عزيز الحاج في الشارع ثم ارتطمت بغطاء حديد وتجمدت. كان ذلك غطاء مجرور تركه عمال البلدية

مرفوعاً. عزيز الحاج رأى بعينين متسعتين، جسماً مقطوع الرأس في مدخل البناية Belle حيث يعيش منذ سنوات. كانت الدماء تنوفر من الرقبة وكانت سوداء قاتمة كالحبر. الجسد انتفض بذراعه اليسرى وساقه اليسرى. مكث جسد عزيز الحاج ملقياً على جانبه الأيمن، ينتفض كثورٍ مذبوح، والدم يشخط في صوت هامسٍ غير مسموع، والرائحة الزنخة الحارة تتصاعد في بخار كثيف. أفسد السائل الأسود كيس الورق، تسرب إلى الجبنة الملفوفة في غلاف نايلون رقيق، لطخ الخبز والمارتديلا وحبّة البندورة والإجاص. عينا عزيز الحاج تابعتا المشهد بلامبالاة كاملة. حين توقف الجسد عن الانتفاض وهدأت ارتعاشة أوصاله صار خيط الدم المتدفق من الرقبة نحيلاً، نحيلاً كخيط حرير، ثم انقطع. نظر عزيز الحاج إلى بركة الدم السوداء على الإسفلت الأسود وتساءل أين اختفى الحاجب هارباً وأين اختفى الصيادان الأخوان. لم يكن خائفاً ولم يحسّ بالألم إلاّ في تلك اللحظة الأولى: حين هوت الخبطة المكتومة على عنقه. والآن ماذا؟ عيناه المفتوحتان شاهدتا ناساً يتراكضون. أذناه سمعتا صراخاً. ذاكرته رجعت به إلى «قصر النهاية». صدام حسين قال له للمرة الثالثة:

ـ أريد جوابك عزيز. عندي اجتماع في القصر.

رفع عزيز الحاج وجهه. كان يبتسم. أيقن أن السماء أعطته فرصة أخرى. صاح:

ـ أسهل لك أن تقتلني يا كلب! أنا عزيز الحاج!

في تلك اللحظة فتح عينيه فرأى بركة الدم السوداء مرة أخرى ورأى الحاجب خارجاً بوجه أبيض ورأى رجال الشرطة ورأى رجال الإسعاف ورأى جسده الأسود المقطوع الرأس ورآهم يلفون جسده بالقماش الأبيض. أخذت عنقه الباقية تؤلمه ألماً حاداً فظيعاً. كان يموت ببطء شديد ولا أحد يراه. حاول أن يصرخ، لم يقدر. هؤلاء

الأغبياء ماذا يفعلون؟ كان ألماً قاتلاً ورأى رجال الشرطة يتحركون في دوائر خرقاء ولم يفهم لماذا يتحركون هكذا. ثم أدرك أنهم يبحثون عنه، أنهم يفتشون عن الرأس المقطوعة. أراد أن يصرخ، أن يقول لهم أنا هنا، تعالوا أنقذوني، أنا هنا لم أمتْ بعد، عزيز الحاج لا يموت بهذه السهولة، عزيز الحاج لا يقتله قتلة الأسماك والبطّ والعقارب. حرك فكّيه لكن في اللحظة التي أوشك أن يصيح فيها لمست عجلة إحدى السيارات غطاء المجرور فسقط الغطاء على جمجمته وسحقها. عين واحدة بيضاء، مدوّرة كتفاحة، تدحرجت في المجرور، حملها التيار القذر إلى السين ثم أودعها القعر. العين رأت سمكة مفلطحة خضراء بأسنان صفراء تقترب منها. ثم لم تعد تبصر شيئاً. مات عزيز الحاج.

المناضل الشيوعي المتقاعد حيدر عبد الرزاق رأى وجه رفيقه القديم عزيز الحاج على الشاشة الصغيرة في ذلك المساء العراقي البعيد من عام ١٩٦٩. نشاف الشرايين ثم الطرش حولا الرجل الذي ترجم «أعمال تروتسكي الكاملة» إلى العربية عجوزاً خرفاً. لم يسمع اعترافات عزيز الحاج المشؤومة ولم يفهم ماذا يفعل صديقه في التلفزيون. حيدر عبد الرزاق كان وحده في البيت في الرصافة في ذلك المساء الدموي الذي شهد جرائم لا تُعد. زوجته كانت خرجت إلى بيت جارةٍ. أولاده كانوا يتوزعون على مراكز للحزب وعلى بيوت رفاق آخرين كعادتهم كل ليلة. وحيداً في غرفةٍ يعرفها جسمه جيداً جلس حيدر عبد الرزاق يتفرج على التلفزيون متسائلاً هل أصبح عزيز الحاج رئيساً للجمهورية مثلاً، أم مذيعاً للأخبار (هذا أوان النشرة المسائية) أم ممثلاً؟ لم يقدر حيدر عبد الرزاق أن يجيب على سؤاله. كان في انتظار رجوع زوجته كي تشرح له سبب ظهور صديقه العتيق على التلفزيون حين رأى أخيلة في الممر، ظلالاً تتحرك على الجدار خارج باب الغرفة. بينما ينهض عن كنبته ظهروا. كانوا خمسة رجال في ثياب كاكية، يحملون

رشاشات. بينما يرى النار تخرج من البنادق فكّر في ابنٍ واحد فقط من أبنائه الكُثر، الابن الذي لم يرَه منذ فترة طويلة: مهدي.

سليمان عبد الرزاق كان عندئذٍ في غرفة المرأة الصابئية في محلة «الذهب» يفكّر أنه طوال حياته عاش حاملاً اسم أخٍ ميتٍ وأن لا أحد في العالم ناداه يوماً باسمه الحقيقي غير أبيه وأمه: «مهدي». أخوته، فقط لإغاظته، كانوا دائماً ينادونه سليمان. في المدرسة عُرِف بالاسم المسجل على هويته.

في موسكو طلب من صاحبته توشكا أن تدعوه مهدي. كانا في الفراش. أطلقت توشكا ضحكة ماجنة وقالت إنها تفضل Solomon. قالت إنها هكذا تشبه الملكات، وحين تضاجعه تتحول إلى عاهرة عبرانية. كأننا في التوراة، قالت له. الكلمات الروسية الصلبة ـ في ذلك الفراش المبلّل بعرقهما ـ انغرزت في جسمه كالمسامير. في غرفة الصابئية في ذلك المساء الدموي، وقبل أن يسمع الانفجارات تهزّ المدينة المظلمة، نظر سليمان عبد الرزاق إلى مرآة صغيرة وسخة معلقة فوق طشت ماء وأيقن أنه أخطأ حين غادر موسكو وأنه أخطأ مرة أخرى حين ترك أباه يطرده من البيت وحين خرج ولم يرجع.

عاصفة جنون ورعب ضربت بغداد. البيوت تُقتحم. الرجال يُجرون من الأسرة. السيارات تحترق. الناس يختفون في وضح النهار ثم يظهرون بعد ليالٍ بين النفايات، وعلى وجه دجلة. مئات الشيوعيين قتلوا بالرصاص والبلطات والخناجر والحراب. «إذاعة بغداد» أعلنت أن كل من يخفي شيوعياً في بيته يُعتبر شيوعياً ويُعدم مع الخونة والعملاء والقتلة. في الصباح أذاع الراديو لوائح بالمطلوبين الشيوعيين والمشبوهين وطلب من كل من يذاع اسمه التوجه فوراً مع بطاقة الهوية إلى أقرب مخفر أو مركز «أمن دولة» أو «أمن بعث» لتسليم نفسه. دبّ الذعر في البيوت. الراديو أذاع الحرفين الأولين من كل اسم وأذاع سن

كل مطلوب بعد الحرفين الأولين مباشرة، من دون إذاعة الاسم كاملاً. المذيع ـ صاحب الصوت الجميل الذي تقارنه أقلام موهوبة في صحف «الجمهورية» و«الثورة» و«بابل» بصوت ناظم الغزالي ـ أعلن أن إذاعة الأحرف الأولى فقط من الأسماء يمثل بادرة حسن نيّة من طرف الدولة، فهكذا لا يحدث أي تشهير بأي مواطن في حال ثبت أنه لم يكن شيوعياً متعاوناً مع المتآمرين، فيعود إلى بيته بجميع حقوقه المدنية مصانة، وكأن شيئاً لم يحدث. وزير الخارجية العراقي عضو مجلس قيادة الثورة عبد الكريم الشيخلي كان عندئذٍ جالساً يشرب قهوته الصباحية مع زوجته. الزوجة أصفرَّ وجهها حين سمعت: ع.ك (٣٢ عاماً). لكن وزير الخارجية ضحك في وجهها وقال إنه يدعى ع.ش. وليس ع.ك. الزوجة لم تضحك وقبل أن تفتح فمها مرة أخرى كان المذيع يلفظ بصوت ناظم الغزالي مطرب الموشحات اسماً آخر في سلسلة الأسماء التي لا تنتهي: ع.ش (٣٢ عاماً). وزير الخارجية طمأن زوجته مرة أخرى قائلاً إنه يوجد في حي واحد من بغداد ألف ع.ش. عمرهم ٣٢ عاماً، ثم إنه ليس مهدّداً أبداً. الزوجة التي طالما سمعت زوجها يحكي في الفراش عن رفاقه كانت تزداد إصفراراً لحظة بعد أخرى. المذيع لفظ اسم زوجها (ع.ش. أو ع.ك)، ثم لفظ أسماء أهلها وأخوتها وأبناء عمومتها وأخوالها وكل أقاربها اسماً اسماً. لم يترك المذيع أحداً إلاّ ولفظ اسمه وعمره.

- ...
- ر.ف (٢٢ عاماً).
- س.ل (٤٣ عاماً).
- ر.ح (٣٠ عاماً).
- خ.ل (١٥ عاماً).
- ي.ق (٤١ عاماً).

ـ ب.ب (٣٥ عاماً).

ـ ح.هـ (١٣ عاماً).

ـ م.ف (٢٧ عاماً).

ـ ز.ش (٥١ عاماً).

ـ ت.ك (٥٧ عاماً).

ـ ت.ز (١٩ عاماً).

ـ ...

كانت لائحة تطول إلى ما لا نهاية. سمّى المذيع أقاربها الأحياء وأقاربها الموتى. سمّى كل رجال السلطة الذين تعرفهم وسمّى زوجاتهم وسمّى أولادهم. سمّى كل إنسان يحيا في بغداد، وكل مخلوق تجاوز الثالثة عشرة، وسمّى كل عراقي أكان شيوعياً أو بعثياً أو سنياً أو شيعياً أو يهودياً أو مسيحياً أو كردياً أو جنياً عفريتاً! أنشد المذيع بصوته البهيّ موشحة رعبٍ بلا خاتمة. كانت الزوجة تتمسك بزوجها وزير الخارجية عضو مجلس قيادة الثورة عبد الكريم الشيخلي وتقول له إنها هذه المرة تموت، تموت وتبلى عظامها إذا أخذوه منها.

وزير الخارجية العراقي عبد الكريم الشيخلي أعطى زوجته هناء أحمد القادري حبّة دواء وكوب ماء، ثم طلب بالهاتف أمها وأخواتها. انتظر وصولهن جالساً إلى الراديو يستمع إلى سلسلة جديدة من حروفٍ أولى مركبة وأعمار مقطوعة كالحطب، وحين حانت منه التفاتة إلى النافذة رأى سماء صفراء مريضة وراء الزجاج، وأشعة شمس تتسرب كالبخار من بين الغيوم وتنتشر في صفحات عريضة. أشاح بوجهه بعيداً عن المشهد الطبيعي. السماء لا تبالي بالأرض. الشمس نفسها ترمي الأشعة نفسها على الجميع، في أي وقت، وفي كل وقت. رنّ الهاتف. التقط السماعة. جاءه صوت عبد الخالق السامرائي عبر

خطوطٍ تعبر متاهة بغداد معلقةً على عواميد خشب، تهتز في الهواء وتحت قوائم الحمام والغربان:

ـ نتغدى معاً رفيق؟

بعد أن وضع السمّاعة فكّر وزير الخارجية العراقي عبد الكريم الشيخلي أنه أخطأ في الموافقة: هذا وقت غير مناسب للجلوس مع عبد الخالق. يعرف منذ الآن موضوع الحديث والكلمات التي سيستخدمها الرجل: كيف وجدت مسرحية عزيز الحاج التلفزيونية؟

الراديو كان يواصل إذاعة أسماء المشبوهين محدداً أعمارهم بدقة: ع.س (٣٤ عاماً). ل.ر (٣٥ عاماً). ك.ق (٣٨ عاماً). ج.ت (٤٤ عاماً). أ.ب (٥٥ عاماً)...

في إحدى اللحظات انتبه وزير الخارجية العراقي عبد الكريم الشيخلي أن الأحرف الأولى للأسماء التي يسمعها في تلك اللحظة (نظر إلى الساعة على الجدار ورأى أنها تشير إلى العاشرة والنصف صباحاً. نظر إلى ساعة يده وكانت تشير إلى العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة)، تتطابق مع أسماء أعضاء القيادة القطرية لبعث العراق! والأعمار أيضاً تتطابق! أيقن أن الراديو يلعب كالشيطان في دماغه. أن صوت المذيع الجهنمي يوسوس له. لم يتمتم: أعوذ بربّ الناس إله الناس ملك الناس من شرّ الوسواس الخناس، لكنه سمع تلك الكلمات في رأسه. حين دخل غرفة النوم وجد زوجته تتمدد على ظهرها صفراء كالكَوْرَبا، والعرق يتصبب من وجهها. أمرها عندئذٍ أن تهدأ: في بطنها طفل وقد يتأذى. هي حاولت أن تسيطر على أنفاسها. كان الهواء يدخل عبر حنجرتها المشققة بصعوبة: سبع مرات سمعت المذيع يقول م.أ (٣٨ عاماً) وسبع مرّات سمعته يقول م.ق (٣٨ عاماً). إذا كان زوجها غير مهدد فهذا حسن، أما أخوها الشيوعي فهو بالتأكيد مهدد، وإن لم يكن من جناح عزيز الحاج. لم يصب السوء أخاها في ذلك

النهار. وسوف تبتسم بهدوء أمام عائلتها في أيام آتية. لا بدَّ أن زوجها عبد الكريم أقدم سرّاً على حماية أخيها محمد. ربما فعل عبد الكريم ذلك، وربما لم يفعل. في تلك الأيام كان الواحد يموت أو يختفي ولا أحد يجرؤ على السؤال عنه. محمد أحمد القادري لم يمت في تلك الحملة التطهيرية. بل إن الحملة التطهيرية فتحت أمامه أبواب الترقي في الحزب الشيوعي العراقي. «قصر النهاية» ابتلع كالتنين ثلاثة أرباع الكوادر القيادية. في أسابيع صار محمد أحمد القادري أحد أبرز قادة الحزب الشيوعي العراقي. أخته هناء كانت تصنع له الشاي شديد الحلاوة كما يحبّه والبيض مسلوقاً قليلاً فقط كي لا يشتد الصفار ويقسو ويفقد طراوة طعمه، ثم تضع يدها على رأسه وتسأله أن يتروى لأن عدوه غادرٌ. كان يبتسم لها كما ابتسم لها منذ كانت طفلة، وكانت تجلس في حضنه عارفة أنه ليس الأخ الأكبر وحسب بل هو الأب الذي لم يُعطَ لها أيضاً. في تلك الأيام، بينما الجنين يكبر في أحشائها، ضاعفت حبّها لأخيها خوفاً عليه ولكن شفقة أيضاً. كل ساعة كان محمد أحمد القادري يفقد صديقاً في دهاليز «قصر النهاية». سألته هناء لماذا لا يسافر مع وفد الحزب إلى موسكو؟ أجابها بتلك الابتسامة ذاتها، كأنه من الأولياء، ابتسامة لن تفارقها بعد ذلك حتى يزورها ملاك الموت في شقتها الإنكليزية الفارغة في يومٍ خريفي ساكنٍ من عام ١٩٨٩. ابتسم الرجل لأخته ولم يقل شيئاً. كان يعلم أنه سائر على طريق الرفاق. في ٢٣ آذار (مارس) ١٩٧٠، عند الساعة الخامسة فجراً، عثر عليه سقاءٌ على شاطئ دجلة مقتولاً برصاصة واحدة بين العينين. كانت ثيابه ملطخة بالدم والطين، وذراعه اليمنى مطعوجة تحته. لم يلمس أحد المحفظة في جيب سترته الداخلية. كانت سليمة: بطاقة الحزب، الأوراق الثبوتية، مفتاح بيت، ٢٣ ديناراً، لائحة ببعض الفواكه والخضر، صورة جواز سفر لأخته الصغيرة، وقصاصة صفراء من صحيفة.

عبد الكريم الشيخلي لم يذهب في تلك الظهيرة البعيدة إلى موعد الغذاء مع عبد الخالق السامرائي. بدَّل رأيه وأمر السائق أن يأخذه إلى القصر الجمهوري. كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً. في المكتب الرئاسي وجد الرئيس أحمد حسن البكر ونائبه صدام حسين، يدخنان ويتحدثان ويشربان البيرة الباردة في أقداح زجاجية. عبد الكريم الشيخلي قال إن الدنيا في الخارج ملطومة على رأسها. الرئيس البكر سأله ماذا يشرب. نائب أمين عام مجلس قيادة الثورة نائب أمين بعث العراق الرفيق صدام حسين سأله ما أخبار السفارات في أوروبا وأميركا.

وزير الخارجية عبد الكريم الشيخلي قدَّم تقريراً شفهياً سريعاً عن ردود الفعل الأجنبية على الإعدامات التي تشهدها بغداد والبصرة. الصحف الإنكليزية تتحدث عن العراق بصفته مكاناً يختفي فيه الناس كل لحظة بلا أي سبب. «الغارديان» كتبت أن اليهود الذين ظلوا في البلاد ـ وعددهم يقارب ٢٥٠٠ نسمة ـ يستعدون جماعياً للحظة الشنق: كل يهودي متهم أنه طابور خامس وأنه يعمل لصالح إسرائيل والـ CIA، وكل شيعي متهم أنه طابور خامس يعمل لصالح إيران والـ CIA، وكل كردي متهم أنه طابور خامس يعمل لصالح إسرائيل وإيران والشيطان والـ CIA.

صدام حسين وضع القدح الفارغ من يده ثم سكب مزيداً من البيرة الباردة في قدحٍ آخر نظيف. قال:

ـ الرسالة وصلت.

الرئيس أحمد البكر قال جملة واحدة ثم تراجع إلى أعماق سحابة الدخان العطرة التي ينفثها غليونه:

ـ المهم أن يفهم شاه إيران.

صدام حسين قال لعبد الكريم الشيخلي إن الرئيس البكر قرر أن يعطي الشيوعيين رخصة لإصدار مجلة أسبوعية، وهذا يجب أن يُعمّم

على السفارات والقناصل في الخارج. عبد الكريم الشيخلي قال إن ذلك مفهوم وأنه عمَّم قبل يومين اسم الوزير الشيوعي الجديد عزيز شريف الذي دخل الحكومة وزيراً للعدل. صدام حسين سأل الشيخلي عندئذٍ هل قرأ شيئاً جديداً في صحف الشام. الشيخلي أجاب على السؤال بجملٍ أتعبت ذهنه: لم يكن هنا، كان يفكر في زوجته وأخيها وفي الحياة التي تغدو أشد إرباكاً وغموضاً بمرور كل لحظة.

بعد أن غادر الشيخلي المكتب الرئاسي تكلَّم الرئيس البكر مرة أخرى:

ـ الرفيق تعبان.

صدام حسين ظلَّ صامتاً.

فَقَد سليمان عبد الرزاق في ذلك الشتاء الكئيب خمسة أخوة، وفَقَد أباه. اتصل ابن خاله بالقبو الكابوسي هاتفياً وتحدث معه دقيقتين. طلب منه ألا يأتي إلى الجنازة. سليمان عبد الرزاق قال إن هذا مفهوم، ولم يذهب إلى الجنازة. بعد مرور أربعين يوماً اتصل ابن الخال ذاته بالقبو الكابوسي ذاته مرة أخرى وأبلغه أن أمّه تريد أن تراه.

عند الحادية عشرة صباحاً من ذلك الثلاثاء الملبد بالغيوم قرع سليمان عبد الرزاق باباً في جانب الرصافة لم ينسَ يوماً ملمسه، لا ولا رائحة خشبه القديم وشكل تلك المسامير العريضة المطروقة في دائرة حول القفل العتيق. ها هو يعود إلى بيت الطفولة، إلى بيت أبيه. لكنه يعود بقلبٍ منزوع من صدره، بقلبٍ رُمي إلى أشداق الكلاب. ارتجف الباب ثم انفتح إلى الداخل ورأى وجه خاله الطبيب ورأى الحوش الذي يراه في المنام من حينٍ إلى آخر: بدا الحوش صغيراً، كأنه تضاءل في غيابه، المساحة أضيق، الأشجار أصغر حجماً، الحيطان أقل علواً، والبركة ـ تلك البركة التي أوشك مرة أن يغرق فيها ـ هل هي حقاً بركة؟ انها تبدو له اليوم ـ بعد كل هذه السنين ـ

حوض ماء ليس أكثر! رأى مرور الزمن في وجه خاله، في الذقن التي تهدلت وفي ارتجافة الشفتين. رأى مرور الزمن في الورق اليابس الذي يطفو على وجه البركة. رأى مرور الزمن في جوانب أحواض الزرع المتهدمة. رأى مرور الزمن في لون الطحالب الأخضر ـ البنيّ على حيطان البيت. رأى مرور الزمن في جذع نخلة مقطوعة في مركز الحوش تماماً. رأى مرور الزمن في غياب تلك النخلة التي ربطها أبوه بالحبل إلى وتدٍ زرعه أمام باب غرفة المؤن لأنها ظلت تميل ذات صيف بعناقيدها الثقيلة حتى أوشك رأسها أن يغطس في مياه البركة. رأى مرور الزمن في البئر التي جفّت وسدّوا فوهتها بلوح خشب وبحجارة ضخمة فوق اللوح. رأى مرور الزمن في باطون الممر جنب الحوش وفي عشب نبت من شقوقه.

رأى مرور الزمن في كل شيء رآه عندئذٍ، وفي كل رائحة قديمة عادت إليه، ولم تعد إلاَّ مختلفة. هذه رائحة الحوش كما يذكرها، لكنها تغيّرت. لا يقدر أن يحدّد كيف اختلفت الرائحة لكنها اختلفت. حين كان ولداً لم تكن هذه الحارة مزدحمة بالبيوت كما هي الآن. منظر السماء من داخل الحوش اختلف أيضاً، كان يرفع رأسه ويرى سعف النخلة والسماء المستطيلة العالية ولا يرى غير ذلك شيئاً. الآن ظهرت مئذنة مدوّرة في الجهة الغربية. وفي الجهة الأخرى ظهر بناء جديد لم يكتمل. رأى مرور الزمن في اختلاف المناظر والروائح. ورأى مرور الزمن في تبدل الأصوات. لكن ما لم يفهمه حقاً كان ذلك التقلص الذي أصاب الأشياء. البيت الذي يراه في المنامات دوماً كبيراً واسعاً عالي السقف، بدا الآن صورة مصغرة عن بيت المنامات. السقف واطئ، الغرفة ليست واسعة، والممر الذي تخيله طويلاً لا يتجاوز طوله الخطوتين. رأى سليمان عبد الرزاق مرور الزمن في بيت الطفولة وحين صافح خاله الطبيب رأى مرور الزمن في يده. انغلق الباب الخارجي خلفه فسقط قلبه. في الداخل تنتظره أمّه. هناك، في

غرفة يعرفها كما يعرف شامات يده، قتلوا أباه بالرشاشات. حين رأى أمّه لم يعرفها. ظنَّ أنها خالة من خالاته ثم انتبه أن هذه هي أمّه. نحلت حتى تحولت عود خيزران في سنوات غيابه عن البيت. كانت جالسة في الأسود بين أخواتها الكثيرات وحين أراد أن يُقبل يدها سقطت فوقه تبكي وتحضن رأسه بأصابع ممشوقة طالّما أخذته إلى نومٍ عميق. سليمان عبد الرزاق مكث صامتاً على الأرض، ورأسه فيَ حضن أمّه يتلقى دمعاً حارقاً ويسمع كلمة «مهدي» مرة تلو أخرى، ويهوي أعمق فأعمق إلى حزنٍ لا تقوله الكلمات، وإلى يأسٍ كاملٍ لم يعرف قبل ذلك أنه موجود في هذه الحياة. لم تقل أمّه غير تلك الكلمة، اسمه، كررت الاسم مرّات لا تحصى، كأنها تتأكد أن هذا هو ابنها، استمرت تكرّر الاسم حتى فرغت الغرفة من الخالات، وبقيت الأم وحدها مع ابنها العائد. سليمان عبد الرزاق لم ينهض عن الأرض. الرجل الأربعيني فَقَد كل قوّته. استمع إلى اسمه يخرج مع الدمع الحارق من جوف الأم التي أرضعته وأحبّته وانتظرته، وأيقن أنه ذهب إلى البعيد البعيد باحثاً عن معنى الحياة، بينما المعنى ماكثٌ هنا بانتظاره طوال الوقت. أراد أن يرفع وجهه، أن يرى وجه أمّه، أن يقول لها إنه هنا الآن، إنه رجع وأنه لن يتركها. أراد أن يرفع وجهه لكنه كان متعباً، متعباً. وللمرة الأولى منذ دخل تلك الغرفة (أثر الدم لم يذهب عن البلاط) سمع أمّه تقول كلمات أخرى غير اسمه. أصغى جيداً ورأسه مدفون في حضنها، ويداها على أذنيه ووجهه ورأسه. كانت تلفظ أسماء أخرى. عدَّت أخوته الذين قُتلوا واحداً واحداً، ثم قالت له بالصوت المحروق ذاته:

ـ هكذا تقتل أخوتك!

بعد سنوات طويلة تذكر القنصل العراقي سليمان عبد الرزاق تلك الكلمات وأيقن أنها من نسج خياله. كان الحد الفاصل بين الحقيقة والوهم يتحول يوماً بعد يوم إلى حدٍ وهمي. قال لغالالا بينما يخرجان

من صالة سينما في بومباي إن الأفلام ـ مثل الروايات ـ تجعل الحياة أقل ألماً. غالا التي تبكي في السينما كأنها تتفرج على مآسٍ حقيقية وليس على أفلام، سألته ماذا يعني بذلك. سليمان عبد الرزاق وضع يديه في جيبي سترته الكشمير، نظر عبر الحشود إلى قطعة بعيدة من السماء ظاهرة بين المباني، وفكّر في كلمات مناسبة تشرح أفكاره. كانت الشوارع مزدحمة بسيارات وأنوار كهرباء ولوحات إعلانية وبشر يخرجون من متاجر ويدخلون إلى أخرى. ليل بومباي امتد حولهما مثل نشيدٍ مبهم لا نهائي. قال سليمان عبد الرزاق:

ـ أعني أن الحياة تبدو بذلك شيئاً من الخيال. وإذا كانت خيالاً فالواحد يصبر على ألمه.

في ذلك الشتاء البعيد خرج سليمان عبد الرزاق من بيت أبيه فارغاً من الروح. كان جثة لم تسقط. مشى في الرصافة ثم قطع جسراً. لم ينتبه أين هو ولم يدرك أنه قطع جسراً. رأى مراكب ورأى صياد سمك يحمل صنارة ورأى مقاطف ورأى أولاداً يقفزون على مربعات رسمت بالطبشور على الإسفلت. رأى بغداد والناس والأولاد والسماء ولم يرَ شيئاً. كانت الأصوات حوله غير مفهومة وروائح العالم تمتزج وتتداخل ولا تعني شيئاً. رائحة الطعمية في الزيت المقلي قد تكون رائحة سمك يُشوى وقد تكون رائحة ثوم يُدق وقد تكون رائحة فول يُسلق على النار. الرائحة لا تحيل إلى شيء محدد، والألوان مثلها، وكذلك الأصوات. كان ماشياً في متاهة من حجارة وقرميد وخشب وباطون وزجاج وإسفلت ولحم ودم وهواء وأنفاس، وكان ماشياً في فراغ. كأنه يتحرك بين الكواكب والنجوم. كان يعلم أنه يأتي من فراغ وكان يعلم أنه ذاهب إلى فراغ. أحسّ بالأسف لأن الآخرين لا يفهمون الحقيقة وقال في نفسه إنهم لو عرفوا لما فعلوا ما فعلوا، وقال إنهم لو أدركوا لعاشوا في سلام، وما قتلوا أحداً ولا عذبوا أحداً. ثم ضاع منه حبل أفكاره مرة أخرى. كان ذلك إلهاماً خاطفاً، وحياً، حالاً من التجلي

الصوفي الذي يستحيل التعبير عنه بعد انقضاء الحال. ضاع منه الحبل ورأى نفسه يسقط مرة أخرى إلى أعماق البئر. لم يرَ شيئاً. كان في الفراغ يقفز من كوكب إلى آخر، من نقطة إلى أخرى. مشى من زقاقٍ إلى زقاقٍ، والشمس تميل في قوسها الأبدي، والغيوم تتباعد، والناس يغادرون المطاعم عائدين إلى المكاتب، ومشى حتى بلغ ساحة التحرير. رأى المشانق المعلقة وسط مساكب الزهور ورأى الحبال تتراقص في هواء الشتاء ورأى العقد الثخينة والدوائر حيث لفظت رؤوس كثيرة بألسنةٍ تتدلى آخر الأنفاس. رأى كل ذلك ولم يرَ شيئاً. الأشجار تشبه المشانق والمشانق تشبه الأشجار. لم يجد الغابة كابوساً. نظر إلى الأشجار: كانت الأوراق تتلون أمام عينيه وتتساقط والبراعم تخضر من جديد والشمس تتابع سلوك قوسها الأبدي. زرّر معطفه وتابع السير قاطعاً حديقة الأمة من جهة إلى أخرى. رأى الغربان، سوداء كالليل على تمثال الأم الرخام الأبيض. تذكر غربان موسكو تتطاير في الريح بين أبراج الكاتدرائيات ولم يتذكرها. ضاع في متاهة بغداد ولم يعرف إلى أين يذهب ووجد نفسه جالساً في مقهى أم كلثوم يشرب الشاي ويسمع الأغاني بكلماتها الطويلة الطويلة... غابت الشمس وأخذته الشوارع إلى بارٍ في «أبو نواس». وجد نفسه يشرب الكونياك ويلقي في جوفه قطعاً من الشوكولا المرّ ويتحدث مع رجل يعرفه جيداً ويعرف اسمه ويعرف رقمه ويعرف كل شيء عنه ويعرف كل تجارة تاجر بها منذ جاء إلى بغداد قبل عشرين سنة وحتى هذه اللحظة. يعرف كل هؤلاء ولا أحد يعرفه وإن عرفوا اسمه وجلسوا معه وتكلموا. بل إنهم حتى لا يعرفون اسمه: يحسبون أنه سليمان. وسليمان مات من قبل أن يُولد. خرج من البار إلى الأضواء والأصوات، ثم تجاوز ذلك إلى ظلام زقاق بلا ضوء، ومشى يتلمس الحيطان. كانت حيطان مسنّنة الحجارة، كأنها قطع من زجاج، وحين أحسّ بسائل ساخن بين أصابعه أدرك أنه جرح نفسه. لم يهتم. فقط

أبعد يده عن الجدار. انحدر به الزقاق إلى آخر، ورأى من بين السقوف والشناشيل سماء الليل والنجوم القليلة البيضاء تشبه ثقوباً في القماشة القاتمة. وجد نفسه ممدداً على شاطئ النهر يغسل جرحه ويتساءل من أين يأتي كل هذا الصقيع. ثم انتبه أنه يرقد في الوحل. نهض ونفض ثيابه وسار إلى جماعة صيادين يتحلقون حول النار، يفردون شباكاً، ويشربون الشاي. جلس معهم وبادلهم الكلمات وفكّر في لحظة أن توتراً يطغى على أصواتهم وإيماءاتهم ثم فكر بعد لحظة أنه يتوهم ثم قرر بعد لحظة أخرى أن كل ذلك لن يشكل أي فرق على المدى البعيد. شكرهم ومشى وطعم الشاي الحلو على لسانه لكنه لم يحسّ بالطعم عندئذٍ كما لم يحسّه وهو جالس بين الصيادين. الكونياك أيضاً كان بلا طعم ومثله حبّات الشوكولا المرّ: تذكر فقط بينما الحبّة تذوب في فمه كلمات توشكا الداعرة، ثم نسي توشكا أيضاً ولم يعد يذكر إلاّ ذلك الأثر الأسود على بلاط الغرفة حيث مكث مع أمه ساعة أو ساعتين.

هبط سليمان عبد الرزاق السلالم إلى قبوه الكابوسي عند الثانية والنصف فجراً، فرأى الرفيق ناظم كزار واقفاً في نور النيون الثلجي بين صناديق كثيرة، في شورتٍ أبيض وفانلة بيضاء يُنقب في ملفات ويرمي أخرى في الهواء. حين اقترب سليمان عبد الرزاق خطوة شمّ رائحة بصل حادة تفوح من جسم الرجل في الفانلة البيضاء. المخلوق القوي الرائحة الشبيه بقطٍ بريّ، استدار بالشعر الكثيف المبلّل على صدره وتحت إبطيه وسأله:

- أين ملفات الشيعة - ك - ١٢٨؟

سليمان عبد الرزاق ردّ بصوت لا مبالٍ:

- تعني عائلة كزار؟

ناظم كزار رماه عندئذٍ بالملف الذي يحمله:

ـ أين؟

استدار سليمان عبد الرزاق بهدوء ومضى إلى خزانة في الزاوية وفتحها وأشار بإصبعه إلى صندوق كرتون خرجت الملفات من فتحته. لم ينحنِ سليمان عبد الرزاق ولم يُخرج الصندوق من الخزانة. قال:

ـ هذا!

ثم مشى متجاوزاً الرجل صاحب رائحة البصل وقطع القبو إلى نهايته. دخل إلى غرفته وردّ الباب خلفه. خلع معطفه وتخلص من صبّاطه. تمدّد على سريره، تغطى ببطانيتين عسكريتين، ثم هوى إلى نومٍ عميق.

في تلك اللحظة بالذات كان صدام حسين يطفئ سيجارة في منفضةٍ في القصر الجمهوري ثم يقول للرئيس البكر الذي بانت علامات زرق تحت عينيه:

ـ ننام والصباح رباح.

الرئيس البكر أجابه من وراء الغيمة الحزينة:

ـ في الليل لا أقدر أن أنام.

بعد ذلك الشتاء الدموي، وقبل أن تظهر طيور الربيع في السماء، اقتحم ناظم كزار مكتب صدام حسين بجسمٍ مشدودٍ كجلد الطبل وعنقٍ منتفضة. قال بصوتٍ يخرج من بين أسنانه:

ـ لأنني شيعي تريدون الاستغناء عني؟

صدام حسين أشار إلى حراسه بإقفال الباب، ثم أمر ناظم كزار:

ـ اجلسْ!

سقط ناظم كزار في الكنبة الجلد مثل كيسٍ مملوء حجارة. صدام حسين سمع طرطقة العظام في الجسم اللحيم المدوّر. احتفظ بملامح وجهه الصخرية ثم قال ناظراً في عينيّ كزار:

ـ الرئيس البكر لا تعجبه حدّتك. أنت تشتم القيادة علناً رفيق. هذا لا يجوز. لكن هذه حدود المسألة. لا نريد إخراجك بل العكس. أنا اقترحت اسمك على الحكومة رئيساً لجهاز «أمن الدولة». المطلوب منك ضبط أعصابك. احفظْ حماستك للعدو.

ناظم كزار أحسَّ في تلك اللحظة بخوفٍ مضاعفٍ: ربما نجا من هذه المعركة، ربما نجا من ضربة هذا السيف، ولكنه لم يربح الحرب، لا ولا ربح حياته. أمامه عدوٌ مخيفٌ: هذا الرجل الصخري الوجه الجليدي النبرة أقسى منه، أشد بطشاً، وأعمق خبثاً. ربما يتركه يحيا

في هذه اللحظة لكن في الفرصة الأول السانحة، في الفرصة الأولى السانحة. . .

تلك الليلة لم ينمْ ناظم كزار. ساهراً في مقهى على الشط شرب عرقاً حتى الثمالة. أراد أن يتذكر ذلك اللقاء الأول في فيلا سركون بطرس، أن يتذكر وجه صدام حسين حينئذٍ، وصوت صدام حسين القديم. هل كان مثلما هو الآن أم أضعف؟ هل وُلِد مع هذا البأس أم اكتسب هذه الشدّة في سنوات سجنه؟ في ذلك الزمن البعيد كانت بغداد ترتعد من اسم ناظم كزار. الآن ترتعد أيضاً، فما الذي اختلف؟ ناظم كزار بلع القدح تلو القدح وشمّ الرائحة المتصاعدة من جسمه.

هذه رائحة لم يعرفها منذ سنين، منذ ثلاثين سنة، ربما أكثر: أبوه أخذه إلى لواء إسكندرون على الحدود السورية ـ التركية. ذهب مع أبيه يزور أخوال العائلة ورأى حوتاً جانحاً على رمل الشاطئ بالصيادين فوقه يخترقونه بالحراب، ويفتحون جوفه بسواطير الجزارة ويحطمون بالبلطات أضلاعه. كان الوقت غروباً والهواء بارداً. رأى قناديل النفط تتوهج فركض إلى الشاطئ، لمس جلد الحوت بيده. حين اقترب من العين الضخمة صدمته الرائحة كموجة عالية. كاد يسقط على ظهره. كانت رائحة لا تطاق حتى أنها لتحدث خللاً في الدماغ. الرجال الذين تجمعوا في صخبٍ حول الحيوان البحري الهائل (أضخم ثدييات العالم) كانوا يشربون العرق راقصين حول نيران الحطب، وينتظرون وصول أحد شغيلة الميناء: رجل نصف أبله ـ قصير كالقزم ـ يستطيع أن يندفع إلى جوف الحوت ويُخرج من الأعماق العشاء الفاخر: القلب والكبدة. كان الضحك يرتفع إلى السماء ووقف ناظم كزار أمام البحارة وقال أنا أدخل. أعطوه سكيناً حادة ثم أسقطوه مدلى بحبلٍ في جوف الحوت. لم يجد القلب ولا وجد الكبدة. وجد ظلاماً لا يُسبر غوره. صاح فرفعوه إلى نور سماء الليل ونور السراج النفطي. تلك الليلة

غسلته خالة أبيه بالماء الساخن والصابون البلدي سبع مرّات ولم تترك الرائحة جلده.

كانت رائحة فتّاكة جعلت كل من في البيت يشيح بوجهه بعيداً. أحد العجائز نصحهم أن يفركوا جسمه بالملح الخشن. فعلوا ذلك حتى احمر جلده وخرج الدم من المناطق الحساسة. بعد ذلك نقعوه في ترعة موحلة. في الترعة وجد الجواميس تبتعد عنه، بأذيالٍ تكشّ عن جلدها الأزرق، الذباب الأخضر الكبير الطنّان. لم يقربه الذبان. لكن عند الغروب هاجمه سرب بعوض ـ بينما يغفو القيلولة ـ فكاد أن يأكله حيّاً. خلال رحلة العودة إلى العراق، جلس على ظهر القطار. الريح القوية ودخان المحرك أزالا عنه رائحة الحوت. بعد أكثر من ثلاثين سنة، بينما يشرب العرق في مقهى من مقاهي أبي نواس المكشوفة قاعداً على آخر طاولة على رمال الشاطئ الضيق، ينظر إلى صحون الباقلاء الحارة والحمص المسلوق، شمّ ناظم كزار تلك الرائحة مرة أخرى: كانت رائحة تقتل رجلاً، لكنها لم تقتله. وحدّث نفسه أنه ليس طريدة، وقال: «تأتي ساعة وأضرب ضربتي». بعيداً، على طاولة مضاءة بمصباح نيونٍ أزرق، رأى رفاقاً من «حنين» يسكرون ويضحكون. كان في العتمة، جنب الشاطئ، محمياً بالظلام وبرائحة حوتٍ مقتولٍ ترفع حيطاناً سميكة حول جسمه.

بعد ثلاثة أيام أصدرت الحكومة العراقية قراراً بتعيين الرفيق ناظم كزار رئيساً لجهاز «أمن الدولة». وافق مجلس قيادة الثورة على القرار بالإجماع، ووقعه الرئيس أحمد حسن البكر في ظهيرة اليوم التالي. ناظم كزار دخل في بنطلونٍ كاكي وقميصٍ أحمر بلون الدم على صدام حسين وقال بوجهٍ باسم:

ـ أنت تعرف ولائي الدائم لك رئيس. أطلب منك إذناً باختيار بعض العناصر من «حنين» لنقلهم معي إلى «أمنِ الدولة».

نفخ صدام حسين دخان سيجارته، وضع كفّيه على مكتب السنديان اللامع. تأمل وجه كزار ثم تكلّم:

ـ ثقتي بك كاملة رفيق. ولهذا اخترناك لهذا الموقع الحساس. الإذن الذي تطلبه موافق عليه. خذْ من «حنين» كل الكوادر التي تحتاج إليها. ضروري ومهم جداً أن نوزع كوادر الحزب على جميع مؤسسات الدولة.

تلك الليلة، وفصل الربيع يحلّ على بغداد، جلس صدام حسين في حوش البيت المظلم مسترخياً في كرسي الخيزران القديم، يرشف بين حين وآخر جرعة فاترة من كوب القهوة المرّة بالحليب البارد. بدر الثالث عشر من الشهر الجديد انعكس في مياه مفضضة باردة وتكسر إلى قطع من زجاج على حواف البركة وعلى مساكب الزهور والخضر التي أيبسها الصقيع. زوجته ساجدة طلفاح حامل للمرة الثالثة. استدار بعنقٍ بليدة ونظر إلى النوافذ المظلمة ورأى في زجاج إحداها، عميقاً في الداخل وراء الزجاج والستارة القطن البيضاء، عين الراديو الخضراء توج في العتمة. نظر إلى ساعته: الواحدة فجراً. تأمل حيطان الحوش العالية، والباب الخشب المرصع بالحدائد تظهر عبر شقوقه نقط ضوء حمراء: الحراس يدخنون. رفع رأسه ورأى النجوم تبين وتختفي بين سعف النخيل، والريح تهزّها فتئن أنيناً خافتاً. كل هذه المشاهد لا تعلق في رأسه. رأسه مملوء بمشاهد أخرى وأصوات أخرى وروائح أخرى. منذ أيام يزور البلاد وفدٌ دولي أرسلته الأمم المتحدة. في قاعة مستطيلة، حول طاولة بيضاوية، جلسوا وسألوا عن أسماء وأرقام وأحزاب ومدن وقُرى وسجناء سياسيين وصحف مقفلة وتغييرات ديموغرافية وأقبية سرّية وقصور مصادرة... أعضاء مجلس قيادة الثورة أجابوا الوفد الدولي على معظم أسئلته. عبد الخالق السامرائي أثبت مرة أخرى أنه محاور من طراز رفيع، وأنه رجل خطر وخبيث. نائب رئيس

الوفد الدولي، المستشار الكندي وليام باركينسون، سأل عضو مجلس قيادة الثورة عبد الخالق السامرائي عن الإعدامات الأخيرة في البصرة وكربلاء. السامرائي أجاب أن العملية هذه ليست كما تُصورها وسائل الإعلام الأجنبية. سكت السامرائي ثانيةً واحدة. ثم تحدَّث بالإنكليزية من دون مترجم:

ـ دعوني أشرح الوضع هكذا: العراق ليس كندا أو فرنسا أو بريطانيا. نحن أنجزنا للتو انقلاباً على نظام فاسد يعتبر مع الأنظمة التي سبقته مسؤولاً عن كل مشاكل العهد الحالي. هذا البلد ليس بلداً عادياً. وحاولوا أن تنتبهوا إلى الحلّ المنطقي الذي يمثله برنامج حزب «البعث» لكل مشاكل العراق. ٢٠ في المئة من سكان العراق أكراد، و٢٠ في المئة سنّة، و٦٠ في المئة شيعة. لنقلْ أن عدد السكان ١٠ ملايين نسمة، وهذا إحصاء جرى قبل ثلاثة أعوام، فهذا يعني أن في العراق ٦ ملايين شيعي، ومليوني كردي، ومليوني سني. السلطة الوحيدة ذات الشرعية القادرة على جمع كل هذه المذاهب (إضافة إلى أقليات لا تحصى من كلدان وصابئة ويهود وأشوريين وسريان و. . .) هي سلطة لا تستمد عقيدتها من الدين بل من الجامع الوحيد المشترك بين كل هذه الفئات: القومية العربية. الشيوعيون حاولوا أن يفرضوا العقيدة الماركسية على البلد. لكن ما يصلح في الاتحاد السوفياتي (وأنا لست متأكداً أنه حتى يصلح هناك) لا يصلح في البلاد العربية. «البعث» بريء من اضطهاد الأديان. نحن لا نقول إن الدين أفيون الشعوب. نحن لا نرفض الإسلام كما لا نرفض المسيحية ولا نرفض الدين اليهودي. الآباء المؤسسون لحزبنا كانوا من أديان مختلفة، كانوا مسلمين ومسيحيين. المشكلة مع اليهود ليست دينهم بل علاقتهم بإسرائيل ورغبتهم في الالتحاق بها. ما يُقال في صحفكم وإذاعاتكم عن حربٍ يشنها الجيش العراقي على القُرى الكردية وأحياناً على قُرى

شيعية، هو كلام CIA. دعوني أشرح الأمر بحفنة كلمات: هناك سلطة تريد أن تصنع دولة مدنية حديثة وهناك مجموعات تريد انقسام الدولة الحديثة إلى دولٍ صغيرة بدائية. هذه ليست العصور الوسطى. في إذاعاتكم تقولون أننا نشنّ حروب إبادة على الأكراد. هذا غير صحيح. الأكراد يشنون هجمات على المدن العراقية، ماذا نفعل؟ نقف متفرجين. «البعث» مستعد، ضمن شروط معينة، على منح الأكراد حكماً ذاتياً في كردستان. هل تعتقدون أن إيران (التي تدعمهم الآن باتفاق مع الـ CIA) أو تركيا أو سورية مستعدة لمثل هذه التسوية؟ الأكراد لا يريدون الحكم الذاتي. يريدون دولتهم القومية الخاصة، بأراضٍ منتزعة من العراق وتركيا وسورية وإيران معاً. هذا لا يناسب هذه الدول كما أنه لا يناسبكم. ماذا يحدث لشركات النفط الغربية في كركوك والشمال إذا استطاع البارزاني فرض سلطته هناك؟ هل تعتقدون أن الرجل سيظل صديقكم عندئذٍ؟ «البعث» كشف مؤامرات كردية - إيرانية - إسرائيلية - أميركية، وإذاعاتكم تقول إنها مؤامرات وهمية، مؤامرات نختلقها لضرب الأعداء. حاولوا أن تنظروا إلى أبعد من الحدث المباشر: هذه المنطقة رسم الإنكليز خرائطها، مع حلفاء الحرب العالمية الأولى، قبل حفنة عقود. المجتمع الدولي يتحمل جزءاً من هذه المشاكل التي نحاول أن نعالجها يوماً بعد يوم. ما نحتاج إليه هو دعمكم. تعالوا دائماً إلى بغداد، قولوا ما تفكرون فيه واسمعوا وجهة نظرنا. أنا لا أقول أننا لا نخطئ لكن النوايا سليمة، وإذا كانت النوايا سليمة فالمجال مفتوح دائماً لتصحيح الأخطاء. بدل أن تسمعوا تقارير الاستخبارات في وسائل إعلام مرتبطة بمصالح معيّنة، اسمعوا بآذانكم وانظروا بعيونكم. العراق ليس أرض رعبٍ وسجونٍ سرية. كل دولة تحتاج إلى أمن يحميها. هذا ندرسه في الجامعات. الفيلسوف السياسي هوبز قال إن العالم غابة والدولة هي محاولة لفرض قوانين تنظم حياة هذه الغابة. طبيعي ألا يشعر الجميع بالسعادة الكاملة.

المجرم مثلاً لا بدَّ أن يُرمى في السجن. وأحياناً قد يُظلم الأبرياء أيضاً. لكن هذه طبيعة الدولة وليست طبيعة نظامنا بشكل خاص. أعلم أن ما حدث في الأسابيع الأخيرة بدا وحشياً: لكن هذه كانت حال شاذة، حال طارئة. ربما كان الأفضل أن نعالجها بهدوء أكبر. لكن، مرة أخرى، النوايا كانت سليمة، والمهم التطلع إلى المستقبل، وأن تساعدونا ـ لما فيه المصلحة المتبادلة ـ بدل أن تستغلوا كل فرصة للتهجم على نظامنا.

لم ينتزع عبد الخالق السامرائي إعجاب الوفد الدولي وحسب بل سدّد أيضاً لكمات لا تحصى ـ تحت الحزام ـ لصدام حسين شخصياً. الرئيس أحمد حسن البكر حضر جزءاً من الاجتماع ولم يتكلم كثيراً. صدام حسين لم يلفظ كلمة واحدة طوال ثلاث ساعات. كل ما أراد قوله أبلغه الوزير الخارجية عبد الكريم الشيخلي قبل الدخول إلى الاجتماع. الشيخلي تكلم نصف ساعة ووضع النقاط على الحروف. المترجمون لم يترجموا الكلام بالسرعة المطلوبة والتلقائية المطلوبة وهذا جعل كلام الشيخلي ضعيف الوقع على آذان الوفد الدولي. صدام حسين استدعى الرفيق سليمان عبد الرزاق عصراً وطلب منه أن يلازمه ما دام الوفد الدولي في بغداد. كل مساء بات عبد الرزاق المتمرس في ٤ أو ٥ لغات أجنبية يقدم له تقريراً خطيّاً بكل ما قيل نهاراً.

بعد رحيل الوفد الدولي استدعى صدام حسين الرفيق سليمان عبد الرزاق إلى مكتبه في «مجلس قيادة الثورة». دخل سليمان عبد الرزاق المكتب فوجد صدام حسين رافعاً قدميه على طاولة ضخمة يتحدث مع شابٍ جالسٍ قبالته يضع ساقاً على ساق. الاثنان يدخنان سيجارين برائحة عطرة قوية. أدى سليمان عبد الرزاق التحية ووقف منتصباً. تذكر أنه رأى هذا الشاب ـ بثيابه الفاقعة الألوان ـ مع رئيس «أمن البعث» أكثر من مرة. صدام حسين أشار بسيجاره إلى الشاب الداكن اللون وقال:

ـ هذا الرفيق سبعاوي، أخي. أريدك أن تأخذه إلى الأرشيف وتعلمه كل مهامك.

حافظ سليمان عبد الرزاق على سكونه. لم يتصبب عرقاً. ولم يشعر بالخوف. لماذا يخاف؟ يريدون فصله؟ ليفعلوا ذلك. يريدون تصفيته؟ ليفعلوا ذلك. ماذا يخسر؟ هذه الحياة القحبة!

أخذ صدام حسين نفساً من السيجار جعل جمرته تتوهج، ثم تابع:

ـ واستعدّ للسفر إلى أوروبا. لم أحددْ الدولة بعد لكنني سأُعينك قنصلاً هناك. مواهبك في اللغات وفي تدوين التقارير الدقيقة لن يضيعها «البعث» سدى.

بعد سنوات طويلة تذكر سليمان عبد الرزاق وقوفه في ذلك المكتب ـ المضغوط بالدخان القاتل الكثيف ـ بقلبٍ باردٍ وأعضاء ميتة. كان جثة تقف منتصبة وتحدّق إلى جمرة سيجارٍ تتوهج كحجر قُذِف للتو ـ سائلاً ملتهباً دموياً ـ من أعماق بركان. سليمان عبد الرزاق لم يكن حياً في ذلك الأصيل الخريفي البعيد في بغداد. بعد شهورٍ لن يسترجع إرادة الحياة بينما يتجول في مدريد أو روما أو ميلان أو مرسيليا. طوال أيام لا تُعد عاش كمن يعيش في منام. كان آلة، سيارة تستمر اندفاعتها العمياء بعد إطفاء المحرك. يجلس في مكتب في قنصلية، يقرأ لوائح وتقارير، يكتب لوائح وتقارير، يقابل أشخاصاً عراقيين وعرباً وأجانب، يدقق في جوازات سفر وطلبات دخول وخروج وأوراق إقامة أو جنسية أو سحب جنسية أو زواج، يلتقط الختم ويخبط، خبطة خبطة خبطة، خذْ هذه، أين ذلك الطلب، ما هوالرقم المكتوب هنا، رائحة حبر، ألم خفيف في الإصبع الذي يكتب، ثم الخروج ظهراً إلى مطعم مجاور. وفي المساء يتفرج على التلفزيون، يذهب إلى السينما، يمشي في شوارع الليل طويلاً، ويقرأ.

يقرأ كثيراً. يتعلم لغات جديدة، يقرأ روايات، ويقرأ شعراً. لكنه يفعل كل ذلك بلا أي إحساس. لم يفهم ماذا يجري له. كان يسقط ولا يرى إلاً بلاطات ملطخة بآثار دمٍ قديم. ولا يسمع إلاً صوت بكاء مخنوق، بكاء يشبه حشرجة بقرة مصابة بمرضٍ فتّاك يعذبها ببطء شديد قبل أن يقضي عليها. لم تكن بقرة ممددة على قشٍ جاف في زريبة بعيدة. كانت بقرة تحتضر في قلب تلافيف دماغه، ترعى ما بقي من خلاياه الرمادية، تجتر ما تأكله، وتموت رويداً رويداً.

بعد سنوات طويلة، واقفاً إلى نافذة غرفة فسيحة في الطابق الثالث والعشرين من فندق شيناغاوا برنس في هيروشيما، تفرج القنصل العراقي سليمان عبد الرزاق على غروب الشمس فوق مدينة الأنهار الخمسة ورأى الجبال الكثيرة ـ التي تشبه رسماً على الورق ـ تصطبغ بالصباغ الأحمر القاني. أخافه منظر الشمس البرتقالية المشتعلة. بدّت مثل قنبلة ذريّة معلقة إلى الأبد بين الغيوم المتلاشية الحمراء. جلس على حافة سريره، تناول علبة بيرة، وجرعها دفعة واحدة. كان يعيش مرة أخرى كالميت منذ أن فقد العزيزة غالا. وفي الليل يحمله المنام إلى أماكن غريبة: يعود إلى ذلك القبو الكابوسي تحت أرض الكرخ، قبو يعلم علم اليقين أنه زال وطمر مع كل المبنى ـ ومع كل تلك الأبنية الملاصقة ـ خلال الجولة الثانية من حرب المدن بين إيران والعراق: قُصف براجمات الصواريخ سبع ساعات. سقط على المركز القديم لأرشيف «حنين» ٢٩ صاروخاً. سليمان عبد الرزاق كان في موسكو عندئذٍ يتجول مع غالا في شوارع يعرفها كراحة يده. يشير إلى بيوتٍ ومخازن وحانات، ويضحك متكلّماً. يستعيد ذكريات ويحاول إضحاكها. لم تضحك.

كانت تريد أن تنجب ولداً. قال لها إن ذلك يخيفه. يحبها، هي تعرف كم يحبها، لكنه لا يريد ولداً. لماذا تصرّ عليه هكذا؟ ألا تعرفه؟

ألا تعرف حياته؟ ألا تعرف هذا العالم؟ أجابته أن العالم غير محدود، وأنه سعيد حين يكون معها، وهذا يعني أن العالم ليس بشعاً كما يتخيله. قال لها إنهما يتكلمان كالأولاد، لا بل كالأطفال، وفي نهاية المطاف ليس هذا ما يحدد هذه الأمور، هذه أمور تتعلق بالأحاسيس لا بالأفكار، وهو لم يحسّ يوماً أنه يريد أن يكون أباً، لم يحسّ يوماً أنه قادر على احتمال فكرة ابن، أن يكون عندي ابن، هل تفهمين ما أعني، أنا لا أستطيع أن أربي طفلاً، فقط لا أقدر! أجابته أنها رأته كيف يتصرف مع أولاد أختها، مع الأطفال في المطارات وفي صالات الفنادق. لم ترَ في حياتها رجلاً يحبّ الأولاد مثله، يحبّ الأطفال كأنهم أطفاله، فلماذا يقول إنه لا يقدر أن يُربي طفلاً! أجابها أنها تفهم بالضبط ما يقوله، ثم سألها لماذا تعذبه على هذا النحو، هي تعرف خوفه، تعرف أن مرض طفل قد يقتله، تعرف أنه لا يملك القوّة، تعرف أن السماء وحدها، السماء الغريبة الغامضة، أعطته القوّة كي يتعلق بها، كي يتشجع ويحبّها، السماء وحدها أعطته ذلك، فلماذا تريده الآن أن. . . قاطعته وقالت إن السماء أيضاً ستعطيه القوة كي يربي طفلاً وأنه هو الذي يعذبها الآن، يتكلم كأنه لا يريدها معه دائماً، ألا يعرف أنها لا تطلب شيئاً من الحياة إلاّ هذا: أن تكون معه وأن تنجب ولداً. قالت إن العمر يمرّ في لحظة، انظرْ إليَّ ألا ترى الوقت كيف يعبر، لماذا تقاومني بهذه الضراوة؟ كان جالساً قبالتها إلى طاولة مدوّرة يتناولان الفطور الصباحي، أمام بوابة شرفة تطلّ على غابات حورٍ ودردار وتنوب وزيزفون تتلون بالأحمر والأصفر والأزرق والبرتقالي. نظر سليمان عبد الرزاق إلى قطعة خضراء نائية، غابة صنوبرٍ تتعالى بعيداً فوق غابات الخريف مثل سماء أخرى مخضرة تحت سماء الرصاص، فأحسّ غشاوة تملأ عينيه. أراد أن يبكي. ما بال هذا الكون لا يتركه يحيا؟ حتى غالا تضطهده. . . حتى الرقيقة

غالا. وضع رأسه بين يديه وحدّق إلى كوب الحليب برغوته البيضاء، حدّق إلى شطائر السمك والجبن والمقانق، حدّق إلى صحنٍ من الخيار المملح، حدّق إلى الشامات على ظاهر يده، وسمعها تتكلم مرة أخرى عن حياتها، عن العمر الذي يعبر خطفاً، عن سنين لن ترجع أبداً، انظرْ إليّ انظرْ إليّ سليمان انظرْ حبيبي، ألا ترى الوقت كيف يمضي؟

في «حانة بوشكين» التي يعرفها منذ أيام الجامعة وقفا حول برميل خشب مرتفع يشربان بيرة محلية باردة، وينظران إلى الناس. على الجدران توزعت لوحات من الحياة الريفية الروسية تشبه لوحات الفلمنكي بروغل. آلات البيرة الكبيرة المطلية بالأحمر اصطفت في جانب من الحانة ـ القبو مثل صفٍ من الجنود. الواحد يلقي عشرين كوبيكاً في ثقب الآلة وينتظر امتلاء كوبه بالرغوة الذهب. على منضدة قريبة كرة زجاج ملونة قائمة على محور خشب، كرة غريبة عن المكان: مجسم الكرة الأرضية. شرب سليمان عبد الرزاق سبعة أكواب طافحة بسائل الذهب ولم يلمس مرة واحدة آنية القبو المثقلة بالبطاطس والسمك المملح. غالا كانت تنظر إلى فتاة روسية بيضاء متوردة الخدين في قميص زرقاء وبنطلون جينز أميركي ضيق تقف بظهرها لصق الحائط مضغوطة بجسم صاحبها النحيل الذي يقبلها في وجهها وفمها وعنقها وأعلى صدرها. حين انتبهت أن سليمان لم يلمس الطعام سألته لماذا اشتراه إذاً؟ شرح لها أن هذا لا بدَّ منه في عرف القبو. سألته لماذا يسمونها «حانة بوشكين»، هل كان بوشكين يجلس هنا؟ قال إنه لا يعرف، ثم إن الزبائن يسمونها «القبو» والسياح فقط يسمونها حانة بوشكين بسبب من الاسم القديم الباقي على اللافتة. بعد سنوات على ذلك الحديث المصدع رجع وحيداً إلى موسكو. هذه المرة لا يأتي زائراً بل في مهمة رسمية. عقب اجتماع في وزارة الخارجية في الساحة الحمراء وجد جسمه يركب المترو إلى «محطة ماركس»، ثم وجد قدميه

تسيران به إلى القبو. كان يعلم أن عليه أن يرسل تقريره إلى بغداد قبل حلول المساء. لكن طقس الخريف دفعه دفعاً إلى الفودكا والرنجة والخيار المملح.

سليمان عبد الرزاق لم يتخيل مرةً، في تلك الليالي البعيدة من خريف ١٩٦٩ العراقي، أن حياة جديدة قد تُكتب له. نقل أغراضه من تلك الغرفة في القبو الكابوسي إلى بيت أمه، بيت أبيه المقتول، بيت الطفولة القديم. كان البيت يحتشد بخالاتٍ. رأى أيضاً جدّة كان يتخيل أنها فارقت الحياة. أتين من النجف ومن كربلاء، وأقمن مع أمّه في البيت الخالي. الأخوة الباقون على قيد الحياة كانوا في السجن. أمّه كانت تنظر أمامها بعينين فارغتين، وعضلات وجهها لا تتحرك إلاّ حين تقع نظرتها على صورة من صور الأولاد. سليمان عبد الرزاق اعتاد في تلك الأسابيع الأخيرة أن يأتي إلى البيت بعد انتصاف الليل، وأن يغادره عند الشروق. ساعة الظهر كان يمضي إلى مقهى قريب من الأرشيف ويجلس مع «دليلك إلى اللغة الأسبانية» أو «دليلك السريع إلى الإيطالية». في أحيانٍ أخرى يقرأ مقاطع من المهابهاراتا في ثلاثة نصوص متوازية: نص سنسكريتي، نص بالأوردو، ونص إنكليزي. ذات ظهيرة رأى رفيقه الصابئي القديم جابك مطشر. أراد سليمان عبد الرزاق أن يرفع يده، وأن يشير إلى صديقه العابر وراء زجاج المقهى بظهرٍ منحنٍ وبخطى سريعة. أراد أن يرفع ذراعه ولم يفعل. استدار وراقب الصديق القديم يختفي في زحمة السوق بين عرباتٍ محملة بأقفاص طيور وصناديق فواكه وخضر. في تلك الليلة التقى سليمان عبد الرزاق في مقهى الرمل في أبي نواس رفاقاً تركوا «حنين» مع ناظم كزار أخيراً وانضموا إلى «أمن الدولة». قبل أن يغادروا دعاهم الرفيق صدام حسين إلى اجتماعٍ عام للكوادر وأبلغهم أنهم منذ الآن أبناء «البعث» والدولة في اللحظة ذاتها، لكن الولاء الأول يجب أن

يبقى دائماً للحزب: الحرس القديم منتشر في كل مؤسسات الدولة، والحلّ الوحيد أمام «البعث» هو إخراج هذا الحرس من مواقعه تدريجياً بضخ دماء جديدة، دماء بعثية، في الجسم المريض. سليمان عبد الرزاق جلس ساعة مع الأخوين الصيادين يونس وموسى، استمع إلى كلمات عن الزحمة المتواصلة في وزارة الداخلية ـ «كأنها سوق وليست وزارة» ـ ثم ضاع في أحزانه. كانت أنابيب النيون الزرقاء والصفراء والحمراء تضيء الطاولات الممتدة على الشط وتنعكس في مياه دجلة وتتلألأ. شرب عرقاً وأكل كباباً مشوياً وحمصاً متبلاً بالطحينة وباذنجاناً مطبوخاً بالبندورة مع البامية والبصل والفليفلة واللوبياء. كان طعاماً حاراً، وحين احترق فمه استيقظ من شروده. هذه المرة اكتشف أن الأخوين لا يتحدثان عن العمل الجديد في «وزارة الازدحام» بل يتذكران زمن الأهوار، والسباحة في النهر، والسطو على البط الداجن وحقول الخضر، ونصب الشباك للسمك وتلك الشباك الأخرى للطيور المهاجرة. توقف سليمان عبد الرزاق عن التهام طعام فاقد الطعم وأصغى إلى كلمات الأخ الأصغر: يونس. كان الشاب وَصّافاً بارعاً، نقله من الشاطئ الحزين المظلم إلى أرض أخرى وعالم آخر. إلى قرى بعيدة بحقولٍ من الرز الأخضر وأسراب اللقالق والبط والخضيري والحذاف والبلابل، قرى بأكواخٍ من قشٍ وقصبٍ ملفوفة بالحصائر في زمن الشتاء لمنع الرياح من الدخول إليها، قرى لا تعرف «البعث»، لا تهمّها متاهة بغداد، مخفية في مجاهل الأهوار والممرات المائية المتشعبة بين دجلة والفرات، حيث لا يصل اسم ناظم كزار، ولا يصل اسم صدام حسين، ولا يصل اسم أحمد حسن البكر. كان وهماً دام في رأس سليمان عبد الرزاق لحظة. الأهوار ليست خارج العراق: الأهوار صارت في قلب بغداد. تلك القرى تلوثت أيضاً. الصيادان الساهران هنا خير دليل. تبادلوا أنخاباً غامضاً وضحكوا. تخيلهما

يسبحان في تلك المياه البعيدة وانتابه إحساسٌ داكن ثقيل أن دجلة يغادر مجراه ويغمر طاولات الشاطئ ويغمر بغداد كلّها كما في القرون الفائتة، لكن شيئاً لن يتبدل. الحياة تبقى كما هي حتى بعد الفيضان. الطوفان لن يغيّر هذه الدنيا. فعلها اللّه قبل زمن سحيق ولم يختلف أمر واحد. «مثنى مثنى». . . ثم عادت الحياة إلى عهدها السابق. سكر سليمان عبد الرزاق تلك الليلة، وفي الطريق إلى بيت أمه رأى مياه النهر تتخبط بين حيطان المتاهة وتدفعه إلى هذا الجانب وذاك. كانت مياه متدفقة بلا وحول، بلا جثث، بلا جيف أبقار وماعز وطيور ميتة، بلا أوانٍ محطمة وأثاث مكسر وصناديق وزجاج وألواح تنك وخشب. كانت مياهاً صافية، كأنها العرق الذي شربه ممزوجاً بالماء الزلال ومكعبات الجليد. دفعته المياه إلى الباب الخشب القديم، وحين وقف لحظة وسط الرصافة النائمة لاحت منه التفاتة إلى بيتٍ مقابل، إلى نافذة كان يرى فيها فتاة صفراء الشعر مدوّرة الوجه ملتفة الجسم تشبه راقصات الأفلام المصرية. وسأل سليمان عبد الرزاق نفسه أين اختفى ذلك الزمن، وسأل نفسه كيف يُخبط العالم على رأسه هكذا، بكل هذا العنف، دفعةً واحدة؟ لم يبقَ إلاّ المرارة. حتى الغيظ تآكل في الأعماق، صار ورماً خبيثاً يمنع الهواء عن الرئة، ويسرق من الأشياء اللون والطعم والرائحة. المرارة. هذا كل ما يبقى.

القوّة، قال صدام حسين يُحدث نفسه في ذلك الليل المضاء بقمرٍ أبيض كلون العرق الممزوج بماء. كان يفكر في مناورات عبد الخالق السامرائي وتحالفاته داخل مجلس قيادة الثورة. فكّر صدام حسين أن السامرائي يملك الخبث ويملك اللسان المعسول ويملك الابتسامة المرتبة لكنه في المقابل لا يملك القوّة. ثم قال بلى، يملك القوّة، لكنه لن يملك أبداً السرعة الخاطفة.

شرب صدام حسين ثمالة كوبه، ونظر إلى الثفل المترسب في

القعر، وقال إن الإنسان يتعلم بمرور الوقت وأن عبد الخالق السامرائي قد يغدو بغتة أعند عدو يواجهه، وأخطر عدو. وقال صدام حسين في سرّه أن عليه التنبه، ثم تذكر زوجته لحظةً ببطنها المنتفخة، وفكّر أن البشر يتكاثرون بسرعة، كل هذا الإنجاب، كل هذا التناسل، وفكّر في هذه القوّة، في الأجيال التي تنمو، في أطفال يتحولون رجالاً في سنوات، وفكّر أن هذا خطر آخر، ثم حدّث نفسه أن هذا قد يكون سلاحاً أيضاً. كانت الأفكار تختلط في رأسه مثل نباتٍ متشابك كثيف تخبطه رياح عاصفة، وغادر الكرسي وأخذ يمشي في الحوش.

في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٧ أجرت الحكومة العراقية إحصاء سكانياً أفاد أن في البلاد ١٦ مليون نسمة. بحسب إحصاء ١٩٥٧ بلغ عدد سكان العراق نحو ٦ ملايين نسمة. في ١٩٨٦ توقع الخبراء أن يصبح عدد سكان العراق ٢٢ مليون نسمة بحلول عام٢٠٠٠. كان هذا يعني أن نصف الكثافة السكانية في البلاد (أو أكثر) مكون من شباب وفتية. في تلك الليلة البعيدة من خريف ١٩٦٩، بينما يتذكر بطن امرأته المنتفخة، بدأ صدام حسين يفكّر في وسائل ناجعة لتحويل كل هذه الأعداد من الصغار إلى قوات مساندة، لا إلى قوات عدوةٍ.

لم يحتج الأمر إلى تفكير طويل أو تأمل عميق. زوجته ساجدة طلفاح، التي تعلم التاريخ والجغرافيا في مدرسة ابتدائية مجاورة، لم تلبث أن دلّته إلى الدرب الصحيح صدفةً. كانت تركت على الطاولة كتاب التاريخ للصف الابتدائي الخامس. فتحه صدام حسين بينما يشرب قهوته الصباحية وقرأ بعض المقاطع... بينما يقرأ أيقن أنه وقع على حلّ الألغاز التي حيّرته في الليلة الماضية. ما يقرأه الولد الصغير، ما يتعلمه في المدرسة، يتحول إلى حقائق في دماغه الهشّ، في صفحة عقله البيضاء. هنا تبدأ طريق الحياة: علينا أن نكتب على هذا اللوح الأبيض النقي التاريخ كما يجب أن يكون، التاريخ كما يراه البعثي النموذجي، التاريخ الكامل الحقيقي.

في ١٩٧٧ صدر عن «منشورات الثورة» في بغداد كتاب جَمَعَ مقالات ومحاضرات ومقابلات لنائب أمين عام مجلس قيادة الثورة (الرجل الثاني في البلاد بعد الرئيس) نائب أمين عام بعث العراق الرفيق صدام حسين. عنوان الكتاب: «الديموقراطية مصدر قوة للفرد والمجتمع». في إحدى المحاضرات في «وزارة التربية والتعليم» يشرح صدام حسين للمسؤولين في الوزارة الأسلوب النموذجي لتعليم فتيان العراق وفتياته: مبتدأ التربية الفهم. المعلم العراقي عليه أن يدرك حقيقة بسيطة غابت عن الماركسيين حين زعموا أن الطبقة هي الخلية التي تشكل المجتمع. الخلية الأساس للحياة البشرية، خصوصاً في بلادنا العربية، هي العائلة. المشكلة في العراق أن الأب والأم ربما مارسا ـ بسلطتهما داخل البيت ـ تأثيراً رجعياً على أطفالهما. هنا نتدخل: علينا أن نأخذ الولد الصغير ونعلمه أن يشع في قلب البيت ويمحو ظلامية الأجيال السابقة، الآباء انحرفوا بعيداً لأسباب كثيرة، منها أنهم نشأوا في بيئات رجعية سبقت ثورتنا، أما الولد الصغير فهو لا يزال نظيفاً، علينا أن نحارب من أجل خلاص هذا الولد، هذا الكيان الإنساني الثمين، علينا أن نحوّله إلى عنصر متفاعل مع مجتمع الثورة، إلى بؤرة إشاعية تنير عائلته. علينا في الوقت نفسه أن نحفظه بعيداً من التأثيرات السلبية. وحدة العائلة لا تتأسس على قيم رجعية، بل على شيفرة أخلاقية متينة تستمد عقيدتها من قِيم الثورة وعقائدها الراسخة. وكلما حدث تناقض بين وحدة العائلة وبين العقائد الثورية وجب أن يكون الحلّ في مصلحة عقائد الثورة. علينا تطويق الراشدين بأطفالهم. علموا الطالب أن يعترض على أهله إذا سمعهم يناقشون أسراراً حزبية أو ينتقدون سياسة الدولة، علموا الطالب أن يُحذر أهله ويقول لهم: «هذا تصرف خطأ». علموا الطالب أن ينقد أباه وأمه بالاحترام الواجب، كلما سمع أحدهما يتحدث عن أسرار تخص الدولة. عليكم

أن تزرعوا في كل زاوية من الوطن ابناً وفياً للثورة ـ بعينٍ أمينة وعقل ثابت ـ يتلقى الإرشاد القويم من مركز الثورة. علموا الطالب الاعتراض ـ باحترام ـ على أهله إذا لاحظ أنهم يبذرون ثروة الدولة وعلموه أن يشرح لهم أن هذه الأموال أعز عليه من لقمة الخبز لأن مال الوطن هو مال المواطن ولأن ممتلكات الدولة هي ممتلكات كل فرد. علموا الطالب الاعتراض على تجاوزات أهله لأن هذا الاعتراض مفتاح الديموقراطية وسعادة المجتمع. علموا الطالب في الوقت نفسه أن يكون حذراً في تعامله مع الأجانب، لأن الأجنبي عين دولته الأجنبية وأذنها، ولأن بعض هؤلاء لا يبغون إلاَّ تخريب مجتمعنا. علموا الطالب أن الحديث مع الأجنبي من دون وجود رفاق متمرسين في هذه الأحاديث هو أمر ممنوع. الطالب عليه بدوره تحذير الكبار ـ وباحترام ـ لئلا يقعوا في المحظور ويكشفوا أسرار البلاد أمام الأجانب. علموا الطالب أن يحترم كلماتكم بأن تكونوا القدوة البعثية الصاحية دائماً. الطفل في علاقته بالمعلم هو بالضبط مثل حجر رخام بين أصابع النحات الذي يملك تحويل هذه القطعة إلى عملٍ فني خالد أو إهمالها وتركها في العراء للمؤثرات السلبية وعوامل الطبيعة الفتاكة. علينا أن نساعد الطالب على رؤية العالم رؤية إيجابية تخلو من كل مؤثر سلبي. حين يشع الولد على أهله يغيرهم إلى الأفضل: إذا اعترض على أخطائهم دائماً، تعلموا تصحيحها. إذا تابعوا انحرافهم، وإذا لم تنفع تحذيرات الولد (وهي كلّها توجه إلى الأهل باحترام) فعلى الولد عندئذٍ أن يلجأ إلى المعلمين، إلى أساتذته، لكي يناقش المسألة معهم. الديموقراطية هي فن الاعتراض على الخطأ. هي درب السعادة العامة الشاملة.

عام ١٩٨٠ قال أمين عام مجلس قيادة الثورة القائد العام للقوات المسلحة الرئيس العراقي صدام حسين في مقابلة صحافية أن «البعث»

قطع درباً طويلة منذ ثورة ١٩٦٨ المباركة: «أين طُبقت الاشتراكية في الوطن العربي بمعناها الجديد الدقيق؟ هنالك محاولات للتطبيق الاشتراكي حتى الآن في بلدنا بمنهج مفهوم ومعروف وبخطوات ثابتة وعميقة، وهذا ليس ادعاء. أما في دول عربية أخرى فإن المسألة الاشتراكية أخذت معنى التأميم وسيطرة الدولة على بعض النشاطات الاقتصادية أكثر مما أخذت معنى تغيير الحياة تغييراً شاملاً جذرياً. وهذا يعني أن الاشتراكية لا يجوز أن تحصر في ظل صيغة أو شكل من المعالجات الاقتصادية... وإنما هي حالة تتعدى المعالجات إلى حالة الحياة الشمولية ونقلها من معنى العلاقات الاستغلالية إلى معنى العلاقات التي تستبعد الاستغلال وتقيم مجتمعاً جديداً مستنداً إلى الكفاية والعدالة وتفتح أمام الشعب الفرص الجدية للممارسة الديموقراطية. وعندنا في العراق كيف ترى مجتمعنا؟ هل هو سعيد؟ لقد احتككت به كإنسان عربي فهل رأيت أنه مجتمع تعيس أو منزعج من تجربته؟ إنه يفتخر بها ويعتز في الوقت الذي قد تكون لديه ملاحظات عليها. وعندما نتحدث عن الوطن العربي وحتى عن التجارب الاشتراكية الأخرى في العالم نقصد أن الشعوب هي التي تختار الطريق الذي تجد أنها سعيدة فيه. إن المجتمع العراقي سعيد بتجربته حتى الآن ونحن مصممون على أن نجعله أكثر سعادة سنة بعد أخرى».

عام ١٩٧٩ نشرت «دار الحرية» في بغداد كتاباً جَمَع محاضرات ألقاها صدام حسين في منتصف السبعينات، مع ملاحظات وهوامش عليها بأقلام «١٦ أكاديمياً عراقياً مختصاً في علم التاريخ» يحملون الدكتوراه من جامعات أميركية وأوروبية. عنوان الكتاب: «حول كتابة التاريخ». في محاضرة من ١٩٧٧ يقول صدام حسين إنه يفهم هؤلاء المؤرخين والباحثين الذين يقدمون التاريخ من زوايا عدة للنظر على

أساس أنهم موضوعيون ثم يتركون للقارئ استنتاج الخلاصات كما يرغب. لكن البعثي عليه ألا يتعامل مع التاريخ والمسائل الاجتماعية والثقافية الأخرى بمثل هذا الأسلوب، لأن البعثي ليس محايداً في شؤون الوطن والأمة المهددة بالخطر على الدوام. البعثي عليه واجب مقدس: حين نريد أن نكتب تاريخ الأمة العربية علينا أن نكتبه كما نراه، بنظرتنا البعثية الثاقبة، وأن نركز على التحليل والنتائج، لا أن نسرد حكايات ونمشي. حين نكتب عن الوحدة العربية مثلاً علينا ألا نشغل التلامذة اليافعين بكل تلك التفاصيل الخاصة بتشرذم الأقليات أو العلاقات بين الدول وكل ذلك، علينا ألا ندخل أبداً في نقاش من نوع: هل نحن أمة واحدة أم لا؟ يكفي أن نتحدث عن العرب كأمة واحدة، معتبرين هذا حقيقة مطلقة، مع موجز مبسط لدور الامبريالية في تفكيك هذه الأمة بغية إضعافها والسيطرة عليها وعلى ثرواتها الطبيعية... بالأسلوب ذاته يكون التعليم وكتابة التاريخ حين نتحدث عن «بعث العراق» كحزبٍ قائد للبلاد: يجب تقديم هذا للتلميذ اليافع بصفته حقيقة مكرسة. البعث هو الحزب القائد للعراق، أما بالنسبة إلى التفاصيل المتعلقة بكيف صار البعث حزباً قائداً للعراق فهذا نشرحه بالتركيز على إنجازات الحزب ودوره القيادي في إنقاذ الشعب العراقي، من دون إرهاق ذهن الطالب بالتعقيدات النظرية والفلسفية وبالتحليلات السياسية».

في آب (أغسطس) ١٩٦٩ غادر صدام حسين بغداد على رأس وفدٍ رسمي إلى طرابلس الغرب لتهنئة العقيد الليبي معمر القذافي بوصوله إلى السلطة بعد انقلابٍ على الملك إدريس. بينما يشربان الشاي مع الهال الأخضر سأل العقيد القذافي الرفيق صدام حسين عن أحوال الرئيس البكر. صدام حسين قال إن الرئيس في صحة ممتازة لكنه لا يريد أن يغادر العراق في هذه المرحلة الصعبة. العقيد القذافي

قال إنه يفهم هذا: كل ثورة شابة عليها تعزيز نفسها وتحصين قلاعها. كانا يجلسان في بهوٍ فسيحٍ بنوافذ مستطيلة تطلّ على صحراء لا متناهية. قال الرئيس الليبي الجديد:

ـ أريد أن أشق هذه الصحراء بنهرٍ عريض.

أجابه صدام حسين:

ـ المشكلة أنه سيتبخر في حرارة الشمس.

كان الخريف ينتصف. أعلم صدام حسين زوجته أنهم سينتقلون بعد ثلاثة أيام إلى فيلا قريبة. قال إن هذا المكان لا يناسب مركزه، وأن الفيلا محصنة وأكثر أماناً. لم يقل كلمة أخرى ولم تسأله شيئاً. جلست تراقبه بينما يتناول فطوره الصباحي (البيض المسلوق واللبن والجبن والبندورة والشاي والخبز الساخن) وقد حملت طفلتها رغد بين ذراعيها. حين انتهى من طعامه أسرعت تعدّ القهوة. عادةً تنهض قبل أن ينتهي من الرغيف. لا يأكل أكثر من رغيف إلاّ نادراً. لكنها هذا الصباح شردت وهي تنظر إلى أصابعه. هذه الليالي يرجع متأخراً. من رائحة شعر رأسه الأسود الجعد تعلم أنه لم يكن مع رفاقٍ فقط. تعلم ولا تقول شيئاً. ماذا تقول للرجل الثاني في البلاد بعد الرئيس العقيد أحمد حسن البكر؟

الشقراء اليونانية كرستين كازانتزاكيس تذكرت بعد سنوات طويلة الليلة الأولى مع صدام حسين. قالت في مقابلة تلفزيونية عرضها تلفزيون ABC الأميركي أنها أعجبت بصدام منذ تلك العبارة التي وجّهها إلى أخيه غير الشقيق برزان في حفل العشاء في فيلا التاجر الأرمني هاروت: «لا تلمسها، إنها لي». قالت إنها كانت في الثامنة عشرة حينئذٍ، تجربتها في الحياة غير عميقة، والعالم كلّه محموم بالأحداث والتجارب، عالم ١٩٦٨ والأفكار التحررية وثورات الطلاب. . . «وصدام كان شاباً وسيماً وأنيقاً وفي السلطة. لم أدرك أنه

مجرم. كيف يمكن لي أن أعرف حينها؟». وبدأت علاقتهما تلك الليلة.

عندما اكتشف أبوها ما يجري أعادها إلى بيروت. المهندس نيكوس كازانتزاكيس (الذي يحمل اسم الروائي اليوناني المعروف) قال لابنته إن ما تفعله مفهوم، لكنه بلا مستقبل: الرجل متزوج، ثم إنه ليس بوارد الزواج منها حتى سرّاً، فهو ليس مسلماً تقليدياً. قال المهندس لابنته أن تنسى صدام حسين. ابنته، حين وجدت صاحباً في بيروت بعد فترة، قالت لأبيها إنه كان على حق. ضحكت ثم أردفت:

ـ صحيح أنك تمدّ أنابيب وأنك لم تكتب «زوربا» لكنك تعرف الكثير عن الحياة.

المهندس اليوناني نيكوس كازانتزاكيس استمع إلى كلمات ابنته وضحكاتها وتذكر أباه. الأب أيضاً كان مهندساً يعمل في حقول النفط. في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٧ كان جد الشقراء اليونانية واحداً من ٤٩ رجلاً من «شركة النفط التركية» استطاعوا أن يحفروا أول بئرٍ للنفط في العراق. انفجر النفط في حقلٍ شمال كركوك تحت ضربات الآلة الثاقبة: خرج في نافورة سوداء بلمعة زرقاء متألقة وغمر الأرض والماكينات وخيم العمال. كان طوفاناً من النفط، ولم يتمكنوا من السيطرة على اندفاعته الهائلة إلاّ بعد ٩ ساعات من العمل المنهك.

«شركة النفط التركية» لم تكن تركية. كانت اتحاداً من شركات إنكليزية وفرنسية وعراقية. بعد اكتشاف النفط في كركوك مُدَّ الإنبوب الأول إلى قرية على ضفة الفرات. من هناك، من «الحديثة»، تفرع الإنبوب إلى إنبوبين: إنبوب توغل في سورية حتى مرفأ طرابلس اللبناني، والآخر اتجه إلى حيفا في فلسطين. عام ١٩٣٤ بدأ ضخ النفط. بعد إعلان دولة إسرائيل في ١٩٤٨ أوقف العراق الضخ في إنبوب حيفا، ومدّ إنبوباً أضخم إلى طرابلس اللبنانية، وبدأ التخطيط

لإنبوب جديد من كركوك إلى بانياس على الساحل السوري. المهندس نيكوس كازانتزاكيس بدأ حياته العملية في هذا الإنبوب الأخير بعد أن أمضى نصف سنة كطالب هندسة متمرن يراقب أعمال مدّ إنبوب آخر من حقلٍ جديدٍ مكتشف خارج البصرة إلى الفاو في أقصى الجنوب مخرج العراق على الخليج العربي. كانت الحقول والأنابيب من ممتلكات الشركات الغربية مع هامش ربح بسيط لبعض الشركات العراقية الصغيرة. الحكومات العراقية المتعاقبة كانت تجني ضرائب من الشركات ورسوم عبور وإنشاءات. المهندس اليوناني نيكوس كازانتزاكيس كان ـ مثل أبيه ـ يتفرج على الفقر في القُرى العراقية ويقول في سرّه إن هؤلاء الفلاحين بالكوفيات والنعال يأكلون خبز الشعير الأسود ويحرثون التربة السوداء طوال النهار، ثم يلقون رؤوسهم ليلاً على أرضٍ ترتجف بالذهب الأسود المتدفق في طبقاتها التحتية، ولا يعرفون ولا يفهمون.

المراهقة الشقراء قالت لصدام حسين في تلك الليلة الأولى إن رائحته تشبه رائحة أبيها تشبه رائحة التراب. صدام حسين لم يقل شيئاً. بعد سنتين قالت كريستين الجملة ذاتها بينما تضاجع رجل أعمال عراقياً يقيم في بيروت. رجل الأعمال الثري عبد الهادي جعفر أجابها أنها هي بالمقابل تفوح برائحة الخوخ الناضج الشهي. الزغب الأشقر على استدارات لحمها الثرية ملأ منامات عبد الهادي جعفر. كان يستيقظ في نصف الليل فيجدها قربه، عارية بلا دثار، وهواء بيروت البحري يتموج على تلال اللحم. يدخلها بينما تتقلب في مناماتها السرّية وحين تفتح عينيّها يرى بياضاً بلا قعر. تشدّه إليها بساقين لحيمتين وحين يتوقف تلفظ كلمات داعرة في أذنه. يرجع إلى الحركة وظهره ينقطع نصفين وتغيب عنه الأصوات والألوان والروائح: صوت البحر وصوت السيارات عابرة كورنيش المنارة. لون الفجر الأزرق على ستائر الغرفة البيضاء ولون الشعر الذهب العرقان على الكتفين والصدر والعنق.

رائحة العطر الفرنسي الرجالي ورائحة الشواء في جسمه من الليلة الفائتة ورائحة الشامبانيا في فم صاحبته. كل الأصوات والألوان والروائح تغيب. لا تبقى إلاّ تلك الرائحة السكرية الحادة: رائحة جلدها الناضج والماء الحلو الذي يتدفق في خلاياه، كأنه يأكل ويشرب ويضاجع في اللحظة ذاتها. كان لا يدخن التبغ أبداً. حين أخبرته أنها تحب منظر السيجار بين أصابع الرجل أوصى على ٣٠ علبة من السيجار الكوبي وعلّم نفسه التدخين. أصابته نوبات سعال لكن ذلك هان حين أخبرته في السرير أن رائحة أصابعه تذيب جسمها. لعقت أصابعه إصبعاً إصبعاً وسألته ماذا يريدها أن تفعل له. في خريف ١٩٧٠ تزوجها. كانت حاملاً بابنته الأولى. أواخر ١٩٧١ أنجبت ابنته الثانية. بعد شهر واحد انتقلت العائلة الصغيرة إلى بغداد. استقر التاجر عبد الهادي جعفر مع زوجته اليونانية وابنتيه في الطابق الرابع من عمارة الدامرجي الشهيرة. في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢ التقت كريستين جعفر عشيقها القديم صدام حسين في حفلة في بيت رئيس المخابرات العراقية سعدون شاكر. عبد الهادي جعفر وقف إلى جانب زوجته بينما سعدون شاكر يقدم صدام حسين إليها:

- كريستين يونانية وهي زوجة رفيقنا عبد الهادي.

كريستين بالمقابل استمعت فقط إلى كلمات التعريف بالعشيق القديم الذي ضاعف سطوته على الآخرين وعلى العالم مرات لا تحصى خلال الأربع سنوات الفائتة:

- «السيد النائب» صدام حسين.

التاجر العراقي الثري صديق الرفيق سعدون شاكر منذ زمن الشقاوة في أزقة البصرة السيد عبد الهادي جعفر ارتكب عندئذٍ الخطأ الأول في سلسلة أخطاء سوف يتاح له الوقت الكافي لكي يندم عليها: رفع ذراعه اليسرى، بينما يمناه تحمل السيجار وكأس الشمبانيا معاً، رفع ذراعاً

متينة العضل وأحاط كتف زوجته الشقراء المتدفقة جاذبية بأعوامها الاثنين والعشرين وشعرها المنسدل كجداول ذهبٍ على ظهرها العاري. كان يقول للحاضرين جميعاً: «لا أحد يلمسها، إنها لي». بعد أسبوعين كشفت المخابرات مؤامرة على الوطن والأمة. المتهمون: بعثيون من الحرس القديم وشيوعيون ويهود وضباط في الجيش، إضافة إلى تاجر تركماني وطبيب سنّي من الموصل وتاجر شيعي من البصرة جنى في بيروت ثروة بأعمال مشبوهة ثم رجع إلى بغداد قبل فترة، فأقام في عمارة الدامرجي حيث تحولت شقته إلى وكر للتخطيط والمؤامرات.
ناظم كزار رئيس «أمن الدولة» أشرف شخصياً على اقتحام منزل التاجر المدعو عبد الهادي جعفر واقتياده إلى التحقيق. بعد يوم واحد أذاع «راديو بغداد» أن التحقيق كشف علاقة بين هذه المؤامرة الجديدة والمؤامرة التي أحبطتها أجهزة الأمن العراقية في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠، تلك المؤامرة القذرة التي خطط لها عملاء إيران والـ CIA والصهيونية، وتورط فيها العقيد عبد الغني الراوي والملحق العسكري بسفارة العراق في بيروت العقيد صالح مهدي. مؤامرة كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ كُشفت قبل يومين من الساعة الصفر لتنفيذ العملية المخيفة: ٥٠ رجلاً مسلحاً يقودهم العقيدان مهدي والراوي كانوا يستعدون للانقضاض على القصر الجمهوري في الساعة العاشرة ليلاً من يوم ٢٠ كانون الثاني (يناير) ذاك، وإعدام رئيس الجمهورية العقيد البكر في فراشه. أجهزة الأمن لم تكشف تفاصيل الخطة فوراً لأن بعض العناصر المتآمرة كان لا يزال طليقاً. التلفزيون نقل عن مصدر موثوق أن المسلحين دخلوا فعلاً إلى قاعة الاستقبال في القصر الجمهوري وكانوا في طريقهم إلى جناح النوم الرئاسي حين أطبق عليهم نائب الرئيس الرفيق صدام حسين مع حفنة من رجاله. المسلحون أدركوا فوراً أن خطتهم اكتشفت وألقوا السلاح.

عبد الهادي جعفر أقسم بأمه وأبيه وبتربة الإمام علي والحبيب الحسين أن لا علاقة له بأي مؤامرة إطلاقاً وأنه لم يلتقِ لا الملحق العسكري في سفارة العراق في بيروت ولا العقيد عبد الغني الراوي مرة واحدة في حياته. خلال التحقيق أعلمه ناظم كزار أن أكاذيبه لا تنطلي على أحد. عنده ٧ شهود من الجالية العراقية في لبنان يؤكدون أنهم شاهدوا عبد الهادي جعفر مع العقيد صالح مهدي مرةً في سهرة في فندق فينيسيا عام ١٩٦٩، ومرة في فندق الهوليداي ـ إن عام ١٩٧٠، قبل أيام قليلة من محاولة اغتيال الرئيس البكر. عبد الهادي جعفر حلف أنه لم يتكلم مع العقيد وأن وجود رجلين عراقيين في سهرة مشتركة في فندق لبناني لا يعني بالضرورة أنهما يتآمران. بعد هذا «التذاكي» أقدم ناظم كزار على «تسريع التحقيق» من دون إلحاق أذى جسدي بالمتهم: أدخل سجيناً شيوعياً إلى الزنزانة وألقاه أمام عبد الهادي جعفر وأمره أن يلعق القدمين. عبد الهادي جعفر المقيد إلى كرسي اكتشف في وجه السجين المشوه بالضربات والبقع والدم والندبات وجه أخيه الأصغر عبد الحسن جعفر الذي اختفى من البصرة في شتاء ١٩٦٩ ونفت السلطات أن تكون على علمٍ بمكان وجوده. طوال سنوات اعتقدت العائلة أن الفتى مات. في ١٩٧٠ سافرت الوالدة إلى بيت ابنها عبد الهادي في بيروت وقضت عنده أسبوعاً. طوال ذلك الأسبوع كانت تبكي كلما رأت عن الشرفة شاباً على دراجة نارية. ابنها المفقود عبد الحسن اقتنى أول دراجة نارية يابانية في مدينة البصرة: كان ذلك قبل يوم واحدٍ من نكسة ١٩٦٧ وكان عبد الحسن في الخامسة عشرة من عمره. عبد الحسن جعفر الملقى على أرض الزنزانة في ذلك الأصيل البارد من شتاء ١٩٧٢ لم يكن يعرف أي شيء عن وقت النهار، أو فصل السنة، أو السنة ذاتها. خلال جولة تعذيب في وكر «حنين» المركزي في البصرة فقد بصره. قبل نهاية ذلك الشتاء الأحمر

نقلوه إلى بغداد. خلال جولة أخرى تعطلت أذنه اليسرى. في جولة جديدة أصابته ضربة على الأذن الأخرى، فبات لا يسمع إلاّ أقوى الأصوات. انحنى رجل وصرخ في أذنه. تحركت ذراعا عبد الحسن جعفر بصعوبة وتمكنت الأصابع المقلوعة الأظافر من التقاط قدمين حافيتين يلفهما حبلٌ ثخين. أمسك عبد الحسن جعفر القدمين بأصابع أضعفتها المطارق والسلاسل والمياه المغلية لكنها احتفظت بقوة قديمة: تلك القوّة التي تمنح الدراجة النارية دفقة الوقود الكافية كي يزأر المحرك الياباني في أصيل المدينة العراقية المكتظ بأصوات الباعة والنساء والحيوانات والطيور. عبد الحسن جعفر لعق القدمين بلسان نصف محروق وسمع صراخاً بعيداً بعيداً، صراخاً بدا مألوفاً، صراخاً ذكّره بزمنٍ قديم. حين أخرجوه ـ من دون أن يعلم لحظة واحدة أنه كان في حضرة أخيه الكبير، أخيه الحبيب عبد الهادي الذي أرسل إليه الدراجة «الياماها ٣٢٤» من بيروت ـ سمع عبد الحسن جعفر مرة أخرى تلك الصرخات الملتاعة، بعيدة بعيدة، وتذكر السباحة في دجلة، وكيف أشرف مرةً على الغرق، وكيف أنقذه أخوه. في الزنزانة بصق عبد الهادي جعفر على ناظم كزار. ناظم كزار طلب كرسياً ثم جلس أمام المتهم وأخبره أنه أمام ٣ خيارات:

١ ـ يدقون مسامير في جسم الأخ الصغير.

٢ ـ يكبسون رأس الأخ الصغير بكباسة حديد.

٣ ـ يقطعون أصابع يدي الأخ الصغير.

ثم سكت لحظة وتابع:

ـ لأنه بلا أصابع قدمين منذ فترة.

حين فقد عبد الهادي جعفر وعيه دلقوا عليه سطل ماء. هذه المرة سمع كلمات ناظم كزار بوضوح:

ـ لأننا نريدك أن تعترف من دون تعذيب. وأن تظهر على التلفزيون في قميص مرتب وتخبر كل شيء. كل ما يجب أن تقوله نكتبه لك. أنت ترتاح ونحن نرتاح. وأخوك يرتاح أيضاً.

لم يظهر عبد الهادي جعفر على التلفزيون. زوجته أدركت أنها فقدته حين زارها المحامي علي السويدي وأخبرها أنه قادم من طرف نائب الرئيس، ليطلب منها تطليق زوجها، خصوصاً أن الدولة صادرت كل أملاكه، وهي بالتالي باتت منذ اللحظة لا تملك شيئاً. المحامي أخبرها أن نائب الرئيس منع الشرطة من إخلائها وابنتيها من العمارة مؤقتاً، وأنه حاول أن يخرج زوجها من السجن، لكن يبدو أن ذلك غير وارد، بعد إفادات شهود عيان أظهرت تورط زوجها الأكيد في المؤامرة الأخيرة على النظام.

كريستين كازانتزاكيس استمعت إلى المحامي من دون أن تقاطعه. هو في المقابل فهم منذ اللحظة الأولى أنه أمام امرأة غير عادية. كانت في تنورة حمراء قصيرة كتلك التي ترتديها لاعبات التنس في «النادي الإنكليزي»، صدرها ظاهر من الجنب تحت فانلة رجالية بيضاء، وشعرها مربوط بشريطة بنفسجية. حافية وفي كاحلها الأيمن خلخال فضة ذو رنين. رائحتها دراقن.

أنهى المحامي حديثه قائلاً:

ـ عليكِ تطليق زوجك.

أبلغته أنها لا يمكنها أن تفعل ذلك.

ارتبك المحامي وضاع لا يعرف ماذا يفعل أمام الكلمات الهادئة الخارجة من بين شفتين سمينتين، ثم سمعها تقول:

ـ لا يمكنني أن أطلقه لأنني مسيحية. لا يوجد طلاق في كنيستنا.

تنهد في ارتياح عندئذٍ وطلب منها أن تعتنق الإسلام. قالت:

ـ وهذا ممكن؟

أجابها:

ـ طبعاً.

بينما المحامي علي السويدي يخرج من عمارة الدامرجي، انتبه إلى رائحة عرق تتصاعد من جسمه. قال في نفسه إنه عَبَرَ تجربة مخيفة. داخل بيت تلك اليونانية كان يحترق كأنه في جهنم. بينما يعبر شارع البنوك هدر الرعد في السماء. انهال مطرٌ غزيرٌ بارد على السيارات. علي السويدي استظل بمدخل بناية بانتظار ظهور سائق سيارته، وتأمل البشر يركضون مع مظلات وبلا مظلات تحت الوابل المنهمر. كان العالم مزدحماً بالرجال والنساء يسرعون على هذا الرصيف وعلى ذاك الرصيف، وكان المحامي ما زال عالقاً في تلك الغرفة العالية، بين كنبات المخمل الوثيرة، يحدّق إلى زغبٍ أشقر ناعم على جلدٍ مشدود، يحدّق إلى لحمٍ صلبٍ وطري مخبأ بقماش قليلٍ، لحم لا يخاف كل ذئاب هذا العالم.

تلك الليلة استقبلت كريستين كازانتزاكيس نائب الرئيس الرفيق صدام حسين في فراشها. ضاجعها حتى ثقب صراخها أذنيه، ثم صفعها وأهانها وغادر المنزل. في الأسفل وجد المرافقين بانتظاره. لم يجرؤ أحد منهم على النظر إلى وجهه المقطب الداكن. في الليلة التالية انتظرته كريستين كازانتزاكيس مع كوبٍ من الويسكي الإيرلندي في يدٍ وسيجارة روثمان في الأخرى. عندما دقّت الساعة على الجدار تسع دقّات تركت الكنبة وعبرت الممر الطويل إلى غرفة الطفلتين. كانتا غارقتين في النوم. على كرسي جنب المهد الخشب المزدوج جلست خادمتها الهندية تخيط كنزة صوف. رفعت الخادمة رأسها، أرادت أن تسأل سيدتها شيئاً، لكن كريستين استدارت وأغلقت الباب خلفها من الخارج. في الصالون سكبت كوباً آخر من الويسكي. على التلفزيون تفرجت على تمثيلية عراقية. قبل أن تدقّ الساعة العاشرة سمعت

طرقات ورنّ الجرس. فتحت الباب فرأت صدام حسين كما رأته البارحة. سترة سوداء، قميص أبيض، وبنطلون أسود. بالوجه الداكن والشارب الأسود الكثيف. مدّت يدها كي تصافحه لكنه خطا إلى الأمام وعانقها بذراعين قويتين. كانت رائحته مطراً وتبغاً. ردّ الباب خلفه ثم أسندها إلى الحائط. أسنانه القوية تكسرت على أسنانها. رفعها عن الأرض ومزق قميصها الأزرق الشفاف بضربتين من مخالبه. غرزت أسنانها في كتفه. ضاجعها على سجادة المدخل الفارسية. كانت نصف سكرانة، والويسكي الذي شربته يجعل جسمها مرناً مطواعاً وسط العاصفة التي اجتاحت بيتها. أخذها على الأرض ثم على الكنبة. ركعت على أربع وولجها من خلف وكانت تقضم مساند الكنبة لئلا توقظ الطفلتين بالمواء الخارج من أمعائها. وابل المطر طرطق كحبات البَرَد على النافذة. عندما انتهى جلس لحظة عند طرف الكنبة، شرب نصف كوب ويسكي ودخّن نصف سيجارة. كانت تقبل صدره وأصابعها تفرك بطنه وساقيه. دفعها بعيداً. حين حاولت التعلق به صفعها صفعة عنيفة ألقتها أرضاً، شتمها ثم خرج.

في الليلة الثالثة لم يأتِ. انتظرت كريستين كازانتزاكيس الرجل الداكن بالشارب الأسود الكثيف والذراع القاسية منذ ساعة المساء الأولى وحتى الثانية فجراً. شربت قنينة ويسكي كاملة ودخنت ٢٥ سيجارة. في الثانية وخمس دقائق غفت مطروحة على الكنبة أمام شاشة مبرغلة سوداء وبيضاء بصوت خشخشة ما بعد انتهاء الإرسال. في منامها سمعت طرقاً عنيفاً على الباب، كأن أحدهم يخلع باب بيتها. فتحت عينيها فرأت التلفزيون مضاء والمصابيح مضاءة والساعة تشير إلى الثالثة وسبع دقائق. كان الرعد يهدر في سماء بغداد النائمة. أرادت أن تذهب إلى الحمام. بينما تخطو على بلاطٍ بارد بين سجادة الردهة وسجادة الممر سمعت طرقاته على الباب. تعرف طرقاته. حفظتها. حين فتحت الباب استولى عليها برمشة عين. لم تعرف كيف نزع عنها

الروب السميك وقميص النوم وثيابها الداخلية في لحظة. كانت عارية تحته، عارية تماماً، إلاّ من الخلخال في كاحلها الأيمن والقرطين الضخمين في أذنيها. افترسها كفتاة صغيرة وكانت دائخة شبه نائمة طوال الوقت. في عروقها تجري قنينة ويسكي، والتبغ الذي دخّنته تحوّل سخاماً على سقف حلقها وعلى أسنانها وفي زلعومها. لم تعرف متى انتهى منها ولا متى صفعها ولا متى خرج وخبط الباب خلفه. نسيت أنها أرادت الدخول إلى الحمام. رفعت نفسها إلى الكنبة ونامت نوماً عميقاً خالياً من المنامات.

في الليلة الرابعة، قبل أن يضاجعها، طلبت منه ألا يصفعها على وجهها بعد الآن. كان وجهها بقعة زرقاء مخضرة. حين انتهى منها شتمها لكنه لم يضربها. جلست على الأرض وتركته يشتمها. أبعدها بحذائه ثم نهض ولبس سترته وخرج. بعد ثلاثة أسابيع، بعد ٢١ ليلة من هذه الغزوات الليلية المنظمة، خلع ثيابه كلّها للمرة الأولى، خلع الحذاء وخلع الجوارب، خلع البنطلون وخلع القميص، وخلع الفانلة. ألقى الحزام على الكرسي وترك المسدس على التلفزيون. حين اقترحت أن يدخلا إلى الفراش الكبير، كما في الليلة الأولى، تردّد لحظة ثم أمرها أن تأخذ ثيابه وصباطه. مشى خلفها حاملاً المسدس والحزام وحين ردّ باب غرفة النوم رآها تُخرج ثياباً داخلية موشاة من الخزانة، وتُعلق ثيابه. نام عندها وفي الصباح أخبرها أنه سوف يُزوجها أحد مساعديه زواجاً صُوَرياً.

اليونانية كريستين كازانتزاكيس تزوجت الكردي جمال حجي مصطفى على سنّة اللّه ورسوله في ٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٧٢. الشاب النحيل كقصبة والبالغ من العمر ٣٣ عاماً، كان واحداً من حُراس نائب رئيس الاستخبارات سعدون شاكر في ١٩٧٠. لكن صدام حسين لم يلبث أن اختاره مرافقاً شخصياً بعد حادثة وقعت في سهرة عيد الميلاد

في الأيام الأخيرة من تلك السنة. كانت حادثة غريبة: تسلل عجوزٌ في العقد الثامن أو التاسع من العمر إلى فيلا عضو مجلس قيادة الثورة الرفيق عزت إبراهيم (رغم الحراسة المشددة المفروضة على المكان) واختلط بنخبة المجتمع البغدادي الحاضرة، إلى أن وصل المائدة المنشودة: على طاولة واحدة جلس سعدون شاكر في بذلة زرقاء مع عزت إبراهيم في بذلة بيضاء وصدام حسين في بذلة سوداء. العجوز عرف هذه الوجوه الثلاثة لأنه يرى صور الصحف المعلقة بالملاقط في نوافذ الأكشاك الخشب. لم يكن يشتري صحفاً عراقية أبداً. قبل زمنٍ بعيد كان يقرأ كل صحيفة تطبع في بغداد من السطر الأول إلى السطر الأخير. قبل زمنٍ بعيدٍ كان يستطيع أن يقفل جرائد ويفتح جرائد. العجوز الثمانيني المتسلل إلى حفل عيد الميلاد في بذلةٍ كواها طويلاً بالأمس وفي قميصٍ منشى الياقة، اضطر في سبيل تنفيذ المهمة الصعبة إلى قص شعره الطويل وإلى حلق ذقنه. كان يدعى إسحاق رزق اللّه غنيمة ولم يكن يهودياً من العامة بل أحد وجهاء الطائفة. أخوه يوسف رزق اللّه غنيمة، عُين وزيراً للمالية خمس مرّات بين ١٩٣٩ و١٩٤٧، ووزيراً للتموين في ١٩٤٤. خلال أحداث «الفرهود» في حزيران (يونيو) ١٩٤١، أثناء هجوم الغوغاء على أحياء اليهود الباقية في بغداد، وقف مع أخيه في باحة الكنيس وطلبا من أفراد الجالية الهدوء لأن الحكومة وعدت بالتدخل. الوزير يوسف رزق اللّه غنيمة ترك الكلام لأخيه إسحاق: كان يعلم أن إسحاق هو القوي في العائلة. خلال اجتماع لأفراد الجالية اليهودية في سنة الاستقلال (١٩٣٢) اقترح ساسون حسقيل (وزير المالية السابق) الهجرة الجماعية إلى أميركا. إسحاق رزق اللّه غنيمة وقف في وجهه وأقنعه بالكلام المنطقي وبحكمة النبي سليمان أن العراق وطن لا يُفرط به. ساسون حسقيل، الذي يعرف توراته أيضاً، استعاد مزامير داوود: «أكثر من شعر رأسي

الذين يبغضونني بلا سبب». إسحاق رزق اللَّه غنيمة ردَّ إن الخوف هو أصل الشر وأصل الضياع وأصل التشتت. قال إسحاق إن اليهودي ملزم أن يكون شجاعاً، وأن الجالية يجب أن تجد القوة في تراث الأسلاف: «حُملنا إلى هنا عبيداً، بنينا أبراج بابل سخرةً، وها نحن أصحاب تجارات ووكالات وقصور. هل نترك كل هذا ونهاجر؟» رفض إسحاق غنيمة فكرة الهجرة. ساسون حسقيل قال إنه ليس جباناً، وإذا أراد الآخرون البقاء فهو يبقى. بقي حسقيل في بغداد ثلاث سنوات ثم هاجر إلى كندا ومات بسرطان البروستات في مونتريال عام ١٩٣٩. الأخوان غنيمة لم يهاجرا. لم يهاجرا في ١٩٣٢، لم يهاجرا في ١٩٣٦، لم يهاجرا في ١٩٤١، لم يهاجرا في ١٩٤٨، لم يهاجرا في ١٩٥٦، ولم يهاجرا في ١٩٦٧. أُعلنت دولة إسرائيل وبقيا في بغداد. شاهدا هجرة المئات، هجرة الآلاف، وبقيا. حدث العدوان الثلاثي على مصر وبقيا. تفرجا على حرائق في مخازنٍ يملكانها وبقيا. بعد حرب ١٩٦٧ قرر أولادهما الهجرة. الأخوان رفضا الرحيل. يوسف كان متزوجاً امرأة ثانية بعد الأولى التي رحلت عن العالم في ١٩٥٧ بسكتة قلبية. إسحاق كان أرملاً. الثلاثة (يوسف وامرأته وإسحاق) عاشوا في بيتٍ واحد بعد هجرة الأولاد في خريف ١٩٦٧ إلى أميركا. امرأة يوسف البالغة من العمر ٤٣ عاماً، أرادت أن تهاجر هي أيضاً. يوسف العجوز حاول إقناع إسحاق العجوز بالهجرة إلى نيويورك. إسحاق قال إنه لا يموت إلاَّ في بغداد ولا يُدفن إلاَّ في بغداد. هنا عاش حياته، هنا بيته في الموت أيضاً. يوسف حاول إقناعه بالمنطق. الطائفة تنقرض في المدينة. الكل رحلوا. الكنيس يتداعى والفئران تقرض أساساته. المدافن نُهبت. التجارة بارت. حتى في المصرف يواجهان مشاكل كلما أرادا قبض تحويلة من أميركا. ثم أنهما لم يقضيا الحياة في هذا البيت. انتقلا إلى هنا قبل سنتين: استأجرا هذه الشقة في

شارع الرشيد بعد احتراق بيتهما القديم. إسحاق قال إن هذا لا يبدل شيئاً. قال إسحاق إنه يعرف أزقة هذه المدينة شبراً شبراً. كل الذكريات هنا، قال إسحاق. ثم ترك أخاه وذهب إلى غرفته. أقفل الباب على نفسه. فتح «سفر أيوب» وقرأ أن الواحد الذي يغادر بيته لا يرجع إليه بعد ذلك أبداً. نظر إلى المرآة وأقسم أنه لا يترك العراق، وأنهم إذا أرادوا طرده ينحر عنقه بموس الحلاقة مثل ملك.

لم يطرد أحد إسحاق رزق اللّه غنيمة من وطنه.

بعد بلوغ «البعث» السلطة سمع إسحاق امرأة أخيه يوسف تقول إنها خائفة. حين عُلق يهود على المشانق أعلمت المرأة زوجها يوسف أنها راحلة إلى أميركا. قالت له: «عليك أن تختار، أنا أو إسحاق». يوسف العجوز اختار أخاه العجوز. في الطريق إلى المطار جلست المرأة على المقعد الخلفي. إسحاق قاد سيارة البيجو متمهلاً. أخوه، إلى يمينه، كان ينهره كي يلقي قدمه قويةً على دعسة البنزين. العجوزان أرادا أن يحملا حقائب المرأة. كانت أقوى منهما. حملت الحقائب بضعة أمتار وحين ظهر حمالٌ نادت عليه. الأخوان العجوزان وقفا يرتجفان في هواء المطار البارد. قبّلت المرأة زوجها ثم قبّلت إسحاق. لم تسقط من عينها دمعة واحدة.

في جولة إعدام جديدة في أواخر ١٩٦٩ شُنق أحد أصحابهما القدامى: نائب مدير شركة فورد في العراق يعقوب سليمان. لم يذهبا باتجاه ميدان التحرير بعد ذلك. على التلفزيون شاهدا جثته بين الجثث المعلقة. يوسف لاحظ الأطراف الملفوفة بالشاش والقماش. إسحاق قال إنهم في زمن الثورة الفرنسية كانوا يضعون الرؤوس في أكياس قبل عملية الشنق. يوسف ظلّ صامتاً: فكّر أنهم كسروا معصميه وكاحليه خلال التعذيب وأنهم لهذا يلفّونها هكذا على التلفزيون. إسحاق ترك أخاه العجوز متجمداً أمام التلفزيون المخشخش ودخل إلى المطبخ كي

يقلي بيضاً ويفرم بندورة وبصلاً. كان جائعاً. أبعد منظر العنق الممغوطة من خياله، نسي اللسان الذي يتدلى من الفم العجوز، وفتح الثلاّجة. حين رأى الفروج المغطى بالجليد تذكر أن صديقهما القديم يعقوب ـ المعلق هذه اللحظة كالمجرم في ساحة التحرير والناس يرمونه بالحجارة ـ كان يحبّ الدجاج مقلياً مع القلقاس بزيت الذرة ومطفأً بمزيج من عصير الليمون الحامض والثوم المدقوق والسماق.

في ٢١ آذار (مارس) ١٩٧٠، اليوم الأول من فصل الربيع، ابتاع إسحاق قالب حلوى من «باتيسري البرامكة» القريب وغرز فيه ثماني شموع بيضاء. تلك الليلة، عند الساعة الثامنة، أضاء إسحاق الشموع وأنشد لأخيه يوسف بالعربية والعبرية أغنية الاحتفال بعيد ميلاده الثمانين. يوسف أحسّ الدموع تختنق في حنجرته وهو يتفرج على الصور على الحيطان. سهرا حتى العاشرة والنصف. أكلا قطعة صغيرة من القالب المحشو بالكريما وشرائح الأناناس ثم غلفاه بكيسٍ من الورق وحفظاه في البراد. عند التاسعة دخلا إلى الحمام واحداً تلو الآخر. في الردهة جلسا ـ بلا طاقمي الأسنان الاصطناعيين ـ ولعبا جولة داما. كانا يرتديان منامتين حمراوين. في العاشرة إلاّ عشر دقائق تثاءب يوسف وقال إنه يحسّ نفسه أكبر بعامين لا بعام واحد. إسحاق ضحك ثم رتب حجارة الداما في العلبة الخشب ونهض كي يشعل قرصاً مضاداً للبرغش. عند العاشرة والنصف ألقى أحدهما تحية المساء على الآخر، ثم انسحب كلٌ إلى غرفته.

كان ذلك العيد الأخير. في ١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٠، قبل أيام قليلة من نهاية ذلك العام، اصطدمت البيجو القديمة بمرسيدس سوداء يقودها أحد مرافقي نائب رئيس الاستخبارات سعدون شاكر. إسحاق كان ينام القيلولة في البيت عندئذٍ. يوسف تلقى ارتدادة المقود في صدره لكن الصدمة لم تقتله. نجح في الترجل من السيارة فرأى شباباً مسلحين بوجوهٍ غاضبة. لم يلمسه أحد. سقط كفزاعة، كدمية

أطفال، بذبحةٍ صدرية. سعدون شاكر لم يخرج من سيارته. ربما لم يكن في المرسيدس المظلمة النوافذ. لا أحد يعرف.

إسحاق رزق اللّه غنيمة دفن أخاه ثم قصّ شعره الطويل وحلق ذقنه. كيف استطاع العجوز أن يعرف مكان وجود سعدون شاكر في سهرة عيد الميلاد؟ وكيف استطاع أن يتسلل إلى قلب فيلا عضو مجلس قيادة الثورة عزت إبراهيم؟ لم تهتم أجهزة الأمن بالتفتيش عن أجوبة هذه المرة. بدت الحادثة أقرب إلى الخرف منها إلى الخطورة: عند العاشرة والنصف تماماً، بينما سعدون شاكر يسكب مزيداً من النبيذ الأحمر في كأسه اقترب منه عجوزٌ يحمل موس حلاقة وحاول أن يذبح عنقه. لم تصل الموس إلى العنق المنتفخة تحت قبة القميص العالية. امتدت ذراعٌ نحيلة وقبضت على معصم العجوز، بينما أحاطت ذراع أخرى مماثلة بعنقه من الخلف. صدام حسين الجالس على بعد مقعد واحد سمع طرطقة العظام: الحارس الكردي النحيل جمال حجي مصطفى طقّ رقبة العجوز كما تُطّق رقبة دجاجة. من دون ضجة، من دون كلمة واحدة، وضع الحارس الكردي موس الحلاقة في جيب سترته ثم حمل العجوز برفقٍ وخرج به من القاعة. حين سألته إحدى النساء ما الأمر أجابها أن السيد شرب أكثر من استطاعته. بعد سبعة أيام استدعى سعدون شاكر الحارس الكردي وأخبره أن نائب الرئيس الرفيق صدام حسين يريده مرافقاً. تحول الكردي جمال حجي مصطفى ظلاً لصدام حسين. كان واحداً من سبعة مرافقين ينتظرونه كل ليلة في باب عمارة الدامرجي. لم يكلمه صدام حسين إلاّ في مرّات قليلة. يطلب منه شيئاً، كشراء بعض الأغراض، أو الذهاب إلى الفيلا لسببٍ أو لآخر. في الأسبوع الثالث من نيسان (أبريل) ١٩٧٢ أخبره أنه سيزوجه اليونانية كريستين كازانتزاكيس زواجاً صورياً. الكردي جمال حجي مصطفى سأل رئيسه بصوت منخفض:

ـ وزوجتي؟ وأولادي؟

أعلمه «السيد النائب» صدام حسين أن هذا الهامش متروك له: يستطيع إخبار زوجته ويستطيع ألا يخبرها. هذه حياته الخاصة.

الكردي جمال حجي مصطفى قرر ألاّ يخبر زوجته (ابنة عمه) شيرين حجي مصطفى. كانت يتيمة ولا تريد شيئاً إلاّ أن تعيش تحت سقفه وتربي أولاده. جمال حجي مصطفى حلف على القرآن الكريم أنه لا ينظر إلى زوجته اليونانية الجديدة إلاّ كمن ينظر إلى أخته. وجد ذلك صعباً. حوّلته كريستين كازانتزاكيس سائقاً ومرافقاً. كانت تجلس على المقعد الخلفي وتحدثه وتأمره أن ينظر إليها ـ في مرآة السائق ـ بينما تكلمه. حين يرافقها إلى الحفلات تجلس على المقعد الأمامي إلى يمينه مثل زوجة. أحياناً تلمس يده. في الليل البارد تميل وتضع رأسها على كتفها. احتفظ الكردي النحيل بمسافة ثابتة. كان يحب ابنة عمه (زوجته) شيرين، وكان يخاف غضب رئيسه صدام حسين. كريستين كازنتزاكيس في المقابل وجدت في مسافة الذراع الثابتة بينها وبين هذا الكردي النحيل كخيزرانة دليلاً على جبنٍ لا نهائي في قلب الرجل البالغ من العمر ٣٣ عاماً. حين سألها صدام حسين مرةً هل يزعجها الكردي أجابته أن حارسها امرأة أو خنثى وليس رجلاً. صدام حسين صرف الموضوع من ذهنه: كان يفكر في أمور أهم، كان يفكر في العقيد عبد الرزاق نايف المقيم في المنفى.

صدام حسين قال للرئيس البكر في ذلك الصيف البعيد من عام ١٩٦٨ إن الزمن الآتي سيثبت أنهما ارتكبا خطأ: كان من الضروري تصفية رئيس الوزراء المخلوع العقيد عبد الرزاق نايف. تصفية العقيد داوود لم تكن مهمة، فالعقيد داوود بلا مخيلة وبلا طموح. لكن العقيد نايف من طينة أخرى. في خريف ١٩٦٩. كشف صدام حسين أمام الرئيس البكر معلومات جديدة: وزير الدفاع العقيد حردان التكريتي يقيم تحالفات في الجيش ويوطد صلته بجهاز «أمن الدولة». وزير الداخلية العقيد عماش تناول مع العقيد حردان التكريتي طعام العشاء في

بيت هذا الأخير في الرصافة قبل ثلاثة أيام. العقيد المنفي نايف إلتقى في بيروت الرقيب حيدر عمّاش، ابن عم العقيد عمّاش. هناك خطة تُطبخ.

الرئيس البكر سمع كلمات نائبه صدام حسين بأذنٍ لا مبالية. تَعِب من المؤامرات، كل يوم مؤامرة، في الصباح مؤامرات، عند الظهيرة مؤامرات، في ساعة القيلولة مؤامرة، والمساء لا يمضي بلا مؤامرة. ثم يُترك وحيداً طوال الليل مع الأرق، غارقاً في غيوم كثيفة من الدخان، يُقلب المؤامرات في رأسه ويتأمل الغلايين الثمينةَ على رفّ المكتبة. كل كلمة يلفظها نائبه في النهار، كل عبارة ينقلها عبر جواسيسه في «حنين»، تتحول في سكون المدينة النائمة إلى وحش بعددٍ لا يحصى من الرؤوس. كان الرئيس البكر يغمض عينيه في الكرسي الرئاسي، ويرفع صباطه العسكري على مكتب الرئاسة، يرخي الحزام الرئاسي حول خصره، ويقول انتهى النهار. يقول هذا نهار آخر صار وراء ظهرنا ويحاول إفراغ رأسه من الأسماء والرتب والخطط والمؤامرات والأقوال والشائعات والمراسيم... ثم ينتبه بغتة أنه يدع الخيوط تفلت من بين أصابعه رويداً رويداً. ينتفض ويقوم واقفاً ويمشي إلى النافذة بخطى غاضبة ثم يقف وقفته العسكرية، باليدين وراء ظهره، ويحدّق عبر النافذة إلى الليل على دجلة، وإلى أنوار بغداد، وإلى الضوء اللامع على خوذ الجنود، وإلى نيران صغيرة متفرقة أمام أكشاك الحراسة. في الخريف النقي الفضاء كان يستطيع أن يعدّ النجوم في السماء إذا رفع رأسه. عليه أن ينتبه للخيوط لئلا تفلت. هذا النائب صدام يعجّ بالطاقة ٢٤ساعة على ٢٤ساعة. سرّه في الأغلب أنه يقدر على النوم في أحلك الأوقات. سرّه أيضاً سنّه. العمر، العمر، فكّر الرئيس البكر، ثم استدار غاضباً كمن رأى صديقاً عزيزاً يرتكب خيانة، ومشى بخطوات غاضبة ثم جلس وراء مكتب الرئاسة. عليه ألاّ يجد الأعذار، ما زال شاباً، وعليه ألاّ يدع الخيوط تفلت منه. ما يقوله صدام صحيح: العقيد

حردان التكريتي، هذا الجاموس بلحيته الشقراء، شخص لا يمكن الوثوق به، في ١٩٦٣ باع «البعث» وصَفَّ مع عارف، وغداً يبيعه هو. . . الطموح يقتل، والعقيد حردان صاحبه وقريبه ولكن. . . علقت الكلمة الأخيرة في دماغ الرئيس البكر. نام على كرسي الرئاسة ثلاث ساعات وحين أيقظه أذان الفجر خرجت الكلمة منطوقة من فمه في سكينة المكتب الرئاسي:

ـ ولكن. . .

أذان الفجر أيقظ نائب الرئيس الرفيق صدام حسين أيضاً. وجد زوجته ساجدة طلفاح في المطبخ المضاء بلون الكهرباء الأصفر، تجلس إلى طاولة الطعام، الدفاتر والأوراق منثورة أمامها. كانت تلتف بروب نوم خفيف، وفي يدها قلمٌ أحمر. حين رأته أسرعت تعدّ القهوة. نظر إلى الخربشات والعلامات على أوراق الامتحانات ثم فتح الباب وأخرج قنينة ماء. يحسّ عطشاً شديداً في هذه الليالي. ليس الحرّ ما ينهك جسمه ويجفف حلقه بل العرق الذي يشربه مساء والويسكي الذي يشربه بعد ذلك، صافياً بلا ماء أو ثلج. قاعداً في الكرسي الهزّاز، مع كوبه الفاتر، فكّر في العقيدين عمّاش والتكريتي. هذه مهمة صعبة: الاثنان يشغلان منصب نائب رئيس الوزراء إلى جانب حقيبة كل منهما. حردان يمسك بضباطٍ كثر. عمّاش علاقته ممتازة بالاستخبارات العسكرية. والاثنان عضوان في قيادة «البعث» وفي مجلس قيادة الثورة. عليه إزاحتهما جانباً، وعليه أن يفعل ذلك بهدوء.

تلك الظهيرة تناول صدام حسين طعام الغذاء مع العقيد حماد شهاب. صدام حسين سأل العقيد شهاب ما سر الخلاف الذي حدث بينه وبين العقيد حردان في مكاتب وزارة الدفاع. العقيد شهاب الذي صار بعثياً بعد رحيل العقيد عبر الرزاق نايف عن العراق، أجاب أن وزير الدفاع يعتبر نفسه سيداً مطلقاً لا على الوزارة وعلى الجيش فقط

بل على البلاد كلّها. بعد هذا التصريح بات الكلام أسهل. في الثالثة والنصف افترق الرجلان على موعد في ظهيرة النهار التالي في مكتب الرئيس البكر في القصر الجمهوري.

عند الأصيل، في ميعاد القيلولة، لم ينم صدام حسين نصف ساعة جالساً في كرسي أو ممدداً على كنبة. قاد السيارة يصحبه خمسة مرافقين إلى الكاظمية. في مطعم شبه فارغ جلس مع العقيد سعدون غيدان. بينما يشرب حليباً بالقرفة سأل صدام حسين العقيد سعدون غيدان ما سرّ الخلاف الذي دار بينه وبين العقيد عمّاش في مكاتب وزارة الداخلية. العقيد سعدون غيدان الذي صار بعثياً بعد رحيل العقيد عبد الرزاق نايف عن العراق، أجاب أن وزير الداخلية يعتبر نفسه سيداً مطلقاً لا على الوزارة وعلى قوى الأمن فقط بل على البلاد كلّها. بعد هذا التصريح بات الكلام أسهل. في السادسة والنصف افترق الرجلان على موعد في أصيل النهار التالي في مكتب الرئيس البكر في القصر الجمهوري.

عند السابعة مساء سأل سائق نائب الرئيس الرفيق صدام حسين هل يريده أن يقود السيارة. أجابه صدام حسين إن ذلك يكون جيداً وإلاً فما الفائدة منه. سأله السائق أين يريد الذهاب. نظر صدام حسين إلى اللون الأحمر يتدفق من الأفق ويغطي بغداد وقال في سرّه إن النهار كان طويلاً. السائق كان ينتظر الأوامر بجسمٍ مشدود. نهره نائب الرئيس حين انتبه أن السيارة لم تتحرك بعد.

في القصر الجمهوري، تلك الليلة، بدا الرئيس أحمد حسن البكر أشد نحولاً من أي وقت مضى. الدوائر الزرقاء على وجهه، وحول عينيه، جعلتاه شبيهاً بهيكل عظمي أو بمومياء أخرجت من كفنها الفرعوني للتو. الهواء كان قادراً على إيذاء رئيس الجمهورية في تلك اللحظة. طلب من نائبه الرفيق صدام حسين أن يردّ باب الشرفة. من

دون أن يقطع حديثه وقف صدام حسين ومشى إلى الباب المفتوح. تابع الكلام واقفاً في النسيم البارد، وحين أنهى حديثه بعد دقيقة ونصف الدقيقة أغلق الباب وظلّ واقفاً عنده ينظر عبر الزجاج وزخرفة الحديد إلى جريان دجلة. بعيداً ظهرت أنوار الكهرباء وأنوار السيارات تتألق على الضفة وعلى الجسر وعلى صفحة الماء. الرئيس البكر سعل سعالاً شديداً، طرق غليونه بعنف على المكتب الماهاغوني، ثم قال إن قلّة النوم تقتل. صدام حسين استدار عندئذٍ وأجاب أن الأمر لا يقبل انتظاراً، وأن الخيوط قد تفلت إذا لم يتصرفا فوراً. رئيس الجمهورية هزَّ رأسه، قال:

ـ أعرف، أعرف، الخيوط، أعرف.

تابع نائب الرئيس ضغطه على الجرح بإصبع صلبة:

ـ المشكلة أن هذا الموقع يعطيهما القوّة. كان علينا إلغاء منصب نيابة رئيس الحكومة منذ الصيف. حين يترأس العقيد حردان مجلس الوزراء في غيابك يتصرف كأنه عزلك وجلس في كرسيك، كأنك لن تظهر في مجلس الوزراء بعد ذلك.

ابتسم العقيد البكر رغم آلام جسمه:

ـ وهو يكون فعلاً جالساً على كرسي تخصني.

قاطع صدام حسين كلام الرئيس المازح:

ـ ولا تعتقد أن العقيد عمّاش أقل منه طموحاً. مشكلة هذا الحزب الخبثُ في رجاله. الكلّ يريد السلطة. ولا أحد يريد خدمة البعث وخدمة الرئيس وخدمة العراق.

الرئيس البكر نظر إلى نائبه نظرة ثاقبة:

ـ إلاَّ أنت.

أجابه صدام حسين بوجهٍ جامد:

ـ هذه مصلحتي. قوّتي تنبع من سلطتك.

ترك الرئيس البكر غليونه على الأوراق. سأل نائبه:

ـ تريدنا أن نلغي منصب نيابة رئيس الحكومة؟

أجابه صدام حسين:

ـ هذه هي الخطوة الأولى.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٩ تلقى العقيدان حردان وعمّاش الضربة الأولى: ألغي منصب نيابة رئاسة الوزراء.

بعد ٦ أشهر، في ٣ نيسان (أبريل) ١٩٧٠ أذاع راديو بغداد أن وزير الدفاع العقيد حردان التكريتي ووزير الداخلية العقيد صالح مهدي عمّاش عُينا في منصب جديد: منصب نيابة رئاسة الجمهورية. كان منصباً فارغاً من أي سلطة. وفي مقابل هذا المنصب العبثي حُرِم العقيدان من وزارتيهما. حقيبة الدفاع سلمت إلى العقيد شهاب. وحقيبة الداخلية سُلِمت إلى العقيد غيدان. تلك الليلة قال الرئيس البكر في مكتبه في القصر الجمهوري:

ـ انتهينا.

أجابه نائبه ـ نائب أمين عام مجلس قيادة الثورة ـ الرفيق صدام حسين:

ـ لم ننتهِ. الرفيق حردان صاحب مركز في الجيش. ما زال خطراً.

في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ اقتحم الجيش الأردني المخيمات الفلسطينية في عمان. اللواء العراقي المرابط في الأردن لم يتدخل. الرئيس البكر ناقش المسألة مع نائبه صدام حسين في تلك الأيام الحارة من «أيلول الأسود». صدام حسين قال إن ضباط الجيش يفضلون عدم التدخل. الكل يعتقد أن هذا التدخل لن يفيد شيئاً: قواتنا في الأردن لا تكفي، والفلسطينيون استفزوا الملك حسين. الرئيس البكر قال إن

عدم التدخل مشكلة. الفلسطيني مذبوح أينما حلّ. في إسرائيل يذبحونه، والآن يفعلون ذلك في الأردن. صدام حسين أجابه أنه تكلم مع وزير الدفاع العقيد شهاب ومع رئيس الأركان عبد الجبار شنشل والاثنان يعتبران أي تدخل الآن محكوماً بالفشل، فالملك حسين حسم المعركة لصالحه. الرئيس البكر قال إنه حزين.

صدام حسين اتصل بعد نصف ساعة برئيس تحرير «الثورة» الرفيق طارق عزيز وتحدث معه خمس دقائق. صباح اليوم التالي نشرت «الثورة» حديثاً مع العقيد حردان التكريتي نائب رئيس الجمهورية عضو القيادة القطرية عضو القيادة القومية عضو مجلس قيادة الثورة. العقيد حردان التكريتي قال لرئيس التحرير طارق عزيز جواباً على أحد أسئلته أن تدخل الجيش العراقي الآن لا يمكن أن يغيّر نتيجة المعركة: الجيش السوري أراد أن يتدخل لكن الملك حسين مستعد للاستعانة بالجيش الإسرائيلي إذا لزم الأمر للحفاظ على سلطته على كامل أراضيه. العقيد حردان التكريتي قال إن الاستخبارات أكدت وجود كلام بين الملك والـ CIA وأركان الجيش الإسرائيلي بهذا الصدد، وأن اجتماعاً سرياً عُقد في باريس بين رابين وروجرز وكيسنجر ومبعوث أردني.

خلال ذلك الأسبوع حملت «الثورة» على صفحاتها اليومية أخبار المعارك في الأردن، وتابعت التذكير عدداً بعد عدد بكلام العقيد حردان التكريتي. في ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ نقلت وكالة الأنباء الفرنسية أن وزير الدفاع السوري حافظ الأسد عَبَر الحدود على رأس لواء مدرع واحتل مدينة إربد. الأسد أعلن عبر مصادر مقربة من وزارة الدفاع أنه لن يسمح بتصفية المقاومة الفلسطينية، وأنه في الوقت نفسه لا يقبل أن يزحف الفدائيون على عمان. في ٢٢ أيلول (سبتمبر) أمر الملك حسين اللواء المدرع الأربعين الأردني المعزز بالدعم الجوي بالاشتباك مع الدبابات السورية. صدر الأمر ظهراً. عند أصيل ذلك اليوم نفسه أعطى وزير الدفاع السوري حافظ الأسد أمراً لجميع قواته بالانسحاب الفوري

إلى وراء الحدود: كان تلقى اتصالات من الاستخبارات السورية والأميركية والسوفياتية تفيد أن إسرائيل تحشد قواتها على الحدود وأن خزانات مقاتلاتها الجوية معبأة بالوقود الكافي للإغارة على دمشق. اتصال آخر من الاستخبارات الفرنسية أعلم الأسد أن الأسطول الأميركي يتحرك في البحر المتوسط متجهاً شرقاً. «الثورة» العراقية نقلت هذه الأخبار على الصفحة الأولى. في الصفحات الداخلية قدمت أرقاماً لعدد الإصابات في صفوف الفلسطينيين. وزير الخارجية العراقي الرفيق عبد الكريم الشيخلي قال إن هذه المجازر لا يُمكن أن تُنسى. بعد أسبوع واحد عمّ الحزن العواصم العربية: «مات جمال عبد الناصر». في القاهرة لم يصدق الناس أن الرئيس (الريس) يمكن أن يموت بهذه السهولة. انتهى «أيلول الأسود» بانتصار الملك حسين على الفدائيين. مات عبد الناصر. سقطت أمطار تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٠ غزيرة على نهر دجلة. كانت الأسماك تقفز من الماء، تلتقط حبّات المطر، وتغطس تحت الجسور. البزّاق خرج من التراب فرحاً بالمطر. السلاحف زحفت متراجعة مخلفةً رائحة قوية. ظهرت أسراب لقالق في الشرق، وأخرج الناس المظلات من المخابئ. في يوم صافٍ من ذلك الشهر الماطر، بينما الغيوم تتباعد في السماء، وصل وفد من السيارات الحكومية إلى مدخل مطار بغداد. من السيارات ترجل أعضاء بارزون في مجلس قيادة الثورة. بين هؤلاء كان الرفيق حردان التكريتي والرفيق صدام حسين. من سيارة أخرى في مؤخرة الموكب خرج الرفيق سليمان عبد الرزاق: كان يحمل حقيبة السفر في يدٍ، واليد الأخرى تمسح قطرات عرق عن جبينه: أمس فقط أعطوه الجواز الجديد وأعلموه أنه مسافر في بعثة ديبلوماسية إلى العاصمة الأسبانية. على أرض المطار راقب الرفيق سليمان عبد الرزاق وزير الدفاع السابق عضو مجلس قيادة الثورة نائب رئيس الجمهورية الرفيق حردان التكريتي يصافح نائب أمين عام مجلس قيادة الثورة رئيس أمن البعث الرفيق

صدام حسين. كانت الشمس تنعكس على المدرج الرطب وترفع أمواجاً من البخار في الفضاء. صدام حسين تقدم خطوة وعانق حردان التكريتي وقبّله على الخدين. حردان التكريتي الضخم كجاموس، تراجع بلحية شقراء ترتعش في هواء المطار، وبدا متأثراً. أحسّ عاطفة قوية تتدفق من الرفيق الشاب صدام حسين وتملأ الفراغ الكبير بدفء كهربائي. أزعجه ذلك: اعتبر حردان التكريتي نفسه دائماً صاحب فراسة. فراسته طالما أنقذته في ساعة الخطر. في ١٩٦٣ أدرك بالفراسة نوايا الرئيس عبد السلام عارف واستطاع أن ينجو بنفسه من مصير الرفاق. ظلَّ في السلطة ولم يقع في الفخ ولم يُرمَ في السجن. فراسته حدَّثته دائماً أن الرئيس البكر التكريتي ابن جلدته ليس مصدر خطر عليه، أما هذا التكريتي الآخر هذا الشاب بالوجه الداكن والشارب القاتم والعظام الناتئة من الكتفين والصدر فهو.. لم يستطع حردان التكريتي في تلك اللحظة المحتشدة بالأحاسيس المتناقضة أن يخلع كلمة واحدة على صدام حسين، كلمة قادرة على اختصاره. في الطائرة، بينما الغيوم تنخفض تدريجياً وتحجب بيوت بغداد ـ وشوارعها والنهر الذي يعطيها الحياة ـ عن نظراته، فكّر العقيد حردان التكريتي أنه ربما قرأ كل المعطيات خطأ: ربما كان الرئيس البكر هو الذي يدبر له كل هذه التدابير. شرب العقيد حردان نبيذاً أبيض ثم نبيذاً أحمر ونسي كل شيء. في مدريد، بعد أيام، تلقى اتصالاً من عائلته قبل أن يتلقى اتصال وزير الدفاع. السماعة تحولت إلى قطعة حطب في يده. جسمه كلّه تحول جذعاً يابساً: «راديو بغداد»، والتلفزيون العراقي، وصحيفة البعث «الثورة»، إضافة إلى الصحف الأخرى، حملت خبراً واحداً: حرمان حردان التكريتي من جميع ألقابه، طرده من القيادة القومية للبعث ومن القيادة القطرية، عزله من مجلس قيادة الثورة، ونزع جميع رتبه العسكرية، بعد أن ثبت تخاذله في سبيل نصرة القومية العربية خلال أحداث «أيلول الأسود» وبعد أن رفض تدخل الجيش العراقي

لإنقاذ آلاف الفلسطينيين من المجازر. المرسوم الرئاسي تطرق أيضاً إلى خيانة حردان التكريتي وانحرافه عن خط البعث في عام ١٩٦٣ حين التحق بعبد السلام عارف وتخلى عن رفاقه في الحزب. انقطع الخط الدولي وظلّ حردان التكريتي ممسكاً بالسماعة في غرفته في الفندق الملكي العتيق في قلب مدريد. كانت نظرته ثابتة على لوحة على الجدار: في اللوحة ظهرت بركة متجمدة يتزلج على سطحها عدد لا يحصى من الأولاد في ثياب الشتاء. عند جوانب البحيرة ظهرت بيوت خشب، وفي الزاوية هضبة تعلها شجرة سوداء يابسة. السماء بيضاء يعبرها سرب غربان بلون الفحم. لم يترك حردان التكريتي السمّاعة من يده ولم يبعد نظرته عن اللوحة. لم يرَ كل تلك التفاصيل: رأى اللون الأبيض واللون الأسود ورأى لوناً أحمر أيضاً. كان يفكر في قبلتين على الخدين في مطار بغداد البعيد. أزاح نظره إلى اليسار فرأى الستارة المخمل ثم زجاج النافذة ثم زرقة سماء أسبانيا وبرجاً مرتفعاً وسرباً من الحمام ناصع البياض. دار السرب حول البرج ثم اختفى وراء الستارة المخمل. حين وضع السماعة من يده رنّ الهاتف مرة أخرى: كان رنيناً صاخباً مثل بوقٍ بحري هادر. أفزع جسمه الضخم. مرة أخرى رفع حردان التكريتي السمّاعة. هذه المرة سمع صوتاً بغيضاً: وزير الدفاع العقيد شهاب أبلغه أن القيادة تطلب منه التوجه إلى المغرب، بانتظر صدور قرار بتعيينه سفيراً في الرباط. حردان التكريتي فجّر عندئذٍ كل غضبه المكتوم:

- يا ابن الشرموطة!

بعد سبع عشرة ساعة حطّت طائرته في مطار بغداد. لن يقبل أن يُرمى خارج السلطة بهذه السهولة. الجيش كلّه معه، ويعرف كيف يردّ الصاع صاعين. هبط العقيد حردان التكريتي سلم الطائرة بساقين قويتين. الرفيق سليمان عبد الرزاق كان نائماً يتقلب على فراشٍ عريض في الفندق الملكي العتيق في قلب مدريد عندئذٍ. هبط حردان التكريتي

سلم الطائرة بجثته الهائلة وأحسّ مرافقوه أن أرض المطار كلّها، أرض بغداد كلّها، تهتز وترتجف تحت دعساته. مرافقو حردان التكريتي يعرفون سطوته: لن يُزاح رئيسهم بهذه البساطة. بينما يتجهون إلى سيارة من سيارات المطار ظهرت خمس عربات عليها شعار «أمن الدولة». ناظم كزار ترجل مع فرقة كاملة مدججة بالسلاح وأمر حردان التكريتي ومرافقيه بإلقاء مسدساتهم أرضاً. في طائرة أخرى خرجت من الحظيرة مستعدة للإقلاع، غادر حردان التكريتي مطار بغداد بعد عشرين دقيقة من هبوطه فيه، متوجهاً إلى المنفى الجزائري. أقام في الجزائر ثلاثة أشهر ثم اختفى. في شباط (فبراير) ١٩٧١ ظهر في بيروت. صدام حسين أرسل إليه رجلاً أشد نحولاً من قصبة، أشد نحولاً من الكردي جمال حجي مصطفى. الرجل راقب حردان التكريتي يخرج من الهوليداي ـ إن في رأس بيروت ويركب سيارة بويك سوداء اللون مع أربعة من حراسه. السيارة عبرت كورنيش البحر إلى الرملة البيضاء. الرجل طارد السيارة بسيارة رينو صغيرة. حين ترجل حردان التكريتي من البويك الضخمة أمام المطعم الصيني أطلق عليه الرجل نار مسدسه من نافذة الرينو. لم تصب الرصاصات الهدف. فرّ الجاني واختفى حردان التكريتي مرة أخرى. في آذار (مارس) ١٩٧١ ظهر قرب مجمع الصالحية في الكويت. شكله تبدل بعض الشيء إذ قصّ لحيته الشقراء وهذّبها. وزنه أيضاً تناقص، فقد ٣ كيلوغرامات أو أربعة. اختلاف الوزن لم يظهر. كان ضخماً كالفيل. بعد خمسة أيام من ظهوره في الكويت خرج صباحاً من فندقٍ متواضع وهو يصلح ياقة قميصه. كان واضحاً أنه استيقظ من ليلة سيئة. تثاءب واقفاً على الرصيف. خلال التمغط أغمض عينيه لحظة، وحين فتحهما رأى رجلاً نحيلاً بوجهٍ يذكر أنه رآه مرة واحدة فقط قبل أسابيع في بيروت. تذكر سيارة رينو مسرعة، بينما الرجل يرفع مسدساً، ثم رأى الوهج وخيّل إليه أنه يرى الصواعق تشقّ الهواء كأنها تتوغل في مياه. رأى الهواء يتكسر وسهم

الرصاص يخترق موج الهواء ثم سمع طنيناً وأحسّ الدماء تنوفر من صدره. ثيابه الخفيفة في الصباح الكويتي الحار لم تمنع تدفق الدم الغزير. القاتل النحيل أفرغ مشط الرصاص في صدر الثور الواقف أمامه في قميص أصفر وبنطلون أسود بلا ربطة عنق وبلا سترة. الثور تخضب بالدم، رفع وجهه بما يشبه ابتسامة حزينة أو تكشيرة غاضبة، ثم حرك ذراعيه وتقدم. القاتل تجمّد في مكانه. مشط رصاص كامل ولم يمت الرجل الضخم. مشى حردان التكريتي ثلاث خطوات ثابتة ثم أمسك بعنق قاتله. أسقطه على ظهره على الإسفلت وهوى فوقه. القاتل أزاحه جانباً ثم اختفى في الجو المغبر.

نائب أمين عام مجلس قيادة الثورة (الأمين العام المساعد) رئيس أمن البعث الرفيق صدام حسين أيقن في ذلك اليوم البعيد، بينما يزرع قبلتين على خدي الجاموس الأشقر اللحية، أن هذا رجل لا يستسلم إلاَّ قتيلاً. ارتفعت الطائرة إلى السماء ففكر صدام حسين أنه مرة أخرى يفعل الأشياء كما يفعلها الرئيس البكر: ناقصة، غير كاملة، شديدة الخطورة. في طريق العودة إلى القصر الجمهوري قال صدام حسين في سرّه إن هذه خطوة أولي وحسب، وعزى نفسه. طقس تشرين الأول (أكتوبر) شرح صدره: نقاء الهواء وغياب الغبار أخيراً. في الأسبوع الرابع من ذلك الشهر أصيب برشح خفيف. خلال تلك الفترة علم أن صلاح جديد دعا إلى مؤتمر استثنائي للقيادة القومية في سورية. حين جاء وزير الخارجية الرفيق عبد الكريم الشيخلي يزوره حاملاً علبة شوكولا سويسري سأله صدام حسين:

ـ ما أخبار الشام؟

عبد الكريم الشيخلي أجاب أن صلاح جديد قرر التخلص من وزير الدفاع حافظ الأسد.

في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ انتهى مؤتمر القيادة القومية

المنعقد في الشام. العراقيون سمعوا الأخبار من الراديو والتلفزيون. صدام حسين تلقى قبل ذلك بساعات تقريراً مفصلاً من دمشق بكل ما جرى. صلاح جديد المتحالف مع جميع أعضاء القيادة القومية الحاضرين نجح منذ اليوم الأول في إحكام الخناق على وزير الدفاع حافظ الأسد وصديقه مصطفى طلاس رئيس الأركان. هاجم صلاح جديد وزير الدفاع وانتزع من المؤتمر قراراً فورياً بمنع وزير الدفاع من إجراء أي عملية نقل في الجيش طيلة فترة انعقاد المؤتمر. حافظ الأسد جلس صامتاً بوجهٍ محايد طوال الوقت. كانت عظامه النحيلة ظاهرة تحت عينيه. بدا مريضاً بوجهه الطويل. بعد الخطوة الأولى قال صلاح جديد لرفاقه ـ في مكتبٍ منفردٍ ـ إن المعركة تكاد أن تنتهي. في اليوم التالي أصدر المؤتمر ٢٣ قراراً كانت خلاصتها تجريد الأسد وصديقه طلاس من جميع مناصبهما القيادية في الجيش والحكومة. بعد التصويت الجماعي انتهى المؤتمر بتصفيقٍ صاخب هزَّ حيطان القاعة وجعل الستائر السميكة ترتجف. النوافذ المحجوبة وراء الستائر اهتزت هي أيضاً. ألواح الزجاج ارتجّت في اطارات الخشب الشامي المحفور. عندئذٍ فقط نهض حافظ الأسد من مقعده يتبعه صديقه طلاس، وقطع القاعة بخطوته الخفيفة إلى أن بلغ الستائر. أزاحها جانباً ثم أشار بأصبع كليلةٍ إلى مدرعات وجنود ومدافع رشاشة تحاصر المبنى.

هكذا انتهى المؤتمر الذي دعا إليه صلاح جديد باعتقاله هو والرئيس نور الدين الأتاسي ورئيس الوزراء السابق يوسف زعين، وبزجهم في السجن. في بغداد عُقد اجتماع فوري لمجلس قيادة الثورة في مكتب الرئيس البكر في القصر الجمهوري. بعد ساعة أُرسل وزير الخارجية العراقي عبد الكريم الشيخلي إلى دمشق. وجد في القصر الرئاسي الزعيم الليبي معمر القذافي واقفاً إلى يمين حافظ الأسد يستقبلان الوفود المهنئة. شرب قهوة بالهال، وشرب توتاً شامياً

ممزوجاً بالماء والثلج المذوب وبحبات الفستق والجوز واللوز الأخضر. في حديقة القصر رأى عبد الكريم الشيخلي بستانياً بأصابع ممشوقة ذكّرته بيدين قديمتين ورفيقٍ قديم اختفى من العراق ولم يعد أحد يعرف أين صارت أرضه. عاش وزير الخارجية العراقي عندئذٍ برهة خاطفة خارج الزمن وخارج العالم: رأى نفسه في ظلمات «القاووش ٩ ـ ب» في الطابق السفلي الموصد من «سجن بغداد المركزي» يلعب الورق مع حسن الأميري ويغش.

في تلك اللحظة كان صدام حسين يتناول طعام الغذاء في «مطعم الوردة البيضاء» في أبي نواس مع ميشال عفلق وأمين الحافظ. الاثنان أكلا بأطراف الأصابع وبلا أي شهية. ميشال عفلق قال بصوتٍ أتعبه المنفى، وأضعفه العيش بعيداً من هواء دمشق:

ـ حافظ الأسد أو صلاح جديد لا فرق. كلهم ضباط وعسكر، قطاع طرق يتسلقون السلطة على ظهر «البعث» ثم يضربون الحزب.

أمين الحافظ لمس الساعة اليابانية في رسغه ثم أردف:

ـ أعضاء اللجنة العسكرية طلاب سلطة فقط. وسلطة شخصية. وهذا هو الأدهى.

صدام حسين هزّ رأسه. شرب ما بقي في كوبه من بيرة ثم أشعل سيجارة أخرى. بينما يودعهما أمام أبواب السيارات المفتوحة في مرآب المطعم سأله الأستاذ ميشال عفلق لماذا لا يزوره في هذه الأيام. صدام حسين أجابه أنه في القصر من الفجر إلى ما بعد منتصف الليل.

قال صدام حسين:

ـ أنت تعلم رفيق. المسؤوليات.

ابتسم ميشال عفلق ابتسامة حزينة. بدا عجوزاً. كأنه شاخ قروناً في حفنة سنوات. قال:

ـ آه، أعلم.

صدام حسين نسيه ونسي أمين الحافظ ونسي الجلسة كلّها ما إن تحركت سيارته متجهةً إلى شارع الرشيد. كان يفكر في أمرٍ آخر: العقيد عمّاش.

العقيد عمّاش كان عندئذٍ يضاجع امرأة سمينة تركمانية في كركوك. حين أحسّ تنملاً في جنبه وتعباً في قلبه توقف عن الرهز، نزل عن المرأة، واسترخى على جنبه. أدرك أنها ذبحة. استغرب أن يأتي الموت الآن. كان يؤمن بالسحر وبقدرة التركمانيات على قراءة الغيب في الورق. خصوصاً التركمانيات المسيحيات بينهن. أمس قرأت له تركمانية عجوزٌ في فنجان القهوة ثم في صفحة الرمل ثم في الورق ثم في خطوط يده أنه لن يموت قبل أن يرى بحيرات شاسعة، غابات ملتفة، سهولاً فسيحة، قبباً ضخمة، ونساء بيضاوات شقراوات يسبحن في أنهارٍ من جليد. لم يرَ كل هذا إلاّ في خياله بينما العجوز تلفظ كلماتها بورقة الملكة الديناري مكشوفة في يدها، فكيف يموت الآن؟ أحسّ فوطةً مبللة تلمس رموشه ووجهه. فتح العقيد عمّاش عينيه ورأى أنه لم يمت، أن الذبحة مرّت على قلبه وتركته حيّاً. أطلق تنهيدة. في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧١، حين جُرِد من جميع مناصبه الحزبية والحكومية وعُيّن سفيراً للعراق إلى الاتحاد السوفياتي، تذكر العقيد صالح مهدي عمّاش ذلك اليوم البعيد في سرير التركمانية في «زقاق اسطنبول» في كركوك وأحسّ بالارتياح. لم يغضب ولم يعارض القرار الرئاسي. بعد ساعات ارتفعت به طائرة خاصة من مطار الرشيد العسكري. وصل موسكو عقب رحلة طويلة قضاها يشرب البيرة ثم يدخل إلى المرحاض الضيق، ويعود إلى مزيد من البيرة قبل أن ينهض مرة أخرى بمثانة توشك على الانفجار مسرعاً إلى المرحاض. حين هبط سلم الطائرة رأى رايات حمراء تخفق فوق سيارات المطار، على شبك الحديد، في الزوايا، وفوق أبراج المراقبة. في الليل الصاعق البرودة خفقت الرايات الحمراء كأنها تعلن انتصاراً غامضاً. «الست

مقتولاً بمشط رصاص وملقى على الرمل في الكويت»، قال العقيد عمّاش محدثاً نفسه. اجتاحه سرورٌ مبهمٌ. «على الأقل لست ميتاً أو سجيناً تحت الأرض»، كرّر العقيد عمّاش في سرّه بوجهٍ خشبٍ. وحين رأى وفد الاستقبال والروسيات البيضاوات كاللبن، بالعيون الزرقاء كسماء الخريف العراقي والشعر الأصفر كرمل الصحراء، انشرح صدر العقيد عمّاش تماماً، استرخت عضلاته كلّها، وأحسّ طبيعة الخشب تغادر وجهه. مع الكلمات الروسية الأولى متبوعة بأخرى عربية وبكلمة «رفيق» ثم «سعادة السفير»، ومرة أخرى «رفيق» لكن مع مسحة غنجٍ ورقّة هذه المرة، ذاب وجه العقيد عمّاش. لم يعد عسكرياً. صارَ رجلاً عراقياً جاوز منتصف العمر وظلّ على قيد الحياة. صار رجلاً سعيداً بنجاته من الموت، وبتحقق النبؤة التي قرأتها العجوز التركمانية في خطوط يده.

بعد أن أبعد صدام حسين نائبي رئيس الجمهورية السابقين ـ العقيد صالح مهدي عمّاش والجنرال حردان التكريتي ـ من الطريق، بات يُعرف في بغداد بلقبٍ واحد: «السيد النائب». حتى الرئيس أحمد حسن البكر اعتاد أن يناديه بهذا اللقب. سبعة من الرفاق أعضاء مجلس قيادة الثورة وجدوا ذلك مستغرباً بعض الشيء. صدام حسين كتب أسماءهم على لائحة غير مرئية ثم أخفى اللائحة في دماغه: عبد الخالق السامرائي، عبد الكريم الشيخلي، الدكتور عزت مصطفى، العقيد حسن الجاسم، محيى عبد الحسين مشهدي، عدنان حسين الحمداني، ومحمد عايش حمّاد. تلك الليلة، جالساً مع كوب القهوة المرّة السوداء والحليب البارد، شطب صدام حسين اسماً من اللائحة، فباتت مكونة من ستة أسماء فقط.

وزير الخارجية العراقي عبد الكريم الشيخلي أُعفي من جميع مهامه وعُين سفيراً للعراق إلى «الأمم المتحدة» وراء الأطلسي، بينما العقيد المتقاعد صالح مهدي عمّاش ينام ليلته الأولى في موسكو البعيدة الباردة. ضربة صدام حسين كانت خاطفة وصاعقة. في البيت الصامت العالي فتح عبد الكريم الشيخلي حقيبة سفر فارغة على السرير وطلب من زوجته المساعدة. الزوجة الجالسة مع المرسوم الرئاسي بين يديها، تنظر إلى الفرشاة والمشط وقلم الحمرة وعلبة الكحل وإلى انعكاس

أدوات الزينة في المرآة البلجيكية الكبيرة، رأت زوجها الحبيب يقف بظهرٍ مقوس بين الخزانة والسرير، وأحسَّت للمرة الثانية خلال أقل من ١٣ دقيقة أن مخلباً متوحشاً ينغرز في قفصها الصدري ثم يخرج ملطخاً بالدم وفي قبضته قلب قاتم اللون. بعد سنوات طويلة، في وحدة الشقة الإنكليزية القريبة من St. James Park في لندن، سوف تتذكر أرملة عبد الكريم الشيخلي ذلك الليل البعيد، حين جلست في نور مصباح عراقي وامض، ورأت زوجها الحبيب يصفر كأنه ييبس، بينما ينحني بقميص أبيض على حقيبة سفر لا تتسع لجزء ضئيلٍ من آلامها الهائلة: أرادت أن تموت قبل أن تغيب تلك الحقيبة عن بصرها، قبل أن تغادر تلك الحقيبة غرفة نومها، بيتها، بغداد، الوطن. لم تتحقق أمنيتها.

بعد ثلاث سنوات على تعيينه وزيراً للخارجية وجد الرفيق عبد الكريم الشيخلي نفسه مطروداً من العراق إلى منصبٍ بلا قيمة في الأمم المتحدة. في الطائرة التابعة للخطوط الجوية الفرنسية كتب على ورقة تاريخ تعيينه وزيراً (عام ١٩٦٨) ثم تاريخ الاعفاء المشؤوم في العام الجاري: ١٩٧١. أحصى ثلاث سنوات على أصابعه، وشرب كوباً من ويسكي Dewar's، ثم أعاد إحصاء السنوات مرة أخرى فوجدها أربعاً. توقفت المضيفة بعربة الحديد في الممر الضيق وسألته شيئاً. أجابها بكلمات مبهمة لكنه نجح في الإشارة إلى الكوب. ملأت كوبه مرة أخرى، هذه المرة بماركة مختلفة (Johnny Walker)، بينما تنظر بفضول إلى الأرقام التي خطّها على الورقة. أرادت أن تبادله الحديث لكنه استدار بكتفٍ عدائية ونظر عبر النافذة المربعة الصغيرة إلى الضوء الوامض أسفل الجناح، عند الطرف البعيد. استطاع أن يرى طائرة أخرى تعبر الليل الكبير. أحسّ لبرهة خاطفة بالذعر: كان يتذكر خطة رفيقه القديم لإسقاط طائرة الرئيس عبد السلام عارف في الجو. لكن الاحساس بالذعر ما لبث أن تلاشى ليحلّ مكانه احساسٌ بالضيق: «رفيقي القديم؟ كل هذه السنوات معاً وأنتهي خارج العراق!» تمنى عبد

الكريم الشيخلي عندئذٍ أن تأتي تلك الطائرة وتطلق صاروخاً على هذه الطائرة. لكن الطائرة الأخرى كانت تبتعد ثم غابت في ظلمات الليل والغيوم. ١٩٧١، كرّر عبد الكريم الشيخلي، ثم ١٩٦٨، وأحصى السنوات مرة أخرى فوجدها ثلاثاً، وحين أحصاها من جديد اكتشف أنها أربع سنين. وجد الأمر محيراً. حين لمس جبهته بيده أيقن أن حرارته ترتفع. طلب قنينة من النبيذ الأبيض وفكر في زوجته الصغيرة بجسمها الصغير ووجهها الصغير وكلماتها الصغيرة. رآها في خياله ترتدي ثوباً أسود وتلف شعرها بشال أسود. رأى السكربينة الدقيقة السوداء في قدمها الصغيرة وأحسّ الكعب الرفيع المستدق يتوازن في باطن كفّه. ماذا يحدث لها بعد اليوم؟ وماذا يحدث له؟ كيف يعيشان؟ ومتى يلتقيان وكيف وأين؟ ربما يستطيع العيش من دونها، لكن هي هل تستطيع؟

نزلت الطائرة في باريس. بعد خمس ساعات كان في طائرة أخرى تحلق فوق المحيط. ساعات الانتظار في مطار أورلي كانت كابوساً آخر. حرارته استمرت في الارتفاع. بدأ الألم في لوزتيه. يحتاج مضاداً للالتهاب، وعليه أن ينتظر الوصول إلى أميركا. حين جاوزت حرارته الأربعين ارتخى في مقعده وتوقف عن شرب الكحول. لم يعد قادراً على ابتلاع قطرة واحدة. مال برأسه إلى اليمين وشاهد عبر نافذة مربعة صغيرة أخرى (وان كان يحسب أنها النافذة الأولى ذاتها) شروق الشمس للمرة الأولى في حياته الجديدة. كانت هذه ساعات الفجر الأولى التي يعرفها طائراً في الفضاء: عبر السحاب الأبيض السمين ظهرت خيوط صفراء وأخرى برتقالية ثم امتزجت في صفحات عريضة. عبر النافذة المتسخة رأى الضوء يشع ثم ولج الشعاع عينه وأعماه تماماً. في عتمة داخلية دامسة سقط عبد الكريم الشيخلي مثل صخرة ثقيلة إلى أن بلغ قعر «القاووش ٩ ـ ب» في الطابق الموصد من «سجن بغداد المركزي». كانت الحرارة تسبب له الهذيان. فتح عينيه مرة

أخرى ونجح في رؤية رؤوس المسافرين الآخرين، ونجح في رؤية شراشف زرقاء كثيرة تغطي أجسامهم، ونجح في رؤية عصبات سوداء على عيونهم، ونجح في سماع الشخير المتقطع والأنفاس المنتظمة. كانت الطائرة نائمة والفجر يطلع في الخارج. رغم حرارته المرتفعة أيقن الوزير السابق أن أحداً لن يستيقظ الآن، لأن جميع هؤلاء الأجانب اعتادوا السفر ليلاً من باريس إلى نيويورك. انتبه أنهم جميعاً يحجبون زجاج النوافذ بمربعات البلاستيك، وأراد أن يرفع ذراعه الثقيلة وأن يحجب مشهد الشروق المؤلم عن وجهه، لكنه لم يستطع. عليه أن يرفع يده وحسب، ثم أن يجذب قطعة البلاستيك الزرقاء نزولاً، وهكذا يختفي عمود النور المربع الذي يشق الفضاء فوق بطنه ويشق ظلام جوف الطائرة إلى نصفين. أحسّ ثقلاً لا يُحد في جفنيه. مرة أخرى سقط إلى أعماق ظلمته. هذه المرة رأى نفسه وراء زجاج أصفر ينظر إلى كونٍ أصفر ورمال صفراء تمتد إلى آخر العالم وإلى آخر يوم في حياته: في الأفق رأى نفسه ماشياً في شارع يشبه شوارع بغداد، ثم رأى نفسه يشتري صحيفة من كشك خشب أبيض وأخضر وأزرق يشبه أكشاك بيع الصحف في بغداد، لكنه حين فتح الصحيفة (قرأ التاريخ: ١٩٨١، ولم يستطع أن يقرأ اليوم أو الشهر) أدرك أنها ليست صحيفة عربية. اعتقد للوهلة الأولى أنها إنكليزية ثم تبين له أنه على خطأ. إضافة إلى العربية والكردية والإنكليزية كان عبد الكريم الشيخلي يتقن بعض الفرنسية والتركية والفارسية. لكنه أمام هذه الصحيفة الغريبة التي تنتظره في المستقبل، بعد عشر سنوات ربما (لم يعد متأكداً من التاريخ، قد يكون ١٩٨٠ أو ١٩٨٢)، وجد معرفته باللغات عقيمة. ثم انتبه أنه يقرأ حروفاً لا تشبه الحروف بل الرسوم. وقبل أن يفتح عينيه ويرى وجه المضيفة الفرنسية المبتسم أيقن أنه يقرأ صحيفة مكتوبة بلغة قديمة: المسمارية أو الهيروغليفية!

سألته المضيفة هل يريدها أن. . . سمع الكلمات ولم يسمعها.

كانت تحدثه بفرنسية لطيفة تشبه الموسيقى لكن الحرارة المرتفعة في رأسه حولت الكلمات بخاراً قبل أن تنزل كالماء في تجاويف أذنيه. هزّ رأسه بعينين شبه مغمضتين ورآها تنحني عليه، وشعرها المحزوم في قبعة قطن بيضاء يكاد أن يلمس رموشه، ثم انتبه أن الضوء تبدل، أن عمود النور المربع قد غاب، وأن الوهج على خده قد تلاشى أيضاً. المضيفة تمنت له نوماً هانئاً ثم اختفت. بعد ذلك وجد نفسه عاجزاً عن إغماض عينيه. امتلأت الطائرة بالأشباح ثم انتبه أنه ليس في طائرة غامضة وحسب، بل هو يعيش في عالم غامض. عالم مزدحم بالبشر لكنهم بشر بلا أسماء. طبعاً لكل واحد منهم اسم، لكنهم يتعمدون إخفاء هذا الاسم عن الآخرين. عبد الكريم الشيخلي فهم عندئذٍ أن عليه أن يكتشف كل هذه الأسماء اسماً اسماً، وأنه من دون تحديد هذه الأسماء لن يتمكن من البقاء على قيد الحياة. بدا هذا باهر الوضوح شديد الجلاء حتى أن الشيخلي أحسّ نفسه مغفلاً لأنه لم يستطع اكتشاف هذه الحقيقة البسيطة قبل الآن. الحدّاد مهمته في الحياة صناعة الأقفال والمفاتيح والأبواب الحديد الجرارة، والصياد يصيد الطيور والسمك، والإنسان في هذا العالم السرّي الأسماء مهمته صيد هذه الأسماء السريّة. وسأل عبد الكريم الشيخلي نفسه وحرارته تتجاوز الواحدة والأربعين كيف يفعل ذلك، وما هو الأسلوب المتبع هنا (ما هي القوانين؟ ما هي الأعراف؟) لاصطياد أسماء الآخرين. وقبل أن يتوغل في التفكير أعطاه عالم الهلوسة الغامض قانوناً لا يقبل التأويل: رأى الأسماء تخترق الفضاء متموجة، مثل صواعق رصاص. كانت أسماء مضغوطة في كتل رصاص دقيقة، وكانت تتجه نحو رأسه. رأى إسماً يعبر فوق رأسه تماماً، يخترق غرّة الشعر ثم يتابع طريقه ويختفي وراء ظهره. ثم عَبَر اسم آخر، كرصاصة بيضاء أخرى، ولمس أذنه اليمنى واختفى خلفه. ورأى اسماً ثالثاً، بلون الذهب، يعبر جنب الأذن اليسرى. ثم فهم الأسلوب المتبع لمعرفة الأسماء: عليه تحريك

رأسه، إلى هذا الجانب وإلى ذاك الجانب، وكي يعرف الاسم عليه أن يتلقاه بين عينيه تماماً، في المركز من جبينه. رأى في تلك اللحظة اسماً لامعاً بلون الزئبق يخترق الفضاء الحالك مائلاً إلى اليسار. مال الشيخلي برأسه، واستطاع رغم الحرارة التي تذيب دماغه أن يضع جبينه، مركز الجبين، تماماً في خط النار، في قلب الهدف. لكن الرصاصة انحرفت في اللحظة الأخيرة ودخلت عينه اليسرى مثل شعاع ضوء وتبددت بلا أي أثر. تلوى عبد الكريم الشيخلي في مقعده، يلقي رأسه إلى هذه الجهة ثم إلى تلك الجهة، محاولاً اصطياد الأسماء بلا جدوى. كانت أسماء مخادعة، مثل هذا العالم كلّه، وكان عاجزاً عن الإدراك. أراد أن ينام لكن الحرارة منعته من النوم. حين رفع قطعة البلاستيك الزرقاء بعد ساعات ونظر إلى تحت، رأى المحيط الأطلسي للمرة الأولى في حياته. كان مساحات لا نهائية من اللون الأبيض، مثل مرآة هائلة تشع شمساً، مثل صحراء مصنوعة من ماء. أحرق النور عينيه. تراجع عبد الكريم الشيخلي، أغلق الستارة، وقال في سرّه إنه لن يموت، هو على الحافة الآن، لكنه سوف ينجو.

«السيد النائب» كان في تلك اللحظة نائماً في كرسي الخيزران الهزّاز. على منضدة قريبة كان يستقر غليون فخم من خشب الورد تلقاه هدية من الرئيس البكر. قرب الغليون أدواته، وعلى سطح الراديو الخشب الكبير كيس تبغ أبيض ماركة Captain Black. في المنام رأى «السيد النائب» أنه في مخزن في قلب العاصمة يتفرج على غلايين وأصناف تبغ. الرئيس البكر أشار بأصبعه إلى رفٍ في الزاوية وقال إن تلك الأصناف ممتازة. ثم عدّد أسماء: سيمون بوليفار، مارتن فييرو، الهندي الأحمر، أزتيك. . . وقال إنها مستوردة من أميركا الجنوبية. «السيد النائب» صدام حسين تجاوز السيد الرئيس، ثم قطع المخزن إلى زاويته البعيدة المظلمة فرأى ممراً خفياً وراء الخزانة والرفوف. كان واضحاً أنه عند مدخل مستودع سرّي. بيدٍ على المسدس توغل في

الممر، فبلغ مساحة مضاءة بالنيون، غرفة حجر مدوّرة شبيهة بالغرف في أقبية «قصر النهاية». توقع عندئذٍ أن يرى ناظم كزار، مساعده الأول، لكنه لم يرَ كزار. رأى «السيد النائب» عدوه الكردي اللدود الملا مصطفى البارزاني واقفاً مع مجموعة من رجاله يأكلون اللحمة المشوية عن أشياش خشب رفيعة ويضحكون. «أعرف كيف أمسح هذه الضحكة عن وجهك»، قال صدام حسين وفي تلك اللحظة استيقظ من المنام.

كالعادة لم يتذكر «السيد النائب» أنه رأى منامات في غفوته القصيرة. كانت عضلات عنقه وظهره تؤلمه قليلاً فنهض ومشى جيئة وذهاباً. عيناه الواسعتان حدقتا إلى الفراغ: في قلب الفراغ الأبيض ظهرت اللائحة السوداء من جديد بالأسماء الستة. أزاح اللائحة جانباً فظهرت لائحة أخرى وأسماء أخرى. قرأ اسم العقيد عبد الرزاق نايف (مجهول مكان الإقامة، غادر الرباط واختفى عن أنظار أجهزتنا، يقال أنه في طهران، شوهد مرة في بيروت، تقرير من كوبنهاغن أنه اجتمع مع السفير الإسرائيلي)، وقرأ اسم الملا مصطفى البارزاني، وقرأ اسم ابنه إدريس.

رجع مصطفى البارزاني إلى العراق في خريف ١٩٥٨ بعد ١٢ سنة قضاها في الاتحاد السوفياتي. رجع ممتلئ الجسم، بوجهٍ شبه مربع، وببشرة فاتحة أفسدها الصقيع الروسي. كان يحمل في حقائبه، إضافة إلى الثياب وتذكارات الضباط السوفيات وهدايا الأصدقاء في البلاد البعيدة، أختاماً رسمية محفورة في خشب الأرز باسم الدولة الكردية «مهاباد» التي أنشأها مع أخيه أحمد في إيران ـ بعد فرارهما الأول من كردستان العراق ـ في خريف ١٩٤٥. إنهارت «مهاباد» قبل نهاية ١٩٤٦ «تحت ضربات القوى الإمبريالية المعادية لتحرر الشعب الكردي»، فلم يبق أمام قائد جيش «مهاباد» المندثرة مصطفى البارزاني إلاَّ الفرار من كردستان إيران إلى موسكو. بعد ثورة عبد الكريم قاسم في ١٩٥٨

وزوال الملكية عاد مصطفى البارزاني من المنفى. ركب القطار من موسكو إلى رومانيا إلى هنغاريا إلى تشيكوسلوفاكيا. كانت رحلة طويلة دامت ليالي ونهارات. في سهوب أوكرانيا تأمل ظلَّ القطار يسبح فوق عشب أخضر قصير وفوق بقرات هائلة الجثث ببقع بيضاء على جلدٍ أسود لامع كأنه طُلي زيتاً. لم يرَ بقراً بمثل هذا الحجم في حياته كلّها. وهو لم يعد شاباً. قضى بعيداً من كردستان سنوات طويلة. لا، لم يعد شاباً. في محطة كييف المركزية لسكك الحديد رأى نفسه في المرآة ولاحظ الشيب في شعر رأسه وشاربيه. «ها أنت تقترب من الستين يا مصطفى»، قال في سرّه، وحين غادر القطار كييف مخلفاً وراءه دخاناً كثيفاً أسود محا القبب الصفراء البارقة ومحا سور القلعة القديمة ومحا معسكراً كاملاً من دبابات (T-72) الجديدة، تذكر مصطفى البارزاني قطاراً آخر ومعسكراً آخر ودبابات أخرى وأسواراً أخرى... كانت حياته تتكرر في دوائر تتسع أو تضيق منذ ١٢ سنة، منذ جاء إلى هذه البلاد. كيف يمضي الوقت؟ سأل البارزاني نفسه، وحين أخبره أحد مساعديه أن بعض الحقائب مفقود أحسّ بالانزعاج. لا بدَّ أن خطأ حدث خلال تغيير القطارات في كييف، أو ربما في تلك المحطة النائية خارج بلدة كلدا الروسية. كانت محطة بلا كهرباء، في مدخلها يشتعل مصباح كيروسين. محطة غريبة، بلا إشارة كهربائية، بلا مبنى اسمنت أو حجر، بلا ساعة، وبلا رايات. فقط سكك حديد متشابكة وقطارات قديمة شبه محطمة، وفي جانبٍ كوخٌ من الخشب وموظفٌ وحيد ـ نمساوي الأصول يدعى فرانز ك. ـ نحيل مقوس الظهر بوجهٍ طفولي أعاد إلى ذاكرة الملا مصطفى البارزاني أياماً قديمة في برزان. كان ليلاً دامساً وهبطوا من القطار بحقائب ثقيلة وصعدوا إلى قطار آخر، بعربات بيضاء وأخرى حمراء، قطار جديد بنايلون شفاف على مقاعد الجلد وصور ضباط معلقة في باب كل مقصورة وتحت الصورة بالبرواز الخشب الرفيع اسم الضابط وتاريخ استشهاده إبان معركة ستالينغراد.

من زجاج القطار رأى الملا مصطفى البارزاني رجاله يختفون واحداً تلو الآخر من أمام الكوخ الخشب بالنافذة المستطيلة ويصعدون قافزين إلى القطار، ضحكاتهم تبلغه خافتة عبر الزجاج السميك. الشيوعي النمساوي اللاجئ - فرانز ك - كان يوزع عليهم تنكة معبأة بالويسكي الرخيص، يتناقلونها بخفة، يسكبون السائل الذهبي الحارق في جوفهم، ثم يحيّونه بودٍ ويختفون في جوف القطار. عبر النافذة المغسولة رأى مصطفى البارزاني الكوخ ورأى أرضية الكوخ بألواح الخشب المعتمة، ورأى جرذاً ضخماً يعبر لصق برميل حديد. ثم أطلق القطار صفارته الحادة المتقطعة، نفخ ورقاً يابساً وتراباً وحصى عن جانبيه، وغاب في ضباب أبيض لم يتبدد إلاّ بعد أن اختفت تلك المحطة الغريبة عن الأنظار.

سأل مصطفى البارزاني مساعده عن الحقائب المفقودة ومحتوياتها، ثم طلب منه أن يرسل برقية إلى كييف وأخرى إلى كلدا، متسائلاً هل توجد خطوط تلغراف في تلك المحطة الخشب! وقال بالتأكيد، وإلاّ كيف يعرف النمساوي موعد وصول القطارات ورحيلها؟ الحقائب المهمة لم تفقد لحسن الحظ. الأوراق التي لم تفارقه منذ ١٩٤٥ ما زالت في حوزته: كان يحمل في حقيبة ثمينة من الجلد الأسطنبولي ورثها عن أخيه الكبير عبد السلام البارزاني عن أبيه الشيخ محمد البارزاني نسخة نادرة مخطوطة من «الشرفنامة» للمؤرخ البدليسي الكردي الذي عاش في القرن السادس عشر، مخطوطة مغلفة بجلد الغزال وقد ألصق بغلافها الأخير - من الداخل - رقّ لا أحد يعرف عمره رسمت عليه خريطة كردستان بحدودها القديمة التي ذكرها الرحالة أولياجلي والممتدة من جبال آرارات شمالاً إلى جبل حمرين جنوباً ومن أورمية ووان شرقاً إلى نهر دجلة غرباً. كانت جبالاً من التراب الخصب وسهولاً مخترقة بعددٍ لا يحصى من الينابيع، أرض قمحٍ ورزٍ وفولٍ وحمصٍ وبرتقال ورمان وزيتون وعنبٍ، كانت كردستان

مرعى لكل أصناف المواشي، وكانت أهراءات حبوب ومستودعات، وكانت سماء زرقاء تمتد إلى آخر الأفق كأنها الفردوس الأرضي. ثم جاؤوا ودمروا كل ذلك. كردستان قُسمت بقلم رصاص مروس في يد الإنكليزي مارك سايكس عام ١٩٠٨: قطعة ذهبت إلى تركيا، قطعة إلى إيران، قطعة إلى سورية، وأخرى إلى العراق. شرب الإنكليزي بيرته اللعينة الداكنة ومزق كردستان إرباً إرباً. وزعها كقطع الحلوى على دولٍ أنشأها في خياله المظلم فصارت دولاً. ألقى الملا مصطفى البارزاني رأسه على ظهر المقعد الوثير وأغمض عينيه. كانت أوكرانيا تعبر ببطء عن جانبي القطار. لم تضع حقيبته الثمينة، ولم يضع العدد الأول من صحيفة «كردستان» الصادر في ٢٢ نيسان (ابريل) ١٨٩٨ في القاهرة بترخيص أعطي إلى عبد الرحمن ومقداد بدرخان من الحضرة السلطانية، ولم يضع الخنجر الذهب الذي حمله الكردي صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين، ولم يضع الخاتم الفضة الذي زيّن اصبع الكردي كاوة الحداد في ذلك اليوم المشهود القديم حين صفع الطاغية ضحاك صفعة واحدة فأطار ٢٢ سنّاً من فمه، ولم يضع القرآن الكريم الذي حمله جده في ثيابه ثم تركه للشيخ محمد البارزاني الذي سلمه إلى عبد السلام قبل أن يموت، ولم تضع الوثيقة الثمينة المخبأة في قلب المصحف بين الصفحة الثالثة من «سورة البقرة» والصفحة التي تليها. كان مصطفى البارزاني يروي حكاية الوثيقة لكل ديبلوماسي غربي يلتقيه، ويخرج من جارور أو خزانة أو حقيبة مذكرات حاكم العراق العسكري البريطاني الكولونيل أرنولد ماكدوف ويقرأ النص الإنكليزي ببطء شديد: ثورة الأكراد على السلطات العثمانية في ١٩٠٧ انتهت بهزيمة القائد عبد السلام البارزاني بعد خيانة بعض مساعديه: المساعدون الذي شاركوه طعامه وشرابه جردوه من السلاح بينما ينام في كهفٍ قرب أربيل وربطوه بحبال القنب وسلموه لوالي الموصل العثماني. شُنِق عبد السلام البارزاني وتُركت جثته معلقة على باب

القلعة سبعة أيام. بعد ذلك رميت على الصخور نهباً للجوارح. ما بقي من عظامه تحول قلائد وحروزاً. الزعيم الكردي محمود الحفيد كان يحمل عظمة الترقوة في سلسلة فضة حول عنقه حين مزقت ساقيه رصاصات الإنكليز في شتاء ١٩١٩. حملوه إلى مستشفى بغداد نازفاً وقبضته اليمنى تلتف على السلسلة وتلطخها بلونٍ أحمر قاتم. في المستشفى زاره الكولونيل أرنولد ماكدوف وشرب معه شاياً بالحامض والعسل. لم يتكلما عن الحرب ولم يتناقشا في السياسة. شتاء ذلك العام كان شديداً: على وقع البرد على السطوح المعدنية حكى الكولونيل ماكدوف عن رحلات صيد الثعالب في الأرياف خارج إدنبره. قال إنهم في اسكوتلندا يزاوجون كلاباً مع الذئاب، كلاباً خاصة بصيد الثعالب. الفرسان ينطلقون على الأحصنة والكلاب أمامهم. حين يظهر ثعلب يطلقونها خلفه. تطارد الكلاب الطريدة عبر أدغال وجلول وأنهار حتى تنهكها، بعد ذلك تحاصر الثعلب وتمزقه بأسنانها. إذا لم يسيطر عليها الفرسان الصيادون لا تترك الأنياب من الثعلب شيئاً. الفروة الثمينة تتمزق، اللحم يتمزق، والعظام ذاتها تتكسر وتطحن وتتلاشى. لا يبقى من الثعلب ـ الذي كان حيّاً يضج بالحياة والألوان في الغابة ـ أثرٌ واحدٌ يدل عليه. كأنه لم يكن يوماً. يتبدد تماماً مثل سحابة صيف. لا تبقى منه عظمة واحدة. الزعيم الكردي الشيخ محمود الحفيد أصغى إلى حكاية الحاكم البريطاني ثم أخبره أنهم يصيدون الثعالب في كردستان أيضاً: هناك صنف منها يظهر في الخريف ـ في وادي داكان المجاور للسليمانية ـ بلون يشبه الطبيعة في ذلك الفصل: لون يتموج بين أخضر وأصفر وأحمر. لكن الأولاد فقط يصيدون الثعالب في كردستان، ينصبون لها الأفخاخ ويتركون في الفخ طيراً أو قطعة لحم. الرجال الأكراد لا يصيدون الثعالب. أحياناً يصيدون الخنازير البريّة في الشتاء.

الكولونيل البريطاني لم تزعجه كلمات الزعيم الكردي. ابتسم ثم

أخبره أن الخنازير البريّة ستكون كثيرة في الجبال هذا الشتاء. الثلوج تتساقط في أعالي كردستان، قال الكولونيل ماكدوف، وأنت ملقى هنا. الشيخ محمود الحفيد أخرج من تحت مخدته عندئذٍ القرآن الكريم ومن داخل القرآن أخرج بنود الرئيس الأميركي ويلسون الـ١٤ مترجمة إلى اللغة الكردية مع نص البيان الذي وقعته الدول الغربية في ١٩١٨. قرأ الزعيم الكردي السطر الأول من النص، ابتسم بينما يلفظ كلمة «الأقليات» بالإنكليزية ثم بالكردية ثم بالعربية ثم بالتركية، وترك الوثيقة بين يدي الكولونيل ماكدوف. بعد ثلاث سنوات، في ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢، اعترفت الحكومتان العراقية والبريطانية بمملكة كردية عاصمتها السليمانية على رأسها الشيخ محمود، اعترافاً دام حفنة شهور ثم سقط بغارات جوية مدمرة مع معاهدة لوزان ١٩٢٣ التي لم تأتِ على ذكر شعبٍ كردي. الكولونيل ماكدوف كان في بارٍ في غلاسغو عندئذٍ يشرب البيرة الباردة ويلتهم أصابع السمك المقلي والبطاطس المملحة. بعد سنوات طويلة تذكر الكولونيل ماكدوف ـ بينما يقرأ «المخطوف» لروبرت لويس ستيفنسون ـ صديقه الكردي، ممدداً بساقين مربوطتين على سريرٍ عسكري، وقبضته تشتد على عظمة بشرية دقيقة. قال الكولونيل ماكدوف لزوجته في تلك الليلة أنه حين يتذكر ذلك الزمن البعيد في بابل البعيدة يحس نفسه مثل روبنسون كروزو العائد من الجزيرة المهجورة إلى بيته بعد اغتراب طويل.

الملا مصطفى البارزاني الذي لم يقرأ يوماً رواية إنكليزية أحسّ ـ رغم ذلك ـ الإحساس ذاته في رحلة رجوعه إلى العراق بعد ١٢ سنة في المنفى السوفياتي. قال لابنه مسعود بعد سنوات أنه أدرك بينما القطار يقطع الحدود ويخترق الأراضي الرومانية ـ في ذلك الفجر النائي الأخضر ـ أنه كان طوال تلك السنوات الـ ١٢ ميتاً، كأن العدو لم يضعه خارج كردستان بل خارج العالم وخارج الحياة كلّها. قضوا ليلة في بوخارست: أكلوا سمكاً مطبوخاً بالبصل والطماطم والصلصة

الحارة يشبه «السمك المسقوف» العراقي، وفي مرآة ضخمة تتوسط ساحة عامة رأى الملا مصطفى البارزاني انعكاس قائد عسكري يمتطي حصاناً هائلاً، ورأى تحت التمثال بالقاعدة الرخام المعرقة انعكاس الملا مصطفى البارزاني بعمامة كردية بيضاء تلف رأسه ومعطفٍ من فرو الأسترخان يلفّ جسمه ويجعله شبيهاً بدبٍ آسيوي. تحت المعطف كان الحزام ثقيلاً على خاصرته، بعد الطعام والشراب وبسببٍ من المسدس الحربي الروسي الذي تلقاه هدية من ليونيد بريجينيف. رأى الملا مصطفى البارزاني نفسه محاطاً برفاقه البشمركة وسط تلك الساحة المصممة بشكل نجمة في قلب بوخارست، وسأل نفسه هل يُعطى أن يصمم ساحة كهذه الساحة في قلب دولة كردية في شمال العراق. بينما القطار يحمله ورجاله تحت مطرٍ غزيرٍ كالحبال من بوخارست إلى بودابست إلى باكاشوبو إلى كتشكمات إلى بودابست إلى براتسلافا إلى تابور إلى براغ، عبر ساعات النور والظلام، تأمل الملا مصطفى البارزاني تبدل المشاهد بين سهول وجبال ووديان، وتأمل الظهور المتكرر لنهر الدانوب العريض بطواحين الهواء عن جانبيه والسفن التي تعبر، وأحسّ كأن المطر الغزير لا يتساقط على أوروبا كلهّا فحسب، ولا يقع على سطح القطار فقط، بل يتسرب في خيوط رفيعة إلى أعماقه، ويروي أرضاً دلغانية جفّت وتشققت بسنوات البعد عن كردستان. من تشيكوسلوفاكيا أرسل الملا مصطفى البارزاني برقية إلى القاهرة وأخرى إلى بغداد. البرقية إلى العراق كتبها جالساً في مقصورته في «قطار لينين ـ ٥٨» وبدأها بعبارة فكر فيها طويلاً: «فخامة قائدنا المحبوب الزعيم الركن عبد الكريم قاسم بطل الثورة العراقية المجيدة». بعد العبارة الطويلة وضع القلم من يده ونهض وخلع معطفه الثقيل: رائحة الفرو أعادته خمس سنوات إلى الوراء، إلى رحلته في ١٩٥٣ من موسكو إلى بحر قزوين. نزل اسبوعين في مدينة الحاج ترخان (استرخان). متجولاً في خرابات قلعتها المبنية من الطوب انتابه

شعور مبهم أنه تجول في هذه الأنحاء من قبل. مشى بين بيوت خشب، بأزقة معوجة ضيقة، وجلس يشرب الشاي الأحمر اللذيذ في أسواق تزدحم بالبشر (روس وأرمن وتتر وهنود وعجم ويهود وبراهمة) وبالبضائع: الخمر والشحم وجلد المعزى وعجل البحر والبقر والسمك المقدّد والخبياري والحديد والدودة والجوخ والنيل وأنسجة الصوف والحرير والقطن والفراء المختلفة الألوان، وبراميل النفط والملح والبارود والزيت والصباغ، وصناديق اللفت والملفوف والخيار والبصل والحمص واللوبياء والبطاطا والجزر الأبيض والفجل الحار، وبسطات البطيخ الأصفر برائحته السكرية الفواحة مكوماً كالجبال، وأصناف طيور معلقة من مشاكيك تتدلى من مسامير مغروزة في الحيطان، وأكياس مفتوحة الأفواه منتفخة بالتوابل والحبوب والثمار المجففة. أكل في استرخان تمراً عراقياً، بينما يقف في باب معمل يصنعون فيه السختيان المدبوغ من جلد الماعز. طعم التمر العراقي على لسانه أخرج دمعاً من عينيه. رأى عبر غمامة شفافة كنائس كثيرة، ورأى الفولغا، ورأى السفن، ورأى سهولاً تمتد حتى الجبال البيضاء، ورأى حقول التبغ والذرة والكرمة والأرز والفليفلة والخردل، رأى العالم كلّه يرتعش في غلالة رطبة وتساءل كم سنة بعد يحيا بعيداً من كردستان. في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٨ هبطت طائرة تشيكية في مطار القاهرة الدولي وعلى متنها الزعيم الكردي الملا مصطفى البارزاني. بعد لقاء مع الرئيس جمال عبد الناصر، واتصال هاتفي مع الرئيس عبد الكريم قاسم، توجه مصطفى البارزاني إلى العراق. محطته الأولى كانت بغداد. الرئيس عبد الكريم قاسم استقبله في أصيلٍ رطب وعانقه مقبلاً: الحزب الديموقراطي الكردستاني بات حزباً مجازاً في العراق، والدستور الموقت أعلن صراحة أن الشعب العراقي يتكون من قوميتين رئيسيتين، هما العرب والكرد.

الرئيس عبد الكريم قاسم ابتسم محدثاً الزعيم الكردي العائد إلى

البلاد، بينما الملا مصطفى المرهق من الرحلة الطويلة يحس بالنعاس. أراد أن يغادر بغداد فوراً، أن يصعد في سيارة وينطلق إلى الشمال: يريد أن يقعد في بلدته بين أبناء عشيرته، يشرب معهم القهوة أو الشاي، ويرى الوجوه القديمة والأشجار القديمة والبيوت والينابيع والتلال. الرئيس عبد الكريم قاسم كان يتحدث عندئذٍ عن العراق، قائلاً أن هذه البلاد كلّها هي وطن الأكراد. الملا مصطفى البارزاني تذكر في تلك اللحظة خبراً سمعه قبل يومين من الراديو في براغ أو ربما في القاهرة: «مات البابا بيوس الثاني عشر بالسكتة القلبية في روما». لم يفهم الملا مصطفى البارزاني لماذا تذكر ذلك الخبر بالذات في تلك اللحظة بالذات. كان مرهقاً وكل مفاصله تؤلمه. ثم سمع الرئيس قاسم يقول:

ـ هناك قصر معد لإقامتك. نريدك معنا في بغداد. أنت وكل رجالك.

عام ١٩٦٠ فرّ الملا مصطفى البارزاني من قصره المحروس في بغداد. كانت ليلة بلا قمرٍ، بلا نجوم، وغيوم كثيفة ثقيلة تدنو من الأرض. قبل أن يطلع نور الصباح كان الزعيم الكردي قد بلغ كردستان. تحت شمس صفراء كالشمام تتربع في كبد سماءٍ زرقاءٍ كالياقوت جلس الملا مصطفى البارزاني محاطاً برفاقه البشمركة وبصخور الجبال. العشائر توافدت للسلام عليه. وقف في اللباس الكردي التقليدي وأخبرهم أن «سياسات الحكومة العراقية تستهدف صهر الشعب الكردي في البوتقة العربية». في ١١ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ ردّ الرئيس عبد الكريم قاسم بغارات جوية على منطقة بارزان. عندئذٍ أعلن الحزب الديموقراطي الكردستاني بقيادة الملا مصطفى الحرب على السلطة المركزية في بغداد. الحرب الكردية لن تنتهي بموت الملا مصطفى على سريرٍ عسكريٍ ضيق في مستشفى تابعٍ للبحرية الأميركية بعد ١٨ عاماً.

كانت حرباً بلا بداية أو نهاية، تزدهر ثم تخبو، كحرائق الغابات في حرّ الصيف. كان الوقود جاهزاً والشرارات تأتي من كل الجهات. تبدل النظام مرات في بغداد، تعاقبت الحكومات، واستمر التمرد الكردي على حاله. حين وصل «البعث» إلى السلطة في ١٩٦٣ قدم الأكراد إلى الرئيس الجديد عبد السلام عارف عرضاً: وقف هجمات المقاومة الكردية مقابل منح الأكراد حق الحكم الذاتي في كردستان العراق. «البعث» رفض العرض، وأرسل الجيش إلى الشمال. الأكراد تحصنوا في الجبال المنيعة وشنوا حرب عصابات. خرج البعثيون من السلطة ولم تتوقف الهجمات الكردية على الطرقات والمدن. الرئيس عارف أقام قرى للتركمان بين بلدات الأكراد والدروب العامة. التركمان تحولوا بين ليلة وضحاها حراساً يحمون الدولة من الأكراد. في خريف ١٩٦٨ شن البشمركة هجوماً مؤذياً على منشآت النفط في كركوك. السلطة المركزية ردّت بإرسال نصف الجيش العراقي إلى شمال البلاد. سلّح الجيش قبائل التركمان وبدأ هجوماً شاملاً على القرى الكردية. في آب (أغسطس) ١٩٦٩ ارتكب الجيش العراقي مجزرة في قرية داكان الكردية بلغت أخبارها الصحف البريطانية: «خوفاً من قنابل المدافع الثقيلة وصواريخ المقاتلات الجوية فَرَّ أطفال ونساء قرية داكان إلى كهفٍ عميق مجاور... بعد إحراق بيوت القرية المبنية من الطوب اجتمع ضباط الجيش والجنود عند مدخل الكهف المذكور: جمعوا كوم حطب، رشوا الحطب بالنفط، ثم أوقدوه. صرخات الأطفال والنساء ارتفعت إلى السماء. الجنود كانوا يطلقون النار على فوهة الكهف لئلا يهرب أحد، وهكذا احترق في الكهف ٦٧ طفلاً وامرأة من الأكراد».

في القصر الجمهوري قال صدام حسين للرئيس البكر:

ـ كل هذه العمليات لن تفيد. الأكراد متحصنون في الجبال. يتراجعون ثم يهجمون.

أجابه الرئيس البكر:

ـ وزير الدفاع الرفيق حردان يعتقد أن استسلام البارزاني صار وشيكاً.

صَمَتَ صدام حسين. كان يعلم أن أي انتصار للجيش العراقي الآن يعني خسارة له. كان ذلك في صيف ١٩٦٩. اقترح على الرئيس البكر خطته:

ـ أريد أن أجلس مع البارزاني على انفراد، ومن دون علم أحد من الرفاق في مجلس قيادة الثورة.

قال الرئيس البكر إن هذا لن ينفع: في ١٩٦٥ حين انشقت كتلة إبراهيم أحمد وجلال الطالباني عن الحزب الديموقراطي الكردستاني، اعتبرت الحكومة العراقية أن الوقت مناسب للدخول في مفاوضات سرية مع الملا مصطفى، لكن الزعيم الكردي بدا غير مبالٍ بكل العروض التي قدمت له لسببٍ واحد بسيط: ما يطلبه لا يمكن لأي حكومة وطنية أن تعطيه.

سكت الرئيس البكر، نظر إلى الخرائط على المكتب، ثم رسم علامة بالحبر الأسود حول كركوك. صدام حسين انحنى على الخريطة، ثم رفع وجهه وسدّد نظرة هادئة إلى عينيّ الرئيس البكر:

ـ لا يوجد حلٌ آخر. مفاوضاتنا مع الطالباني كانت عملاً غبياً. لا يفيدنا أن يقاتل معنا، يفيدنا أن يُبعد الأكراد عن البارزاني وهو لا يستطيع ذلك. تفاوضه معنا جعل الأكراد يذهبون إلى بارزان. الطالباني وإبراهيم أحمد يقعان على أطراف الرقعة. . .

استدار نائب أمين عام مجلس قيادة الثورة الرفيق صدام حسين ونظر إلى الحجارة العاج مصفوفة على لوح الشطرنج أسفل المكتبة. كانت نظرته مسدّدة إلى الملك الأسود:

ـ الطالباني قلعة وإبراهيم أحمد قلعة أخرى. لكن الملك الكردي

الأسود اسمه مصطفى البارزاني. لن نربح إلاّ إذا أسقطناه.

قاطعه الرئيس البكر:

ـ لكنك تقول إنك تريد أن تفاوضه.

أعتمت النظرة في عينيّ صدام حسين.

في يومٍ مشمس من خريف ١٩٦٩ اجتمع نائب أمين عام مجلس قيادة الثورة رَئيس «أمن البعث» الرفيق صدام حسين في مدينة أربيل في شمال البلاد بالزعيم الكردي المتمرد رئيس الحزب الديموقراطي الكردستاني الملا مصطفى البارزاني. في يومٍ عاصفٍ ـ بعد أسبوعين فقط ـ اجتمعا للمرة الثانية، هذه المرة في كَركوك. الملا مصطفى حضر مع اثنين من أولاده (إدريس ومسعود) وعدد من الحراس. الحيّ كلّه كان محاصراً بالبشمركة، وهؤلاء كانوا محاصرين بقوى الأمن التابعة لناظم كزار. أقل خطأً وتحدث مجزرة. لم يحدث أي خطأ. صدام حسين قدَّم في نهاية المحادثات هدية إلى الزعيم الكردي: ساعة سويسرية ماركة Omega. الملا مصطفى أخرج من جيبه مسبحة حبّاتها ذهب عيار ٢٤ ودفعها إلى صدام حسين. كانت مسبحة بـ ٦٦ حبّة، سبّح فيها في جبال إيران، في دمشق، في عواصم أوروبا الاشتراكية، وفي المنفى السوفياتي البعيد. تلك الليلة، بينما مطر غزير يهطل على كركوك والجوار، هبّت رياح عنيفة وكسّرت أشجار نخل وأسقطتها على بيوت المهندسين الإنكليز العاملين في «شركة النفط العراقية». في الجانب الآخر من المدينة تخلعت أبواب وتحطمت نوافذ: لم تكن الريح سبب الخراب في هذه الجهة من كركوك، بل قوات ناظم كزار: «أمن الدولة» داهم مع وحدات خاصة من «حنين» بيوت شيوعيين قدامى واعتقل ٤٧ رجلاً. كانت خطة تمويه الغرض منها خداع الجيش واستخبارات الجيش.

أركان الجيش لم يشكوا لحظة واحدة أن وجود ناظم كزار مع

رجاله في شمال البلاد يتعلق بمحادثات سرية بين الزعيم الكردي المتمرد والرفيق صدام حسين. بدا نشاط كزار في كركوك وجوارها طبيعياً: الرجل مهووس بمطاردة الشيوعيين، بتعليقهم بالحبال من أعضائهم الجنسية، وبنتف شعرهم شعرة شعرة من أعلى الرأس إلى أخمض القدمين.

في آذار (مارس) ١٩٧٠ حلت المفاجأة صاعقة على أركان الجيش. صدام حسين خطف السجادة من تحت أقدامهم. عقد اتفاقاً مع الملا مصطفى البارزاني ووضع حدّاً للحرب الدائرة.

بيان ١١ آذار (مارس) ١٩٧٠ الشهير أعطى للأكراد حق إقامة حكم ذاتي للمنطقة الشمالية من البلاد (كردستان العراق) ضمن نطاق الجمهورية العراقية، وبحسب قانون الحكم الذاتي بمواده الـ ١٥، في مقابل قطع العلاقة بين البارزاني وإيران ودخول البشمركة في الجيش العراقي. ونصّت المادة الأولى من قانون الحكم الذاتي على أن:

أ ـ تتمتع منطقة كردستان بالحكم الذاتي وتسمى المنطقة حيثما وردت في هذا القانون.

ب ـ تتحدد المنطقة حيث يكون الأكراد غالبية سكانها ويثبت الإحصاء العام حدود المنطقة وفقاً لما جاء في بيان ١١ آذار (١٩٧٠). وتعتبر قيود إحصاء عام ١٩٥٧ أساساً لتحديد الطبيعة القومية للأغلبية السكانية المطلقة في الأماكن التي سيجري فيها الإحصاء العام.

ج ـ تعتبر المنطقة وحدة إدارية واحدة لها شخصية معنوية تتمتع بالحكم الذاتي في إطار الوحدة القانونية والسياسية والاقتصادية للجمهورية العراقية.

د ـ المنطقة جزء لا يتجزأ من أرض العراق، وشعبها جزء لا يتجزأ من شعب العراق.

وفي المادة الثانية:

أ ـ تكون اللغة الكردية لغة رسمية إلى جانب اللغة العربية في المنطقة.

ب ـ تكون اللغة العربية إلزامية في جميع مراحل التعليم ومرافقه.

ج ـ يخضع التعليم في جميع مراحله في المنطقة للسياسة التربوية والتعليمية العامة للدولة.

وعُينت مدة أربع سنوات لتنفيذ المعاهدة كاملة.

في بغداد أعلنت الحكومة «عطلة سلام» طيلةَ ٣ أيام احتفالاً بالمعاهدة المباركة التي وضعت حدّاً للحرب بين الأخوة. في مجلس قيادة الثورة واجه صدام حسين المعارضين بوجهٍ ثابتٍ: «هذه المعاهدة تعادل في قيمتها ثورة ١٧ تموز». الرئيس البكر بدت على وجهه الحيرة تلك الليلة. كانا وحيدين في المكتب المعتاد في القصر الجمهوري. قرأ الرئيس البكر رسالة من مصطفى البارزاني ثم سأل نائبه صدام حسين:

ـ ألاّ يشك الملا في شيء؟

نائب أمين عام مجلس قيادة الثورة الرفيق صدام حسين استدار عندئذٍ وأعطى ظهره للنافذة المظلمة وأنوار الكهرباء البعيدة على الجسر المعلق. قال بصوتٍ تخلله تعب:

ـ تلك مشكلة الملا.

الرئيس البكر قرأ المادة الأولى من قانون الحكم الذاتي مرة أخرى، وقال إنه فخ مكشوف وأن البارزاني يعرف أنه فخ.

سأله صدام حسين:

ـ وماذا لو عرف؟

في أربع سنوات كانت الحكومة العراقية قادرة على تغيير «الطبيعة القومية للأغلبية السكانية المطلقة في الأماكن التي سيجري فيها

الإحصاء العام»: ميدان المعركة كركوك الغنية بآبار النفط. في أيلول (سبتمبر) ١٩٧١ طردت الحكومة العراقية نحو أربعين ألف شيعي كردي إلى إيران بحجة أنهم من أصول إيرانية وليس عراقية. في ١٩٧٢ جرى طرد عشرات ألوف أخرى من الأكراد الشيعة بالحجة ذاتها. في الوقت نفسه شجعت الحكومة هجرة العرب إلى الشمال. حين اعترض البارزاني على النزوح العربي إلى كردستان نشرت الصحف العراقية ردّ صدام حسين البسيط: «ما هي المشكلة في نزوح العرب العراقيين إلى مناطق الأقليات القومية الأخرى، ما دامت هذه الأخيرة تتمتع بحق الحكم الذاتي؟ التعاطي بعدائية مع العرب لا يمكن أن يُرى إلاّ كعمل انفصالي». كانت الخطة تكتمل: قبل نهاية عام ١٩٧١ أبدلت جميع الأوراق الثبوتية والسجلات العقارية الخاصة بالعائلات التركمانية في الشمال فباتت عائلات عربية.

أيقن مصطفى البارزاني باكراً أنه خُدِع. في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٠ أرسل ابنه إدريس عبر الجبال إلى طهران. بعد سبعة أيام رجع إدريس البارزاني إلى أربيل. في الأيام التالية خرجت أسلحة من مغاور وظهرت ملابس البشمركة منشورة على الحبال تحت شمس كردستان. تسلق الأكراد الخفاف الأجسام الأشجار وقبعوا بين الأغصان العارية ينظرون كالجوارح إلى البعيد البعيد. كانوا يتحولون، كما تتحول الحشرة إلى فراشة. خرجوا من الرقاد. مسحوا السلاح بالزيت والقماش واستعدوا. قبل أن ينتهي ذلك الشهر جاءتهم الضربة قبل أن يضربوا: سقط إدريس البارزاني في كمينٍ مسلح خارج السليمانية. انفجرت قنبلة أمام سيارته الأوبل فانقلبت على جنبها. سيارة أخرى مرافقة ماركة شيفروليه انفجر خزان وقودها فانحرفت عن الطريق واخترقت سهل قمح وأشعلته. انهمر وابل رصاص على السيارتين من صخور عالية أحاطت بالطريق القصيرة بين منعطفين حادين. قتل ثلاثة من مرافقي إدريس البارزاني، وأصيب هو بجرح في كتفه الأيمن، لكنه

لم يمت. الحكومة العراقية اتهمت جلال الطالباني بالحادثة، بشكلٍ غير مباشر وعبر صحيفة «الثورة». في مطلع أيلول (سبتمبر) ١٩٧١ أبلغ ناظم كزار صدام حسين أن أحد أبناء الملا مصطفى، ويُدعى عبيد الله، مستعد للتعاون مع «أمن الدولة». صدام حسين أبلغه أن هذا الموضوع يجب أن يُعطى الأولوية فوراً.

في تلك الأيام كان اسم مصطفى البارزاني منقوشاً بحروف سوداء في فراغ أبيض يواجه عينيه كلما خرج من غفوة قصيرة في كرسي الخيزران الهزّاز. أدرك صدام حسين أنها فرصة سانحة، وأنه أوان القطاف. ناظم كزار اتصل به بعد ٢٤ ساعة وأبلغه أن العد العكسي يبدأ حين يريد «السيد النائب» ذلك. «السيد النائب» صدام حسين طلب عندئذٍ مكتب مصطفى البارزاني في أربيل وتكلم مع الزعيم الكردي: هناك مجموعة من الملاحظات تتعلق بالمعاهدة تحتاج إلى نقاش، وبعض رجال الدين الشيعة من كركوك يريدون الجلوس مع الملا مصطفى والتحادث معه. مصطفى البارزاني استمع إلى الصوت البارد الودود ناظراً عبر نافذة بلا زجاج إلى الخريف العراقي القصير. جروح ابنه إدريس لم تلتئم بعد وها هم يخططون لخطف روحه هو. أجاب الملا مصطفى البارزاني «السيد النائب» أنه يحتاج إلى لائحة بأسماء المشايخ. صدام حسين أجابه بلا تردد: «طبعاً». بعد ثلاث ساعات كانت اللائحة في مكتب القيادة الكردية. مصطفى البارزاني قرأ الأسماء التي لم يسمع بها من قبل. ابنه عبيد الله هزّ رأسه وقال إنه يعرف هؤلاء ولا خطر منهم. في ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٧١، اليوم الذي أعقب طرد العقيد عمّاش والوزير الشيخلي من العراق، اجتمع الملا مصطفى البارزاني في بيته في أربيل بسبعة شيوخ أتوا من كركوك. بينما يشربون الشاي ويتحدثون هزّ انفجاران الغرفة وتطاير شيخان من السبعة أشلاء على الحيطان. حراس البارزاني فتحوا نيران بنادقهم، قتلوا أربعة شيوخ، وجرحوا الباقي الأخير. خلال التحقيق معه كشف أن ناظم

كزار زوّدهم بأجهزة تسجيل تحت العباءات. الشيوخ السبعة كانوا يجهلون أنهم قنابل بشرية. أُصيب مصطفى البارزاني بجرحٍ في جبهته: لم تصبه شظية بل لكمة من يدٍ طائرة منفصلة عن جسمٍ مزقته متفجرة مزروعة في جهاز تسجيل تحت العباءة والكنزة الصوفَ. أُصيب مرافق آخر بشظايا شوهت وجهه، وقُتل رجلٌ كان يسكب شاياً في أثواب المشايخ الضيوف. الرجل المذكور يدعى أبو جمال حجي مصطفى. دفنوه في بارزان، على هضبةٍ مطلّةٍ على مياهٍ وعشب وشجر، وعلّموا القبر بصفٍّ حجارة.

الملا مصطفى البارزاني ألقى على كتفيه معطف الاسترخان وغرز مسدس بريجينيف في جيبه ثم غادر الغرفة الملطخة باللحم والدم وغادر البيت وغادر الأسوار وغادر الحيّ وغادر أربيل كلّها. الحرب بدأت من جديد. في مغارة في الجبال جلس محاطاً بالبشمركة وقال لابنه مسعود:

ـ صدام حسين هذا رجل مريض ومجنون. مهووس سلطة لن يشبع أبداً. تخلص من حردان، تخلص من عمّاش، حاول أن يتخلص مني، وسيتخلص من البكر.

مسعود البارزاني نظر إلى أبيه السبعيني المرتجف الوجه وطلب منه أن ينام ويرتاح. الأب تذكر عندئذٍ فعلة عُبيد الله وتساءل أين اختفى: إدريس حمل دثاراً عسكرياً إلى أبيه ثم جلس أمام النار.

قبل أن يموت مريضاً في أميركا عام ١٩٧٩، تلقى الملا مصطفى البارزاني هدية من طبيب كردي عراقي يعيش في لوس أنجلوس (كاليفورنيا). كانت هدية غريبة: مجلد فاخر يضم معلقة امرئ القيس باللغة العربية مع ترجمة كردية لها. على ورقٍ صقيل ثمين ظهرت الأبيات الشعرية موزعة بين منمنمات فارسية صاخبة الألوان: تدفق اللون الأحمر من لوحات المجلد وغمر عينيّ الملا المريض. كان

يتعب من تركيز نظره، لكنه قرأ ـ رغم عذاب الاحتضار البطيء ـ مقدمة الطبيب المترجم للمجلد وقرأ السيرة الحزينة للشاعر الجاهلي الملك الذي عاش في الصحراء العربية قبل زمنٍ بعيد. حين قرأ السطر الأخير في المقدمة «نُحاول ملكاً أو نموت فنعذرا»، أحسّ الملا مصطفى البارزاني بانشراح غير مفهوم: كان يموت وكان يقرأ سيرة مخلوق مثله طلب مملكة مفقودة طوال عمره ومات من دون أن يحصل عليها. كل هذا يُسبب الغمّ، فلم يحسّ بالانشراح إذاً؟ كرّر الملا مصطفى الكلمات، بالعربية ثم بالكردية ثم بالعربية، وأغمض عينيه. لم يفتحهما بعد ذلك. حين جاء الممرض يتفقده عند السادسة والنصف وجد المجلد الجميل مفتوحاً على بطنه، فوق الشرشف الأبيض. لم يعلم أنه ميت. اقترب بحذرٍ وأغلق المجلد بلطفٍ. رأى اللوحة قبل أن يغلق الكتاب: رجل في ثياب شرقية فضفاضة يستلقي على سرير تحت نافذة ويده تتدلى إلى الأرض المغطاة بسجادٍ كثير الرسوم متشعب النقوش مختلف الألوان. الممرض وضع المجلد على الكومودينة القريبة ثم ألقى نظرة على العجوز السبعيني المريض. بدا شبيهاً بعجوز آخر لا يعرف أين رآه من قبل وهل رآه حقاً. الممرض أحسّ بالنعاس وهو يقف هكذا في المكان الفسيح الساكن، وسط نور الغروب البرتقالي المتدفق صامتاً عبر النوافذ الكثيرة المشرعة. أحسّ الممرض بالنعاس وقال إن هذه الحياة باتت هادئة: كان يفكر في حياته قبل سنوات، وكيف أوشك أن يُقتل بينما يخطو بين القنابل في شمال فييتنام. يوم الجمعة ١٤ نيسان (ابريل) ١٩٧٢، خلال غارات مرعبة لطائرات B-52 الأميركية على هانوي، كان واحداً من سبعة ممرضين في الصليب الأحمر الدولي نجحوا في النجاة من الموت.

خلال ذلك الشهر نفسه من عام ١٩٧٢ نجح الملا مصطفى البارزاني في مدّ قناة اتصال جديدة مع حليفٍ جديد. بعد إيران وإسرائيل والاتحاد السوفياتي، اكتشف الملا الولايات المتحدة

الأميركية. الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون وافق ـ في عزّ الحرب على فيتنام ـ على خطة CIA بمنح البارزاني ١٦ مليون دولار مقسمة على ثلاث سنوات.

«السيد النائب» صدام حسين كان عندئذٍ ينظر في الاتجاه المعاكس: في شباط (فبراير) ١٩٧٢ زار «السيد النائب» ـ رجل بغداد القوي ـ العاصمة السوفياتية موسكو. في طريقه إلى «مطار الرشيد» طلب من ناظم كزار مرة أخرى تعقب آثار العقيد المحتجب عبد الرزاق نايف. رئيس «أمن الدولة» ناظم كزار وعد «السيد النائب» خيراً. وحين رأى الطائرة ترتفع ببطنها الأبيض وتغيب بين الغيوم تنفس ناظم كزار الصعداء: الآن يقدر أن يتنفس كما يشاء.

عبد الرزاق نايف (رئيس الوزراء المخلوع والعقيد المتقاعد غصباً عنه منذ صيف ١٩٦٨) كان في تلك اللحظة ممدداً على شاطئ رملي في جزيرة ساموا في البحار الجنوبية، يشرب كوكتيلاً منعشاً، ويتفرج على سمراوات في ثياب البحر. منذ غادر بغداد قبل أربع سنوات لم يعرف الراحة أو الهدوء. في الرباط اكتشف بينما يقطع الشارع العريض إلى بيت جاره المصري (العقيد المتقاعد مدحت سليمان) انه تحت المراقبة. في مساء آخر بينما يمشي إلى بيت جارٍ سوري (العقيد المتقاعد يحيى هيثم) اكتشف مخبرين آخرين. كانت البيوت تتباعد والرحلة من باب إلى آخر تستغرق نصف ساعة تحت شمس حارقة، وأحسّ أن المسافات تتزايد بمرور الأيام كأنهم يزيحون هذه البيوت خلال الليل. أجرى حساباً ذهنياً سريعاً لتزايد المسافات وخلص إلى أنه لن يكون قادراً على زيارة جيرانه بعد سنة، لأن الرحلة إلى بيت جاره الأقرب (العقيد المغربي المتقاعد حسن التازي) والتي تأخذ اليوم ٢٠ دقيقة، ستستغرق بعد ٣٦٥ يوماً ما يقارب سنة ونصف السنة. اتصل عبد الرزاق نايف ببعض أبناء العمومة في أوروبا ثم غادر المغرب بحراً إلى أسبانيا.

في منفى العالم الكبير المتشعب الخرائط وجد رئيس الوزراء العراقي المخلوع العقيد المتقاعد عبد الرزاق نايف حياة جديدة مثلثة الغرابة: بلدان ونساء وأصناف طعام لم يرَها أو يلمسها لمس الحواس من قبل، ازدحمت حول جسمه مع أقارب موزعين على القارات الخمس، حتى أوشك عبد الرزاق أن ينسى زوجته وأطفاله الأربعة.

ترك عبد الرزاق نايف ميناء طنجة فارّاً من رقابة رجال الأمن المغاربة والسوريين والمصريين والعراقيين يوم الخميس ١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨، على متن السفينة البلغارية «آنا صوفيا». كانت باخرة مكتظة بالعرب والعجم وسمع من الراديو أن آخر كتيبة من الدبابات السوفياتية انسحبت أمس من العاصمة التشيكوسلوفاكية براغ وأن الرقابة على المطبوعات والراديو والتلفزيون قد تعززت بسبب الظروف الأمنية. جلس في كرسي قماش على ظهر المركب، تفرج على صخرة جبل طارق تظهر في الأفق، وشرب الويسكي التركي بلا ماء وبلا ثلج. عبد الرزاق بدأ منذ تلك اللحظة عادةً مزدوجةً سوف تتمكن منه طوال عشر سنوات هي كل حياته الباقية: معاقرة الويسكي ومتابعة أخبار هذا العالم.

نام ليلة في مستعمرة جبل طارق البريطانية التي تعجّ بالقرود، واتصل في صباح اليوم التالي بأحد أبناء العمومة في البرتغال. عبد الإله نايف رحب بقريبه عبد الرزاق، وأعطاه الإرشادات المطلوبة، قال إنه ينتظره على أحر من الجمر ثم أضاف أنه شخصية معروفة في بيته وأن زوجته ديلفينا ليوكريتيا تدرس العلوم السياسية في جامعة لشبونة وتتقن بعض العبارات العربية الفصيحة. بعد تلك الكلمات المرحبة الحارة سأل عبد الإله نايف (حامل الجنسية البرتغالية منذ ١٣ سنة) قريبه عبد الرزاق كيف حصل على رقم هاتفه؟ العقيد المتقاعد أطلق ضحكة حزينة في الهاتف ثم ذكّر قريبه: قبل شهرين فقط كنتُ رئيساً للوزراء يا أخي!

سافر عبد الرزاق نايف من كاديز (قادس) الأسبانية إلى ستوبال البرتغالية بحراً. كان الأطلسي المحاذي للشاطئ الأوروبي هادئاً كصحن زجاج. القبطان إدواردو دل كاسوب أبلغ العقيد العراقي، بينما يشربان الويسكي على ظهر السفينة «فلنسية» ويتفرجان على البدر الكامل وأنوار مدينة ولغا تلوح في البعيد، أن المحيط ساكن على غير عادته في هذا الوقت من السنة. عبد الرزاق نايف تأمل ثلم الزبد الأبيض تحرثه محركات السفينة البخارية في السهل المائي المضاء بنور القمر، وشرب ما بقي في كوبه من الويسكي الأسباني. يوم الخميس ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٨ سمع من راديو لاغوس، بينما يتناول طعام الغذاء في بار سان فنسان، أن مارسيلو كايتانو تولى مهام الرئاسة البرتغالية خلفاً لأنطونيو سالازار المصاب بالغيبوبة منذ عشرة أيام. يوم الأحد قضاه متجولاً في شوارع ستوبال متأملاً الحشود في الثياب الجميلة. الكلّ يسرع إلى الكنائس، والأجراس تطن وتهدّر في الفضاء. سمع القداديس، وشمّ رائحة البخور الطاغية، وراقب موكباً يعبر شارعاً مقفلاً في وجه السيارات. الصلبان الضخمة والمسابح الطويلة ذكّرته ـ لا يدري لماذا ـ بجده عبد الواحد الطيع الحزين نايف. أعطي جده لأبيه هذا الاسم الغريب لأنه وُلد بعينين واسعتين حزينتين. لكن عبد الواحد الطيع الحزين لم يعش يوماً واحداً حزيناً في حياته. عاش عبد الواحد الطيع الحزين حياة الملوك في بغداد النصف الثاني من القرن التاسع عشر. عاش بعيداً من السياسة وأخبارها وعاش في القلب من هذا العالم العجيب: ورث عن أهله بساتين الدراغ ونصف عمارات الحيدرخانة وأدرك باكراً حقيقة اكتشفها ملايين البشر (مليارات البشر) على مرّ الأزمنة ومن قبل أن يتكون نطفةً في رحم أمه: أدرك عبد الواحد الطيع الحزين في عامه الخامس عشر على هذه الأرض ـ بينما يسهر مع بعض الأصحاب على شاطئ دجلة ـ أن الإنسان يُضيع نصف حياته نائماً، وأن النبيه بين البشر هو ذلك الآدمي الذي يحسن استخدام

وقت الفراش في عملٍ مثمر. في السادسة عشرة تزوج الشيخ عبد الواحد الطيع الحزين امرأته الأولى. كانت تصغره بعامين وتعيش في إحدى عماراته المكونة من طابقين (الطابق الأرضي طوب، والعلوي خشب) في الحيدرخانة. حين اكتشف أنها لا تتقن فن الطبخ خيّرها بين الرجوع إلى بيت أبيها وبين القبول بضرّة تفهم ما لا تفهم فيه. الفتاة التي صارت امرأة بين ليلة وضحاها اختارت البقاء مع زوجها الضحوك. عبد الواحد الطيع الحزين تزوج امرأته الثانية يوم احتراق قصر السلطان عبد الحميد الصيفي في أنقرة، وتنعم بليالٍ عليلة سوف يتذكرها في سنوات آتية بالخير: المرأة الثانية كانت أرملة تكبره بـ ١٧ سنة، توّله بها وبشيخ المحشي وبحبّات الكوسى والباذنجان الصغيرة تحشوها بالصنوبر وربّ الرمان مع لحم البقر المفروم ناعماً وقطع البندورة، ثم تطبخها بالماء والحامض والملح في التنور، وتقدمها على المائدة في صينية نحاس طافحة بالرزّ المفلفل بالسمن الحموي. أحبّها ـ وهو الذي عاش يتيم الأم منذ الطفولة ـ كما لم يحبّ امرأة بعد ذلك ابداً، وضاعف حبَّه الخرافي هذا موتُها الباكر: بعد سنتين على زواجهما الذي أثار ضحكاً في بغداد ذلك الزمان، غرقت المرأة في دجلة بينما تُغطس الغسيل في الماء. زلت قدمها وسقطت في النهر. كانت ماهرة في السباحة لكن رأسها ارتطمت بصخرة حين زلّت قدمها فغابت عن الوعي. وقعت على جنبها في ذلك العصر الحزين واستقرت في بركة مياه راكدة لا يزيد عمقها عن ثلاثين سنتمتراً، واختنقت بالماء. حين حملوها إلى دار الشيخ عبد الواحد الطيع البالغ من العمر ١٨ عاماً لم يحزن ولم يذرف دمعة واحدة. لن يكتشف الفتى الشيخ حبّه لتلك الطبّاخة الماهرة إلاّ بعد سنوات، وحين اكتشف ذلك أخيراً كان وقت الحزن قد فات، فلم يحزن. تزوج أختها بعدها على أساس أن النَفَس الطيب لا بدَّ أن يكون جارياً في العائلة. لكن هذه الأخت (وكانت تكبره بسبعة أعوام) بدت عاجزة عن قلي البيض في الزيت من

دون أن تحرق أصابعها. حين صنعت له مهلبية بالملح بدلاً من السكر طلّقها. في سنة الفيضان الذي أغرق كل بيوت بغداد المحاذية للنهر تزوج فتاة شامية في الخامسة عشرة أطعمته للمرة الأولى في حياته صنفاً من الكبّة البعلبكية بالفستق الحلبي أدمن بعد ذلك تناوله مرةً كل شهر طوال ما بقي من حياته المديدة.

حين بلغ العشرين أدرك أن عليه أن يتصرف كالرجال. صار أباً لحفنة أولاد وما زال يقضي الوقت بين الطعام والشراب والفراش والصلاة. كان يداوم على الذهاب إلى الجامع كل ظهيرة ويخطط للحجّ ثم يؤجل خطته. لكنه في ذلك العام أدرك أن الوقت حان. حجّ إلى مكة وزار قبر الرسول الأعظم. حين رجع إلى داره بدا رجلاً حقيقياً. لوّحته الشمس وفقد بعض وزنه. الرحلة لم تكن طويلة لكن البشر الذين التقاهم في الطريق بدلوا أسلوب تفكيره. بعد ذلك تغير الشيخ عبد الواحد الطيع الحزين: ظلّ مزواجاً محبّاً لطعامه وشرابه ونسائه لكنه غدا إلى جانب ذلك ناسخاً للكتب. يقرأ المخطوطات ويضيف ملاحظات في حواشيها، ثم ينسخ كل ذلك على ورقٍ ثمين ويكتب حروف اسمه بماء الذهب على التجليدة المخاطة من جلد الجاموس. احتفظ بعادة النسخ المستجدة عاماً واحداً فقط ثم انتبه أن حمل الريشة يُتعب الأصابع ويُسبب بعض المشاكل في الفراش. كفّ عن النسخ لكنه تابع اقتناء تلك الكتب الفريدة. تولع بابن بطوطة المزواج مثله، لكن المحب للسفر والتنقل والسياحة بعكسه، وتولع بابن فضلان وبابن جبير، لكنه لم يجد ضالته إلاّ في تلك المخطوطات العجيبة التي يصعب الوقوع عليها: كان يوصي الوراقين في بغداد ويوصي التجار الماضين إلى المغرب وينتظر أصحاب القوافل الآتية من الشام وإيران والأناضول، فتجمعت لديه في ١١ سنة مكتبة مختصة بعلوم الباه كلّفته الغالي والنفيس وأوشكت أن تذهب بثروته. لكن الثروة لم تتبدد. مرة تلو أخرى فتحها الله الرزاق المنّان الكريم على عبده الطيع الحزين.

بعد أن باع نصف بيوته المطلّة على دجلة جلس عبد الواحد ذات مساء ينظر إلى الليرات العثملية مكومة وسط الفراش مفكراً في ما يفعله: الذهب لا بدَّ أن يُفتقد ذات يوم، أراضيه يبيعها قطعة قطعةً، وعمارات أبيه وأسلافه أيضاً. عليه بالحذر، ما تقوله صغرى الزوجات سنية صحيح. إذا تابع على هذا المنوال سوف ينتهي فقيراً مثل أبيها. تلك الليلة نسي عبد الواحد سرب الطيور السوداء الذي عبر سماء نهاره، وانصرف إلى ممارسة الجنس في أوضاع غير معروفة تعلمها بقراءة القاضي شهاب الدين أحمد التيفاشي. كانت ليلة عامرة بالاكتشافات وأذهله أن يدرك بعد كل هذه السنين أن العالم ما زال قادراً على إخفاء بعض الكنوز عنه. استرخى على ظهره، ترك زوجته الجديدة (الهادية) تمسحه بفوطة مبلّلة بالماء الفاتر، واستمع إلى وشيش المطر على سعف النخل وعلى ورق التين العريض في الحوش. في الصباح، بينما يقف مع المتفرجين وينظر إلى البيوت ـ التي باعها أمس فقط ـ مغمورة بالماء مكسرة الجوانب والسقوف، تسبح كالسفن المنكوبة في مياه النهر المتدفق بالوحول والحطام وجثث الحيوانات، قال عبد الواحد الطيع الحزين لرفاقه أن الكافر هو الذي يشكو لحظة واحدة في حياته من القلة أو النقصان أو يخاف تلاشي الفلوس والدنانير والممتلكات. بعد صلاة العصر في جامع الأمين زار أحد الوراقين وأوصاه أن ينسخ له سبع نسخ من «نزهة الألباب فيما لا يُوجد في كتاب». الورّاق النجفي دفع أمامه نسخاً مطبوعة في اسطنبول من الكتاب المذكور. جلسا يشربان القهوة الخضراء ويسخران من كل هذه الكتب التي تطبعها الآلات الحديد. أين جمال الخط؟ أين الذوق؟ أين التفنن؟ أين الإحساس بالحروف؟ بعد سبعة أيام احتفل عبد الواحد الطيع الحزين بحصوله على مخطوطة تونسية من «الأغاني» نُسخت في القيروان قبل ٣٧٥ سنة: اسم أبو الفرج الأصبهاني كان مكتوباً بالخط الكوفي تُزينه ـ في دوائر تتسع كلما اقتربت من أطراف المجلد ـ أوراق عنب رُسمت بالحبر الأخضر الكامد

اللون: العروق البيضاء في ورق العنب كانت خيوطاً من الفضة الخالصة.

لم يُعمر الشيخ عبد الواحد الطيع الحزين فمات في الثانية والخمسين. لكنه اعتاد قبل موته بسنوات أن يردد عبارات الشيوخ الكبار: قال إنه يشعر أنه عاش حياة مديدة مديدة. بالنسبة إلى أصحابه بدا هذا الكلام غير مفهوم. الرجل يحبّ العيش، يحبّ النساء والطعام والشراب، ودياره تعجّ بالأولاد والأحفاد، فلماذا يُظهر هذا الزهد الآن؟ الشيخ عبد الواحد كان يجيب دائماً أنه لا يُظهر الزهد ولكنه يقول ما يخطر له، وهو لم يقل أبداً أنه شبع واكتفى، لكنه يقول أنه أخذ حقّه. الأصحاب كانوا يضحكون عندئذٍ ويطلبون منه سلسلة أخرى من الكلمات الغريبة التي يحفظها. كان يعرف للعضو الجنسي عند الرجل أكثر من مئة لفظة. وللعضو الجنسي عند المرأة ١٥٦ مرادفة بينها المعروف في الحجاز والشام وبين النهرين، وبينها المعروف في المغرب فقط، وبينها الذي لا يعرفه إلاّ السود الأفارقة من المسلمين. في بعض الأصائل كانت عقدة لسانه تنفك فيتحفهم بأحاديث نبوية شريفة وبمقاطع حفظها عن ظهر قلب للإمام مالك ابن أنس أو الشيخ العلامة علي بن حسن. يروي قصصاً من «رسائل الجاحظ»، ويضيف إليها بعضاً من مغامراته وملاحظات من «الحماسة البصرية». ثم يُرصع كل ذلك بأبيات شعر للأخطل أو أبي نواس أو المرزباني أو الحارث بن خالد المخزومي أو الأعشى أو حتى زهير بن أبي سلمى. الأرجيلة التركية تقرقر، دجلة يجري، والعراق يعيش زمناً ساكناً غريباً سبق الحرب العالمية الأولى وتمزُّق الأمبراطورية العثمانية. الوقت يمضي وديعاً، تحت النجوم والقمر، والشيخ الخمسيني عبد الواحد الطيع الحزين نايف يروي من «النهاية في غريب الحديث والأثر» للعلامة ابن الأثير حديث عمر رضي الله عنه «أن رجلاً يهودياً حمل امرأة مسلمة على حمار، فلما خرج من المدينة جفلها ثم تجثمها لينكحها». كانت

ضحكات الأصحاب تعلو، بينهم من جاوز الستين، فيبتسم الشيخ عبد الواحد ويقول إن الطريف في هذه الأحاديث أنها تُفهم ولو عجز سامعها عن إدراك معاني مفرداتها مفردةً مفردة. الأصحاب كانوا يهزون الرؤوس بوجوه محمرة ضاحكة وبأصابع ملوثة بزيت الفستق أو بزبدة ما يأكلون من معمول وحلوى وفطائر، ويصدقون على كلامه، ثم يطلبون أن يزيدهم علماً فيشرح لهم معانيَ الكلمات: «جَفَلَ» هذه ماذا تعني؟ وكان بين الأصحاب من يقاطع هذه الإضاعة للوقت ويطلب حديثاً آخر جديداً على الفور فيضحكون، ويلتفت الشيخ عبد الواحد الطيع الحزين عبد الرزاق نايف إلى صاحبه ويودعه إحدى أخباره في أذنه الكبيرة المملوءة شعراً، ثم يتركه مفرقعاً بالضحك، ويرجع إلى الآخرين يشرح لهم الغامض من مفردات حديث المسلمة واليهودي والحمار.

قبل سنة من موته حجّ الشيخ الحزين مرة ثانية إلى مكّة. عند رجوعه تجمع الأولاد والأحفاد حوله ينظرون إلى الزوجة الجديدة التي جلبها من الشام. رجع متأخراً عن الحجاج العائدين ثلاثة شهور. أخبر أصحابه بعد أيام أنه غادر مكة المكرمة من بوابتها الغربية كما يفعل المغاربة وركب البحر الأحمر معهم في ينبُع: أراد أن يرى النوبة والسودان ومصر وبلاد المغرب حيث عاش ابن بطوطة. لكنه تعب في البحر، داخ وأحسّ بالأمعاء تتقلب في جوفه، فنزل في زورقٍ وجذف مع خادم حبشي عائداً إلى البرّ. نام ليلة في جدة ثم سافر بقطار الحجاز إلى العقبة ومن هناك ركب الإبل إلى بيت المقدس. قضى ليلة في يافا حيث أكل بطيخاً أحمر حلواً كالقطر لم يذق مثله في حياته. سقط عن بغلة بيضاء كالثلج بينما يعبر رمال الأوزاعي جنوب بيروت وكاد يكسر وركه. لكن سبحانه لطف. في حلب عثر على زوجته الجديدة: أبوها من آل العظم، العائلة الكريمة النبيلة، صاحب خان في مدخل حلب. سألوه ماذا أخذه إلى هناك؟ قال إنه أراد أن يقصد الآستانة ويرى

السلطان ويكحل عينيه بالمنظر. ضحكوا وسمعوه يحكي عن مرضه في حلب وكيف رجع منها إلى حمص ثم إلى دمشق قبل أن يقرر وضع حدٍ لهذه المغامرة التي طالت. في الطريق إلى بغداد رأى عساكر على ضفة الفرات وسمع طلقات رصاص ومدافع. زوجته طبخت له في بادية الشام حماماً بالفريك واللوز الأخضر ذكّره بأيام قديمة وذكّره بزوجته الثانية. الأصحاب تذكروا المرأة التي طالما أخبرهم عن نَفَسها الطيب وطعامها اللذيذ وترحموا عليها. كان بينهم من ذاق الملوخية بالدجاج التي تطبخها مع ثومٍ كثير مدقوق وكزبرة مفرومة وليمون حامض وملعقة عصير رمان.

مات الشيخ عبد الواحد الطيع الحزين عبد الرزاق نايف في البيت حيث وُلد في الحيدرخانة. أصحابه أخبروا أنه مات في الفراش مع إحدى نسائه. كان ذلك لعباً وكذباً. نساء الشيخ أخفوا سرّه: منذ فترة طويلة والرجل لا يغشاهم. أولاد الشيخ الذين كبروا وأنجبوا الأحفاد قبل وفاته اجتمعوا وحملوا النعش على الأكتاف. بدوا مثل جيش، مثل تظاهرة. كانوا كثيرين كنجوم السماء، كرمل البحر. ورثوا عن الأب الراحل حبّ الحياة، وعن أمهاتهن الكثيرات صفّات مختلفة. أبناء الهادية الكوفية تميزوا بذكاء حاد وبقدرة فظيعة على التأقلم وبرغبة شديدة في السياحة والجولان. بعد زمنٍ طويل، في النصف الثاني من القرن العشرين، اكتشف العقيد العراقي المتقاعد رئيس الوزراء المخلوع عبد الرزاق نايف (المتحدر من امرأة حلبية هي إحدى زوجات جدّه المفضلات) أن اللّه سبحانه وتعالى أنعم عليه من قبل أن يولد بقرنٍ تقريباً: أنعم عليه اللّه حين ألقى الهادية بنت الكوفة في فراش جده البغدادي لأبيه عبد الواحد الطيع الحزين.

أنجبت الهادية الكوفية ١٣ ذكراً وثلاث إناث. أبناؤها وزعوا خصبهم في طول العراق وعرضه. الأحفاد، وبينهم ابن العم المقيم في البرتغال، ورثوا عن الجدّة الكوفية الذكاء والملاحة والعطف على

الغرباء. بين ١٩٦٨ و١٩٧٨ تعرف عبد الرزاق نايف في منفى العالم الكبير المتشعب الخرائط والطرقات على أبناء عمومة يصعب احصاءهم، ومعظمهم يتحدر من تلك الجدّة التي ماتت في يوم واحدٍ مع الملك غازي: الملك الشاب قُتل حين ارتطمت سيارته الإنكليزية الجديدة بعمود كهرباء، والجدة لقيت حتفها حين أمسكت بشريط توتر عالٍ ملقى في الطريق العام.

ترجل العقيد عبد الرزاق نايف من القطار في «محطة لشبونة المركزية لسكك الحديد» في صباح اليوم الأول من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٨. كان يوم ثلثاء. نظر إلى ساعة المحطة فرأى أنها تشير إلى العاشرة وعشر دقائق. مشى حاملاً حقيبته إلى حيث الزحمة أخف. رأى صبياناً يركضون زاعقين وهم يلوحون بالصحف، وشباناً واقفين في ثياب بيضاء وراء عربات تبيع طعاماً ساخناً، وسندويشات سمك ودجاج. لم يكن جائعاً لكن الرائحة الطيبة أرهقت أعصابه وسط الزحمة والدخان والأصوات. بدأ رذاذٌ خفيفٌ يتساقط. فكر عبد الرزاق نايف أنه يزور رجلاً غريباً لم يرَه منذ ٢٠ سنة، منذ ٢٥ سنة، منذ ٣٠ سنة ربما. فتش بنظراته عن رجلٍ في بذلة سوداء بمنديل أبيض ظاهر من جيب السترة العلوي فلم يجد ما يبحث عنه. كانت هذه العلامة المتفق عليها. ابن العم قال ذلك في الهاتف ثم ضحك ضحكة حلوة. أين هو الآن؟ تابع عبد الرزاق نايف التحديق في العابرين ثم رأى ثلاثة رجال في بذلات سوداء بمناديل بيضاء ظاهرة من جيوب علوية. تحير وأوشك أن يقطع دربهم، لكنه انتبه إلى شكلهم الذي لا يمت بصلة إلى العراق، وتركهم يمضون في سبيلهم. مشى خطوات باتجاه كشك الصحف فحانت منه التفاتة إلى مرآة طويلة قرب دكان يبيع خرائط وتذكارات للمسافرين. رأى نفسه أجنبياً في الثياب المدنية بالبنطلون الأسود والقميص البرتقالي. أبعد نظره عن المرآة الغريبة (لماذا يضعون مرايا في الشوارع؟) فرأى انعكاسه غير المألوف ثانية في واجهة زجاج

بمانكونات إناث في ثيابٍ لا تغطي إلاّ أعلى الفخذين: نساء شقراوات في تنانير قصيرة يسرعن بكعوب عالية وبضحكات. أحسّ للحظة أن تلك التماثيل تتحرك أيضاً، واستدار ورأى سرب الشقراوات يختفي تحت قبب المحطة وبين العواميد الرخام العالية. عندئذٍ فقط انتابه الإحساس القاتل بأنه مراقب. لبرهة خاطفة أصابه الذعر: هل عثروا عليه بهذه السرعة؟ لكن الذعر سرعان ما تبدّد وحلّت مكانه دهشة سكرية الطعم حين رأى الرجل الواقف إلى يساره، على بعد خطوة واحدة، في بذلة سوداء ومنديل أبيض ظاهر من الجيب العلوي. الرجل كان ينظر إليه باسماً، ومصعوقاً بالدهشة الجميلة ذاتها. بائع الصحف هو أيضاً توقف عن تعليق النايلون لحماية الجرائد من رذاذ الخريف ونظر إلى الرجلين الواقفين متقابلين مثل تمثالين بفمين فاغرين. العجيب في المنظر لم يكن القميص البرتقالي المضحك. العجيب كان وجه الشبه بين الإثنين. بائع الصحف فكر أنهما أخوان توأمان ثم انصرف إلى متابعة عمله تحت رذاذ لشبونة المنتظم.

في ذلك الشهر البعيد تزوجت جاكلين كينيدي أرملة الرئيس الأميركي المقتول باليوناني صاحب الأساطيل أوناسيس؛ فُتحت أول عيادة مخصصة للإجهاض في لندن؛ ألقت الشرطة القبض على جون لينون من «البيتلز» وعلى صاحبته اليابانية يوكو أونو بتهمة تعاطي المخدرات؛ أعلنت واشنطن وقفاً موقتاً للقصف على شمال فييتنام؛ بدأت دورة الألعاب الأوليمبية في مكسيكو؛ تأسست جائزة بوكر لأفضل رواية بريطانية بقيمة مادية قدرها خمسة آلاف جنيه استرليني؛ دخل الاسترالي روبرت مردوخ في معركة جديدة للاستيلاء على شبكة أخبار عالمية؛ اجتاحت تظاهرات شوارع براغ مندّدة بالسوفيات؛ واكتشف العقيد الطريد عبد الرزاق نايف نكهات الطعام الأسباني. زوجة ابن عمه كانت نصف برتغالية نصف اسبانية. أخبرته بينما يتناولون الطعام جالسين على كنبة عريضة تواجه التلفزيون أن شجرة

عائلتها تمتد جذورها إلى العصور الرومانية وإلى القديسة ليوكريثيا بالذات: ابنة حلاج صوف اعتنقت المسيحية في طفولتها وقُطع رأسها قبل أن تبلغ السادسة والعشرين بعد أن وزعت أملاك زوجها الخازن في الجيش الروماني على الفقراء وأعتقت العبيد. من قطع رأسها؟ زوجها نفسه. أين؟ في برشلونة (أسبانيا).

ابن العم عبد الإله نايف (الذي يسمي نفسه الآن إدواردو) تدخل في الحديث وأخبر عبد الرزاق أنهما سافرا قبل سنة إلى برشلونة وتفرجا هناك على الشارع القديم الذي يحمل اسم القديسة ليوكريثيا. ثم ابتسم منهياً تدخله بعبارة قصيرة: «كأنك في صوب الكرخ». الزوجة الأربعينية تابعت كلامها المتمهل عندئذٍ بإنكليزية مفهومة. العقيد أحرق فمه بالبايِلا الساخنة وسمع عبارات زوجة ابن عمه الغامضة. كان يتفرج على الشابة الأرملة بالشعر الأسود (جاكي أو.) واقفة وسط الشاشة الصغيرة ويدها معلقة بذراع الرجل اليوناني الواقف مع كوب شراب في بذلة سوداء وربطة عنق سوداء ومنديل أبيض ظاهر من الجيب العلوي. فوق المنديل ظهر عصفور أبيض دقيق معلق إلى ياقة السترة: وجد عبد الرزاق العصفور مضحكاً.

تلك الليلة سهر العقيد الطريد مع ابن عمه يشربان الويسكي ويتحدثان. أنشد ابن العم البرتغالي أبياتاً للجواهري ووجد العقيد نفسه مطروباً بالصوت الشجي وبالصحبة الدافئة وبآثار الطعام الشهي وبالكحول الجاري في دمه. عبد الإله إدواردو نايف روى عندئذٍ أن جدّته الهادية كانت صاحبة صوت رخيم، وأن ضرّتها الحلبية جدّة عبد الرزاق كانت تسلطن معها في ليالي بغداد ذلك الزمن البعيد، وأن جدّهما عبد الواحد الطيع الحزين كان يحسب أنه هارون الرشيد، ويقوم من الفراش وينظر من النافذة إلى دجلة وإلى القناديل والعمارات في الجانب الآخر، فيفكر أنه فعلاً هارون الرشيد.

العقيد عبد الرزاق نايف سَكِرَ من الويسكي ومن حكايات ابن عمه البرتغالي تاجر الخمور عبد الإله (إدواردو). استمع بين النوم واليقظة إلى الحكاية التي لم يفهمها في أول الليل من لسان الزوجة نصف الأسبانية نصف البرتغالية. حكاية رأس القديسة ليوكريثيا (أو ليوكراتيا)، فبعد أن قُطع عند السور الروماني لبرشلونة بقي الرأس يتدحرج على الدرب المنحدرة ولم يتوقف عن التدحرج، دائراً عند المنعطفات، مجتازاً الحواري والشوارع عابراً أمام المتاجر وناشراً الذعر بين المارة إلى أن بلغ أرصفة المرفأ فقفز عن لوح خشب مرفوع واستقر في سفينة تستعد للإبحار محملة بالبراندي والنبيذ إلى مستعمرات شمال إفريقيا. الأسبان يروون أن السفينة ارتجت عندئذٍ كأنها قُصِفت بكرات الحديد ثم انشقت نصفين، فسال المشروب من براميلها الخشب الضخمة وطفا على الماء وتموج إلى أن بلغ جزر البليار. ولهذا يبدو لون المياه في ذلك الجزء من البحر شبيهاً بلون الخمرة الحمراء. وليس بسبب الحيوان المرجاني المنتشر هناك.

في الليلة التالية زار العقيد الطريد سوق برشلونة العمومي، نام مع امرأة بدينة بصليب فضة يتدلى من عنقها، وفهم لماذا تذكر جدّه بينما يتفرج على القداس في ستوبال: بين زوجات الشيخ عبد الواحد الطيع الحزين كانت هناك امرأة مسيحية من الموصل استمرت تزور كنيسة الأرمن في بغداد بعد إسلامها لكي تنير الشموع أمام أيقونة مريم العذراء: تلك المرأة عاشت حتى بلغت السابعة والتسعين وكانت في أواخر أيامها تحيا في قبو في الحيدرخانة مع سربٍ من البطّ الصابئي الداجن والأوز الفارسي الأزرق الذي يندر وجود مثله في العراق.

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٨ سافر العقيد عبد الرزاق مع ابن عمه إدواردو إلى أوبورتو في الشمال. قضيا يوماً في مزرعة تخصّ ابن العم وسط كروم عنبٍ تمتد حتى الهضاب البعيدة، وتابع عبد الرزاق هوايته المزدوجة الجديدة: معاقرة الويسكي ومتابعة أخبار هذا العالم.

إدواردو حاول إقناعه بفوائد النبيذ. عبد الرزاق قال إنه رجل ويسكي. استخدم العبارة الإنكليزية Whiskey Man. منذ أسابيع يتابع الأخبار بالإنكليزية في الراديو والتلفزيون ويشتري ما يصل إلى البرتغال من صحف أميركية وبريطانية. في اليوم السادس من ذلك الشهر انتُخب ريتشارد نيكسون رئيساً في أميركا، وخسر أكثر من ٢٣٠٠ موظف إنكليزي عملهم بعد إقفال شركة British Eeagle للخطوط الجوية. العقيد الطريد كان يقرأ الصحف سطراً سطراً، ويبحث في الزوايا ـ تحت إعلانات الصابون والأدوات الكهربائية والأحذية الرياضية والمبيدات ـ عن خبرٍ صغير يرد فيه ذكر العراق. كان بحثاً خالياً من الجدوى. لكن الحال تبدل بعد شهر. في مطلع كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٨ أغار سلاح الجو الإسرائيلي على جسورٍ أردنية فنشرت «الغارديان» البريطانية التي تصل إلى لشبونة في المساء، ردود فعل الدول العربية على الغارات وبينها تصريح للرئيس أحمد حسن البكر.

بعد لقاءٍ مع القنصل الإيراني في لشبونة، أعلم العقيد عبد الرزاق نايف ابن عمه إدواردو أنه مسافر في الرابع من شباط (فبراير). إدواردو سأله إلى أين؟ العقيد أجابه أن تنقلاته يجب أن تبقى غير معلنة. هذا أفضل للجميع.

حين بلغ طهران سمع في الراديو أن ياسر عرفات انتخب في القاهرة رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية. في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل أُخذ العقيد عبد الرزاق نايف من قصر الضيافة إلى مكتب الشاه رضا بهلوي. دام اجتماعهما ٤٢ دقيقة. تحدثا بالإنكليزية. في اليوم التالي التقى العقيد العراقي ضباطاً في «سافاك» اقترحوا تدبير لقاء بينه والملا مصطفى البارزاني. بعد ثلاثة أسابيع في طهران أحسّ العقيد أنه يهدر وقته. أكل طعاماً إيرانياً، بوصفات فارسية قديمة غريبة التوابل، واكتشف السوق العمومي، وذلك الصنف الفاخر من الفتيات الذي يمكن اصطحابه إلى الحفلات. في ٢١ تموز (يوليو) ١٩٦٩،

بينما نيل أرمسترونغ يدعس دعسة بشرية أولى على سطح القمر ثم يستدير ويرى جسمه بالبذلة الفضائية البيضاء منعكساً في الخوذة الزجاج لزميله ادوين ألدرين، ترجل العقيد العراقي عبد الرزاق نايف من طائرة MEA فوجد نفسه في بيروت. لم يبقَ في لبنان غير ثلاثة أيام. انتبه أنه مراقب بينما يغادر فندق الكومودور في رأس بيروت. قابل السفير الأميركي في الجامعة الأميركية في بيروت (A.U.B) وتكلما عن لقاء سابقٍ للعقيد بأحد الملحقين الأميركيين في طهران. أكل كبّة نيئة مع أحد أبناء عمه في مطعم فيصل. أكل «لبنة شنكليش» مسقاة بزيت الزيتون الحار. أكل بصلاً قلورياً وبندورة جبلية بطعم حامض فريد. شرب عرقاً زحلاوياً مُثلثاً قُطِر من عنب كفريا في سهل البقاع. ثم سافر برّاً إلى الشام. بعد ذلك اختفت آثار العقيد عبد الرزاق نايف.

رئيس «أمن الدولة» الرفيق ناظم كزار لم يعذبه الاختفاء المريب لرئيس الوزراء المخلوع العقيد المتقاعد الطريد عبد الرزاق نايف. اعتبر ناظم كزار هوس «السيد النائب» بالعقيد المنفي نايف هوساً شخصياً ودليلاً إضافياً على المرض القابض على عقل الرفيق صدام. ناظم كزار اعتاد أن يجلس في الليل مع رائحة الحوت المتصاعدة من جسمه، وأن يقص أظافره متمهلاً وهو يقلب في رأسه خططاً للنجاة بجلده من هذا الهوس المخيف. يحلق ذقنه مرتين كل يوم (مرة صباحاً ومرة قبل أن ينام) لكنها تحكّه بشعرات قاسية كالفولاذ جافة كالصدأ طوال الوقت. أظافره تتكسر بينما يقصّها. وأكثر ما يزعجه الرائحة البحرية العالقة بجلده، بالخلايا واللحم والأعصاب والعظام. حين يتنفس يلاحظ الفوضى التي تعبث بأوراق المكتب وتوقظ خوفاً في حراسه المرافقين. حين يجرح نفسه بالموس المشحوذ على حزام الجلد يغسل وجهه بالماء، فيرى على رخامة المغسلة قطرات دم بلّورية تلمع كزيت العنبر حمراء ذات زرقة ضاربة برائحة فوّاحة.

في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ طلب صدام حسين من ناظم

كزار تجميع كمية من الأسلحة الإيرانية من أجل تصويرها في التلفزيون. ناظم كزار عثر على الأسلحة المطلوبة في مدن الشمال والجنوب. بعد أقل من عشرين يوماً أعلنت القيادة العراقية إحباط مؤامرة لاغتيال الرئيس البكر في غرفة نومه في القصر الجمهوري. المؤامرة الفظيعة أحبطها الرفيق صدام حسين شخصياً حين طوق مع رجاله المجموعة المهاجمة في قلب بهو الاستقبال الرئاسي. أثناء التحقيق مع مجموعة الكوماندوس تبين أن رؤوس المؤامرة موزعون داخل العراق وخارج العراق. التلفزيون عرض ١٣٠ طناً من الأسلحة الإيرانية. الراديو أعلن أن أسلحة الانقلاب المحبط معروضة الآن أمام المواطنين في «ساحة التحرير». المشانق كانت لا تزال معلقة في البصرة والنجف. أنزلت جثث ورفعت أجساد حيّة في مكانها. المواطنون تفرجوا في الميدان المفتوح على أكوام من البنادق والرشاشات، صناديق ذخيرة، عملات إيرانية وعراقية وأميركية مغلفة بالنايلون، ومتفجرات بريطانية الصنع بكلمات إنكليزية وأرقام منقوشة في الحديد، وحبال وسلاسل ومسدسات وسكاكين وحراب. . . حين هطل المطر غُطيت الأسلحة بشوادر النايلون، وفي الصباح التالي وصلت إلى الميدان شاحنات محملة بخزائن زجاج. أنزلت الخزائن ـ المستخدمة عادة لعرض المقتنيات الأثرية في المتاحف ـ وصُفَّت في دائرة حول حوض مزروع بالعشب والورد الجوري وأزهار تم السمكة. كان الزرع يابساً تحت المطر الرصاصي. عُرضت الأسلحة في الخزائن الزجاجية الأنيقة طوال سبعة أيام. أثناء ذلك تشكلت محكمة ثورية يرأسها عضو مجلس قيادة الثورة الرفيق الرقيب طه ياسين رمضان وبعضوية ثلاثة رفاق من القيادة القطرية لبعث العراق ورئيس «أمن الدولة» الرفيق ناظم كزار. اتهم بالعملية قائدا الهجوم الغادر على القصر الجمهوري العقيدان عبد الغني الراوي وصالح مهدي، وتبين أثناء المحاكمة التلفزيونية تورط العقيد المتقاعد رئيس الوزراء المخلوع عبد

الرزاق نايف. صدر حكم الإعدام بحق ٣٧ ضابطاً بتهمة التآمر لقلب الحكومة والنظام، وأُعدموا بالأسلحة المعروضة في ساحة التحرير. حُكم بالسجن المؤبد ١٥ ضابطاً آخرين. العقيد نايف المتواري عن الأنظار حُكم بالاعدام غيابياً. الحكومة العراقية أمرت السفير الإيراني بمغادرة بغداد خلال ٢٤ ساعة. أُقفلت القناصل الإيرانية في العاصمة العراقية وفي كربلاء والبصرة. وجرى ترحيل عراقيين من أصول إيرانية (بينهم كثير من الأكراد) إلى وراء الحدود.

رئيس «أمن الدولة» ناظم كزار أشرف على عمليات الترحيل. كل ليلة يقدم تقريراً مفصلاً إلى القيادة ممثلة بشخص الرفيق صدام حسين. كزار راقب طويلاً العلاقة بين الرجلين التكريتين الرئيس البكر ونائبه الشاب، إلى أن توصل إلى صياغة معادلة تختصر وضع القيادة العراقية الحالي: صدام حسين يحكم البلاد بسلطة الرئيس البكر اللانهائية. خلال اجتماعات متكررة مع ضباط الجيش الكبار أيقن ناظم كزار أن الجميع على استعداد لإرسال صدام حسين إلى جهنم الحمراء إذا رفع الرئيّس البكر الغطاء عن رأسه. واقفاً على هضبة تشرف على معسكر ترحيل بخيم مضروبة بين الوحول وسواقي المياه القذرة، نظر ناظم كزار إلى المَطر الغزير يسيل عن معطفه البلاستيك الواقي لامعاً في ضوء الأنوار العسكرية الكاشفة، وسأل نفسه ماذا يحدث لو قتل الرئيس البكر في هذه اللحظة! رأى أفواج الشيعة تقتاد كالخراف أمام عينيه وأحسّ بصفعات مئة حذاء على عنقه وظهره: أن يكلفه صدام هو وحده بمثل هذه المهمة القذرة! أن يغمس وجهه في الوحل، هنا، حيث قتلوا الحسين! ابتعد ناظر كزار إلى وراء الشاحنات. اختفى بين أشباح هنغارات وجرافات. بينما يخطو في الظلام، والمطر يذيب التراب والصخر والشجر، قرر ناظم كزار أن يتبع أسلوب رئيسه، أن يكون خاطفاً سريعاً كالنمر، وأن تكون خبطة مخلبه بلا رحمة. أدرك في اللحظة ذاتها أن الصبر فضيلة، والحريص هو من ينتظر الفرصة المناسبة

ويلتقطها. منذ تلك الليلة بدأ ناظم كزار التخطيط وعقد التحالفات السرية في صفوف الجيش.

في ذلك الشتاء البعيد، شتاء ١٩٧٢، كانت الأنفاس تتجمد حين تخرج من فم «السيد النائب» صدام حسين فتتحول إلى مسلات جليد في فضاء الساحة الحمراء. وجد «السيد النائب» موسكو قصراً من الصقيع. كان نور المصابيح يتكسر في الليل على حيطان الكاتدرائيات المتجلدة، ثم يتساقط في بلورات ماسية على الأسفلت الجليدي. التف بالفرو القطبي، وتحت الفرو صوف، وتحت الصوف الكشميري قطن إفريقي سميك، لكن البرد تغلغل في عظامه. أمين عام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي الرفيق الرئيس ليونيد بريجينيف نصحه بالفودكا. كانا ينتهيان من المفاوضات. بعد الاتفاق على كل التفاصيل ذكر «السيد النائب» المسألة الكردية. كان يعلم أن البارزاني يحمل مسدساً هدية من بريجينيف: في ذلك الزمن البعيد، زمن إقامة البارزاني في موسكو، لم يكن بريجينيف انتزع السلطة من الرفيق نيكيتا خروتشيف بعد.

الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي الرفيق بريجينيف ابتسم عند ذكر اسم البارزاني وانتظر الترجمة. قبل أن يغادر «السيد النائب» موسكو نال وعداً من القيادة السوفياتية بالتدخل وبذل جهود وساطة لإنهاء التمرد الكردي. «السيد النائب» أظهر لأندروبوف رئيس KGB وثائق تؤكد حدوث اتصالات بين البارزاني و CIA. في الطائرة التي حملته إلى بغداد شرب «السيد النائب» صدام حسين كوباً من الويسكي الجيورجي مع ثلاثة مكعبات جليد. وأحسّ الصقيع يغادر عظامه رويداً رويداً. حين فكر في ما أنجزه أخذ الدم يجري سريعاً حاراً في عروقه. بضربة واحدة سيقهر أربعة أعداء: شركات النفط الغربية، إيران، البارزاني، والشيوعيين العراقيين.

في ٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٢ جلس رئيس الوزراء السوفياتي ألكسي كوسيجين في قاعة السفراء في القصر الجمهوري العراقي، وإلى جانبه الرئيس العراقي أحمد حسن البكر. التلفزيون العراقي بثّ مشهد توقيع معاهدة الصداقة بين البلدين مباشرة على الهواء. راديو بغداد أذاع نشيد الأممية مرة صباحاً وأخرى مساءً. في الشوارع عُلقت أعلام حمراء إلى جانب العلم الوطني. الشيوعيون العراقيون أصيبوا بالصدمة. في إيران كان الشاه رضا بهلوي يذرع مكتبه جيئة وذهاباً: طوال السنوات الماضية نعمت إيران بالسلام على حدودها الشمالية. علاقتها الوثيقة المستجدة (منذ عقدٍ فقط) مع الدبّ الروسي الرهيب الذي يشاركها حدوداً تزيد عن ألف ميل، أمّنت لها أن تتفرغ للجيران الآخرين الأصغر حجماً. أما الآن، أما وقد وقّع العراق هذه المعاهدة...

مخاوف الشاه كانت تتضاعف في مغاور كردستان. حين سمع الملا مصطفى البارزاني الخبر من الإذاعة خبط الراديو على الأرض. كان الإرسال مشوشاً وتعذبوا ساعة قبل أن يفهموا ماذا يجري هناك، في الأسفل، بعيداً في العاصمة. أما وقد فهموا... انتزع الملا مصطفى البارزاني المسدس الحربي الروسي من حزامه ورماه خارج المغارة. سقط المسدس على الصخر. كان الوقت ظهراً، وشمس أوائل الربيع تلمع على الثلوج المتجمعة عن جانبي الكهف. البشمركة جلسوا حول زعيمهم في دخان الحطب الصمغي الرائحة، صامتين خاشعين، ونظراتهم الخائبة البائسة معلقة على المسدس المرمي على الصخر. غابت الشمس من دون أن يتحركوا. هبط الظلام على جبال كردستان. بعيداً، فوق قمة «جبل قنديل»، التمعت نجمة يتيمة.

في الأول من حزيران (يونيو) ١٩٧٢ أعلن الرئيس أحمد حسن البكر تأميم النفط العراقي. «شركة النفط العراقية» صارت ملكاً للعراق. «نفط الوطن يملكه الوطن». الحشود نزلت إلى الشوارع. اللافتات خرجت من الأقبية. تحولت الحدائق العامة ساحات أعياد.

الدول الغربية أعلنت حظراً على استيراد النفط العراقي. ردّ الاتحاد السوفياتي بشراء كل الحصص النفطية الخارجة من حقول العراق، مباشرة من وزارة النفط العراقية التي رأت النور للتو. السوفيات دفعوا ثمن التأميم ثم باشروا تسليح الجيش العراقي. كانوا فقدوا الأمل في الرئيس المصري أنور السادات. خلال تلك الفترة وضعوا كل البيض الروسي في السلة العراقية. «السيد النائب» أمسك السلة بيدٍ، وكوب قهوته المرّة السوداء مع الحليب الطازج البارد باليد الأخرى، ثم نظر إلى دبابات الجيش يتضاعف عددها من ٦٠٠ إلى ١٢٠٠ دبابة، وتساءل ماذا يفعل البارزاني الآن، ماذا يفعل شاه إيران، وماذا يفعل العقيد عبد الرزاق نايف؟

شركات النفط البريطانية والأميركية والفرنسية والهولندية المنكوبة بعد عملية التأميم شكّلت وفداً زار بغداد ثم غادرها بلا دينارٍ واحد: «لا تعويضات، أخذتم ما يكفيكم طوال نصف قرن!». «السيد النائب» صدام حسين سأل رئيس «أمن الدولة» ناظم كزار مرة أخرى عن ملف العقيد نايف. أجابه كزار أن الرجل ما زال مختفياً. اتصل صدام حسين بسعدون شاكر، وحدثه ٧ دقائق.

ذات ليلة هبّ هواء البادية على بغداد، فأقفل الرئيس البكر النوافذ في وجه الرمل، ودعا نائبه إلى جولة شطرنج. صدام حسين قال إنه مضطر للمغادرة. في السيارة التي تعبر شوارع المدينة النائمة، بينما النجوم تغيب في رياح غبارٍ ورملٍ وسحاب، أحسّ صدام حسين بتعبٍ في أعضائه، تعبٍ غادرٍ في مفاصله، وهبوطٍ في المعنويات. كان يسمع أخباراً مقلقة عن تحالفاتٍ في الجيش، وعن علاقة مشبوهة بين بعض الضباط وعضو مجلس قيادة الثورة رفيقه اللدود عبد الخالق السامرائي. لكن ما يزعجه أكثر من هذه الأخبار الموثوقة، ومن هذه اللقاءات المرصودة، ومن مواعيد الغذاء والعشاء المراقبة من قبل فِرَق البصّاصين، ما يُزعجه حقاً، ما يُسبب له هذا الحكاك في الذراعين

وتحت الإبطين لا يدعى عبد الخالق السامرائي، وليس يعرف ما يسميه! كل ما يعرفه هو هذا الإحساس: هناك ظلّ مظلم يتربص به، وراء منعطف ما، في يوم ما، أين هو، ما اسمه، كيف سيضرب ضربته... كل هذا لا يعرفه. لكنه واثقٌ أنه هناك، هذا الظلّ المظلم، هذا الشبح الغائب وراء قناع. يعرف هدفه، ويعرف أنه قادر على النجاة منه، على الدوران حوله في الظلام، وعلى تحطيم عظامه بقضيبٍ حديدٍ قبل أن يحطمه. عليه فقط أن يرصده، أن يعرف موقعه، وأن يكشف القناع المظلم عن وجهه الخفيّ. لم يفكر «السيد النائب» صدام حسين في العقيد نايف عندئذٍ. كان رأسه يسقط على مسند المقعد الخلفي وعيناه تنعسان وتنطبقان. لم يفكر في مصطفى البارزاني. لم يفكر في عبد الخالق السامرائي. لم يفكر في شاه إيران. لم يفكر في الرئيس البكر. ولم يفكر في صدام حسين. كان جسماً يفرغ من الحياة ويتعلق في فضاء لا يحوي شيئاً. المرسيدس تُسرع تحت أنوار المصابيح. دجلة يجري تحت الجسور. الربيع العراقي الوجيز ينقضي ورمال الصيف تصفع النوافذ، وتطقطق كالحصى على أبواب المتاجر والمستودعات. فتح «السيد النائب» عينيه لحظة فرأى النهر كحيوانٍ أسطوري مبرقش الظهر بإنعكاسات الكهرباء. أحسّ صدام حسين أنه عاش هذه اللحظة من قبل. أغمض عينيه مرة أخرى، ألقى يده على المسدس، وترك النوم يحمله إلى حيث يحمل النوم كل البشر.

رئيس «أمن الدولة» ناظم كزار كان مستيقظاً حينئذٍ. غارقاً وراء مكتبٍ مغطى بأوراقٍ وتقارير وأرقام وأسماء وعناوين وشهادات ميلاد ووفاة وبطاقات مزورة وأضابير لا أحد غيره يعرف كيف يفكّ رموزها، لم يكن ناظم كزار يعلم شيئاً عن رياح الرمال التي تسوط بغداد في تلك اللحظات. كان في الطابق العلوي من «وزارة الداخلية» محصناً في مكتبٍ مسدل الستائر سميك الجدران يقصّ أظافره في نور النيون الأبيض الطنّان، دائخاً برائحة العنبر وأعشاب البحر. حين باغتته رائحة

حليبٍ فاسد أيقن أنه ليس وحده. رفع رأسه فتلقى موجة لبنٍ حامضٍ ورأى اثنين من حراسه واقفين في الباب: الصيادين الأهواريين موسى ويونس الخيّون. تعرَّف ناظم كزار في رائحة الحليب المضروب بالبكتيريا على رائحة الكراهية الخالصة النقية غير الممتزجة بأي إحساس بالخوف. سأل نفسه متى بالضبط خَسِر هذه الرائحة ولم يكن بحاجة لأن يلفظ الجواب. الصيادان الأهواريان موسى ويونس اقتربا تصحبهما الرائحة اللبنية الحادة وسألا رئيسهما ناظم كزار سؤالاً مؤجلاً منذ أسابيع: لماذا أبعد «السيد النائب» صدام حسين وزير الخارجية الرفيق الشيخلي عن العراق؟ ناظم كزار كشَّر عن أسنانه في ابتسامة صفراء.

وراء الأطلسي كان الوقت ما زال أول المساء، ومصابيح الكهرباء تشتعل في البيوت للتو. ممثل العراق في الأمم المتحدة الوزير السابق عبد الكريم الشيخلي كان قاعداً أمام التلفزيون عندئذٍ، يشرب بيرة ويأكل طعاماً تايلندياً من علبة كرتون في شقةٍ صغيرة تطلّ على البرجين التوأمين لمركز التجارة العالمية. حين أنهى طعامه حمل البقايا إلى المطبخ ثم غسل يديه فوق المجلى ونشّفهما على منامته. في الغرفة من جديد، ألقى نظرة عابرة على المسلسل البوليسي Shaft، ثم وقف إلى النافذة يتفرج على ليل مانهاتن المشتعل بالأضواء. رأى نوافذ لا تُحصى في البناية المقابلة، وتفرج على عائلات وعشاق وعجائز يعيشون حياتهم وراء مربعات الزجاج، بلا ستائر، ومن دون أن ينتبه أحدٌ منهم إليه. بعد قنينة بيرة Budweiser ثالثة تذكر الشيخلي الصيادين موسى ويونس: كان يسهر معهما على شطّ دجلة حتى الصباح، وأحياناً يتناولان الفطور في بيته. زوجته قالت باسمة إنهما يشبهان الحيوانات. التشبيه لم يكن هجاء. كان عبارة تحبب.

في تلك اللحظة بالذات، في بغداد البعيدة، فكر رئيس «أمن الدولة» ناظم كزار أنه ينظر إلى ضبعين. دعاهما إلى الجلوس وتابع قصّ أظافره. كانت لحيته تنمو بينما يتكلم. الأخوان الصيادان أصغيا

إلى الكلمات. في الخارج استمر عصف الرمال. الغبار الأصفر غطى الشوارع، غطى السيارات، غطى المصابيح، غطى الأرصفة، غطى الجسور، وغطى النهر.

استيقظ «السيد النائب» من نومه عند الثالثة فجراً. كان العرق يبلّل عنقه. في الردهة جلس على كرسي الخيزران الهزّاز وترك المروحة الكهربائية ماركة Sharp تجفّف العرق عن جلده. المكيف أرسل من فتحاته تيار رمل.

الملا مصطفى البارزاني استقام قاعداً في عتمة البيت الحجر في بلدة طفولته بارزان يستمع إلى نعيق بوم الجبل وإلى نقيق الضفادع ونشيد الصرصار. لفّ ورقة سيجارة بتبغٍ لاذقانيٍ ثم أشعل اللفافة بقداحةٍ أميركية تعمل على النفط. الهواءُ المتسربُ بارداً عبر النافذة جعل ظهره يرتعش. رفع دثاراً عن الكنبة الخشب. ألقاه على كتفيه. رأى، عند حافة الغابة، ثلاثة من حراسه، يجتمعون حول النار، يشربون الشاي ويدخنون. سمع صوت مذياع («أنت عمري» لأم كلثوم) في صمت القمم المظلمة اللامبالية. كان ينعس. وظلّ ساهراً.

الوقت يقارب منتصف الليل في مدريد. غادر القنصل العراقي سليمان عبد الرزاق «بار لوركا» وصعد في الطريق المبلطة بالصدف البحري حتى بلغ البناية نصف الدائرية حيث يقيم. أخرج مفاتيحه ثم تردد أمام بوابة الحديد. ألقى نظره على الموزاييك في المدخل الفسيح، بالسماء الزرقاء الداكنة وطيور البجع البيضاء كالثلج، ثم استدار ومضى باتجاه الفندق القريب. المدينة لم تنم بعد. وهو لا يريد أن ينام. في المطعم العالي، على سطح الفندق، استرخى في كنبة جلد خضراء بين شجيرات صنوبر يشرب نبيذاً أحمر ويأكل كاجو ولوزاً ومكسرات صينية. بعد النبيذ طلب بيرة. السيارات تعبر في الأسفل، الشوارع تتقاطع، والتلفزيونات توجّ عبر نوافذ بيوت غارقة في الظلام.

سليمان عبد الرزاق لم يرَ كل ذلك. كان غارقاً في رأسه. عيناه كرتا حديد تنزلقان في تلافيف الدماغ وترتطمان بقفا جمجمته. حين ينام يرى نفسه في تلك الغرفة التي يعرفها جيداً، بالبقع السوداء على البلاط. أحياناً يغفو ساعة القيلولة، بعد الطعام، جالساً في القنصلية، فيرى في منامٍ خاطف أنه يغفو القيلولة في ذلك القبو الكابوسي تحت أرض الكرخ. سأل سليمان عبد الرزاق نفسه تلك الليلة لماذا يعيش، ما قيمة هذه الحياة؟ تذكر ـ بينما يمشي مترنحاً إلى البناية نصف الدائرية حيث يقيم ـ المجلدات الأربعة من الترجمة العربية الكاملة لرواية ليون تولستوي «الحرب والسلم» التي تركها في بيت أمه في بغداد. ضحك حين سقطت مفاتيحه على العتبة بينما يعالج قفل بوابة المدخل المطرَّقة الحديد. رائحة الكحول ملأت المصعد. عَبَرَ ممر الطابق الرابع في خطٍ مستقيم. بينما يفتح الباب الخشب، ورائحة الشقة الأليفة تتسرب إلى أنفه، خيّل إلى سليمان عبد الرزاق أنه يسمع صوت أبيه هامساً في أذنه. دخل وأوصد الباب. وقف جامداً ينظر إلى الأثاث الصامت وإلى نور القمر المتسرب عبر النافذة. النور غمر نصف الغرفة السفلي وترك نصفها العلوي مظلماً. لم يتحرك سليمان عبد الرزاق من مكانه. أسند ظهره إلى الباب الموصد وترك علاّقة المفاتيح تسقط على الكرسي الحديد. ماذا يفعل هنا؟ متى تنتهي هذه المهزلة؟ كانت الستائر تتموج، والسجادة الأصفهانية على الجدار تميل، والتماثيل الأسترالية ترتعش في الخزانة الزجاج فتبدو كأنها ستسقط على مزهريات بوهيميا الكريستال ما أن تتطاير الستائر الموسلين مرة أخرى، الآن. . . الآن. . . سمع سليمان عبد الرزاق صوتاً هامساً في جوفه: الآن. سمع طنين البراد في المطبخ، وسمع قرقرة بطنه، وسمع جريان الدم النابض في أذنيه. قال الصوت: الآن. ثم سمع سليمان عبد الرزاق اسمه: «مهدي». كان شبه سكران، وخيل إليه أنه في الحوش القديم، في ظلّ النخلة المائلة، الوقت ليل، والبدر العراقي يستدير مكتملاً في سماء بغداد. سمع

سعف النخلة تكنس جداراً، سمع الهواء في الفضاء، وسمع صوت أمه. كانت تناديه باسمه. قال في صمت الشقة المدريدية العالية: «يمّة». لم يجبه أحد. البراد تابع طنينه الكهربائي الرتيب.

ـ «يمّه!».

بعد توقيع معاهدة الصداقة العراقية ـ السوفياتية دخل الشيوعيون العراقيون «الجبهة الوطنية التقدمية»، ومُنحوا ثلاث حقائب وزارية. القيادة العراقية أقدمت على إطلاق عشرات المعتقلين. بين الشيوعيين الذين خرجوا من السجن مطلع ١٩٧٣ كان عبد الحسن عبد الرزاق، الأخ الأكبر للقنصل العراقي في مدريد (أسبانيا) الرفيق البعثي سليمان عبد الرزاق. عبد الحسن عبد الرزاق غادر «خلف السدّة» محمولاً. ساقه اليمنى بُترت من فوق الركبة بعد أن أصيبت بالغرغرينا. الساق الأخرى كانت معطوبة أيضاً: كسران في الكاحل، وكسر في باطن القدم. بعد شهرين شفيت هذه الكسور. الأم اعتنت بابنها كأنها تُربّيه من جديد. منذ أن رأته يدخل بوابة الحوش محمولاً، عادت الروح إلى جسمها. اشتد ساعدها وزالت تجاعيد من وجهها. في الصباح الباكر كانت تستغرب شهيتها. تذهب إلى المخبز، تشتري الكاهي والقمير، أو تمضي إلى عربة الفول الشهيرة عند زاوية الإمام البصري، ثم تقفل عائدة بخطى سريعة، والريق يفيض في فمها. لم تقل الأم لأحد أنها عاشت وماتت في تلك اللحظة، بينما ابنها الكبير يُحمل إليها مضمداً بلباس أبيض، كأنه ملفوف في كفن. اعتقدت أنهم ـ مرة أخرى ـ يجلبون إلى بيتها المنكوب ابناً آخر حبيباً قضى تحت التعذيب. جفّ الدم في عروقها. وسكتت عضلة القلب. لكن الابن رفع جسمه، قال: «يمّة»، والقلب ارتجف، والدم سال من جديد.

عبد الحسن عبد الرزاق ورث عن أبيه قدرة لا نهائية على مقاومة الفناء. كان يُقال في العائلة أن فرخ البط عوام، والشبل ولد الأسد:

عبد الحسن لم يُرَ مرة واحدة دامع العينين، حتى في طفولته. أبوه حيدر عبد الرزاق لم يقع قتيلاً في كنبته الأثيرة إلاّ بعد أن أفرغوا في جسده المريض كمية من الرصاص كافية لقتل فيل. عبد الحسن عبد الرزاق عاش ومات في سجون «حنين» و «أمن الدولة» و «الاستخبارات» و «المخابرات» عدداً لا يُحصى من المرات. جمَّدوا قدميه في برميل وسكبوا على ساقيه الأسمنت. تركوه في القالب الجاف أسبوعاً كاملاً يصرخ ولا أحد يردّ عليه. في قبوٍ آخر أثقلوه بالسلاسل ونقعوا ذراعه اليسرى في حوض ماء. كانت الذراع مقيدة بالحديد وبدا له كل ذلك مضحكاً ومنعشاً في طقس الصيف الحار. ثم اكتشف بمرور الساعات والأيام أن ذراعه تنفك عن جسمه، أن الطحالب تنمو على شعره، وأن حشرات صغيرة تشبه الديدان أخذت تسعى بين أصابعه. وجوه تتبدل، شاحنات موصدة، أجساد مرمية بعضها فوق بعض، طرقات جبلية، مسافات، وأقبية أخرى، وروائح أخرى، ووجوه جديدة. ارتحل عبد الحسن حيدر عبد الرزاق عابراً سجون العراق من الموصل إلى البصرة.

في عام ١٩٨٩ نشر عراقيّ مقيمٌ في أوسلو (النروج) كتاباً عن عمله في «المخابرات»، وعن وسائل التعذيب المتبعة في العراق بين ١٩٦٨ و١٩٨٨. الكتاب صدر في عنوان «حقوق الإنسان العراقي» باسم مستعارٍ هو وليد الهَيْلي.

١ ـ الإحراق بالغاز النفطي. يُربط الرجل بإحكام إلى مقعدٍ متين ومثقوب ثم يشعل الغاز النفطي تحت المقعد. يُطفأ الغاز بعد ٤٠ ثانية أو يخفف.

٢ ـ الإحراق بخاتم الكهرباء. يُلف سلك السخّان الكهربائي على أصبع الرجل المربوط جيداً ثم توضع الفيشة في موصل الكهرباء مدة تتراوح بين ٣٠ و٣٥ ثانية.

٣ ـ التعليق من السقف. يُعلق الرجل بحبلٍ مجدول كالحبال المستخدمة في السفن الشراعية إما مربوطاً من قدميه أو من أعضائه الجنسية. يُترك مدلى يوماً كاملاً. يجوز تعليقه من مروحة في السقف، وهكذا يدور حول نفسه فيُخرج كل ماء المعدة من جوفه. يمكن جلده بالسياط بينما يدور. لكن ذلك لا يؤثر في العملية كثيراً.

٤ ـ البتر. يُلقى ثقل على ساق الرجل أو ذراعه، ومن دون استخدام أي مخدرٍ موضعي يُقطع الطرف المحدد بمنشار كهربائي أو يدوي. إن نشر العظم، خصوصاً عند المفاصل، يستغرق وقتاً يراوح بين ١٢ و١٣ دقيقة. يُسمح بتزويد الرجل بالمياه الباردة خلال العملية لئلا يفقد الوعي، وهو ما يحدث غالباً رغم تزويده بالماء.

٥ ـ الفَلَق. تُثبت قدما الرجل في لوح خشب مكون من قطعتين متحركتين. ثم تجلد القدمان بمسطرة نحيلة إلى أن يبدأ النزيف. تغطى الجروح بالملح البحري الخشن وتُترك حتى تجف.

٦ ـ المثقاب الآلي. يجوز استخدام المثقاب لحفر ثقوب في اليدين، القدمين، والجمجمة. من اللازم استخدام أدق رأسٍ ممكن بين الرؤوس المختلفة التي يزود بها المثقاب. وإلاّ مات الرجل.

٧ ـ الحبس في برميل. يقف الرجل في برميل ضيق مفتوح الفوهة، ويُترك واقفاً ساعات أو أياماً. البرميل من الضيق بمكان بحيث أن الجلوس فيه مستحيل، ورفع الذراع من أجل حك الأنف أو الجبهة أو العين مستحيل أيضاً. في حال وجود بقّ أو بعوض أو ذبانٌ في المنطقة يكون الإرهاق الذي يصيب الرجل مضاعفاً.

٨ ـ التعليق من الشعر. يجوز استعماله مع الذكور، وفاعليته أكيدة مع الإناث. تُعلق المرأة من السقف بربط شعرها إلى سلسلة حديد.

٩ ـ كبّاسة الرأس. وهي الآلة المتوافرة في ورش الحدادة. يُثبت رأس الرجل بين فكيّ الكبّاسة ثم يكبس رويداً رويداً. في حال التسرع قد تُسحق الجمجمة كأنها حبّة جوز. واجب الحذر.

١٠ ـ الأبر. تُغرز الأبر في أظافر الرجل (أصابع اليدين أو القدمين بحسب الحاجة) أو في عضلة لسانه.

١١ ـ الحرق. يربط الرجل إلى سرير حديد ثم تُشعل نار صغيرة تحته.

١٢ ـ التمزيق. هذه العملية تحتاج إلى مكان فسيح: ساحة أو ملعب أو باحة سجن. تُوثق أطراف الرجل إلى سيارتين ثم تتحرك العربتان في اتجاهين متعاكسين. في الصحراء، أو في حال وجود نقص في الوقود، يمكن استعمال الإبل بدل السيارات.

١٣ ـ التعليق من الأذنين. يُثبت الرجل إلى الجدار بمسامير مطروقة في لحم أذنيه إلى أن يتمزق النسيج فيسقط أرضاً.

١٤ ـ التعليق من المعصمين. يُوثق المعصمان خلف ظهر الرجل ثم يعلق من السقف أو من مروحة. يجوز رش الماء على الذراعين والرأس. وضروري أن يوجد تيار هواء في الغرفة (نافذة مفتوحة أو باب موارب) لئلا تهبط نسبة الأوكسيجين ويفقد الرجل الرشد.

في بيت أمه استعاد عبد الحسن حيدر عبد الرزاق القدرة على تحريك أصابع يديه، وبدأ العمل. صنع كراسي من القش، نجرَّ أرائك ومناضد وطاولات، وخاط حقيبة ظهر من أجل التسوق. اقتنى عكازين وعلّم نفسه تدريجياً أن يتنقل مثل شخص بساقين. في تلك الحقبة من تاريخ العراق ظهرت في الأسواق بضائع غربية وشرقية غير مألوفة. إثر نهب بعض مستودعات شركات النفط الغربية المنكوبة أُشبعت الأسواق بالولاعات الإنكليزية الفضة ماركة King Charles III، وبأدوات الزراعة والبناء (معاول، رفوش، مطارق، أزاميل، مناجل). كانت أدوات أنيقة لم يعرفها فلاحٌ عراقي، أو بنّاء عراقي، من قبل. كأنها

أدوات للمطبخ لا للحقول والورش. ظهرت أيضاً أكياس متينة من الجلد شبيهة بالحقائب، بجيوب داخلية وطبقات من الكرتون المقوى والنايلون السميك. الأكياس حمل بعضها رمز شركة Mobil القديم، حين كانت لا تزال تحمل اسمها الأول Socony-Vacuum، بالدائرة القرمزية وبرج بابل الرصاصي اللون. بعض الأكياس (سُميت «أكياس التأميم») حمل شعار شركة Brasperto البرازيلية بشتلةٍ غريبة (الكاكاو) تنمو في تنكة مستطيلة الشكل كُتب عليها Majnoon، وهي حقول النفط المعروفة على الحدود مع إيران، ٣٠ ميلاً إلى الشمال من البصرة. عبد الحسن حيدر عبد الرزاق، لم يلجأ رغم تاريخه الشيوعي المعروف إلى «أكياس التأميم» كي يصنع حقيبة ظهره. ابتاع ثلاثة أكياس خاصة بنقل أدوات الغبار من مستودع شركة ,Sumitomo Mistubishi, & Idemitsu Kasan النفطية، الذي فتح أبوابه للتو في كركوك، وقضى يوماً كاملاً يقصّ الأكياس اليابانية التي تفوح برائحة الصمغ والأرز، ثم يعيد خياطتها. أمه جلست تورق عيدان الملوخية الخضراء محدقة إلى حركة أصابعه. كانت الإبرة تلمع ثم تبين وتختفي حتى خيّل إلى الأم أنها تتفرج على ماكينة Singer. زوّد عبد الحسن حقيبته اليابانية العراقية بحزامين، ثم زوّد الحزامين الجلد ببكلات حديد. كان يذهب إلى أسواق الرصافة ويعود مثقلاً باللحم والجبن والخبز والخضر والفواكه. لكل صنف بيت مخصص في الحقيبة. يتراجع حتى يبلغ حافة الطاولة في زاوية المطبخ ثم يفك بكلات الحديد، ويُسقط الحقيبة الثقيلة على سطح الطاولة. جلب خشباً من «معمل خانقين للنجارة الحديثة» في الحيدرخانة ودعَّم ركائز الطاولة. بعد رحلة إلى كربلاء عاد محملاً بمفاصل أبواب ومقابض نحاس (عثر عليها في سوق خردةٍ يعجّ باللصوص والباعة والمشترين، ظهر بين ليلة وضحاها وراء بيت خاله). الأم انحنت تسقي شتلات حبقٍ ومردكوش ومنتورٍ في مسكبة جديدة حول جذع النخلة المقطوع، وتنظر إلى ابنها

قافزاً على ساقٍ واحدة بين الأبواب والنوافذ، وزيت الماكينات يلمع على أظافرٍ بدأت تنمو وتغطي اللحم الزهري. فكرت أنه رجع إلى طفولته. قبل الحزب وهموم السياسة لم يكن المفك يفارق أصابع عبد الحسن. في السادسة أو السابعة من عمره تسلل إلى «قهوة أسمهان» المحاذية لبيت عمه أمام بارك السعدون وفكّك الراديو الكبير (أول راديو عرفته بغداد) في نصف ساعة بسكينٍ مستدقة الرأس. الحزب أبعده عن هذا العالم. وها هو بعد السجن الطويل يعود إليه. بعد أسابيع باع مجموعته الأولى من كراسي القش إلى «موبيليا الموزاني أخوان» وابتاع بثمنها منشاراً آلياً وأوفرأولاً وعدة نجارة كاملة. جذع النخلة تحوَّل خلال ساعة إلى منضدة مدوّرة. سألته أمه ماذا يفعلان بمنضدة ثابتة في مركز مسكبة دائرية مزروعة بالنبات. ضحك عبد الحسن حيدر عبد الرزاق، سقى المسكبة حتى أوحلت، انتزع الشتلات الفوّاحة بجذورها، ثم زرعها في أحواضٍ منكوشة التربة في الجانب الآخر من الحوش. عند الأصيل جلب شجيرة برتقال يوسفي وزرعها قرب المنضدة الجديدة. ذلك المساء جلس هناك، شرب قنينة بيرة باردة، ونفض رماد سيجارته في منفضة صدف تستقر على المنضدة. أمه وقفت وراء الكرسي تنظر إلى العكازين الخشب يستقران على الأرض، وتمسد شعر رأسه بأصابع طويلة حانية. عبد الحسن حيدر عبد الرزاق، الرجل الذي جاوز الثانية والخمسين، بكى عندئذٍ للمرة الأولى في حياته.

بعد سنوات طويلة تذكر الأخوان الصيادان موسى ويونس الخيّون عصر ذلك اليوم الصيفي البعيد حين كمنا في مطار بغداد الدولي ينتظران وصول طائرة الرئاسة. رئيس «أمن الدولة» ناظم كزار أعد خطة محكمة وحدّد الساعة الصفر: عند الرابعة عصراً من ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٧٣ تهبط طائرة الرئيس أحمد البكر على مدرج مطار بغداد. الرئيس العراقي العائد من زيارة رسمية إلى وارسو لن يعرف ماذا أصابه. بينما يهبط سلم الطائرة تتحرك إحدى الشاحنات المرسيدس الصفراء الخاصة بالمطار، وفي قلبها الصيادان الآتيان من الأهوار. بالرشاشات والمتفجرات ينفذان عملية اغتيال كاملة. كاميرات التلفزيون العراقي الحاضرة في المطار لتصوير عودة الرئيس من بولندا سوف تنقل الحدث إلى أنحاء البلاد الأربع. ناظم كزار سوف يعلن بعد ذلك بدء حقبة جديدة في تاريخ العراق الحديث.

خطّط ناظم كزار لذلك الأصيل الساخن طويلاً. لن يستطيع صدام حسين أن يفعل شيئاً. لحظة اغتيال الرئيس البكر تقتحم وحدة مغاوير مكتب «السيد النائب» وتلقي القبض عليه. لن يقتله. ناظم كزار فكر واقفاً في وكرٍ مظلم ومضغوطٍ برائحة حيوان بحري ضخم، أنه لا يريد أن يقتل الرفيق صدّام حسين، لأنه يريد أن يتفرج عليه يذوب عظمة عظمة في حوضٍ مملوء بالأسيد. لن يستطيع أحد أن يفعل شيئاً. لا

وزير الدفاع حماد شهاب ولا وزير الداخلية سعدون غيدان. أعدّ خطة لا تقهر. عند ظهيرة ذلك اليوم الملتهب، يوم ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٧٣، نفذت مجموعتان من «أمن الدولة» عمليتين متزامنتين انتهتا بإلقاء القبض على العقيدين شهاب وغيدان، واقتيادهما إلى قبو عميق تحت فيلا ناظم كزار قرب «حديقة الأمة».

عند الرابعة إلاّ عشر دقائق من ذلك العصر البغدادي البعيد جلس رئيس «أمن الدولة» ناظم كزار إلى التلفزيون يشرب بيره مجلدة ويدخن سيجارة تلو أخرى. كان المكان يعجّ برجاله المسلحين.

في الشاشة الصغيرة ظهرت السجادة الطويلة الحمراء والمنصة وحرس الشرف والفرقة الموسيقية. في زاوية الشاشة، بعيداً وراء عواميد وعربات نقل بيضاء، ظهرت شاحنات المطار. تحركت الكاميرا وظهر برج المراقبة ثم السماء الزرقاء الموشحة بالغيوم. بعد ذلك استقرت الكاميرا على الأفق. طرف السجادة بان مثل بركة مياه معتمة على الباطون. أحسّ ناظم كزار قطرات عرق تسيل من تحت إبطيه وتبلّل جسمه. قطع الثلج في البيرة طرطقت تحت أسنانه. كانت بيرة بلا طعم، أفسدتها الثلاّجة. في المنفضة تكومت أعقاب سجائر «وينستون» و «جيتان» قصير بلا فلتر. رائحة الدخان والرماد امتزجت برائحة البيرة والعرق البشري. عند الرابعة إلاّ ثلاث دقائق رنّ جرس الهاتف: كل الوحدات في مواقعها. فرقة الرقيب عاطف عبد الحسين على بعد ثلاثين متراً من الإذاعة. فرقة الرقيب حماد مشهدي توزعت على مبنى يقابل التلفزيون وعلى كاراج مجاورٍ. الرقيب محيي عز الدين تمركز على رأس فرقتين عند مدخلي القصر الجمهوري. «السيد النائب» محاصر بقوى «أمن الدولة». كل العمليات تنطلق في لحظة واحدة ما أن يظهر الرئيس البكر على سلم الطائرة في التلفزيون، لكن أين هي الطائرة؟

نظر ناظم كزار إلى ساعته ثم سأل الآخرين عن الوقت. كانت الرابعة تماماً. التلفزيون العراقي أعلن عندئذٍ أن الطائرة سوف تهبط في أي دقيقة الآن. الكاميرا ارتفعت وأظهرت نقطة سوداء بعيدة في الأفق الأبيض. تصاعد بخارٌ من المدرج الملتهب. تموج السراب الشفاف واقتربت النقطة البعيدة، ثم بانت نقطة أخرى كثيرة. لم تكن طائرة. كانت سرب سنونو.

الأخوان الصيادان موسى ويونس الخيون جلسا يتعرقان في الشاحنة الصفراء. عند الخامسة عصراً، بعد ساعة كاملة من التأخير، ظهرت طائرة في الأفق. لكنها لم تكن طائرة الرئاسة. الراديو أذاع عندئذٍ أن الرئيس البكر قد يتأخر وصوله إلى البلاد بسبب إصرار الحكومة البلغارية على تكريمه أثناء هبوط طائرته للتزود بالوقود في مطار فارنا. الأخوان تبادلا نظرة فزعٍ حينئذٍ ثم أقفلا المذياعَ. خلال دقائق اختفيا راكضين من أرض المطارَ.

ناظم كزار ظلّ أمام التلفزيون جامداً كالتمثال وجسمه يتصبب عرقاً حتى ظهرت طائرة الرئاسة عند السادسة و٣٧ دقيقة من ذلك المساء. كانت الشمس تغيب. ناظم كزار قبض على حافة الطاولة وحدّق إلى زاوية الشاشة الصغيرة. لم يتنفس أحد في الفيلا. الأعصاب المشدودة اهتزت كالأوتار.

تحركت شاحنة صغيرة مكشوفة تحمل السلم المتحرك. اقتربت من الطائرة التي توقفت قرب السجادة الحمراء. ناظم كزار ركّز نظرته على الشاحنة الصفراء البعيدة وانتظر حركتها لكي يأمر قلبه بضخ الدم في عروقه من جديد. لم تتحرك الشاحنة. الأخوان الصيادان لم يتصلا برئيسهما. غادرا المطار إلى ضاحيةٍ قريبة ثم استقلا سيارة شيفروليه إلى الأهوار. بينما الرئيس البكر يهبط سلم الطائرة باسماً في مطار بغداد الدولي، وناظم كزار يراقب المشهد مع ملايين العراقيين على

التلفزيون، كانت الشيفروليه الزرقاء تحمل الصيادين الأخوين جنوباً، بعيداً من العاصمة ومن المؤامرة التي أحبطتها الأقدار.

هبط المساء على البلاد. ناظم كزار، المملوء رعباً، أخذ الوزيرين العقيدين شهاب وغيدان رهينتين، وفرَّ في قافلة من السيارات العسكرية باتجاه الحدود مع إيران. لم تطلق رصاصةٌ واحدة في بغداد تلك الليلة. عند الواحدة فجراً رنّ الهاتف في المكتب الرئاسي في القصر الجمهوري. الرئيس البكر رفع السماعة بذراع عصبية. بعد لحظة أو لحظتين أطلق سلسلة شتائم ثم أعلم الجانب الآخر أنه ليس في موقع المفاوضة بل في موقع الاستسلام الفوري.

خبط الرئيس البكر السماعة ثم نظر إلى نائبه صدام حسين. في الباب وقف العقيد رفعت مصطفى من هيئة الأركان. «السيد النائب» صدام حسين التفت وطلب من العقيد أن يتركه مع الرئيس البكر. العقيد أجاب بتوجيه نظرة متسائلة إلى الرئيس البكر. بوجه أحمرٍ وعروق زرقاء ظاهرة في الجبهة العريضة هزّ الرئيس رأسه ثم لوَّح بيده. حين انغلق الباب خلف العقيد رفعت مصطفى فجَّر الرئيس البكر كامل غضبه في وجه نائبه صدام حسين:

ـ هذا الكلب كزار أنت صنعته... انظر ما صنعت!

صدام حسين لم ينبس بكلمة واحدة. رنّ الهاتف مرة أخرى. تناول الرئيس البكر السمّاعة وألقى سلسلة أوامر. الجيش والطوافات وحرس الحدود وكل قوى الأمن في البلاد تطارد قافلة كزار. المهم ألاّ يقطع الحدود. لا مفاوضة. «اجلبوه حياً أو ميتاً إلى بغداد.».

زاغت الدنيا أمام عينيّ «السيد النائب». كيف يحدث كل هذا؟ كان في مكتبه حين تلقى الاتصال من وزارة الدفاع: «أمن الدولة خطف الوزير شهاب». قبل أن يحاول الاتصال بناظم كزار تلقى اتصالاً من وزارة الداخلية: «الوزير العقيد غيدان خُطف من أمام باب بيته». «السيد

النائب» فكر أنه في كابوس. كان استيقظ من قيلولته مصدع الرأس قبل خمس دقائق. بينما يتناول حبتي أسبيرين مع كوب ماء رنّ ذلك الهاتف الغامض: «أمن الدولة خطف الوزير شهاب».

في المكتب الرئاسي في القصر الجمهوري أحسّ «السيد النائب» أن الأرض تسيل تحت قدميه: «ناظم كزار يجرؤ على كل هذا؟» الرئيس البكر ثبّت قبضتيه على المكتب وانحنى بجسمٍ مشدود ورأسٍ ممدود إلى الأمام. قال بصوتٍ صلبٍ:

ـ الكلب يريد أن يفاوضني: أتركه يغادر ويردّ لنا العقيدين. يقول إنه مستعد لمقابلتي في بيت أي رفيقٍ من الرفاق. يقول إنه مستعد لمناقشة كل خلاف. تسمعني؟ هذا الكلب عنده خلاف مع الرئيس. ويسألني هل أنا مستعد لمواجهته في بيت الرفيق عبد الخالق السامرائي؟ كأنني أنا الهارب من وجه الجيش إلى إيران!

الإسم المألوف، اسم عبد الخالق السامرائي، أخرج صدام حسين من الغيبوبة. كانت الساعة تقارب الواحدة والنصف فجراً. قفز صدام حسين كالنابض. استعاد في برهة خاطفة صفاء دماغه. حبك بيت العنكبوت في أعماق مخيلته المظلمة، ثم أعلن بنبرةٍ باردة كالصقيع:

ـ قبل أن تطلع الشمس يكون كزار بين يديك. «أمن الحزب» هو المسؤول. إذا تركنا الميدان للجيش تضيع السلطة من يدنا.

الرئيس البكر سيطر عندئذٍ على أعصابه، قال:

ـ اذهبْ!

اختفى صدام حسين كالجان. بعد ٣٥ دقيقة ظهر في طوافة عسكرية تغادر بغداد باتجاه الشرق. معلقاً في الفضاء المظلم، وهدير المروحة يصمّ أذنيه، استعاد «السيد النائب» السيطرة الكاملة على أعصابه وفكره. كانت أنوار الكهرباء تتلامع في الأسفل، مجموعات

كثيفة متباعدة، مدن وقرى وبلدات. لا أحد ينام في العراق هذه الليلة. لا أحد ينام حتى يُلقى القبض على ناظم كزار. عند الرابعة والنصف فجراً تمكنت فرق «أمن البعث» بمساندة ثلاث طوافات للجيش من محاصرة قافلة ناظم كزار في مزرعة تبعد ٩ كيلومترات عن الحدود الإيرانية. العقيد رفعت مصطفى أمرّ بتنفيذ عملية إنزال لمغاوير اللواء السابع عشر. «السيد النائب» صدام حسين اعترض موجة الإرسال ووجّه إلى العقيد مصطفى تحذيراً في الجهاز اللاسلكي: «ممنوع نزول جندي واحد. الأمن يسيطر على الوضع». العقيد رفعت مصطفى ردَّ بعبارة مقتضبة سوف تكلفه حياته: «العملية بدأت رفيق».

كان ضوء الفجر يطلع على الجبال. صدام حسين أمر وحدات الأمن بالإطباق على المزرعة ثم طلب خطّاً مباشراً مع القصر الجمهوري. كان واقفاً على هضبة، وفي الأسفل تلتمع الطلقات النارية وتدوي الانفجارات. المغاوير هبطوا بالحبال من طوافتين. في الظلمة الخفيفة بدوا مثل طيور ما قبل التاريخ. الكلمات التي خرجت من فمه وسُمعت في المكتب الرئاسي في القصر الجمهوري، كانت حاسمة:

ـ طوافات عدوة دخلت مجالنا الجوّي. نطلب الإذن بإسقاطها.

لم ينتظر «السيد النائب» إذناً. قطع الاتصال ثم أمر بتوجيه نيران المدافع الرشاشة على المغاوير المتدلين من الحبال.

ظهرت خيوط الشمس في السماء. خيّم الصمت على الفضاء، الطوافات ابتعدت ولعلعة الرصاص تلاشت. صاحت ديكة وخارت ثيران. انحدر «السيد النائب» إلى المزرعة المثقوبة بالرصاص. العقيد شهاب قُتل أثناء تبادل النيران. الرهينة الآخر العقيد غيدان جُرح بثلاث رصاصات لكنه نجا من الموت: زحف بين الجرحى ثم رفع جثة العقيد شهاب واختبأ تحتها حتى سكتت الانفجارات. ناظم كزار أصيب في ساقيه. جرجروه إلى الخارج. رموه على التراب، قرب بركة ماء بنعناع

كثيف يُسور حوافها. رائحة النعناع الفوّاحة في ذلك الصباح الريفي لم تحجب رائحة الحوت الخارجة من جسم ناظم كزار. تلوى على التراب. الدم النازف من أسفل جسمه بلّل الأرض. حاول أن يوقف النزيف بأصابع يديه. كان الأمر مستحيلاً. استغرب أن يكون في جسم الإنسان كل هذه الكميات المتدفقة من الدم. ثم تذكر «قصر النهاية» واستغرب أن يكون قد نسي ـ في لحظة الرعب والحقيقة هذه ـ كل العجائب التي يعرفها عن الجسم البشري. غطّت غلالة وردية عينيه. رأى فلاحين يقفون عند حافة حقل أخضر، ورأى جنوداً ممددين على الأرض في لباسٍ كاكي، ورأى بقرة تتحرك بين الجثث والحقل.

سمع صراخاً وخيل إليه أنه يعرف صاحب الصوت ثم انتبه أن الدم في أذنيه أيضاً. رأى رجلاً يُجرجر من ساقيه وخيل إليه أنه الرقيب عاطف عبد الحسين وأنه يطلب أمه. لم يسمع النداء جيداً. سمع صوتاً آخر: «أنا مو بشر، مو بشر مثلكم أنا!». ثم تعالى الصراخ الحاد الأليف مرة أخرى. وشمّ رائحة شواء. رائحة يعرفها جيداً. ثم غابت الرائحة. سمع الأذان. كان صوتاً رخيماً بعيداً لكن الدم نزل في تجاويف أذنيه ولم يعد يسمع إلاّ البقبقة. بقبقة ملأت كل دماغه، كأنهم يغلون دبساً. أصابته ركلة في خاصرته. انقلب على جنبه فدخل الوحل الأحمر في أنفه وفمه وعينيه. وسمع صرخة أخرى. ثم ساد سكون عميقٌ. حين فتح عينيه رأى دائرة الفلاحين تضيق حوله. ثم رأى رجلاً في لباس «أمن البعث» الرمادي يشير إلى الفلاحين المتفرجين بالتراجع. أحد الفلاحين كان يبتسم، واقفاً في اليشمك العراقي، وعلى كتفه بندقية صيد. لماذا يبتسم؟ رأى فلاحاً آخر في القمباز الفاتح اللون وفوقه الجاكيت، بوجه متجعد أحرقته الشمس. رأى الكوفية والعقال وتذكر قرية الطفولة ورأى عباءة تخفق في الهواء منشورة إلى حبل بين شجرتين. ثم غاب كل ذلك. البقبقة لم تعد صوتاً فقط. صارت هديراً يملأ عينيه. كأنه يسمع بعينيه. حين رأى صباطاً أسود لامعاً يقترب من

وجهه أدرك أنه هو: «السيد النائب» صدام حسين. مال ناظم كزار برأسه ونظر إلى أعلى. أراد أن يرى وجه عدوه وأن يسمع كلماته. لم يرَ شيئاً. رأى بياض السماء وسمع بياض السماء. ثم غاب عن الوعي.

في السابع من تموز (يوليو) ١٩٧٣ أعلنت «محكمة طوارئ» يرأسها عضو مجلس قيادة الثورة الرفيق عزت إبراهيم الدوري حكم الإعدام بالرصاص بحق رئيس «أمن الدولة» السابق ناظم كزار وبحق تسعة من معاونيه و١٣ ضابطاً متورطاً بينهم العقيد عزت مصطفى من هيئة الأركان. صباح اليوم التالي أصدرت المحكمة حكماً ثانياً بإعدام ٩ متآمرين آخرين بينهم عضو مجلس قيادة الثورة الرفيق عبد الخالق السامرائي. عند ظهيرة اليوم نفسه صدر حكم إعدام جديد بحق ثلاثة ضباط وأربعة مدنيين بعثيين. الأب المؤسس لحزب البعث العربي الاشتراكي الأستاذ ميشال عفلق تدخل طالباً تخفيف الحكم الصادر بحق الرفيق عبد الخالق السامرائي لعدم توافر أدلة كافية على تورطه في مؤامرة اغتيال الرئيس وقلب النظام. المحكمة لم تقدم دليلاً واحداً على ضلوع عبد الخالق السامرائي العائد من مهمة رسمية في بيروت في جريمة ناظم كزار. عضو مجلس قيادة الثورة الرفيق عزت إبراهيم الدوري ردّ على الأب المؤسس الأستاذ ميشال عفلق بالقول أن المحكمة أصدرت حكمها مستندة إلى وقائع ثابتة: ناظم كزار اتصل بالرئيس البكر بعد أن خطف وزيري الداخلية والدفاع وطلب الجلوس للتفاوض في بيت الرفيق عبد الخالق السامرائي. المحكمة اتهمت السامرائي بالتواطؤ الإجرامي، لأنه عرف مسبقاً بالمؤامرة ولم يبلغ مجلس قيادة الثورة ولا قوى الأمن بما يعرفه.

«السيد النائب» صدام حسين وقف عندئذٍ وطلب من رئيس المحكمة الرفيق عزت إبراهيم الدوري احترام رغبة الأب المؤسس للحزب. تكلّم بصوتٍ هادئ كاتماً غيظه الفظيع («لماذا يتدخل الأستاذ عفلق في هذه المسألة؟»)، وتكلّم من دون أن يرف له جفن. حين

انتهى من كلامه جلس. كانت أسنانه ترتجف في فمه. بعد تدخل عفلق أصدرت المحكمة قراراً بخفض الحكم بحق السامرائي من الإعدام إلى السجن المؤبد. عند الفجر نفذت فصائل الإعدام مهماتها. ناظم كزار رُبط إلى عمود جنباً إلى جنب العقيد عزت مصطفى. ساقا كزار لُفّتا بالقماش والجلد. كان يغيب ويعود ضائعاً في رائحة الموت والدم والنعناع والوحل. العقيد عزت مصطفى في المقابل بدا متماسكاً صافي الذهن. كان اللون مخطوفاً من وجهه. عيناه بدتا باردتين كأنه يحدق إلى فراغ لا يسبر غوره. كأنه تحت تأثير مخدر قوي. رغم ذلك ظهر متماسكاً في نور الفجر الأخضر. هل كان صافي الذهن؟ العقيد عزت مصطفى (أحد أقدم أصدقاء الجنرال المقتول حردان التكريتي) كان في الأغلب ذاهلاً. فهم ما جرى ولم يفهم. كان متعطشاً للفوز برأس كزار وربما برأس صدام حسين أيضاً. ثم حدث أمرٌ غامض. لا يعرف ماذا جرى تماماً. لكنه صار في الجانب الآخر فجأة. أمام فوهات البنادق. لن يعينه الفهم. ذلك هو الماضي. أما هذا فهو... كان العقيد عزت مصطفى ذاهلاً عن العالم ورغم ذلك رأى البنادق ووقفة الاستعداد والباحة الفسيحة والأعمدة. فكر في أطفاله السبعة. فكر في زوجتيه. فكر في أمه. وفكر في خياطٍ يجلس على الرصيف قبالة «ثانوية اليرموك» كل يوم، واضعاً ساقاً على ساق، يخيط بطانة سترة أو يقصّ بنطلوناً. فكر في الخياط الذي يجهل اسمه لأنه طوال سنوات اعتاد رؤيته في الطريق إلى الوزارة. يقعد هناك كالتمثال وعلى الأرض قربه الخيطان والمقص والماسورة وقطعة الصابون. بنظارتين وأصابع مغطاة بالشعر، الخياط، ذلك الخياط الثابت قبالة الثانوية... أحسّ العقيد عزت مصطفى بالارتباك. سمع صوتاً يأمر فصيل الإعدام بالاستعداد ورأى البنادق ترتفع وعضلات الوجوه تشتد. أراد أن يفكر في أطفاله مرة أخرى، قبل أن تفرقع الانفجارات ويختفي كل شيء. لكن مشهد ذلك الخياط اللعين ظلّ يطارده. في لحظة واحدة سمع الرجل المربوط

قربه يطلق شتيمة وسمع الدوي الحزين. ثم انتهت حياة العقيد عزت مصطفى.

ناظم كزار لم يمت فوراً رغم الرصاصات التي فجرت صدره ودماغه. عاش جزءاً قصيراً من الثانية بعد الانفجارات التي مزقت هيكله العظمي. في ذلك الجزء القصير من الثانية رجع صبياً في جوف حوتٍ على الشاطئ السوري البعيد. أنزلوه بالحبل، وحين بلغ الظلمة غاب صوت البحارة، وغاب نور القناديل. عندئذٍ شم الرائحة القاتلة. لم تكن رائحة حوت. كانت رائحة برازه يجري حارقاً على ساقيه. بعد ذلك انتهت حياة ناظم كزار.

القنصل العراقي في مدريد سليمان عبد الرزاق قرأ الأخبار في الصحف. كان يجمع كل ما يُكتب عن العراق ويترجمه ويرسله إلى بغداد. بعد ثلاثة أسابيع على عمليات الإعدام في ذلك الصيف البعيد سافر سليمان عبد الرزاق في رحلة سياحية إلى روما وميلان ونابولي. عند عودته إلى أسبانيا أقام أسبوعاً في برشلونة. من مكتبة روسية في شارع الملك خوان كارلوس الأول اشترى رواية «دكتور جيفاغو» لبوريس باسترناك. لم يكن شاهد الفيلم الذي عرض في الصالات الأميركية والأوروبية عام ١٩٦٥. بينما يتصفح الرواية للمرة الأولى، ويشرب نبيذاً أسبانياً أبيض مع سلطة قوامها جبن ماعز بلغاري وزيتون أخضر يوناني وخس غريب اللون أزرق ـ أحمر، رأى سليمان عبد الرزاق في المرآة المستطيلة المعلقة فوق المشرب وجهاً أليفاً. لم يتحرك ولم يستدر. راقب الرجل حتى اختفى خارجاً من البوابة الزجاج الآلية. كان ذلك رئيس الوزراء العراقي المخلوع العقيد عبد الرزاق نايف.

سنوات المنفى لم تغير العقيد نايف كثيراً. احتفظ بخطوته العسكرية وبلياقته البدنية رغم ابتعاده عن التمارين والجيش ورغم شهيته

العارمة للطعام والشراب. أثرُ ذلك كلّه ظهر خفيفاً في كرشٍ مقبولٍ وفي صلعٍ بدأ في مقدمة رأسه. لكنه وازن تأثير العادات السيئة المستجدة بعادة أخرى: المشي السريع. كان يمشي ثلاث ساعات أو أربعاً كل يوم. أحياناً يمشي أكثر، خصوصاً في الليل. لم تكن هذه رياضته الوحيدة: خلال الصيف يقضي أيامه على البحر. سبح في البحر الأحمر. سبح في قزوين. سبح في المحيط الهندي. سبح في الخليج العربي. سبح في الأطلسي. سبح في بحار المحيط الهادي الجنوبية. سبح في خلجان أميركا الوسطى. سبح في بحر اليابان. وسبح في المحيط المتجمد الشمالي. الصقيع لم يقتله. تفرج على الدببة القطبية تتصيد سمكاً وفقمات وشرب الشاي مع الأسكيمو. في سيبيريا التقى ضابطاً قوزاقياً يتحمم بالثلج كل ليلة قبل النوم. في كوبنهاغن التقى السفير الإسرائيلي موشيه يعقوب غنيمة: أخبره السفير أنه يسبح كل يوم ثلاث ساعات في مياه الشتاء. لم يجد العقيد نايف ذلك غريباً. منذ زمن بعيد بات يقبل الغرائب كجزء من الحياة. الأسفار علمته أن العالم يعجّ بالعجائب. السفير الإسرائيلي في الدنمارك موشيه يعقوب غنيمة كلّمه بالعربية، بالعامية العراقية، وأخبره أن أجداده كانوا وزراء في بغداد في عصر الملكية. «أحد أجدادي كان وزيراً للمالية»، قال السفير موشيه يعقوب غنيمة. العقيد المتقاعد عبد الرزاق نايف سأله كيف هي حياته - حياة العراقيين - في إسرائيل. السفير أجابه أنه نشأ في كولورادو (أميركا) وأنه جاء إلى إسرائيل في ١٩٦٢. قال السفير أنه جاء كيهودي أميركي أكثر منه كيهودي عراقي. العقيد نايف سأله عن لهجته، كيف يتقن العراقية هكذا؟ السفير قال إن أهله لم يتحدثوا في البيت بلغة أخرى. العقيد نايف سأل السفير غنيمة عن ١٩٦٧، هل شارك في الحرب؟ السفير أجابه طبعاً. ثم رفع كمّه وأراه ندبة تركتها شظية هاون. قال إن الجرح ما زال يؤلمه في المنام، وحين يستيقظ في نصف الليل يخيّل إليه أنه ما زال في سيناء.

لم يكن ذلك اللقاء الوحيد بينهما. التقيا مرة أخرى في Tschuggen Grand Hotel في أروسا (سويسرا). هذه المرة لم يحضر ضابط الارتباط الأميركي. كانت ليلة صافية بلا غيوم. القمر ظهر كاملاً فوق جبال الألب. شربا نبيذاً فرنسياً أحمر وتفرجا على الثلوج تلمع فضية تحت سماء قاتمة الزرقة. شاهدا متزلجين عائدين مع عدّتهم بوجوه أحرقها الثلج، ونزلاء يمضون في ملابس رياضية إلى قاعة البولنغ. السفير غنيمة شرب كثيراً تلك الليلة وأكل أطعمة متوسطية. كفتة وحمص بطحينة وسلطة خضار بالحامض وزيت الزيتون ومعجنات ورقائق لحمة وصنوبر وبندورة وربّ رمان. العقيد نايف راقب السفير ولاحظ أنه يشبهه. في آخر الليل روى السفير قصة غريبة حدثت في هذه المنطقة قبل ٣٣ سنة. قال إن أحد عمال البار رواها قبل ليلتين. بعد أيام تذكر العقيد نايف القصة الغريبة بينما يتمدد في الغرفة ٧٩ في Gauer Hotel Schweizerhof في برن (سويسرا). في هذا القصر العتيق في شارع ١١ Bahnhofplalz المزدحم بمتاجر التحف والمقتنيات الأثرية، استعاد العقيد نايف القصة التي رواها السفير غنيمة وأحسّ أنه يطارد سراباً. أحسّ أن الدرب تنتهي أمام قدميه، وأن عليه منذ الآن أن يشق درباً أخرى، درباً لا علاقة لها بالسلطة، أو باستعادة السلطة، درباً لا علاقة لها بالعراق. منذ شهور (منذ سنوات) تخطر هذه الخواطر في باله. حين عرف باغتيال العقيد حردان في الكويت قضى ليلة كاملة متنقلاً بين بارات بوينس أيرس يشرب الخمرة ويحدق إلى شاشات التلفزيون والوجوه الإيطالية والأسبانية والهندية و... يوم الأحد ١٦ أيار (مايو) ١٩٧١ سمع في الراديو أن الرئيس المصري أنور السادات أحبط محاولة للإنقلاب عليه. في تموز (يوليو) ١٩٧١ سمع في التلفزيون أن الملك المغربي الحسن قضى على محاولة انقلابية وأعدم سبعة ضباط. كانت الأسماء والتواريخ تمتزج في رأسه. يوم الثلثاء ١ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ نجا الملك الأردني حسين

الهاشمي من عملية اغتيال. بعد اسبوع خطف الفدائيون طائرات سويسرية وأميركية وبريطانية وفجرّوها في البادية الأردنية. حين اعتُقلت ليلى خالد في لندن، ثم أُطلقت مقابل رهائن، كان العقيد نايف يشرب عرقاً يونانياً ويفكر في الرئيس المخلوع صديقه القديم عبد الرحمن عارف. شاهد نشرة الأخبار الإنكليزية وأحسّ أنه يتجوف. في الفندق الفخم في برن استعاد العقيد نايف ذلك الإحساس بينما يتذكر القصة التي رواها السفير الإسرائيلي العراقي الأصل موشيه يعقوب غنيمة: رجل أميركي فُقد بينما يتزلج في جبال الألب. أرملته الأميركية ربّت ابنهما الصغير وحدها. حين بلغ الصبي السابعة أخبرته أن أباه مات في انهيار ثلجي في أروسا قبل أن يبلغ الثلاثين. الفتى احتفظ باسم أروسا في دماغه. كان يعيش مع أمه في دالاس (تكساس). حين بلغ الثانية والثلاثين انتقل للعمل في إيطاليا. بعد سنة سافر في إجازة مع صاحبته إلى سويسرا. نزلا في فندق تشوغن في أروسا. كان ذلك صدفة. حين تذكر الرجل الاسم (اسم المكان) وجد الأمر طريفاً. بعد يومين انحدر علَى سفوح الألب مع صاحبته. كانت أبرع منه. هو ابن الصحاري الأميركية المزروعة بحقول النفط. وهي ابنة إيطاليا وجبال الألب ومنتجعات التزلج. أضاعها على المنحدر ثم وجد نفسه يتعثر ويسقط. سقط على صخور لكنه لم يتأذَ. فقد الوعي ربع ساعة وحين فتح عينيه سمع زجاجاً يتكسر تحت جسمه. انتبه أنه يستلقي على بركة مياه متجمدة. كانت الشمس على ظهره ورأى انعكاس وجهه في صفحة الجليد ورأى انعكاس السماء الباهرة الزرقة. ثم انتبه إلى ملامح وجهه الغريبة. فكر أنه يبدو بسبب الضوء والثلج وزرقة السماء أصغر سناً. يبدو في الثامنة والعشرين أو التاسعة والعشرين. رفع رأسه ثم نهض واقفاً. حين نظر إلى أسفل متوقعاً أن يرى مرة أخرى انعكاسه في مرآة الجليد أصابه الرعب. رأى أباه الميت ممدداً في بركة المياه، تحت صفحة الزجاج، يحدق إليه بعينين ميتتين.

من برن سافر العقيد نايف إلى أوسلو. التقى هناك أحد أقاربه. قضى عنده اسبوعاً ثم سافر إلى باريس. في الراديو سمع أخبار أوغندا الأخيرة: محاولة انقلابية في كامبالا يحبطها الجنرال القائد عيدي أمين. في لندن أعلنت رولز رويس إفلاسها. الجيش الإيرلندي هدّد بقصف مدن إنكليزية. الرئيس نيكسون يزور الصين ويقف على السور العظيم فتلتقط له الصور الفوتوغرافية. أنور السادات يحبط انقلاباً ثالثاً. بغداد تكتشف مؤامرة ماسونية ـ إيرانية ـ إسرائيلية. زوجة رئيس الوزراء الإنكليزي تنشر ديوان شعر إباحياً. العقيد نايف شرب عدداً لا يحصى من براميل الويسكي. وأدمن ـ بعد أصناف طعام لا تعد ـ الطعام الصيني. وجد الخضر الملوحة على النار مع الدجاج أو القريدس أو لحم العجل طبقاً خارقاً. يسكب الأرز البسماتي المسلوق ٧ دقائق على نار معتدلة في صحنٍ واسع ثم يدلق المقلى الصيني فوق الأرز ويفتح قنينة صلصة الصويا. يضيف أحياناً ملعقة من زيت السمسم. يقضم قطع الزنجبيل المقلي ويرمي حبات خوخ ودراق ساخنة في فمه. الفاكهة المجففة يقوى طعمها على النار. يلقي حفنة زبيب فوق الجزر والفليفلة الحارة والحلوة ثم يضيف حبات كاجو ولوز. يقلب كل ذلك على نار قوية. تتمازج الروائح في الهواء: الخس الصيني والملفوف الأحمر والثوم المدقوق وبراعم الصويا والبصل الأخضر والبريكولي الطري والفطر الطازج. خلال رحلة إلى لندن التقى العقيد نايف في متجر للأطعمة الصينية امرأة هندية تُدعى ساري شاندوراي.

كانت ترتدي الزيّ الهندي التقليدي، لكنه وجد ذلك غريباً لأن لون بشرتها كان فاتحاً شبه أبيض. حين تبادلا الكلمات الأولى وجد لهجتها الإنكليزية مفعمة بالموسيقى. بدماء الشيخ عبد الواحد الطيع الحزين عبد الرزاق نايف الجارية في عروقه، أحسَّ العقيد المتقاعد عبد الرزاق نايف أن هذه المرأة أُلقيت في طريقه (أمام القسم المخصص للبهارات) بترتيبٍ وحساب وليس صدفة. العقيد نايف لم يكن يصلي

أو يصوم، ولم يحجّ يوماً إلى مكة المكرمة، لكنه ما كان ملحداً أيضاً. مرة في باريس، ومرة أخرى في برلين، قصد الجامع واستمع إلى خطبة الجمعة: أراد أن يسمع كلمات عربية وأن يرى حشداً من المسلمين، أراد أن يرى العراق صورة مصغرة في قلب أوروبا.

بعد الجمل الافتتاحية والتعارف بدأت الهندية البريطانية ساري شاندوراي تحتل موقعاً خاصاً في حياته. تلك الليلة جلسا إلى طاولة العشاء في مطعم هندي في ساحة البيكاديللي. أخبرته أنها انفصلت عن زوجها قبل عامين. ثم كلّمته ببعض العبارات العربية. العقيد تراجع في كرسيه مدهوشاً. أخبرته ساري عندئذٍ أن زوجها السابق فلسطيني وأنه ترك بريطانيا إلى بيروت حين انفصلا. سألها كم دام الزواج؟ رفعت يدها اليسرى مفتوحة الأصابع. لاحظ شامة في باطن الكف. سألها لماذا انفصلا؟ أجابت ساري أن ياسر حسن كان مريضاً. ضحكت ثم خنقت ضحكتها وقالت إنه لم يكن صحيحاً في دماغه. عباراتها الإنكليزية تقطعت وبدا أنها تبلع ريقها. ابتعد العقيد بنظراته إلى الجانب البعيد من المطعم. كانت مقصورات الخشب المحفور تتوزع على حقولٍ من النور الأحمر الخفيف وتتباعد بين ظلال معتمة وستائر من المخمل الأخضر المزركش. أحسّ العقيد أنه يرقد في قعر وادٍ مضاء بقمر يعبر ساعة خسوف. المرايا المستطيلة الدقيقة المنزّلة في خشب المقصورات تلامعت بانعكاسات المصابيح مثل نجوم مبعثرة بين الموائد. فاحت رائحة الكاري ممتزجة بروائح كمون وكزبرة وشمار وبرياني (قريدس) وباذنجان وكوسى وقرنبيط. سكب العقيد مزيداً من النبيذ الأحمر القاتم في الكوبين. اعتذرت ساري ومسحت فمها بمنديل. قالت إنها لا تبكي لأنها تركت زوجها ولكنها تبكي من أجله. قالت إنه كان رجلاً بائساً، يبس من الداخل وجفّ كالحطب، تشقق وتجوف كأنه منخور بالسوس. قالت إنها تفهم ذلك لكن الفهم لا يمحو اليأس والخيبة والألم. قالت إن ياسر حسن رأى عائلته تقتل

برصاص الشرطة الإسرائيلية أمام عينيه. أوقفوا السيارة على طريق عكا وكانت العائلة ذاهبة في نزهة إلى بساتين البرتقال ثم فتحوا النار على ركابها. ياسر حسن كان في الثانية عشرة. دماء أخواته الثلاث وأخوته الأربعة انفجرت كالبركان في السيارة. ياسر حسن لم يكن جالساً معهم على المقعد الخلفي للبويك القديمة البيضاء. اقترب شرطي من الجانب الآخر ودار حتى بلغ مقدمة السيارة ثم فتح نيران رشاشه. ياسر حسن وجد أمه تلفه بجسم يضاعف حجمه. ثم رأى الصواعق تحطم الزجاج قبل أن تحل الظلمةَ على المكان. لم يسمع إلاَّ صراخ الأب ثم الزمور الهادر. سقط الفتى تحت أمه واستمر الرصاص يلعلع وظل الزمور يهدر. هدر الزمور في صباح عكا الساكن إلى ما لا نهاية. الأب البالغ من العمر ٤٩ عاماً سقط بجسمه المثقل بالرصاص على المقود ولم يتحرك بعد ذلك. ياسر حسن كاد يختنق تحت أمه. في «مطعم الغانج» في قلب لندن قالت ساري شاندوراي أن ياسر حسن ـ زوجها الذي التقته في قسم الآداب واللغات الشرقية في أوكسفورد ـ كان يستيقظ كل ليلتين أو ثلاث صارخاً. يقول إنه يختنق، يركض إلى الحمام الذي يترك نوره مضاءً دائماً، ويبصق لعاباً غزيراً في المغسلة. لا يطمأن ولا تهدأ نبضات قلبه إلاَّ حين يرى أن اللعاب في المغسلة ليس أحمر. ذلك الكابوس لازمه منذ قتلوا أهله. يرى نفسه غارقاً في حوض دم، والسائل الساخن يتدفق عبر فتحات وجهه ويخنقه. قالت ساري إن زوجها ظلّ تحت جثة أمه إلى أن وصلت سيارات الإسعاف. الشرطة غادرت الموقع قبل ذلك. ياسر حسن بقي في قعر البويك الممزقة بالرصاص، والمحشوة بالأجساد المدماة، طوال ٣٩ دقيقة. حين أخرجه المسعفون كان مبلّلاً بالدم، مصاباً بجرح صغير في كاحله الأيمن من شظية زجاج، وكل شعر رأسه أبيض كالثلج.

بعد خمسة أيام تناول العقيد نايف طعام العشاء في بيت الهندية البريطانية ساري. حمل معه قنينة من النبيذ الفرنسي الأبيض. أخبرته

أنها تعد طبق دجاج بالعسل والكاجو مشهور في عائلتها منذ القرن التاسع عشر. لكنها استقبلته بالاعتذار حين رأت ما يحمله. لم تستطع اعداد الطبق الموعود، واضطرت أن تطلب طعاماً من «مطعم الغانج» نفسه. قالت إن يومها كان منهكاً ولكن رائعاً. كانت تعمل في «ساوذبي» للمزادات العلنية، وأخبرته عن مجموعة فارسية من المنمنمات والخناجر والخزف وصلت هذا الصباح من شيراز.

أخرجت قنينة نبيذ أحمر من خزانةٍ مطعمة بحجارة ملونة، وأشعلت عود بخور عند حافة النافذة المشرفة على الهايد بارك. شرحت له أسلوب اعداد طبق لحم العجل بالكاري بينما تملأ صحنه. تحمر شرائح اللحم ـ بعد تشذيبها من العروق البيضاء ـ في ملعقتي طعام من زيت الذرة أو الصويا على النار إلى أن يصير لونها بنياً. يرفع اللحم من القدر ويحفظ دافئاً. يضاف البصل والتفاح إلى القدر ويحمر الخليط مدة ٥ دقائق أو حتى يصبح لونه ذهبياً. البصل يفرم ناعماً. التفاحة تقشر قبل التقلية، تنزع بذورها، وتقطع قطعاً سميكة. نكهة الطعام الهندي من مزج الحلاوة بالحموضة والملوحة، ومن تطعيم هذه النكهة بالتوابل. حبوب الخردل الأصفر مع ملعقتين من مسحوق الكاري الطازج وملعقة من مبشور الزنجبيل الأخضر وعود من القرفة تضاف إلى القدر ثم تمزج جيداً. حبات البندورة الناضجة المقطعة تُسقط عندئذٍ مع الملح اللازم ومع شرائح اللحم المذهبة. تغطى القدر وتترك على نار هادئة مدة ١٥ دقيقة أو حتى يصبح اللحم طرياً وصالحاً للأكل. يضاف اللبن الزبادي (نصف كوب) وملعقة طعام من النعناع الطازج المفروم ناعماً ثم يأكل الواحد أصابعه.

العقيد نايف استمع إلى الشرح التفصيلي باسماً ثم سأل المرأة هل تتقن فن الطبخ فعلاً. تورد وجه ساري وأعلمته أنها تقرأ كتب الطبخ وتحاول أن تتقن هذا الفن الصعب ولكن... ضحكت ضحكتها القصيرة وأجابت أن ذكور عائلتها هم الأمهر في هذا الفن. قالت إن

أباها كان طباخاً ذائع الصيت في حيدر آباد. العقيد وجد القصة طريفة وسألها هل كان أبوها صاحب مطعم. ساري كادت أن تختنق بالنبيذ. وضعت الكوب من يدها وضحكت ثم أشارت بذراع راقصة إلى صورة مبروزة على الجدار البعيد. العقيد الذي يشكو من قصر في النظر حاول أن يرى تفاصيل الصورة، ملتفتاً بكامل جذعه، فلم ينجح. ساري أسرعت تغادر المائدة ثم تتسلق الكنبة وتنزل الصورة عن الحائط. حين رجعت انحنت بجسمٍ لينٍ قرب العقيد ودلّته باصبعها إلى الرجل الثالث عن اليمين في مجموعة من خمسة أشخاص عسكريين وقفوا عن جانبي رجلٍ هندي نحيلٍ يشبه كيساً من عظام، بنظارتين كبيرتين على وجهه، وبإزار ملقى على كتفيه يسقط على نصف جذعه ويبدو متصلاً بإزارٍ آخر يلف وسطه ويغطي فخذيه. كان ذلك المهاتما غاندي. العقيد نايف لم يستوقفه زيّ المهاتما بمقدار ما استوقفه وجه الجنرال الذي أشارت ساري إليه.

بعد العشاء شربا شاياً معطراً. على الكنبة المقابلة للتلفزيون، أخبر العقيد نايف المرأة الجميلة القسمات، الراقصة الجسم، القصيرة الضحكات، ساري شاندوراي (ابنة الجنرال شاندوراي صديق المهاتما ورفيق نهرو في أيام السجن) قصة الرجل الأميركي الذي جاء من دالاس (تكساس) كي يتزلج في جبال الألب السويسرية فوجد في بركة جليد جثة أبيه: نظر الابن إلى الأب الذي يشبهه كأنه هو، فرأى أنه أكبر من أبيه بخمس أو سبع سنوات.

ساري نظرت إلى أصابعها، ثم رفعت عينيها إلى وجه العقيد العراقي المتقاعد (الذي يجيد الإنكليزية إلى جانب لغات أخرى) ورأته ينفخ دخان سيجارته عالياً إلى السقف، في دوائرٍ كاملة. لم تفكر في الشبه الغريب بينه وبين أبيها، ونسيت زوجها الفلسطيني الحزين. سألت العقيد كيف يقضي أيامه، ماذا يصنع بالوقت؟

ضحك العقيد نايف. أشار إلى علامات غامضة في الفضاء، المائدة مثلاً، أو المطبخ، أو النافذة المطلة على الحديقة العامة، أو اللاشيء. سألته هل يسافر طوال الوقت، ألاّ يريد الاستقرار في بيتٍ؟ ثم قطعت كلماتها وفكرت أنه السؤال الخطأ، خصوصاً وأنه أخبرها عن عائلته العراقية الممنوعة من مغادرة بغداد. نظرت إلى بطّة ساقها، وقد جلست عليها فانتفخت وبانت من تحت القماش الأخضر الحرير. حدقت إلى اللحم الأسمر الناعم وأحسّت بالنعاس. شربت الكثير من النبيذ، لهذا تنعس الآن. كانت تفكر في النبيذ، وصوت الموسيقى اليابانية يملأ جسمها، ثم تذكرت لبرهة خاطفة وجه زوجها الفلسطيني واقفاً في الباب مع حقيبتين بنظرة ذابلة قبل أن يختفي إلى الأبد من حياتها. مال رأسها إلى خلف، أسندته إلى الكنبة وأسندت مرفقها الأيمن إلى إحدى الطنافس. تركت جسمها يتراخى في هدوء الليل الخريفي. في الشاشة ظهرت شاحنة مسرعة على طريق عريض وسط سهول خضراء. بدت السهول المتدرجة بعيداً كأنها ترتفع في جلول على سفح هضبة. تذكرت ساري في تلك اللحظة زيارة قديمة إلى قرية أخوالها عند حافة صحراء تار. في بلدة جدبور، بين حقول الأرز، رأت قرود اللنغور الذهبية تتقافز على سطوح البيوت البيضاء الفقيرة والزرقاء الباهرة الخاصة بالبراهمة. كانت قروداً لا تحصى يقودها الأقوى بينها والأسرع في غارات على الفليفلة الحارة المجففة على السطوح، وفي هجمات تثير الضحك على حلوى العدس المطحون مع السكر والفواكه. لم يكن أحد يعترض دربها. في تلك القرى يعبدون تمثالاً منحوتاً في شكل قرد، مطلياً بأحمر مرجاني، وحول عنقه قلائد من الحجارة بلون أزرق الكوبالت.

رأت إحدى خالتها تملأ جراراً على السطح بمياه صافية تحملها بالدلاء على الدرج الحجر الطويل من البئر أمام البيت. قالت الخالة إن الجميع يترك مياهاً على السطوح من أجل القرود. في نور الغروب في

جدبور شاهدت ساري قطيع القرود يتقافز على سور القلعة ويقفز في الفضاء ويطير. كان مشهداً ساحراً سوف يلازمها كل حياتها: تلك الحركة الخفيفة الطائرة، تلك الأصوات الحادة المتقطعة، ومنظر قردة تحمل ابنها إلى بطنها وتطير به قافزة بين سطحين مرتفعين وفوق أسلاك الكهرباء. في نور الغروب شعت الحيطان الزرقاء بلون برتقالي صافٍ كالنبيذ. ساري استعادت تلك اللحظات القديمة، سمعت صوتاً أليفاً في أذنها، وتذكرت أباها الجنرال، بينما رئيس الوزراء العراقي المخلوع العقيد المتقاعد عبد الرزاق نايف يشن عليها الغارة الأولى مسلحاً برائحة تبغ وكاري وخمر. انسحق جسمها تحت جسمه. بكلة الحديد في حزامه كبست بطنها العارية تحت الحرير. تمسكت ساري بالرجل الذي يكبرها بعقدين واستقبلت فمه وأسنانه والشارب الداكن الكثيف. لم تجده قاسياً أو جلفاً. وجدته صلباً. وأيقنت أنها تفتقد هذه الصلابة منذ أمدٍ بعيد.

ساعدته على التخلص من ثيابه، رأت كوب الشاي المعطر يندلق على الصينية، وغرقت في ظلال طيور الحبر الخافقة على قماشة المصباح الرملية البياض. كانت الكنبة ثابتة تحت الجسدين الساخنين. لكن المناضد اهتزت ونور المصباح تراقص ولندن ـ التي تطن طنينها الليلي المألوف خارج النافذة ـ بدت متراقصة أيضاً. في خيالها رأت ساري النهر والجسور ومبنى البرلمان وبرج الساعة يميل. لم تنم مرة مع رجل إلاّ ورأت صور العالم تغزو شاشة العينين المغمضتين. كانت تُحدث نفسها في ساعات الصفاء أنها لا تفهم العالم، لا تراه حقاً، إلاّ راقدة في الفراش تحت رجل. دخلها رئيس الوزراء العراقي المخلوع العقيد المتقاعد عبد الرزاق نايف بضربات بطيئة جامدة. غرزت وجهها في شعر صدره وتنشقت رائحة قديمة. كرّرت في سرّها أبيات شعر من «الأوبانيشاد» السنسكريتية و «الشاهنامة» الفارسية و «اغتصاب الخصلة» الإنكليزية، وهمست في أذن العقيد بكلمات رقيقة. الكلمات الناعمة

أثارت توحشاً في العقيد. تسارعت حركته وتضاعف عنف الخبطات. لكن ساري لم تجد ذلك وحشياً. كان العقيد صلباً. وفكرت أنه يشبه السلطان سليمان في تلك اللوحة الفلمنكية من أواخر القرن السابع عشر المعروضة منذ هذه الظهيرة بثلاثة آلاف جنيه استرليني في «ساوذبي» شارع نيو بوند ٣٤ ـ ٣٥ لندن. بلغت الخبطات أعماقها. امتزج الظلام بأحمر منمنمات من مدرسة تبريز ومدرسة قزوين، امتزج بلوحة ليلى والمجنون في مخطوط النظامي الشيرازي من القرن السادس عشر، المنمنمة التابعة لمجموعة الآغا خان صدر الدين طولها ٢٠١ملم وعرضها ١٦٥ملم، مذهبة ويغلب عليها لون العشب. بالعدسة المكبرة يظهر وشم «ليلى» مدقوقاً على صدر المجنون. ساري أحسّت خبطة أخيرة لا نهائية تبلغ صمامات قلبها. ثم سكن العقيد فوق صدرها. كان ثقيلاً كجاموس، لاهثاً كأسد، وفروته على جسمها العاري. أحبّت ثقله وأحبّت فروته. فكرت في خناجر مغولية، في فؤوس عثمانية، وفي سيوفٍ أفغانية. لم تفكر. رأت صوراً تتداعى في مخيلتها، ورأت خزائن الزجاج في صالة العرض. رأت بورتريه السلطان محمد ميرزا سيف الدولة، بريشة سيد ميرزا الأصفهاني، معلقة فوق مكتبها في «ساوذبي». رأت رداء أخضر مخملاً وذهباً كثيراً يرصع الحزام والساعدين وحواف الرداء. رأت الشارب الأسود الطويل والبشرة السمراء القاتمة والأصابع الجافة برائحة التبغ والويسكي والبارود. تحركت ببطء ثم زادت من سرعة دوران حوضها إلى أن استيقظ الحيوان النائم في رحمها من جديد. بضربات متعبة، لكن مفعمة حناناً، رجع العقيد من الجانب الآخر للعالم، رافعاً جذعه على ساعدين شديدين. رأى عينيّ المرأة الهندية مفتوحتين، ولكنه لم يرَ بؤبؤين ولم يرَ نظرة تصيب هذا العالم. رأى بياضاً لا يحد. حين سقط عن الجسد المرتجف أخيراً، أيقن أنه طوال السنوات الماضية ما كان ينام مع نساء في كل تلك الغرف المسدلة الستائر، بل كان ينام

وحيداً. . . مع نفسه. قبيل انتهاء الخريف سافرا بالقطار إلى ادنبره. في الشهر الأول من الشتاء، بينما العواصف تهبّ على الجزيرة البريطانية، تزوجا في بيت شيخ باكستاني الجنسية في ادغوار رود. اتفقا أن يبقى الزواج سرّياً. بات العقيد يقيم في بيت زوجته السرّية ويحتفظ بغرفة في «انتركونتينتال أوتيل». بعد أيام قليلة على زواجه، بينما يغادر الفندق حاملاً حقيبة سامسونايت، رأى العقيد نايف حاجباً بالمعطف الأسود الطويل الفضي الأزرار يتقدم تحت القبعة المألوفة ويواجهه. لكن بدل أن يرفع الحاجب ذراعه مشيراً إلى صف التاكسيات السوداء عند المنعطف، انحنى نحو الأرض وأخرج شيئاً من تحت بنطلونه، من تحت الجارب (جارب أبيض لمع تحت سواد البنطلون)، ثم وضع هذا الشيء في بطن العقيد. العقيد سمع فرقعة ثم طار إلى خلف عشرين سنتمتراً وسقط مع حقيبته السامسونايت.

في المبنى الفيكتوري المقابل لم يسمع أحد من السكان صوت الطلقة النارية. لكن من على السطح العالي رأى منظفو المداخن بوجوه لطخها السخام كل ما حدث.

من أعلى بدا الرجل المطروح على ظهره صغير الحجم. كانت ساقه اليسرى مطعوجة تحته. سترته انفكت أزرارها فظهرت قميصه البيضاء. كان لونها يتخضب بالدم. تدفق السائل الأحمر من الثقب الدائري ولطخ قميص العقيد المتقاعد ولطخ سترته السوداء ولطخ بنطلونه الأسود ولطخ جانب الحقيبة ولطخ بلاط الرصيف البحري الفاتح اللون. سال الدم إلى الشارع. نزل في غطاء المجرور، بين قضبان الحديد. منظفو المداخن شاهدوا ـ منحنين على حافة القرميد القاتم ـ عابرين فضوليين يتقدمون بترددٍ ثم يحيطون بالجسم الملقى أمام مدخل الفندق الفخم. لم يخرج أحد من بوابة الزجاج الآلية. حين سُمعت صفارات سيارات الإسعاف والبوليس كان الرصيف قد احتشد بالمتفرجين. العقيد نايف لم يرَ شيئاً من كل ذلك. بعد الفرقعة في بطنه

سقط على ظهره. حاول أن ينظر لكنه لم يستطع. نسي أين هو، نسي من يكون، وأغمض عينيه. هوى إلى بئرٍ بلا قرار، وكان البرد فظيعاً. اجتاح البرد بطنه ثم تسرب في أمعائه وتوغل في الخلايا وبلغ النخاع. كان برداً لم يعرفه إلاً في سنوات الشباب حين نام مع أول امرأة في حياته. لكن هذه المرة، مع تقدمه في العمر، ومع الدم الحار الذي يغادر جسمه، بدا البرد أقسى. لم يحتمل الصدمة الصاعقة. تجمد. شفتاه ازرقتا. أغلق الجليد عينيه. العقيد نايف لم يتذكر ساري. لم يتذكر بغداد. لم يتذكر عائلته الممنوعة من مغادرة العراق. ولم يتذكر العقيد عبد الرزاق نايف. كان ممدداً في بركة جليد في جبال الألب وكان يحتضر. نسي حياته. ونسي وجهاً عراقياً وعينين عراقيتين تراقبانه في مرآة مستطيلة تعلو مشرباً في حانة فندق الميريديان في برشلونة البعيدة.

سليمان عبد الرزاق أغلق «دكتور جيفاغو» على المنضدة الطويلة وشرب ما بقي في كوبه. منظر رئيس الوزراء المخلوع العقيد المتقاعد عبد الرزاق نايف في المرآة أثار خوفه. ماذا يفعل هذا الرجل الآن؟ ماذا يفعل هنا؟ تلك الليلة أبرق القنصل العراقي سليمان عبد الرزاق إلى بغداد بمعلومات جديدة: العقيد نايف المحكوم بالإعدام غيابياً ظهر في برشلونة.

بعد أن أرسل البرقية جلس القنصل العراقي على الشرفة. الصيف الأسباني يبدو رطباً هذا العام.

في نور المصباح الكهربائي أنهى قراءة الفصل الأول من «دكتور جيفاغو». بينما يقرأ عن جليدٍ يغطي زجاج النوافذ تذكر موسكو. تيار الذكريات الذي لا يُفهم أخذه إلى بيت الطفولة وإلى صوت أخيه عبد الحسن المبحوح. وضع الكتاب على الأرض، رشف الويسكي من الكوب، ثم نهض ودخل الشقة. نزع قميصه وبقي في الفانلة. أحسّ سخونة تملأ بطنه وصدره.

الأخوان الصيادان موسى ويونس الخيّون كانا عندئذٍ في قرية صغيرة شمال البصرة، يضربان في أودية وأهوار بمسالك مائية متشعبة وبمستنقعات وحقول أرز تربط دجلة بالفرات. تخليا عن الشيفروليه الزرقاء قبل ساعات. هدير الطوافات العسكرية زرع ذعراً فيهما. سبحا في مياه شبه راكدة ثم اختفيا في حقلٍ من الخضر. موسى الضخم جرح ذراعيه وهو يمزق شبك البستان ويحطم سوره الخشب. يونس تمدد على بطنه بين عيدان الفول الطرية بورقها المغطى بحشرات المنّ. غرز وجهه في الوحل. كان الحكاك في ندبتي وجهه فظيعاً. يحتاج أن يحلق ذقنه وإلاَّ قتله هذا الحكاك. كانت الشمس تغرب والأهوار تتحول إلى برك برتقالية. فكر الصيادان الأخوان أنهما في قعر البحر.

قبل أن تتبدد رائحة البارود المتصاعدة من بنادق فصائل الإعدام باشر «السيد النائب» صدام حسين حملة ترميم وإعادة هيكلة لجميع الأجهزة الأمنية في البلاد. السوفيات أرسلوا إليه مجموعة خبراء من K G B. كان اتفق مع رئيس المخابرات السوفياتية الرفيق يوري أندروبوف، قبيل توقيع معاهدة الصادقة، على تأمين خدمات لـ K G B في مجموعة الدول الأوروبية والأميركية والإفريقية والآسيوية حيث لا يملك الاتحاد السوفياتي تمثيلاً ديبلوماسياً. في مقابل هذه الخدمات العراقية «التي لا تقدر بثمن» وعد أندروبوف «السيد النائب» بدعمين: الأول بشري (خبراء) والآخر تقني (أجهزة ومعدات). في ذلك الصيف، بينما ناظم كزار يُلقى مع المتآمرين الآخرين في حفرة، وصل وفدٌ من الخبراء السوفيات إلى معسكر الرشيد.

عمل الخبراء السوفيات على جبهتين بالتنسيق مع «السيد النائب». الأولى: تعزيز الظهور العلني للقوى الأمنية: «شرطة النجدة» تلقت أجهزة لاسلكية حديثة وسيارات سريعة مستوردة من أوروبا. الجبهة الأخرى، والأهم، كانت غير مرئية. اختفى إلى الأبد اسم «حنين»، وظهر من الرماد أخطبوطٌ جديد. الأخطبوط الذي ولد في صيف

١٩٧٣ تألف من ثلاثة أجهزة منفصلة ومترابطة في الوقت نفسه.

١ ـ الأمن. أو ما عرف سابقاً بـ «أمن الدولة» أو «الأمن العام». هذا الجهاز يشرف على عمل «شرطة النجدة» وجميع قوى الأمن الداخلي في العراق. وُضع على رأسه في الفترة الأولى الرفيق سعدون شاكر ثم نقل شاكر إلى مسؤولية أخرى وسُلم «الأمن» إلى الرفيق صادق الجنابي قبل أن يتولاه في أواخر السبعينات الرفيق سبعاوي التكريتي. بقي سبعاوي رئيساً لهذا الجهاز فترة قصيرة ثم نقل إلى رئاسة جهاز آخر. «السيد النائب» صدام حسين تعمد هذا التحريك المتواصل للمسؤوليات والمواقع. فعل الأمر نفسه في البعثات الديبلوماسية إلى الخارج، وفي خطته لتوزيع السفراء والقناصل. بهذا الأسلوب يحفظ المسؤولين من: ١ـ الوقوع في الكسل. ٢ـ إساءة استخدام السلطة. ٣ـ تشكيل علاقات خطرة في الداخل والخارج. بين ١٩٧٣ و١٩٧٩ استقبلت مدارس K G B و G R U في جمهوريات الاتحاد السوفياتي مئات الطلاب العراقيين. العراق في المقابل زوَّد ١٤٧ عميلاً سوفياتياً بجوازات سفر عراقية تمنحهم حرية التنقل في دول حلف NATO.

٢ ـ الاستخبارات. أو المخابرات العسكرية. تتولى جميع العمليات ضد المعارضين في خارج البلاد، عراقيين كانوا أم أجانب. تشرف على عمل جميع القناصل والسفارات عبر ملحقين عسكريين تفوق صلاحياتهم صلاحيات السفراء. في ١٩٧٩ نشر عراقيٌّ منشق هو خليل العزاوي (أحد رؤوس هذا الجهاز) كراساً يكشف بعض عمليات الاستخبارات العراقية. مثلاً: الملحق العسكري في سفارة لندن العراقية سهّل عمليات اغتيال عقداء متقاعدين. الأمر ذاته تكرر في بيروت وبروكسيل وبراغ وباريس وديترويت وهونغ كونغ وكوالا لامبور ودكا وكابول وسيدني. في ٥ شباط (فبراير) ١٩٧٩ ألقت الشرطة السويدية القبض على ضابط سويدي مسؤول عن شؤون اللاجئين الأكراد بتهمة

قبول رشوى والتآمر مع جهات خارجية والخروج على القانون. الضابط المذكور هانز ميلن زوَّد الملحق العسكري العراقي في استوكهولم بلوائح اللاجئين السياسين العراقيين: الأسماء الجديدة الكاملة والعناوين وأماكن العمل وأرقام الهواتف.

٣ ـ المخابرات. الجهاز الأخطر. نشأ من بقايا جهاز «حنين». سمي بـ «الجهاز الخاص» فترة قصيرة. لكن اسم «المخابرات» ما لبث أن غلب؛ هذا الجهاز تولى الحفاظ على «أمن الحزب». «السيد النائب» اتفق مع خبراء K G B أن «أمن البعث» يعني «أمن العراق» و «أمن السلطة الحالية». صُمِّم هذا الجهاز بحيث يشرف على جميع شؤون الدولة وجميع مؤسساتها وأجهزتها بما في ذلك الجيش إضافة إلى التنظيمات الشعبية (مدارس الطلائع، الجيش الشعبي، اتحادات النساء والعمال، النقابات...). نشأ في قلب «المخابرات» جهازٌ أمني خاص مؤلف من مفوضين يتوزعون على ألوية الجيش ويتمتعون بصلاحيات شاملة. هؤلاء المفوضون البعثيون يملكون إنهاء خدمة أي ضابط بتقرير واحد إلى «السيد النائب». هذا الجهاز كُوِّن جوهرياً من بقايا «حنين». ترأسه فترة الرفيق سعدون شاكر وفي فترة أخرى الرفيق عزت إبراهيم ثم الرفيق يحيى الشادرجي قبل أن يتسلمه برزان التكريتي في ١٩٨٢. طوال عامين تولى مسؤولية هذا الجهاز أستاذ لمادة التاريخ يدعى فاضل البراق. في عهده أشرفت «المخابرات» على جميع مدارس البلاد وأعادت تشكيل كل الهيئات التعليمية. عام ١٩٨٤ نشر الأستاذ المذكور كتاباً عنوانه «المدارس اليهودية والإيرانية في العراق». لم يكن كتاباً حديثاً. كان البحث الذي نال عنه شهادة الدكتوراه في جامعة لينين المسوكوفية عام ١٩٤٩.

بعد شهرٍ واحد فقط على إعدام ناظم كزار قاد «السيد النائب» شخصياً العمليّة الأولى لجهاز الأمن الجديد. معلومات اجتمعت من أنحاء البلاد أدّت إلى تحديد مكان الرفيق سعدي عبد الوهاب (عضو

سابق في «حنين» ذهب مع كزار إلى «أمن الدولة» وصار أحد أقرب معاونيه). الرفيق الفار فشل في بلوغ كردستان ورجع إلى بغداد حيث حصل على أوراق مزورة وبدأ يستعد للسفر جنوباً إلى متاهة الأهوار. «السيد النائب» قاد وحدة خاصة إلى قلب العاصمة وضرب حصاراً على مبنى ضخم يواجه «سينما روكسي» ويعجّ بلافتات وكلاء تجاريين. لافتات الحديد والخشب والنيون طرطقت وصرّت في نسيم الليل الصيفي فملأت «السيد النائب» بإحساسٍ غريب. الرفيق الفار سعدي عبد الوهاب أطلق رصاصات مسدسه من إحدى نوافذ المخازن الغائرة في أسفلت الشارع. أمرّ «السيد النائب» الوحدة الخاصة باقتحام المبنى. كان جالساً في عربة عسكرية مصفحة، والسيجار في يده. الرصاصات كانت تنطلق في اتجاه آخر. رأى، من موقعه، الوهج البارق في الكوّة الغائرة تحت الأرض. لم يفهم الإحساس الغريب المسيطر عليه. شعر «السيد النائب» صدام حسين أنه عاش تلك اللحظات من قبل. حين انتبه إلى لافتة «سينما روكسي» تنطفئ ثم تشتعل ونورها البنفسجي ينير الشارع والمبنى الغارق في الظلال، فكر أنه متعب لأنه هذه الأيام لا ينال من النوم ما يكفيه. دائماً حين يتعب يأتيه هذا الإحساس. رأى الرجال في الثياب الرمادية يقتحمون المبنى ثم اختفوا عن نظره. في اللاسلكي سمع آمر المجموعة يأمر الرفاق بهبوط الدرج. عندئذٍ فقط تذكر «السيد النائب» صدام حسين قطعة منسية من حياته. اكتشف بينما وهج أخير يلمع في تلك الكوّة البعيدة أنه ينظر إلى كوّة يعرفها جيداً. اكتشف أنه ينظر إلى مبنى أقام فيه قبل سنوات طويلة. في تلك الغرفة الغارقة تحت الأرض عاش ذات صيفٍ بعيد، صيف تظاهرات صاخبة سبقت انتسابه إلى «البعث». وإلى تلك الغرفة ذاتها لجأ هارباً في زمنٍ آخر. ومن تلك الغرفة أخذوه إلى «سجن بغداد». «السيد النائب» صدام حسين ترك السيجار ينطفئ وجمرته تهمد وتموت، ضائعاً في ذكريات متشابكة كنبات التيِّل البري،

بينما الوحدة الخاصة تحمل الرفيق المدمى سعدي عبد الوهاب وتجرّه إلى خارج المبنى الكبير. كانت لحيته طالت، وكان شعره منفوشاً. بدا شبيهاً بحيوان. بعد ٤٩ ساعة مات سعدي عبد الوهاب تحت التعذيب. «قصر النهاية» تحول خلال تلك الحقبة مختبراً لأساليب تعذيب حديثة ولآلات حملت كلمات غريبة الحروف. في الحقبة نفسها ملأت البضائع السوفياتية أسواق الكرخ والرصافة. عبد الحسن حيدر عبد الرزاق ابتاع مكواة روسية يزيد وزنها عن عشرين كيلوغراماً. أمه رفضت استخدامها. كانت عاجزة عن رفعها.

قبل نهاية ذلك الصيف تزوج عبد الحسن حيدر عبد الرزاق أرملة تصغره بخمسة أعوام فقدت زوجها العسكري خلال اشتباك للجيش العراقي مع قوات «الأوك» (الأكراد التابعين لجناح جلال الطالباني) في جبال كردستان. لم تكن الأرملة غريبة. كان يعرفها منذ الطفولة. في أيام المدرسة المتوسطة كان يراقبها كل صباح عند خروجه من البيت، واقفةً في نافذة البيت المقابل، تتمطى في نور الشمس ودوائرها اللحيمة ظاهرة تحت قميص النوم. أخوته أيضاً طالما تأملوها. أحواض الزرع الخضراء عند حافة النافذة كانت تبدو لعيونهم يابسة صفراء ما أن تنغلق المصاريع الخشب ويغيب مشهد الشقراء السمينة. تزوج عبد الحسن حيدر عبد الرزاق أرملة الملازم رياض عبد الجليل فانتقلت إلى بيته (بيت أمه) مع ثلاث كنبات وخزانة خشب محفور وأربع طناجر ودزينة صحون وصندوق ثياب وابنٍ صغيرٍ لم يبلغ الثامنة. كانت أنجبت قبل هذا الولد (هيثم) ثلاث بنات وطفلاً ذكراً واحداً ماتوا بمرضٍ نادرٍ من التسمم الدموي. هيثم عبد الجليل نجا من مرض الدم المرصود للعائلة. بعد أن تبناه عبد الحسن بات اسمه هيثم عبد الرزاق. أمه نهلة تذكرت بعد سنوات طويلة يوم ابنها الأول في بيت زوجها الجديد، زوجها الثاني والأخير عبد الحسن حيدر عبد الرزاق.

جلس الولد هيثم على حافة البركة في زاوية الحوش منذ الصباح

حتى المساء. أمه جاءت ووقفت إلى جانبه نصف ساعة ودلّته إلى البيت الظاهر من وراء الحائط: أخبرته أنها كانت تقيم مع أهلها هناك قبل زمن بعيد. الولد لم يسمع كلماتها. كان يحدق إلى سمكات حمراء تسبح تحت الماء وتلتقط يرقات الضفادع ثم تغطس إلى أسفل. عند الظهيرة أتت المرأة العجوز حاملة لفة من الجبن والنعناع. أخذ اللفة ووضعها على حافة البركة. بعد ساعة مزّق من اللفة قطعاً صغيرة ثم ألقى الفتات في الماء. السمكات اجتمعت تحت يده. اكتشف أن بينها سمكات خضراء اللون، وأخرى زهرية وبنيّة داكنة. راقبها تخطف الفتات بأفواه ممطوطة ثم انتبه أنه جائع هو أيضاً. ألقى نظرة على الحوش وعلى الباب في طرف ممر الباطون المتشقق وعلى النوافذ. لم يرَ أحداً. أكل اللفّة ناظراً إلى السمكات. عند العصر باغته صوت المؤذن القريب كأنه يصرخ في أذنه: «اللّه وأكبر اللّه وأكبر... أشهد أن لا إله إلاّ اللّه... أشهد أن محمداً رسول اللّه...». رفع الولد هيثم رأسه فرأى المؤذن في أعلى المئذنة والسماء تنير جانباً من وجهه. كان النور يضعف في الحوش. راقب سلحفاة تزحف عند قرمة نخلة مصقولة السطح مغطاة بقطعة قماش بيضاء طُرِزت برسوم تشبه أوراق التين والعنب. حين اختفى المؤذن من أعلى المئذنة ظهرت أمه خارجة من أحد أبواب البيت. كانت تحمل كوب ليموناضة. سألته هل هو جائع؟ هزّ رأسه. انتبهت إلى الدموع في عينيه. قالت له إن عليه أن يأكل معهم هذا المساء حتى ولو لم يكن جائعاً. جلست إلى جانبه على حافة البركة ووضعت يدها على رأسه. قالت له إن عبد الحسن رجل آدمي، وإنه سوف يحبّه. الولد هيثم استعاد عندئذٍ منظر الرجل صاحب الساق المقطوعة وشعر بخوفٍ غامض. لا يريد أن يحبّ هذا الرجل المقطوع الساق. لا يريد أن يأكل معه. لا يريد أن يحدثه. لا يريد حتى أن يراه. بلع ريقه. أبعد عينيه وحدّق إلى أعماق البركة. لم يرَ السمكات. كان الظلام يهبط.

هبط الظلام على العراق. ساجدة خير اللّه طلفاح قالت لزوجها «السيد النائب» تلك الليلة إنها خائفة على أبيها من أسلوب قيادته للسيارات. هذه ثالث مرة تخرج سيارته عن الطريق. تخاف عليه أن يقتل نفسه. «السيد النائب» أجابها أن أباها ليس ولداً، وأن الأعمار بيد اللّه.

خير اللّه طلفاح كان عندئذٍ ممدداً في بيته المعروف في صوب الكرخ ينظر عبر النافذة إلى وطاويط تتطاير بين شناشيل البيوت ومئذنة الجامع المجاور. الأحياء تزدحم بالبشر، بالدكاكين، بالسيارات. قضى اسبوعاً في تكريت ووجدها هي أيضاً متبدلة. قبل شهرٍ سافر إلى الموصل. البلاد تتغير. الطرق والعمارات والبضائع. ابنه عدنان الذي انتخب أخيراً عضواً في «القيادة القطرية» يقول إن العالم كلّه يتبدل. لن يبقى شيء على حاله. أميركا بلغت القمر. السوفيات يعدّون خططاً للسيطرة على كامل الشرق. ولا أحد يعلم ماذا يخبئ المستقبل لهذه البلاد.

تأمل خير اللّه طلفاح تخبط الوطاويط العمياء في فضاء الزقاق وفكر في «كرديته» الثالثة الهاربة. أين هي الآن؟ وماذا تفعل؟ هل تفكر فيه حين يحلّ الليل؟ هذه الأفكار ملأته بالعصبية. «ابنة القحبة»، صرخ في صمت الغرفة. حركته المباغتة هزّت ساقه المثبتة في الجفصين. تقلصت عضلات وجهه. كان يتألم، وحيداً في البيت الفارغ إلاّ من جسمه ومن صوت محمد عبد الوهاب: «ذهبي الشعر شرقي السمات...». أزّ البعوض حول المصباح. بلغ وطواطٌ حافة النافذة ثم تراجع إلى الفضاء المظلم بين الشناشيل الخشب والمئذنة الحجر واختفى.

هبط الظلام على كردستان. في بيتٍ طينٍ في بارزان ألقى رجلٌ محاطٌ بالظلال تحية على ثلاثة من البشمركة وقفوا في الباب. كانوا

يطلبون إذناً بتنفيذ عملية معينة. الرجل الغارق في الظلال أرسلهم إلى بغداد.

منذ أيام يقيم «السيد النائب» بين فيلا الكرخ المحروسة والقصر الجمهوري. نقل إلى غرفة في الطابق العلوي من القصر سريراً. أمر بتغيير باب الغرفة الخشب فوُضع في مكانه بابٌ من الحديد المصفح. على الحيطان عُلقت صور ولوحات وشهادات وتذكارات. زُودت الغرفة بأدوات كهربائية وبمنظار حربي. من النافذة يرى دجلة وورشة الجسر الحديد ونخلات مبعثرة.

في ليالي الأرق كان «السيد النائب» يتمشى في الممرات إلى أن يلتقي الرئيس أحمد حسن البكر في «قاعة السفراء». يجده واقفاً في البذلة العسكرية المعتادة، داخل الغيمة العطرة المألوفة، يحدق إلى خريطة العالم بكل تلك العلامات الزرق الغريبة على خط سكة الحديد بين برلين وبغداد. يجلسان في تيار الهواء النهري المتسرب من النوافذ المشرعة. الرئيس البكر يشرب الشاي مع خمرة الروم أو من دونها، و «السيد النائب» صدام حسين يشرب كوب القهوة السوداء المرّة بالحليب الطازج البارد. كانوا يأتونه بحليبٍ من مزرعة بقرٍ في الجانب الآخر من دجلة، على بُعد رمية سهم. وحين يذهب إلى بيته في الكرخ يجد حليباً من المزرعة ذاتها في الثلاجة. حين زار تلك المزرعة اكتشف أنه يعرف المكان. كيف صارت تلك الفيلا الحزبية الفخمة مزرعة للبقر؟ وجد «السيد النائب» الأمر شبيهاً بكل أمور الحياة: كل شيء موقت، هنا حمّم جسمه من أوساخ «سجن بغداد المركزي» عشية هروبه قبل سنوات، وفي الأعلى حيث النافذة وقف ونظر إلى كل هذه البساتين قبل أن يحلق ذقنه أو بعد ذلك. كانوا يحرقون ورقاً وحطباً في طرف البساتين. كان الطقس صحواً. ثم مضت السنوات.

وجد «السيد النائب» الأمر عادياً. تجول مع الرفيق صلاح الطيب

وزير الزراعة والثروة الحيوانية، وتفرج على الأبقار الإيطالية والبرازيلية والهولندية الحلوب.

في «قاعة السفراء» تلك الليلة، جلس الرئيس البكر مع نائبه يدخنان ويتحدثان. بعد ساعة افترقا كلٌ إلى غرفته. كان الوقت تجاوز الثالثة فجراً.

الأخوان الصيادان موسى ويونس الخيّون ناما تلك الليلة في بيت أبيهما العجوز في «هور الحمار». موسى نام نومة الطفل. أغمض عينيه وبدأ يشخر شخيراً خافتاً. الأب ـ المصاب بالخرف ـ جرّ فراشه إلى خارج الكوخ ونام على نقيق الضفادع عند حافة الماء. هبط الظلام كثيفاً على الأهوار ولم يزر النوم رموش يونس. كانت أعصابه متحفزة والأنفاس تخرج من فمه مسنّنة حادة كالشفرات. عند الأصيل حلق ذقنه بسكين متفرجاً على أكواخ الطفولة تتجمع قبالة الجزيرة الرملية وتطفو على صفحة الماء العريضة. الرعاة كانوا عائدين مع العتمة الآتية يقودون جواميس ثقيلة بليدة تنش بأذناب نحيلة ذباب الحقول اللامع عن جلدها المبتل. بين الأكواخ، في فسحة متربة، شُدت الأبقار إلى مرابطها. أكوام الحشائش الخضراء الندية تبعثرت تحت أشداقها الرطبة. رأى فتيات يسرعن بدلاء الحليب إلى ضروع الجواميس المنتفخة. كان يسطو مع أخيه على هذا الحليب قبل زمن بعيد. ينطرح تحت الضرع الممتلئ ويأخذ الحلمة الريانة في فمه. يشخب الحليب الطازج ويفور في فمه. مرة أوشك أن يختنق. رأى الفلاحين يرجعون فرادى من الحقول. على رؤوسهم حزم الزوان الندية الثقيلة. يرمي الواحد منهم الحزم في مدخل كوخه ثم ينحدر إلى النهر ليغتسل. الهواء راكد مثقل برائحة الحقول المتاخمة. النور البرتقالي يتلاشى. أمام كوخ طويل ركعت امرأة تعجن دقيق الرز وتخبز أقراص سمراء فوق «الطاوة». فاحت الرائحة الحارة في الفضاء. رأى رجلاً يشوي سمكاً ويعد الشاي. كان أكل قبل ساعة لفة باردة بفجلٍ وجرجير. لم

يكن جائعاً لكن الرائحة ملأت جسمه توتراً. رأى صيادَين ينشران شباكاً طويلة في وجه مجرى النهر، ويثبتان الأوتاد في القاع، فلا يبقى ظاهراً منها إلاّ أطرافها فوق المياه. مع أول الليل راقب أحدهما ينحدر إلى الماء بهراوة صغيرة، يخبط بها عند الشبكة، ثم يملأ قفّةً بالسمك. ملأ الصياد قفّةً ثم أخرى. نور النجوم لمع على الشبكة والسمك والقفّة والماء. على امتداد الضفتين تلوح أسرجة النفط المشتعلة صفراء باهتة تحت حنايا الأكواخ المتقوسة. في الجانب البعيد تخضر الحقول في الظلام الخفيف: اللوبياء والبامية والفليفلة والخيار والكوسى واليقطين الأخضر. ظهرت بطوط مدجنة تلوذ بالجروف قرب أكواخ الصابئة: لا يعملون إلاّ في الحدادة والنجارة وصناعة القوارب، لا أحد يفهم كيف يدجنون طيور البرّ والسماء! نبحت الكلاب في القرى المتناثرة. أجابها عواء ذئاب بعيد. لن يرى أسراب اللقالق. الشتاء بعيد. ماذا يحدث له هذا الصيف، هذا الخريف، وهذا الشتاء؟ هل يعيش لكي يرى الشتاء ولقالق الشتاء؟ قبل زمن بعيد صاد مع موسى لقالق، وفي قائمة إحداها عثروا على خاتم: اسوارة ضيقة مكتوب عليه MOSCO 3629B. كان سرب لقالق آتياً من روسيا. احتفظ يونس بالخاتم الغريب سنة ثم ضاع الخاتم منه كما يضيع كل شيء.

كان الليل يتكاثف. سكنت الحركة في الأكواخ. انطفأت القناديل. يونس جلس في فراشه ونظر عبر الفراغات بين القصب إلى أوتاد الشبكة المنصوبة في مجرى الماء. تذكر مرة أخرى تلك الحلقة المعدنية بكلمة موسكو الأجنبية منقوشة في الحديد. كيف مضت السنوات؟ ظهر البدر لحظة من بين الغيوم، وانعكس متفضضاً في المياه الباردة ثم غاب. رأى يونس لبرهة خاطفة فضة القمر تتلامع على سعف النخيل الجاثم على امتداد الضفاف. رفع رأسه فلمح قطعة ضئيلة من القمر، بين قش السقف، ثم شحب الوجه الأبيض واختفى بين الغيوم المتراكضة.

شمّ رائحة البطيخ الأصفر الفواح حين هبّ الهواء. شمّ رائحة الرطب واللبن. شمّ رائحة البامية والرز الأخضر والنعاج. شمّ رائحة الحشائش والوحل والسماء. شمّ رائحة زهر الربيع وزهر الصيف وزهر الخريف. شمّ رائحة جسمه وجسم أخيه وجسم أبيه. شمّ رائحة سمك وشاي وخبز وجبن. شمّ رائحة البط بريشه الجاف أبداً رغم الماء. شمّ رائحة الزيت الغريب الذي يتسرب من جلد البط ليحفظ الريش من البلل. شمّ الغيوم والنخلات والقصب. شمّ التمر والرشاد ونفط السراج. هبّت الريح وتدافعت الظلمة على وجه المياه. شمّ رائحة القار المحروق في حفرته السوداء هناك حيث تعلو هياكل السفن والقوارب بأضلاعها وأعناقها الطويلة بين أكواخ الصابئة.

شمّ رائحة الحصير ورائحة باذنجان ورائحة ورد قديم. شعر بالذكريات تعود إليه والبراعم تتفتح خضراء في جسمه. هدأت أعصابه ونسي الأرق. نسي التوتر ونسي الخوف. رجع في الزمن إلى الوراء ورأى نفسه واقفاً إلى وسطه في المياه يراقب أسراب بط نادرة تعبر تحت غيوم داكنة وتطلق صيحات متقطعة فتوقظ القرى جميعها من ساعة القيلولة. كيف ترك هذه البلاد؟ رأى نفسه جالساً مع أبيه في الحقل القريب ينقي الرز الأخضر من الزوان والجعفير والدنان والتيّل وأصناف النبت الطفيلي الضار. رأى موسى يتسلق شجرة تفاح ثم يقفز في الماء. رأى مجاهل الهور وممراته المائية الخفية. رأى أعماق المياه الخضراء والتماعة النار الأزلية بعيداً بعيداً في الجنوب حيث تتباعد آبار النفط. رأى عمه سالم الذي أهلك الإنكليز ممدداً في كفن. رأى خنزيراً وحشياً مقتولاً ومعلقاً إلى نخلة. رأى نهاراً ممطراً مكفهراً ورياحاً تلطم الأشجار. رأى أربع بيضات وطاسة لبن في زاوية الكوخ. رأى مسدساً عثمانياً مرمياً بين سنابل الحقل. رأى دكة تتكوم فوقها طيور منتوفة الريش. رأى قارباً ينزلق على صفحة الماء بقفف شبوطٍ وحمري وبسلال رزٍ مجروش. رأى مطحنة «أبو علي» تطلق نفثاتها إلى

السماء. رأى «طير بنت الملك» الأزرق العجيب. رأى الزرزور والبلبل والحيّات. رأى السنونو وبندقية «برنو» نال منها الصدأ. رأى عنباً وتيناً وبلحاً. رأى أقراص الروث اليابس تتوهج في النار. رأى زوارق تنحدر محملة بشتائل الرز العنبر الخضراء. رأى أقدام فلاحين متورمة. رأى سلاحف تتشمس أمام خنادقها. رأى أعواد البردى في الربيع. أزهارها تتفتح واللقاح الأصفر الفاقع يملأ الفضاء. رأى اللون الأصفر الطري يغمر السماء والأرض. ورأى الصبايا في الغابة الصفراء يجمعن المادة الطحينية اللزجة الصفراء وأيديهن تتلون بها وتتضمخ. رأى النيران توقد في الليل تحت القدور النحاس الملأى بالمياه. رأى أمه تشد أوصال القماش الأبيض فوق أفواه القدور ثم تملأ القماش باللقاح الأصفر وتشد الأطراف. رأى نفسه يركض مع موسى في الصباح إلى القدور. رأى طاسات طافحة بحلوى «الخريط» الصفراء. رأى أطيار بجع كبيرة تتجمع عند الجروف. رأى النهر والقرى العابرة: الشويعرية والجبايش وأصليل والسعفة والخمس والصحين. رأى القصب الطويل يجفّ أمام عينيه ويتجمع «نفّاشه» المتطاير في الريح سحباً من زغب. رأى الريش الأخضر ورأى مناظر الأهوار. رأى الشمس في مياه النهار. رأى القمر في مياه الليل. رأى أشباح الأشجار والقوارب والغيوم. رأى نفسه مع أخيه موسى ومع أخٍ ثالثٍ غرق في النهر يبحرون من قرية أخواله (الرفاشية) إلى البرقةَ... تلك البحيرة الهائلة المترامية الأطراف. ابن خالهم حسب الشيخ أخذهم إلى البصرة: في حانةٍ سمعوا للمرة الأولى أغاني أم كلثوم وسمعوا صوت أسمهان، وفي حانةٍ أخرى التقوا عدنان خير اللّه وعرفوا للمرة الأولى أخبار غانيات بغداد: الأرمنيات والآشوريات والكلدانيات والمسلمات. رأى يونس كل ذلك بينما ينظر عبر الفراغات بين القصب إلى مياهٍ داكنةٍ ذات خرير. رأى يونس العالم الذي كان أرض طفولته وشقاوته وسأل نفسه: أين اختفى ذلك العالم الثري الرحيب؟ سمع شخير أبيه خارج الكوخ، وسمع شخير أخيه على

بعد خطوة، وفكر أن العالم هو هو لم يتبدل فيه شيء. الأهوار هنا والمياه هنا والليل هنا. الحقول هنا والبقرات هنا وبطّ الصابئة المدجن هنا. . . لا شيء تبدل. وفكر يونس الخيون الأهواري أنه هو من تبدل. وقال بلى، أنا الذي تغيرت.

قبل سبعة أيام من نهاية ذلك الصيف البعيد ألقى رجال المخابرات القبض على الأخوين الصيادين موسى ويونس الخيون بينما يحاولان عبور الحدود الجنوبية للبلاد. أُلقيا في أقبية سجن البصرة خمسة أسابيع. بعد ذلك نُقلا إلى «سجن بغداد المركزي». في الجناح الجديد من السجن حلاً في زنزانة واحدة مع ١٤ سجيناً بعثيّاً بينهم عضو مجلس قيادة الثورة السابق الرفيق عبد الخالق السامرائي. خلال الليلة الأولى في «سجن بغداد» أصيب موسى بنوبةٍ كادت أن تقضي عليه. جحظت عيناه وابتلع لسانه. يونس أدخل اصبعين في فم أخيه والتقط اللسان وسحبه إلى الخارج. قبيل الفجر نام موسى. يونس ظلّ ساهراً. وجد النوم في زحمة الأجساد صعباً. بعد أسابيع اعتاد الأمر فبات ينام كأنه على سرير ملوكي.

«السيد النائب» صدام حسين تقلب على سريره ساعة أو ساعتين. يغمض عينيه فيرى خرائط عسكرية وجبالاً ومدافع وألوية وقلاعاً. الأكراد ينهكونه. كيف تهزم عدواً مبعثراً في شِعاب الجبال؟ ثم أن خطوط امداداتهم مفتوحة، والشاه يدعمهم بالمال والسلاح. انقلب «السيد النائب» على ظهره. حدّق إلى السقف. انتبه إلى ألم خفيف أسفل بطنه. ترك السرير وانتعل مشايته. وقف ونظر عبر النافذة المفتوحة إلى شبح الجسر الجديد الذي لم يكتمل بعد. بيدين معقودتين وراء ظهره، وبساقين متباعدتين، بدا جندياً في وقفة استعداد. لكنه كان يرتدي منامة وينتعل مشاية. نظر إلى النهر المظلم تحت الجسر المظلم والسماء المظلمة وآلات البناء العملاقة المظلمة. أنوار الكهرباء المتباعدة ارتجفت في الليل.

بعد سنوات طويلة، بينما قوات التحالف الدولي تقصف العراق، تذكر الرئيس صدام حسين تلك النافذة المربعة تطلّ على دجلة والجسر وأنوار الكهرباء. صواريخ «توما هوك» الموجهة من بعد زرعت العاصمة بالحرائق. بعد كل موجة من الغارات الجوية في ذلك الليل البارد من كانون الثاني (يناير) ١٩٩١، كان يحلّ على بغداد صمتٌ كأنه صمت القبور. كأن البشر جميعاً قد فارقوا الحياة. في الملجأ المحصن تحت مدرجات ملعب كرة القدم نام الرئيس العراقي رئيس مجلس الوزراء رئيس مجلس قيادة الثورة القائد العام للقوات المسلحة الرفيق صدام حسين غير مبالٍ بالانفجارات التي تهزّ الأرض والسماء. تأرجح معلقاً على الحافة بين اليقظة والنوم، بين الحقيقة والحلم، دائخاً من النبيذ الأسباني الكثير الذي شربه في الأمس، ومترنحاً في قلب عاصفة ذكريات مباغتة علَّم نفسه سنةً بعد سنة أن يرميها كاملةً في سلة المهملات. أراد أن يفتح عينيه لكنه عجز عن ذلك بسبب أثقال الرصاص في جفنيه. نصب له الحنين فخاً في قرية بعيدة ثم أتبعه بأفخاخ لا تُعد: شويش - تكريت - الكرخ - بغداد - الشام - القاهرة - بغداد - موسكو - بغداد... هزّت الانفجارات الملجأ. سمع طرقات على الباب. لم يتحرك من مكانه. كل تلك الأفخاخ من ينصبها له؟ لم يكن ذلك حنيناً! ماذا كان إذاً؟ قرر أن ينهض ولم ينهض. كان رأسه ثقيلاً ومعدته مقلوبة. شرب طويلاً في الأمس. شرب حتى باغته النوم جالساً في بذلته العسكرية بكامل النياشين والرتب وراء مكتب السنديان الضخم. لم يتخلص من الحذاء العسكري. لم ينزع المسدس من الحزام. لم يفكّ أزرار البنطلون. الدوي الأخير بدا قريباً. حاول أن يرفع رأسه عن المكتب. لم يستطع ذلك. فكر أنه يحتاج إلى دقيقة أو دقيقتين بعد. كل تلك العواصم والأسماء تمتزج في دماغه... عدد الدول التي تشارك في هذا الهجوم، كم؟ ٣٠ دولة؟ الثقل في رأسه تضاعف بعد دقيقة، تضاعف مرة إضافية بعد دقيقتين. يحتاج مياهاً

باردة. زلعومه جاف. لسانه جاف. وسقف حلقه جاف. توالت الانفجارات. لم يتذكر الحرب الساحقة على الأكراد في ١٩٧٥. لم يتذكر الحرب العراقية ـ الإيرانية. لم يتذكر الهجوم الخاطف على الكويت. تذكر تلك الليلة الحارة من ذلك الصيف البعيد حين رأى مشيئة الأقدار في غرفة سائلة كأنه يرى خطوطاً على خريطة، كأنه ينظر إلى يديه.

في ذلك الصيف البعيد، قبل أن يلتهم الدود جيفة ناظم كزار، عصفت ببغداد سلسلة جرائم: عصابة من اللصوص كانت تقتحم بيوتاً في نصف الليل، فتنهب المال والذهب وأدوات الكهرباء، وتقطع بالبلطات كل من تجده في طريقها. عائلات كاملة ذُبحت في الأسرة. «شرطة النجدة» كانت تصل دائماً متأخرة دقيقتين. كأن اللصوص القتلة علموا مسبقاً بقدومها. كل صباح تنقل الصحف خبر جريمة جديدة: في شارع الرشيد، في الكاظمية، في الرصافة، في باب الشيخ... توالت الجرائم ولم تقع العصابة في قبضة البوليس. «السيد النائب» شغلته هذه الجرائم كما شغله التمرد الكردي المتواصل وإعادة هيكلة أجهزة الأمن في البلاد. وصله تقرير من المخابرات بأسماء مساعدين سابقين لناظم كزار لم يُلقَ القبض عليهم بعد. الرفيق سعدون شاكر أعلمه أن الاستخبارات تبحث عن علاقة بين الجرائم الغامضة وأتباع ناظم كزار الفارين: لا بدَّ أنهم يملكون أجهزة لاسلكي مبرمجة على موجات «شرطة النجدة». هكذا يعرفون بقدوم سيارات البوليس قبل وصولها. أخبره الرفيق سعدون شاكر أنه يحقق أيضاً في تحركات مجموعة من الضباط في قوات سلاح الجو.

رأس «السيد النائب» صدام حسين كان يعجّ بالخطط في تلك الليالي الحارّة. جلب إلى الغرفة الخاصة به في الطابق العلوي من القصر الجمهوري، كرسياً هزّازاً من خشب الأرز. كان يقعد في الكرسي بعد أن يغسل يديه وإبطيه ورأسه ووجهه من تعب النهار

الساخن الطويل ويحدق إلى ذراع آلة عملاقة تقتحم السماء فوق مياه دجلة السوداء. كل هذه الغيوم تحول بغداد ليلاً إلى طنجرة ضغط على النار. يكره المكيف ويكره طنينه ولا يحبّ أي صوت يمنع عن أذنيه باقي أصوات العالم. حتى الباب الحديد المصفح يزعجه أحياناً. يخيّل إليه أنه يسمع دعسات وراء الباب، دعسات مختلفة عن دعسات حراسه. ثم حين يصيخ السمع يدرك أنها دعسات في تلافيف دماغه. لا أحد يمشي في الرواق الآن. أما في رأسه... أما في رأسه...

تلك الليلة، قبل أن يرى مشيئة الأقدار في غرفة سائلة كمن ينظر إلى الخطوط في باطن يده، كان «السيد النائب» يفكر في الملا مصطفى البارزاني. الأسلوب الوحيد لإلحاق هزيمة ماحقة بالأكراد يكمن في قطع الإمدادات الإيرانية. لكن ذلك مستحيل عسكرياً. لا بدَّ من تسوية مع الشاه. وهذه مُرَّة كالعلقم.

عبر النافذة المفتوحة الزجاج رأى أنوار الكهرباء تتلامع في الجانب الآخر من النهر. عواميد الإسمنت المسلح الضخمة، كل تلك الخرسانات في قلب النهر، بدت كحيوانات عملاقة تخرج من أزمنة سحيقة، فتتعالى كالعمالقة في الأساطير وتجتاح الفضاء. أحسّ بانتفاخ مثانته. في اللحظة نفسها شعر بالعرق ينزلق تحت ابطيه. وحده الباب المصفح بارد في هذه الغرفة الملتهبة. الرواق مُكيف. وكذلك معظم قاعات القصر.

عند انتهاء الساعة الأولى بعد منتصف ذلك الليل وجّ لهبٌ أصفر تحت الجسر الجديد غير المكتمل ودوّى انفجار. القذيفة الصاروخية التي أطلقها ثلاثة من البشمركة هزّت صمت القصر الجمهوري. تسللوا إلى هذه النقطة الخطرة بعملية معقدة طويلة ونجحوا في إطلاق القذيفة من دون أن ينقلب زورقهم المزود بمجاذيف وبمحركٍ بخاري. اختفوا في الليل كالجان. يد الأقدار وجّهت القذيفة الصاروخية بدقة لا متناهية

إلى مركز النافذة المشرعة في تلك الغرفة في الطابق العلوي من القصر الجمهوري: النافذة الرابعة من جهة الشرق. انفجرت القذيفة في قلب الغرفة لحظة ارتطامها بالباب المصفح. سالت صفائح الباب وتجعّدت بحرارة القذيفة المضادة للمدرعات. فرقع الزجاج في إطارات الصور الفوتوغرافية المعلقة على الحيطان. صورة الفتى عدي البالغ من العمر خمس سنوات شبّت فيها النار. التذكارات السوفياتية سقطت متحطمة على الأرض. اشتعلت الستائر والبطانيات. تفحم الفراش. طقطق خشب الكرسي الجديد واسود لونه وتساقطت منه قطع محروقة على البلاط. غطى السخام الحيطان. قوائم السرير الحديد تجعدت بقوة الحرارة الجهنمية. المصباح الإيطالي على الكومودينة، واللمبة (OSRAM) التي تتدلى في سلسلة فضة من السقف، فرقعا. ذاب كوب الزجاج وتبخر الماء. إبريق الفخار انفجر في موضعه. المروحة الرومانية المطفأة في الزاوية دارت مروحتها دورتين كاملتين بعد الدوي واختلاف الضغط ثم توقفت. سال حديد المروحة في قطرات داكنة كما يسيل الشمع. ساعة المنبه السويسرية على الكومودينة تحولت كتلة ذائبة من الحديد والزجاج. الراديو الألماني الخشب الضخم طار بعينه الخضراء خارجاً من النافذة ثم سقط في حديقة القصر. قلم الباركر الفرنسي على المكتب التوى والتصق بختم «السيد النائب». البذلات الإيطالية المعلقة في الخزانة سقط بعضها عن العلاقات الخشب والتصق بعضها بعلاقات الحديد السائلة. امتزج المعدن المنصهر بالنسيج الذي شفّ من الحرارة الشديدة. شجرة بونساي (هدية شركة ميتسوبيشي) يزيد عمرها عن تسعين عاماً، احترقت بالوهج وتفحمت بورقها وأغصانها اللامعة وبجذعها الجميل المجدول المصقول بالوقت. التراب حال رماداً. الإناء الياباني الثمين تبدل شكله. سلسلة الفضة المتدلية من السقف انصهرت حلقاتها في حبلٍ افعواني. النوابض ظهرت من الفراش المتفحم: كانت أطرافها ذائبة ومطوية كأنها خرجت

من فرن المصنع للتو. لم يبقَ أثرٌ من مخدة «السيد النائب» ولا من دثاره المفضل الذي جلبه معه من الفيلا في الكرخ.

لم ينجُ من عاصفة النار المباغتة غير الراديو المصنوع في شتوتغارت: قذفه الضغط عبر النافذة فسقط على شجرة برتقال. نجا الراديو القديم. ونجا «السيد النائب» صدام حسين أيضاً. الأقدار التي وجّهت بيدٍ خفية قذيفة B-7 كردية (معدلة) بدقةٍ لا متناهية إلى قلب الغرفة المنشودة دفعت باليد الأخرى «السيد النائب» صدام حسين إلى الرواق.

حين دوى الانفجار المخيف كان «السيد النائب» قاعداً على كرسي المرحاض في طرف الممر يفرغ مثانته من القهوة المرّة السوداء بالحليب الطازج البارد. الحارس الواقف قرب باب الغرفة المصفح أحسّ بالنار تتوهج على خدّه ثم سقط على السجاد الأصفهاني السميك. لم يُصب بأذى. سال الباب المصفح أمام عينيه. لكنه لم يمت. الباب الذي وُضع هنا لحماية «السيد النائب» من أي انقلاب لم يقدم حمايةً إلاّ لحارسه. تلك الليلة أيقن صدام حسين، مرة أخرى، أن الأقدار إلى جانبه. بعد أن تمكنت فرق الهندسة في اللواء الثالث من إزالة الباب السائل واختراق الجدار بآلة ثاقبة استطاع «السيد النائب» أن يرى حجم الدمار الذي لحق بصومعته. ناظراً إلى الغرفة التي سالت وتجعدت فتداخل أثاثها بحيطانها وبلاطها، رأى صدام حسين الحياة كاملة. السيف اليمني بقي ثابتاً على الحائط. فرق الهندسة استخدمت أزاميل ومطارق لنزعه من موضعه. ذابت قبضة السيف والتحمت بحدّه.

في المكتب الرئاسي في الجانب الآخر من القصر، قال «السيد النائب» بعد عشرين دقيقة:

ـ علينا أن نعقد اتفاقاً مع الشاه.

الرئيس أحمد حسن البكر أجاب بوجهٍ أصفر:

ـ يضربون القصر!

أجرى «السيد النائب» اتصالين هاتفيين من المكتب الرئاسي: على الأجهزة الأمنية منع تسرب خبر عملية الاغتيال إلى وسائل الإعلام داخل العراق وخارج العراق. هذه المحاولة لم تجرِ يوماً، قال «السيد النائب»، لم تحدث أبداً. ثم وضع سماعة الهاتف ونظر إلى الرئيس البكر. كان الرئيس يجفف العرق عن جبهته بمنديلٍ أسمر.

قال «السيد النائب» صدام حسين:

ـ البارزاني ينتظر الأخبار الآن في مغارته.

الرئيس أحمد البكر لم يتفوه بكلمة واحدة. كان مصعوقاً. الانفجار، منظر الغرفة السائلة، هذا الحديد الذي لا يذوب في وجه نائبه، الأرق المتواصل، دقات القلب غير المنتظمة بسبب اضطراب في كهرباء الجسم، الخوف، الجرائم التي تجتاح بغداد، البشمركة، شاه إيران، عملاء المخابرات الأميركية، الحياة... كل هذا يحطم المعنويات، يدمر جهازه العصبي، يسحق دماغه سحقاً. صَمَتَ الرئيس البكر. كأن لسانه ذاب في فمه والتحم بعظم الحنكين من الداخل.

لم تنشر صحيفة عراقية واحدة أي خبر عن انفجار في القصر الجمهوري لا ذلك الصباح ولا في الصباحات التالية. بعد عشرة أيام بالضبط نشرت «الغارديان» البريطانية خبراً في إحدى صفحاتها الداخلية: «انفجار قارورة غاز في القصر الجمهوري في بغداد». كان ذلك كل شيء. لم يظهر الخبر في وكالات الأنباء العالمية. القنصل العراقي في مدريد لم يعرف شيئاً عن العملية. كان ما زال عالقاً في سهوب سيبيريا يقرأ حياة جيفاغو ويفكر في حياته. أحبَّ القصائد القصيرة التي تصف الطبيعة وزهور الجليد على الزجاج وبيوت العنكبوت المتجلدة على شجر اليوكالبتوس. أراد أن يكتب رسالة إلى

أخيه عبد الحسن. كتب ثلاث رسائل ثم مزق الأوراق ورقة تلو الأخرى. كتب عن المارغريتا والثالوث وكعب الثلج. كتب عن شفّة الثور والشورنجان واللخنيس. كتب عن البنفسج والقرنفل وتاج الحقول. وصف حانات وأنهاراً وساحات. كتب عن حدائق وتماثيل وشوارع. ثم مزق كل شيء. بعد أسابيع ابتاع دفتراً مسطراً وأقلاماً من الحبر الجاف الأزرق والأسود، من مكتبة «خورخيه لويس فرناندت» في شارع رابليه، ثم جلس في مقهى على الرصيف، يتفرج على ناس مدريد وسيارات مدريد وبنايات مدريد، ويفكر في الزمن. أراد أن يكتب شيئاً في الدفتر. لم يستطع. بعد فترة سافر في إجازة خمسة أيام إلى توليدو (طليطلة). كان فارغ الجسم، فارغ الروح. جلس في مقهى يطلّ على نهر تاجة.

رأى وجهاً أنثوياً حزيناً تحت قبعة قطن بيضاء. نظر إلى الأشجار تتمايل فوق صفحة النهر وفكر أنه يحيا كالموتى، كذلك الرجل المقيم تحت الأرض في الرواية القديمة. حين انتبه أن المرأة تنظر إليه وتبتسم انتابه إحساسٌ غريبٌ: أحسّ أنه ما زال على قيد الحياة.

سليمان عبد الرزاق لم يكن يعلم عندئذٍ أن المرأة الأسبانية التي تنظر إليه تُدعى غالا، وأنها سوف تصبح زوجته وتقيم إلى جانبه سنوات طويلة، تشاركه الهموم والطعام والفراش ولحظات الفرح والخيبة، ثم يحدث ما هو ممكن الحدوث دائماً في هذه الحياة، فيجد نفسه وحيداً مرة أخرى، ويقفل عائداً إلى بيت الذكريات الحزين الذي لا يطرد أحداً.

الصيف الحارّ من ذلك العام كان شديد الرطوبة في نيويورك. السفير العراقي عبد الكريم الشيخلي سمع في أروقة «الأمم المتحدة» كلاماً أثار استغرابه فاتصل ببغداد مستفسراً. جاء الجواب في السماعة، ثم في الفاكس، حاسماً:

ـ لم يحدث أي انفجار في القصر الجمهوري منذ الثورة على عبد الكريم قاسم.

في الجانب الآخر من الكوكب، في بيتٍ صغير في زقاقٍ مسقوف يتفرع عن «سوق الحميدية» الدمشقي، جلس رجلٌ نحيل في العقد الرابع من العمر، أمام مصحفٍ مفتوح على أريكة مطعمة صدفاً، يقرأ «سورة النحل»: ﴿ . . . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين. والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس إن ربّكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (. . .) هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لأية لقوم يتفكّرون. وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم (. . .) وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفُلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. . .﴾.

بعد وقتٍ نهض الرجل عن الحصير. أعدّ وابور الكاز بحقن المنفاخ عشر حقنات ثم أشعله بعود كبريت. وضع ركوة ماء على اللهب الأزرق. نظر إلى الظلام خارج النافذة المدوّرة. لم يتذكر «القاووش ٩ـ ب». ولم يتذكر تلك الزنزانة الأخرى في «سجن بغداد المركزي». طحن حسن عادل الأميري بنّاً بآلة النحاس اليدوية وصنع قهوة مع حبّة من الهال الأخضر ونصف ملعقة سكر. حين قُرع الباب كان يستعد للنهوض. استقبل الأخوان بالعناق ثم أخرج فناجين القهوة البيضاء المنقطة بزهور زرقاء دقيقة من الصندوق الدمشقي. جلسوا في دائرة يتكلمون. في نور المصباح الكهربائي بدوا وجهاً واحداً يتكرر إلى

ما لا نهاية: العظام الظاهرة، اللحية السوداء المرتبة، العباءات النظيفة، والحركات الهادئة. الشيخ حسن الأميري الآتي من القامشلي قبل شهور تذكر وهو قاعد هكذا بين الأخوان المسلمين زمناً بعيداً لن يعود. حمد ربّه، أخرج مسبحة عنبرٍ من ثوبه، ثم رسم ابتسامة راضية على وجهه النحيل.

«السيد النائب» ضاعف الحراسة على الفيلا في الكرخ بعد محاولة الاغتيال التي تعرض لها في قلب القصر الجمهوري. الرفيق سعدون شاكر طرح في جلسة مغلقة بين الاثنين احتمالاً مخيفاً: تورُط الجيش في العملية. «السيد النائب» ظلّ صامتاً. بعد أيام حاول الملك الأردني حسين المسافر في عطلة صيفية ترتيب لقاء بين صدام حسين وشاه إيران في باريس. لكن الشاه ترك باريس عائداً إلى طهران قبل حدوث ذلك.

أثناء تلك الفترة تحدثت التقارير عن حشد للقوى المسلحة في سورية ومصر. في ذلك الصيف البعيد، قبل أن يحلّ خريف ١٩٧٣ وتقع حرب الغفران، وصلت إلى «السيد النائب» تقارير غريبة من أسطنبول. هذا رجل نسيه تماماً يعود إلى متاهة المخيلة المظلمة: لكنه يعود بمشاريع غامضة ومثيرة للضحك. التقرير الأول كشف أن الرئيس العراقي السابق عبد الرحمن عارف فتح مطعماً فاخراً في أسطنبول، يطلّ على البوسفور، ويحمل اسم Beyaz Kale، وهي عبارة تركية معناها: «القلعة البيضاء». التقارير المتوالية من تركيا أعادت تركيب حياة عبد الرحمن عارف شبه كاملة منذ غادر بغداد إلى المنفى الأوروبي قبل خمس سنوات. إقامة الرئيس العراقي الثالث لم تدم طويلاً في لندن. في تقريرٍ قديم اصفرت أوراقه التي تحمل شعار «فندق الماندارين» ظهر عبد الرحمن عارف يترنح مع كوب ويسكي في بار الفندق في الطبقة السفلية: بار يغلب عليه اللون الأصفر، صُمِّم على شكل غواصة بكنبات نصف دائرية وطاولات منخفضة وجدران متموجة

الطلاء، وحمل اسم أغنية من أغنيات فرقة «البيتلز» الجديدة Yellow Submarine. في تقريرٍ آخر ظهر عبد الرحمن عارف في مطار هيترو، وإلى جانبه مرافق يجرّ حقائبه على كرّاجة. البحث أظهر أن المرافق المذكور تركماني غادر كركوك في ١٩٥٩ وأقام منذ ذلك الحين بين تركيا وبريطانيا. يُدعى غالب باموق، ومتزوج من آشورية عراقية كل ما نعرفه عنها أنها من إحدى تلك المزارع الفقيرة القريبة من مثلث الحدود الإيرانية ـ التركية ـ العراقية. طوال سبعة شهور أقام الرئيس العراقي الثالث في بيتٍ عادي مجاورٍ لبيت التركماني غالب باموق في حيّ Perama قريباً من الضفة اليسرى للقرن الذهبي. كل عصر كان الرئيس المخلوع المنفي يُشاهد على السطح، حيث أنشأ بمساعدة التركماني وأبناء التركماني، خيمة من القصب. من فوق كان عارف يستطيع رؤية ناقلات النفط الضخمة تعبر Golden Gate بينما يشرب عرقاً مخفّفاً بالماء ويزدرد مازة مشكلة من الحمص المسلوق بالطريقة العراقية، ومن اللبنة التركية الحارة المغمّسة بزيت الزيتون. التركماني كان يشاركه الشراب أحياناً. زوجة التركماني، ثريا الآشورية، تذهب إلى الكنيسة اليونانية المجاورة كل يوم أحد مع بناتها الخمس. إحداهن بلغت التاسعة عشرة، وفي بعض الأحيان تحمل طنجرة شيخ المحشي، أو وعاء ملوخية بلحم الضأن التركي، وتصعد إلى السطح حيث يجلس أبوها مع الرئيس المخلوع.

في فترة لاحقة انتقل الرئيس السابق إلى بيتٍ آخر، يطلّ على البوسفور أيضاً، لكنه أفخم من البيت الأول. التركماني غالب باموق أصيب بالحمى في الخريف وكانت موجة كوليرا تجتاح العاصمة التركية وضواحيها. ثم تبيّن أن التركماني مصاب بالرشح وليس بالكوليرا، لكن في فترة غيابه في السرير لم يُترك الرئيس عارف وحيداً. أبناء التركماني الثلاثة كانوا يأتون لزيارته كل أصيل. وأحياناً يخرجون معاً (الأربعة) من بيت الرئيس العراقي المخلوع إلى المقاهي على ضفة المضيق.

يأكلون «تاطلي» (وهذا صنف من الحلوى معروف هنا)، جالسين على كراسي الخشب في نور «جراغان» (وهي شموع ثخينة)، يتفرجون على القوارب تزدحم في مياه البوسفور الداكنة.

أحد أبناء الرئيس المخلوع، الدكتور سليم عارف المتزوج من فرنسية والمقيم في مدينة ليون، جاء في الشتاء لزيارة أبيه. الاثنان شوهدا يتجولان في محلة «تكفور سرايي»، بين بسطات الخزف، قرب المصنع الجديد. في مرة أخرى شوهدا عند صهاريج الماء الخمسة الضخمة التي تمدّ اسطنبول بمياه الشفّة. في مرة ثالثة زارا مكتبة السلطان الخاصة القديمة «أندرون همايون كتبخانة سي». الدكتور سليم لا يشبه أباه في الملامح ويبدو فرنسياً أكثر منه عراقياً. لا يشرب أكثر من نصف كوب عرق، وحتى هذا الكوب الناقص يكون في ثلثيه مياهاً باردة وثلجاً. طوال أيام مشيا في الأسواق، شربا القهوة على ضفاف البوسفور، وزارا أهم المعالم السياحية. الدكتور حمل خريطة في يد وآلة تصوير فوتوغرافية في اليد الأخرى. أحياناً علّقها من عنقه مثل الجُرس. صوّر الجوامع والكنائس وابتاع تذكارات كثيرة من كنيسة القديس جاورجيوس وملأ قنينة ماء من نبعها المسمى «آياسما» (ومعناها في هذه البلاد: النبع المقدس). يبدو أن الدكتور صار من أبناء العقيدة المسيحية أو أنه يجمع كل هذا من أجل زوجته، هذا ما لا نعرفه ولا نستطيع الجزم بشأنه، وإذا كان الجزم مطلوباً وجب مراقبته عند عودته إلى مدينة ليون حيث يعيش.

قبل أن يغادر الدكتور سليم عارف اختصاصي المجاري البولية، اسطنبول، هبّت عاصفة ثلجية عاتية حولت المدينة إلى عالم أبيض. دام البياض ساعة واحدة، ساعة الصباح الباكر، ثم تحول الأبيض إلى رمادي. الزحمة والناس والسيارات ما لبثت أن جعلت المدينة حقلاً من الوحول. في تلك الفترة كفّ الدكتور عن تصوير عمارات المدينة. ذات أصيل خرج مع أبيه عبد الرحمن عارف إلى مطعم Galata

Kulesi، حيث برج مراقبة الحرائق، وهو بناء كان سجناً قبل فتح القسطنطينية ثم هُدم ثم رُمم بحسب المكتوب في الدليل السياحي. أكلا لحمة مشوية وسلطة زعتر أخضر وحمصاً بطحينة وتبولة وبطاطا مقلية. الرئيس السابق شرب عرقاً. ابنه شرب كأساً واحدة من النبيذ الأحمر. بعد العشاء تمشيا، في معطفين ثقيلين، وبصباطين ضخمين، باتجاه قناطر فالنس (Bozdegan Keneri) التي بقي منها ٨٠٠ متر فقط، وهي كانت تصل قبل قرون الهضبتين الثالثة والرابعة من هضاب المدينة السبع لتأتي بالماء إلى القصور والجنائن الامبراطورية.

بعد عاصفة ثلجية أخرى ظهر الجليد على ضفاف البوسفور. عَلِقت بعض الزوارق الصغيرة في الصفحة المتجمدة. الدكتور سليم عارف غادر المطار عائداً إلى باريس. الأب عانقه في صالة الرحيل وقدَّم له هدية (تشبه علبة سجائر ملفوفة في ورق هدايا) لم نتبين محتواها.

حين انتهى الشتاء وخرج التركماني معافى من مرضه الطويل (أصيب بالتهاب في أسنانه ثم نزل الإلتهاب إلى معدته وكليتيه) بدأ الرئيس المخلوع جولاته في أسواق اسطنبول من جديد. تبين بعد المطاردة والترصد أنه يفتش عن مكان مناسب كي يفتح مطعماً. استقر رأيه أخيراً على بناء أبيض فخم في الجانب الآخر من المدينة، على ساحل البوسفور، قرب ضاحية بشكطاش. المطعم الجديد الذي يعني اسمه التركي «القلعة البيضاء» يبعد عشرين متراً فقط عن قصر طولمه باغجه الشهير Dolmabahce، وهو القصر الذي حام الدكتور سليم عارف حوله نهاراً كاملاً يطقطق بآلته الكوداك مستثاراً كثورٍ صغيرٍ. مثل القصر، بُني البناء الذي يضم مطعم الرئيس عارف في نصف القرن التاسع عشر، على يد المهندس المعمار بليان بأمر السلطان عبد المجيد الأول. لم يستخدم في عمارته الحجر العادي بل الرخام الأبيض. هذا الجزء من الساحل عبارة عن سلسلة من القصور الرخام البيضاء كالثلج.

يبدو أن الرئيس عارف أراد استئجار عمارة موازية لقصر يلدز المشهور في البدء. لكن هذا لم يتم. مطعم «القلعة البيضاء» الجديد افتتح بحضور وزراء وشخصيات تركية بارزة. اشتهر بطبق السمك العراقي المسقوف، وبالمأكولات الحارّة. كل أصناف الأطعمة التركية تقدم هنا، بعد أن تُضاف إليها نسبة مرتفعة من مسحوق الفلفل الإيراني الأسود. عرف المطعم نجاحاً في الفترة الأولى. جرى توسيع صالته باللوحة الضخمة التي تمثل أسطنبول بكل مبانيها في الجانب الشرقي، وبالمرآة - التي لم يرَ تركيٌ مرآة بمساحتها من قبل - في الجانب المقابل. صُمِّمت المرآة الصينية بحيث تعكس الجدارية في الجانب الشرقي كاملة، مضافاً إليها (بكل عماراتها والأسواق والجسور والمآذن والسفن والأبراج والقصور) كل هؤلاء الجالسين في المطعم مع زوجاتهم وخليلاتهم وعائلاتهم يشربون العرق في كؤوس زجاج شفافة ويتناولون أطباقاً يتصاعد منها البخار. الرئيس العراقي الثالث المطرود المنفي المخلوع عبد الرحمن عارف اعتاد أن يظهر في «القلعة البيضاء» كل مساء بالزي المدني المألوف، ولكن مع قبعته العسكرية في بعض الأحيان. كان يضحك مع الزبائن، يبادلهم الأنخاب، ويقول إن هذه القبعة أفضل من أي مظلة. لا يفرط في تناول الطعام. يجلس في زاويته الأثيرة، يشرب العرق أو الويسكي أو النبيذ أو الشمبانيا، وحين يشرف الليل على آخره يقسم رغيفاً ساخناً إلى نصفين، ويأكل في لقمتين هائلتين صحن بابا غنوج وشيش لحمة مشوية أو كباباً بالسماق، ثم يمسح فمه بطرف غطاء الطاولة، ويقول:

- شبعنا.

يشاركه الطعام أحياناً مرافقه التركماني. اثنان من أبناء التركماني يعملان في المطعم. أحدهما مسؤول عن المشتريات. والآخر يشرف على الصالة. ما إن يقول الرئيس السابق «شبعنا» حتى يشعل التركماني غالب باموق سيجارتين ويقدم واحدة لصديقه. يجلسان هكذا حتى

الفجر، والروّاد ينهضون ويغادرون. تحيات متبادلة. هتافات مخمورة. وجو عائلي حميم يسود المكان. اعتاد الرئيس المخلوع في هذه الساعات المتأخرة مراقبة روّاد المطعم في المرآة الضخمة. يتفرج عليهم يأكلون ويضحكون ويشربون حول طاولات دائرية، وبين كنائس آيا إيرينا وآيا صوفيا والقديسة مريم والثالوث الأقدس، ثم ينتقل بنظراته شبراً ويرى آخرين يبلعون كؤوس العرق ويزدردون قطع البندورة وشرائح لحم باردة، تحت مآذن المنلا زريق والفاتح وبيازيد وأيوب وفنار عيسى وخوجه مصطفى باشا والسليمانية والسلطات سليم ورستم باشا. اكتشف أن روّاد المطعم الدائمين يجلسون دائماً إلى طاولات معينة بالذات. وزير الاقتصاد التركي مثلاً يشار قلج لا يجلس إلاّ في تلك الزاوية المطلّة على باب المطبخ تحت قبب جامع السلطان أحمد في ظلال الشجر الكثير. رجل العصابات خير الدين أنور يختار دائماً المائدة في مركز المطعم، كأنه قاعد على ظهر السفينة الشراعية التي تعبر مياه البوسفور منذ زمنٍ بعيد من دون أن تصل إلى وجهتها أبداً. في بعض الأحيان يقترب رجل العصابات من مائدته ويبادله الحديث. في أحيانٍ أخرى يبادر الرئيس السابق إلى ذلك. يبدو أن الرئيس يبادل رجل العصابات الودّ والاحترام. هذا الرجل مشهور في أسطنبول باسم خير الدين بربروس قائد القراصنة الشهير الذي عاش في القرن الخامس عشر أو السادس عشر وهو قرصان يكرمه الأتراك بدليل أنهم أقاموا له نصباً في ساحة بشكطاش منذ عام ١٩٤٤. أحياناً يسكر القرصان وبدل أن يغادر المكان في سيارته البويك البيضاء ـ التي لا يوجد مثلها في أسطنبول إلاّ سيارة واحدة أخرى يقودها رئيس الوزراء التركي نفسه ـ يمشي مباشرة إلى ضفة البوسفور مردداً أشعار جلال الدين الرومي ومصمماً على قطع المضيق إلى الجانب الآخر حيث يرى قصره بكل تلك الرايات الملونة المرفوعة على السطح العالي. يطارده رجاله وبعض الندل من المطعم ويمسكون به قبل أن ينزل في الماء. في

مرّات أخرى يسيطر عليه الوجوم ويبقى غارقاً في كرسيه (طلب كرسياً ضخماً من الجلد بدل الكرسي الخشب) كأنه صمَّم على النوم هنا، في المطعم الذي صار فارغاً تقريباً. في تلك اللحظات يُشَاهد الرئيس عارف وهو يحدق إليه في المرآة. القرصان يبدو غارقاً في كرسيه الجلد يفكّر في أشياء لا يعرفها البشر العاديون. ذات فجر نهض القرصان مترنحاً ومشى ووقف أمام الجدارية محدقاً إلى تفاصيلها. ثم استدار وذهب إلى المرآة وتابع التحديق. بعد رحلات عدة جيئة وذهاباً في عرض المطعم، ومقارنة متأنية بين الجدارية وانعكاسها في المرآة، توقف لحظة أمام مائدة الرئيس عارف (صاحب المطعم) والتركماني (مرافق صاحب المطعم) وابن التركماني (مسؤول الصالة) وقال إنه لا يحب هذا المكان. غادر ولم يرجع أبداً. بعد أسابيع طاردته الشرطة في شوارع أسطنبول وحاصرته على الجسر بين الضفتين. القرصان لم يكن وحيداً في سيارته الفارهة. التحم مع عشيقته في قبلة خالدة ثم قفز بالسيارة الأميركية الفخمة عن الجسر وسقط إلى قعر البوسفور وقعر الموت وقعر الفناء.

الرئيس عارف المخلوع بدا بعد ذلك حزيناً بصورة أشد من السابق. غرقَ القرصان (رجل العصابات) في أواخر الصيف. في مطلع الخريف، بعد المطرة الأولى، أدى حادث تسمم فظيع إلى إغلاق «القلعة البيضاء». بعد حفلة دامت طوال الليل انتقل جميع الروّاد إلى المستشفى المجاور. لم يمت أحد. لكن وزارة الصحة اجتاحت المطعم ثم أقفلته بالشمع الأحمر. تبيّن أن بعض السمك المقدم على موائد المحتفلين تلك الليل كان فاسداً.

اعتكف الرئيس العراقي الثالث بعد ذلك وكفّ عن مغادرة البيت عند المساء. في الشتاء بدأ جولاته في متاهة أسطنبول من جديد. مع الربيع وذوبان الثلوج سافر مع صاحبه التركماني إلى أنقرة. بعد رجوعه تزوج امرأة تركية. خلال الصيف اعتاد الجلوس على شرفة الخشب

المطلّة على السفن والمقاهي والضفة المقابلة. يشرب مع زوجته الشابة ويضحكان. الرئيس المخلوع بدا أصغر سناً خلال ذلك الصيف. لكن الصلع كان يدبّ في رأسه. أواخر الصيف ظهرت في أنحاء العاصمة سلسلة حانات تتشابه كأنها حانة واحدة. سُميت «خمّارات العارف». كانت تقدم عرقاً لاسع المذاق، والويسكي التركي الرخيص، ومزّة مكونة من التشيبس والحمص والمسلوق. الرئيس عارف كان يزور خماراته في مرّات نادرة. كلّف التركماني وأولاده بإدارتها. في أول الشتاء ظهرت امرأته التركية في نافذة البيت بدثار صوف على كتفيها وبطن منتفخة. كانت حاملاً.

قبل أن تضع حرم الرئيس العراقي السابق ابناً ذكراً احترقت «خمّارات العارف» خمارة تلو الأخرى. دار التركماني على المخافر يقدم الشكاوى. الشرطة أبلغت غالب باموق أنها تفعل ما في وسعها. المدّ الإسلامي أدى إلى دمار تجارة عارف الجديدة. بقيت خمارة أخيرة. ذات ليلة هاجمها رجل طويل اللحية يركب دراجة. ألقى من النافذة قنينة نفط انفجرت على المنضدة الطويلة وأحرقت أصابع الابن الثاني لغالب باموق. الأب قال إن الولد استحق النار. قال ذلك لزوجته (أم الولد) ثريا الآشورية في الفراش. كان غاضباً منه منذ ذلك الحادث في «القلعة البيضاء». الولد كان مسؤولاً عن المشتريات، ولولا إهماله (هل كان إهمالاً فقط) لما تسمم كل هؤلاء بالسمك، ولما أُقفِل المطعم بالشمع الأحمر.

في التقرير الأخير الذي وصل إلى بغداد في صيف ١٩٧٣ ظهر أن الرئيس العراقي السابق صار أباً مرة أخرى. عبد الرحمن عارف يعيش الآن مع عائلته الصغيرة الجديدة في بيتٍ صغيرٍ قريبٍ من تربة السلطان سليمان. يزرع مع زوجته بصلات الخزامى (اللاله أو Tulipe) في بستان مربع وراء البيت ويقضي الأصائل جالساً أمام زنابق حمراء يشرب شرابه ويدخن أرجيلة تركية. يبيع الزهور ويبيع الأبصال. يده خضراء

ويد زوجته التركية خضراء. البصل الذي يخرج من بستانه بات معروفاً في أسطنبول. يسمّونه بصل «محبوب». يذهب إلى المكتبات القديمة في «حي مرمرة»، ويشتري كتباً تعجّ بالرسوم. كلّها كتب عن الزراعة. يبدو أن أسطنبول كانت شهيرة في القرون الماضية بزراعة هذا الصنف من الزنبق. وأن هذا البصل كان يُباع بوزنه ذهباً. العجائز يروون عن آبائهم أن دُور المدينة كانت تلمع باللون الأحمر طوال الصيف. في النوافذ والأبواب وعلى السطوح انتشرت أحواض التوليب. كلّها تصدّر بالسفن إلى أوروبا خصوصاً إلى هولندا. في التركية يسمّون هذه البيوت «لاله دوري» أي «دُور الخزامى». بيت الرئيس عارف بات مقصداً لنزهات العجائز الأتراك. يأتون إلى هنا بحجّة زيارة تربة السلطان سليمان لكنهم لا يبقون في التربة إلاّ دقائق قليلة ثم يقطعون الساحة والطريق المبلطة بالصدف ويتوقفون أمام السور الخشب بكل الزنبق الأحمر الظاهر عبر الفتحات وعلى السطح وفي الجانب الشرقي حيث الصهريج الجديد. زيارات التركماني غالب باموق إلى دار عارف باتت قليلة. يبدو أن الرجل استاء من صديقه بعد زواجه بتلك التركية. يبدو أن التركماني أراد مصاهرة الرئيس. هذه كلّها تكهنات. الأمر يحتاج إلى مزيد من الرصد. ولا نعرف هل سينجح هذا المشروع الزراعي الجديد أم سيفشل كمشاريع الرئيس المخلوع السابقة.

«السيد النائب» خرج من قراءة كل التقارير الطويلة محمر العينين. كان الوقت يجاوز منتصف الليل. دخل إلى المطبخ وأعدّ كوبه المعتاد. القهوة المرّة السوداء بالحليب الطازج البارد. بعد البلعة الأولى الفاترة بصق ما في فمه. نظر إلى السائل في المجلى وألقى شتيمة في صمت الفيلا النائمة. ترك الكوب في حوض المجلى ومشى إلى النافذة. رأى الحراس ساهرين في الحديقة وفي المدخل، أمام البوابة الحديد الضخمة.

«السيد النائب» صدام حسين اكتشف في تلك الليلة العادية من

صيف ١٩٧٣ أنه يشرب منذ سنوات لا تُحصى شراباً تافه المذاق. كل صباح، كل ظهيرة، كل مساء، كل منتصف ليل، كل فجر، طوال أيام وأسابيع وشهور وسنوات لا تُعد. . . فنجان قهوة مرّة يُسقطه في كوب من الحليب البارد!

فتح «السيد النائب» البراد. أخرج قارورة الحليب. أفرغها في طنجرة. وضع الطنجرة على النار. حين استيقظت زوجته ساجدة خير اللّه طلفاح عند الفجر كي تُرضع طفلتهما الثانية رنا (سمّى الطفلة الأولى رغد) وجدته قاعداً في المطبخ يغمس الكعك في حليبٍ ساخن، مقطب الحاجبين.

سألته هل يريدها أن تعدّ له ركوة قهوة. لم تنتبه إلى الكوب المتروك في حوض المجلى، ولم ترَ ركوة القهوة الطافحة على البوتاغاز. استدار «السيد النائب» صدام حسين ورمقها بنظرة حادة. بعد ذلك حمل الطاسة والكعكة وغادر المطبخ.

ساجدة خير اللّه طلفاح سمعت صوت الراديو والنشيد الوطني وفكرت أن يوماً جديداً يبدأ الآن. عمّا قليل يطلع الصباح على بغداد، ترتفع أصوات بائعي الحليب والخبز والفول، وتجري أنهار الشوارع والجسور والساحات بالبشر وعربات الجنود والسيارات. وضعت ساجدة خير اللّه طلفاح يدها على المجلى، نظرت إلى السائل القذر في الحوض الرخام، وتذكرت ذلك العصر البعيد في تكريت البعيدة حين جلست مع أخيها عدنان وذلك الفتى المريض يأكلون الرزّ بالحليب ويتفرجون على الأطلال.

كتمندو (نيبال) ١٩٩٢ ـ ليما (بيرو) ٢٠٠٢

قالوا في هذه الرواية

• تختط خطّاً غير مسبوق في الرواية العربية حيث يتجرّأ كاتب وبدوافع إبداعية على الكتابة عن شخصيات إشكالية. . . وتنحاز إلى بناء الرواية وإلى القارئ حيث تقدم له متعة ملاحقة أحداث تهمّه، قريبة منه، ولكنها تسرقه منها إلى عالم الرواية الفاتن والمغوي.

(محمد الغامدي، الحياة)

• تمزج التاريخ بالسيرة الملحمية.

(د. صلاح فضل، الأهرام المصرية)

• تؤسّس أدباً روائياً لا عهد لنا به: أدب الدكتاتور العربي.

(عبده وازن، الحياة)

• هذه الرواية ينبغي أن تنشر في طبعات شعبية ميسّرة على امتداد العواصم العربية لتكون بين أيدي ملايين العرب وبالأخص الجيل الجديد. (د. سليمان العسكري، العربي)

• مكتوبة بجهد وهمّ وولع بالحقيقة وبفن قادر. نسينا أن نذكر أنها واحدة من المرّات الأولى التي نتجرّأ فيها على التاريخ في رواياتنا.

(عباس بيضون، السفير اللبنانية)

• رواية تمنح العقل متعة تذوّق ما فيها من إبداع، غنية بالوصف والصناعة الفنية الراقية تروي الأحداث بأسلوب مشوق ورفيع.

(بدرية البشر، الرياض السعودية)

• قدرة أدبية مميّزة. (جورج جحا، رويترز).

• كتبها ضحية منفي منذ ثلاثين عاماً ويتناول فيها سيرة جلاده. . . إنها سيرة وسيرة جميلة عن العالم الرهيب لهذا الرجل. . . وصعوده الغريب والسريع. . . (فاضل السلطاني، الشرق الأوسط)